أمين الريحاني

نجد الحديث وملحقاته

وسيرة

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود

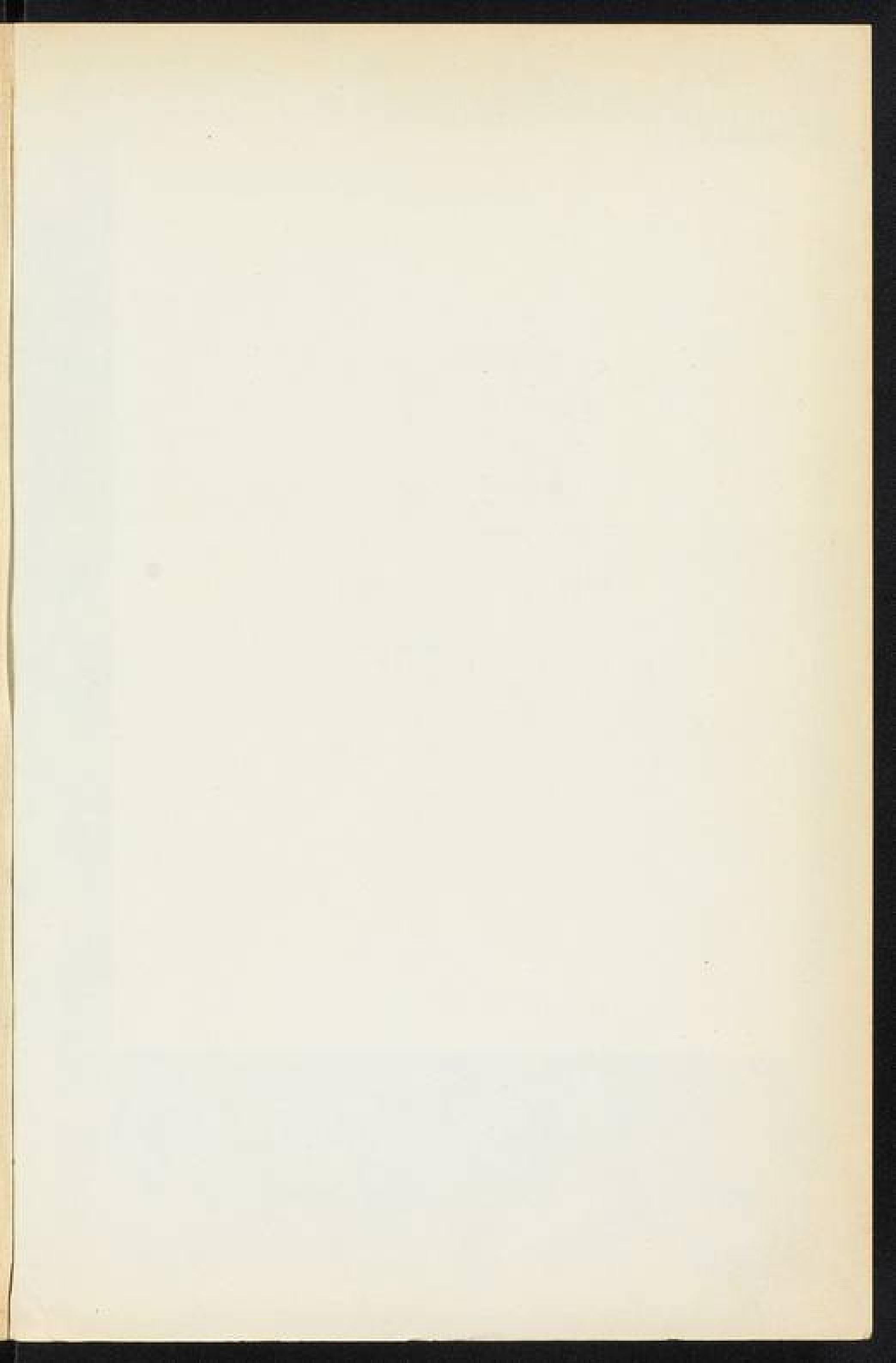
ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما

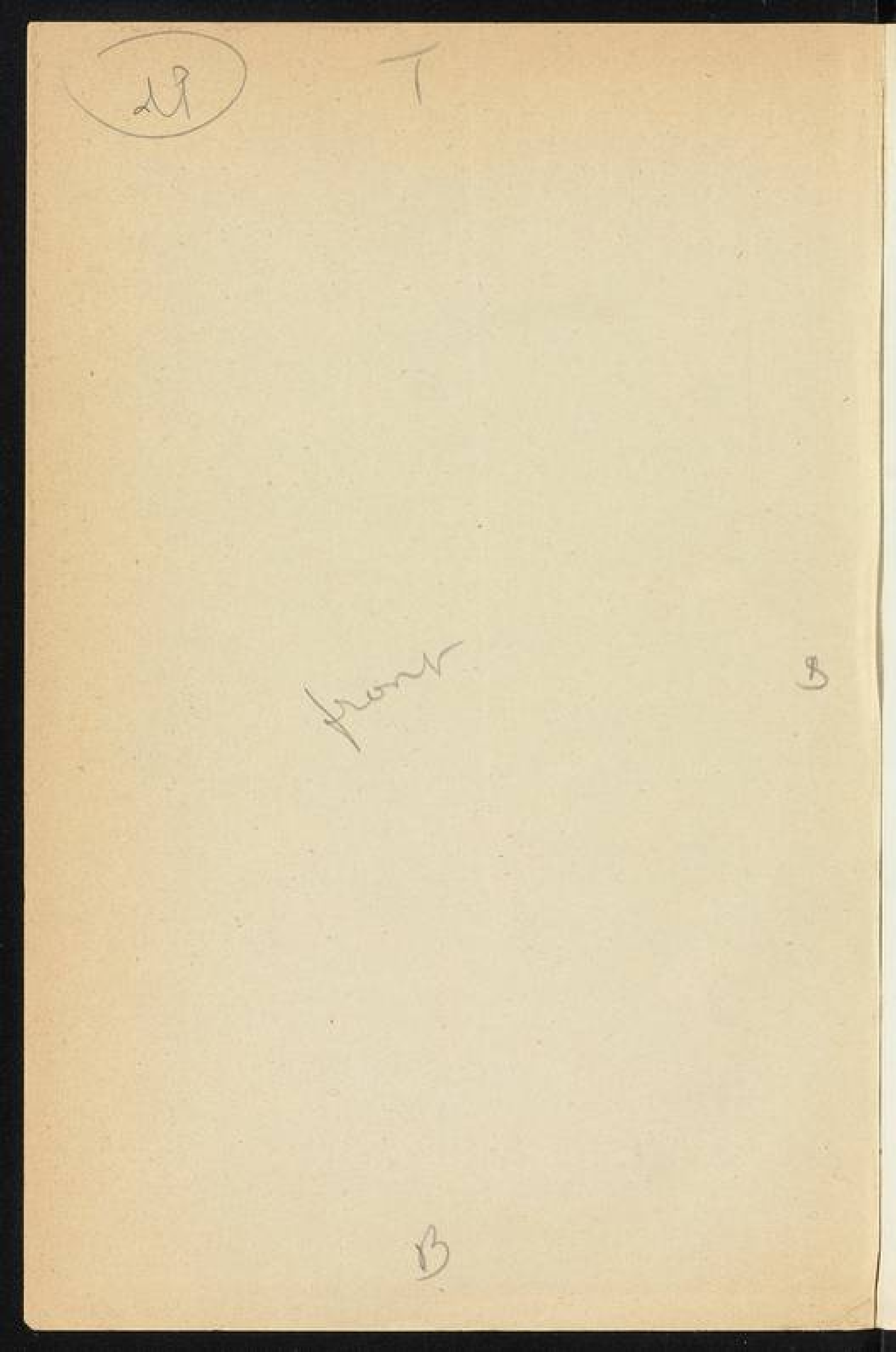
الطبعة الثانية

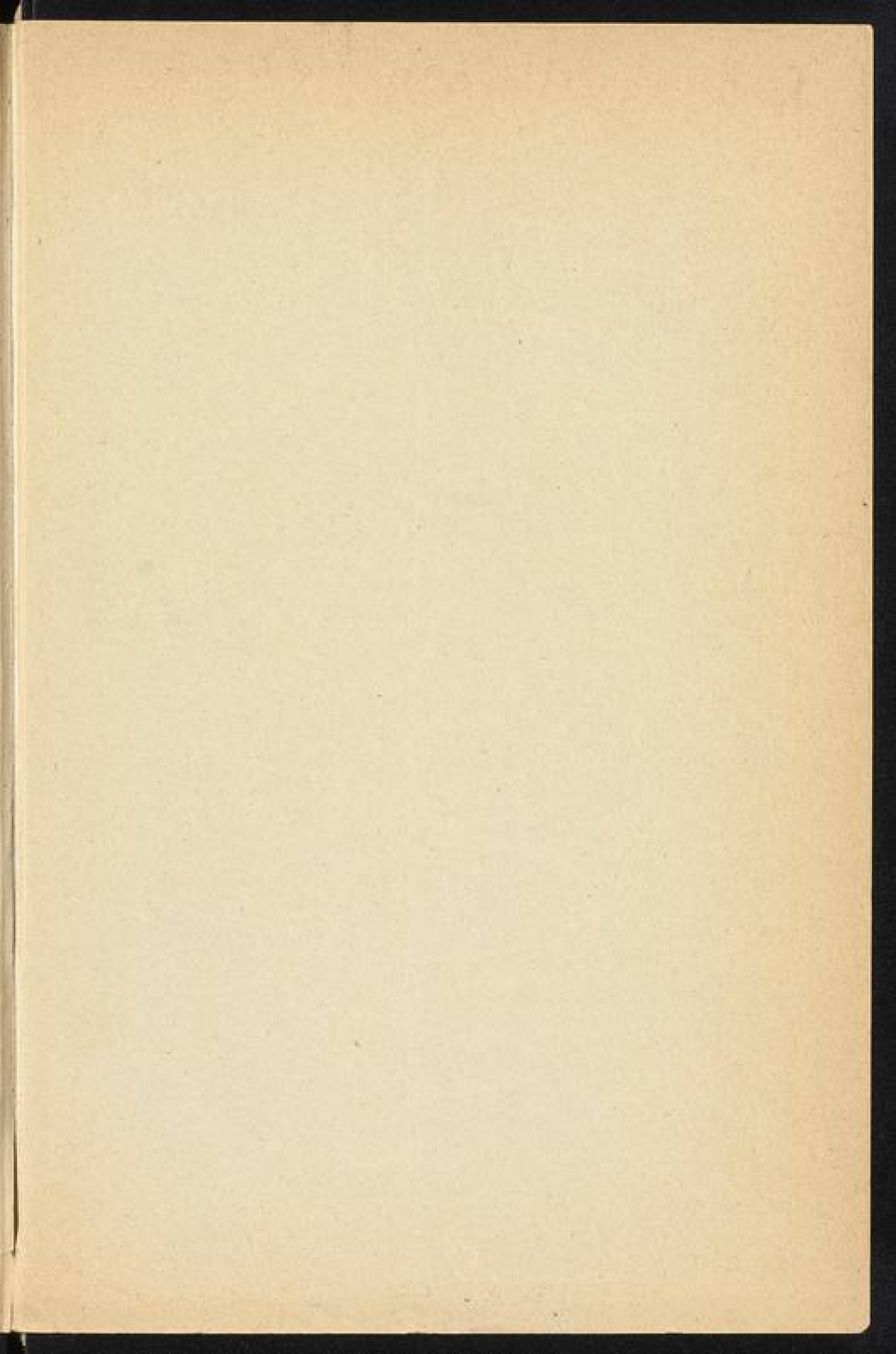
دار ريحاني للطباعة والنشر - بيروت

DATE DUE









أمين الريحاني

تاريخ نجد الحديث وملحقاته

(مصور)

وهو يشتمل على نبذات ثلاث في

نواحي نجد

ومحمد بن عبد الوهاب والوهابية

وآل سعود منذ نشأتهم الى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد

وسيرة

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود

ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما

اشرف على تصحيحه وطبعه البرت الريحاني شقيق المؤلف

عنيت بنشره وطبعه دار ريحاني للطباعة والنشر – بيروت

الطبعة الاولى ١٩٢٧
الطبعة الثانية ١٩٥٤

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود

خرج من الكويت غازياً في شتاء ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م)

وبويع في السنة التالية في الرياض على ان يكون امام الوهابية وامير نجد

وفي صيف ١٣٣٩ هـ (١٩٢١م) عقد مؤتمر في الرياض، حضره علماء نجد ورؤساء القبائل ، فنودي بالامير عبد العزيز سلطاناً على نجد وملحقاته

وفي ٢٥ جمادي الثانية ١٣٤٤ هـ (١٥ يناير ١٩٢٦م) بويع في مكة ملكاً على الحجاز

وفي ٢٥ رجب ١٣٤٥ هـ (١٩ يناير ١٩٢٧ م) نادى به اهل نجد ، في اجتماع عقد في الرياض ، ملكاً على نجد وملحقاته

تقدمة الكتاب

صاحب الجلالة الملك عبد العزيز المعظم

يا طويل العمر

منذ عهد الخليفة عمر حتى بداءة عهدكم السعودي لم يسعد العرب بمن يجمع شملهم ، ويوحد كلمتهم ، ويعزز شؤونهم ، فيجعلها تحت السيادة التي فيها الخير الاكبر للجميع اي السيادة العربية الواحدة .

كان في بني امية معاوية ، وفي بني العباس المأمون ، وفي الايوبيين صلاح الدين. ثلاثة من عظام العرب، بل من عظام الرجال في التاريخ العام. ولكنهم وان وصلوا الى ذرى المجد ورفعوا اعلام العرب في اقاصي البلدان ، فلم يتمكنوا من بسط سيادتهم على شبه الجزيرة كلها . ولا كان يهمهم العنصر الاكبر فيها ، اي البدو ، الا كحطب للحروب .

ما استطاع الامويون ان يوفقوا حتى بين القيسية واليمانية في الشام . ولا استطاع العباسيون ان يبسطوا نفوذهم حتى على عشائر الاحساء . وما فكر صلاح الدين ، على ما يظهر ، في تحسين حال البدو ونزع العداوات المتأصلة بينهم .

ولبثت الالف والثلاثمئة سنة وهؤلاء العرب لا يزالون. كما كانوا .

ما غيّر الزمان شيئاً في احوالهم المدنية او بالحري البدوية، ولا عمل فيهم عامل من عوامل التطور الاجتماعي .

الف وثلاثمئة سنة ! ثم كُتب لهم بعمرٍ ثانٍ ، بُعث اليهم بعبد العزيز ابن سعود ليجمع شملهم ، ويوحد مقاصدهم ، ويعزز جانبهم ، ويؤسس ملكاً عربياً هو منهم ، وهو فيهم ، وهو لهم .

يا طويل العمر ، ان ما قمتم به من تحضير البدو ، وتأسيس الهجَر ، لمن امجد مآثركم القومية ، ومن اخير اعمالكم الاصلاحية. غير ان هنالك عملاً اخر فيه كذلك الخير الجزيل ، بل فيه للعرب الخير الاكبر .

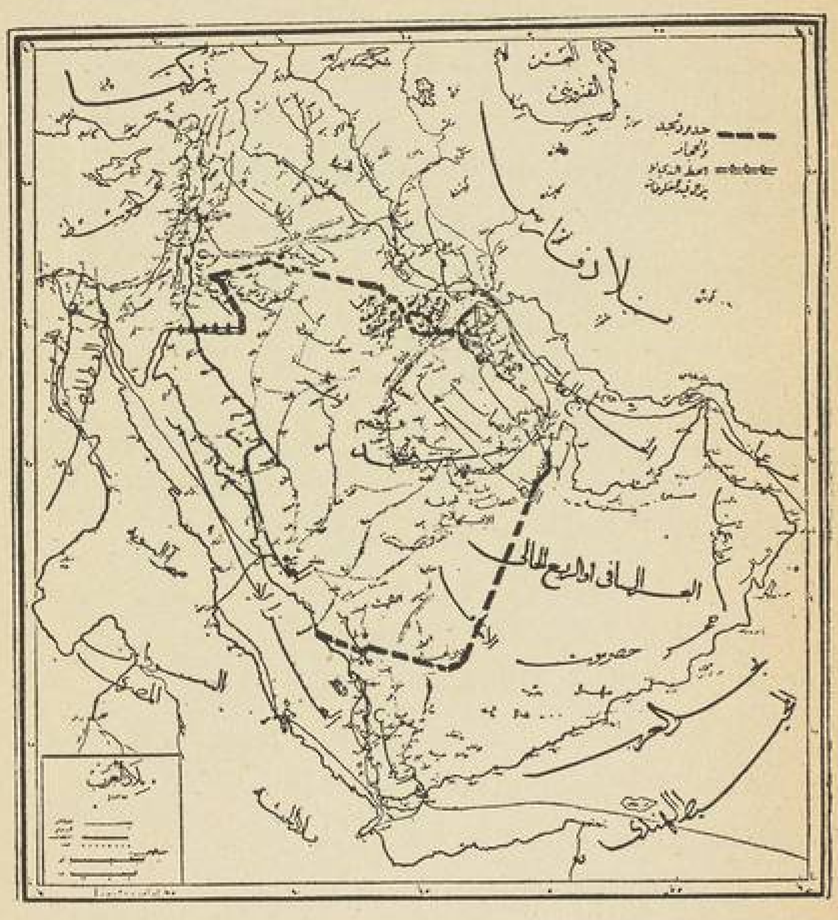
كانت الهجرة الاولى ، هجرة البدو ، من الشرك الى التوحيد في الدين ، ومن البادية الى الحضارة. فعسى ان تكون الهجرة الثانية من الأمية الى الالفباء ، من الجهل الى العلم ، من الظلمات العقلية الى النور .

بنيتم يا طويل العمر البيوت للبدو . هي الخطوة الاولى في تمدينهم . فعسى ان تخطوا الخطوة الثانية فتبنوا لهم كذلك المدارس . ان في المدارس تحقيق كل ما تنشدون . المدارس تكمّل عمل السيف . المدارس تمهد السبيل الى الوحدة العربية الثابتة ، الوحدة الشاملة ، الوحدة العزيزة الوثيقة العرى .

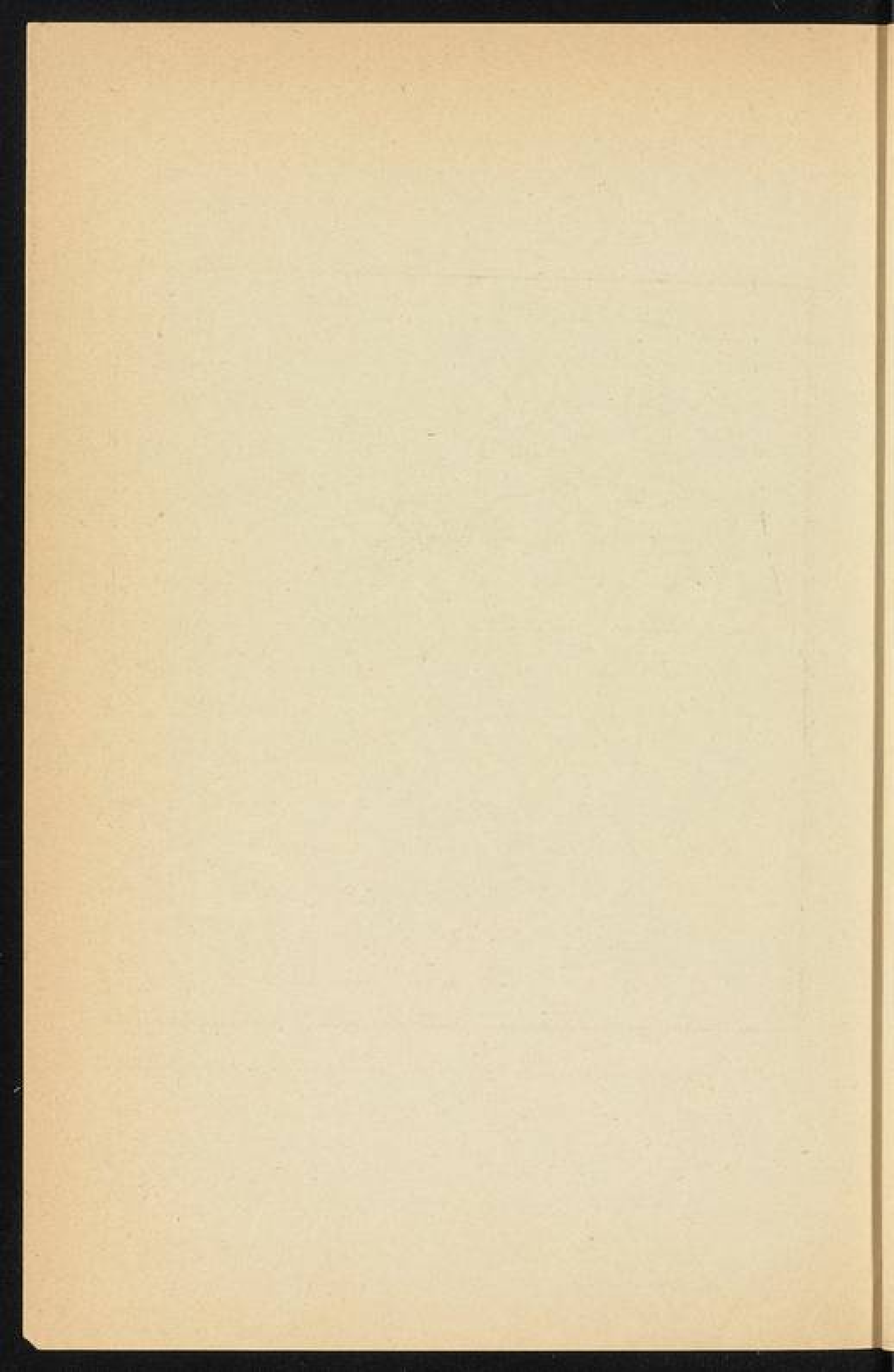
واني اسأل الله ان يطيل ايامكم لتتمموا الاصلاح الذي باشرتموه ، ولتحققوا الامال العربية الكبرى المنوطة بكم .

الصديق المخلص لجلالتكم وللعرب

في رجب ١٣٤٥هـ (يناير ١٩٢٧م) امين الريحاني



الخط البارز في هذه الخارطة هو خط الحدود لملك ابن السعود في سنة ١٩٢٦



المراجع والاسانيد

كنا في الرياض نسمر ورجال التاريخ من آل سعود، المعاصرين منهم والاقدمين. وكان الفضل في السمر التاريخي للسلطان عبد العزيز الذي ارسل اليّ كتابين طبعا في الهند لاثنين من ادباء نجد ومؤرخيه، الاول روضة الافكار لحسين بن غنام الحنبلي، والثاني علو المجد في تاريخ نجد، لعثمان بن عبدالله بن بشر.

قرأت التاريخ فصرت أحسن الحديث وعظمة السلطان عن اجداده، وطالعت في «الروضة» شيئاً كثيراً في محمد بن عبد الوهاب وله، فصرت افقه معنى النهضة الروحية التي قام بها في وادي حنيفة كبيران من ربيعة هما هذا التميمي ابن وهاب وذاك المانعي الوائلي ابن سعود.

ولكني وانا اطالع الكتابين اسفت لاسلوب مؤلفيهما القديم، ذاك الاسلوب المكلَّف المسجع الذي لا يحبب مطالعة التاريخ الى قراء هذا الزمان، ووددت لو ان احد المنشئين العصريين يلخص ابن بشر، او يعيد كتابة تاريخ نجد منذ قرن ونصف قرن ليطلع العامة والخاصة على ما جرى في وادي حنيفة من الامور الدينية والسياسية، التي كان لها التأثير الاكبر في العرب بعد البعثة النبوية.

وكنت قد تذوقت السمر السلطاني في العقير، فروى عظمته شيئاً من اخبار حروبه وابن الرشيد، وكان في الرواية فصيحاً، بليغاً، جذاباً — ومنصفاً لخصمه. فقلت في نفسي، وقد فُتح لي باب في الكتابة عجيب، حبذا القصة كلها ادونها للناس — قصة هي تاريخ كله جديد، واكثره لذيذ مفيد.

لم اجرؤ يوم كنا في العقير ان افصح للسلطان عن رغبتي هذه، ولكني قلت لرفيقي السيد هاشم الرفاعي اني احب ان اكتب سيرة السلطان

عبد العزيز، واني مباشر العمل. وفي الحقيقة كنت قد دونت في مذكراتي الوقعة التي سمعت خبرها في الليلة السابقة.

وعندما جئنا الرياض، وبدا من عظمة السلطان ذاك التعطف الخاص الجميل، فانزلني في القصر وكان يشرّف منزلي كل ليلة بعد صلاة المساء، تشجعت فاستأذنت بان اكون مؤرّخه، فاجاب، وكان الجواب مبهجاً: ما يخالف (لا بأس) فاستويت واقفاً وشكرته، ثم قلت: وخير البر عاجله. لنبدأ اذا امرتم الان.

.. ما يخالف

وكان على المنضدة الورق والحبر فجلست اكتب ما رواه تلك الليلة من اخباره الاولى في الكويت.

وبعد ذلك، اثناء المدة السعيدة التي اقمتها في الرياض، اي ستة اسابيع، كان عظمته يروي من اخباره ما يستغرق ساعة واحـــدة كل ليلة، فنتعاون انا والسيد هاشم في التدوين. وكنت استوقف عظمته في بادىء الامر مراراً لأفهم معنى لفظة من الفاظه او عبارة نجدية الاصطلاح. وكنا فوق ذلك، رغبة في التدقيق والتحقيق، نقرأ قبل ان نباشر الكتابة ما كتب الليلة السابقة، فيصلح عظمته ما قد يكون فيها من الخطأ.

هوذا المصدر الاول الاعلى لهذا التاريخ. أضف الى ذلك رسائل عدة ووثائق رسمية اطلعني عظمته عليها، واذن بنسخ بعضها.

***

بعد ان وصلنا في تاريخ نجد الحديث الى مؤتمر العقير عدت الى ابن بشر وعقدت النية على تلخيص ما جاء فيه من الاخبار. وابن بشر، بقطع النظر عن اسلوبه، مدقق في الاجمال وصادق الرواية. الا انه ينتهي في تاريخه عند سنة ١٢٦٧ هـ (١٨٥٠م) فيكون بينه وبين النكبة الاخيرة (اي خروج آل سعود من نجد) فترة مقدارها اربعون سنة،

لم يروِ السلطان اخبارها لانه لم يكن متحققاً منها كلها ، ولا اذن احد علماء الرياض ، للسبب نفسه ، بروايتها .

ولكنه ، عندما ازمعت الرحيل ، اعطاني كتاباً الى احد عماله في شقراء ، هو محمد السباعي ، يأمره بان يكتب الى الشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى في أُشيقر (قرب شقراء) ليوسل اليه تاريخه الخطي ، فاطلعُ عليه وانسخه ، ثم يعاد الى صاحبه .

جئت شقراء ، وراح نجاب السباعي الى أُشيقر ، فوجد بيت المؤرخ مقفلاً ، وقيل له ان الشيخ ابراهيم في عنيزه . وكنا في طريقنا الى عنيزه ، فرجونا ان نجتمع بالمؤرخ فيها . ولكن السباعي ، سلّمه الله ، لا يثق كل الثقة بالتقادير ، فأمر نجابه بالرجوع الى أُشيقر يوم رحلنا من شقراء وقال لي : اذا ظفر بالتاريخ ارسله اليك حيث تكون في بريده ، او في عنيزه ، او في الحفَر . واذا اجتمعتَ بصاحبه في طريقك فامسكه يا امين بتلابيبه .

وصلنا الى عنيزه فلم نجد فيها المؤرخ ، ولا جاءنا من السباعي التاريخ ، ولكن غداة دنونا من بريده خرج النجاب يلاقينا ، وكان قد جاءها رأساً من أُشيقر ، فسلم واخرج التاريخ من جيبه قائلاً : بعد ان تقضي حاجتك منه رده الى السباعي فيرده الى صاحبه . وهكذا كان .

قد سرني من تاريخ ابن عيسى ، على ما فيه من ركاكة وسذاجة ، انه خلو من التقعر والسجع . واليك بمثال واحد منه :

«خرج عليهم (محمد ابن الامام فيصل على اهل عنيزه) واقتتل الفريقان قتالاً شديداً ، وصارت الهزيمة اولاً على محمد ابن الامام ومن معه ، وتتابعت هزيمتهم الى خيامهم ، فامر الله سبحانه وتعالى بالمطر ، وكان غالب سلاح اهل عنيزه البنادق ، فبطل عملها من شدة المطر ، فكرّ عليهم محمد واصحابه ، فهزموهم ، وقتلوا منهم

اربعمئة رجلاً »

بابن بشر وابن عيسى معاً يتم اذن تاريخ آل سعود منذ نشأتهم الى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد. ولولاهما لما تمكنت من كتابة النبذة الثالثة من هذا التاريخ . على انه ، وانا اكتبها ، خطر لي ان اقابل بين المؤرخين الوطنيين والمؤرخين الاجانب ، خصوصاً في الحملات التي جردها على نجد محمد علي باشا وابناه طوسون وابراهيم .

والتاريخ ذو شجون ، فقد جرتني فتوحات سعود الكبير الى الحجاز ، فمكة المكرمة ، فالتقيت هناك ببعض الاوربيين المستشرقين المتنكرين فاستكشفت اخبارهم واثارهم لاطلع على رأيهم في الوهابية يومئذ وفي اهل نجد ، فعرفت ان السويسري بركهارت كان مقرباً من محمد علي ، والاسباني باديا إي لِبلخ كان جاسوساً لنبوليون الاول. على انهما متفقتان في نزعتها العلمية ، وصدق الرواية ، وان اختلفا في المقاصد السياسية .

جاء بركهارت الحجاز ، قادماً من السودان ، يوم كان محمد علي في الطائف . وعندما وصل اليها سأله الباشا عن احوال تلك البلاد التي كان يحكمها يومئذ ابنه ابراهيم .

قال بركهارت في رحلته العربية (**Travels in Arabia, John Lewis Burkhardt. London: Henry Colburn, 1829**)

«وسألني الباشا اذا كان ابنه ابراهيم محبوباً هناك فاجبته بلغة الصدق: ان مشايخ القرى كلهم يكرهونه لانه ردعهم عن الاستبداد بالفلاحين . اما الفلاحون فيحبونه حباً جماً »

ولا شك ان محمد علي الكبير كان يحب بركهارت لعلمه ، ويحترمه لصدق لهجته ، فاذن له بالدخول الى مكة وبزيارة المدينة .

اما المستشرق الاسباني الذي انتحل اسم علي بك العباسي فلم يكن له من اولي الامر نصير ، وما فاز بغير جده ودهائه. احببت ان اطلع على

رحلته التي طبعت بالانكليزية بلندن ، فكتبت الى كتبي مشهور هنالك اطلبها ، فاجاب ان الكتاب غير موجود في المكاتب، وعرض ان يعلن في الجرائد لعلَّ هنالك احداً عنده نسخة يبيعها، فقبلت. وبعد شهر جاءني منه كتاب يقول انه حظي بنسخة من الطبعة الاولى، سليمة تامة ، مجلدة بجلد ثمين ، ثمنها عشرون ليرة انكليزية فقط !

وكنت يومئذ اراجع التواريخ الافرنسية في نهضة محمد علي المصرية، فقرأت ما كتبه ادوار غوان

(L'Egypte au XIX Siècle, Edouard Gouin, Paris 1847)

ويممت المكتبة الشرقية لاطالع تاريخ مانجن

(Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly. Felix Mengin, Paris 1823)

فلم اجد منه غير الجزء الثالث ، وهو ملحق للتاريخ ، كتبه جومار E. F. Jomard فجئت مكتبة الجامعة الاميركية ، فحظيت فيها ليس بمانجن فقط بل برحلة علي بك ايضاً ! وهي طبعة اميركية عن الطبعة اللندنية الاولى

(Travels of Ali Bey. Philadelphia: John Conrad, 1816)

اما مانجن فقد وجدت في ما راجعت لغرضي انه ينقل احياناً عن تاريخ الجبرتي (عجائب الاثار في التراجم والاخبار) ووجدت ان الرواية في ما يختص بحوادث نجد لا تختلف كثيراً عن رواية ابن بشر . الا ان في تاريخ المصري ، وبالتالي الافرنسي ، بعض الاشياءالتي فات ابن بشر ذكرها ، او انه كان يجهلها . كالصندوق الصغير مثلاً الذي حمله عبدالله بن سعود الى الاستانة ، وفيه بعض اعلاق الحجرة النبوية التي كان يأمل ان يسترضي السلطان بها ، فيعطيه الامان ويأذن له بالرجوع الى بلاده . هذا في ما يختص بالنبذة الثالثة .

***

اما النبذة الثانية ، محمد بن عبد الوهاب والوهابية ، فقد كان لي في

كتابتها عون آخر غير ابن غنام . اجل ، قد طالعت ، وانا في الرياض ، رسائل ابن تيمية وغيرها من الرسائل الحنبلية في كتاب طبع بمطبعة المنار بمصر .

أمّا ، وقد ذكرنا النبذات عكسا ، في النبذة الاولى : نواحي نجد ، وهي لا تخلو من صعوبة اذا تحرينا التدقيق في ضبط الاسماء ، اسماء البلدان ، فكتب السياح المستشرقين تضلل غالباً في اعلامها ، وكتب الاقدمين العربية تروي اسماء بلدان دُثرت ، واسماء للبلدان التي لا تزال في عالم الوجود غيرَ المصطلح عليها لفظاً ومبنى . لا بد اذن من الاستعانة باحد علماء نجد المعاصرين . وبما ان الوقت كان قد ضاق دون ذلك ، يوم كنت في الرياض التمست من عظمة السلطان ان يأمر احد العلماء بان يرسل مطلوبي الى الفريكة . فأرسل اليّ بدل اسماء النواحي والبلدان نسخة من كتيب خطي عنوانه : مثير الوجد في معرفة انساب ملوك نجد ، تأليف راشد بن علي الحنبلي . فجاء عوناً لي في تحقيق انساب آل سعود . وابن عبد الوهاب ، وعرب الشمال اي مضر وربيعه .

وكنت قد استعنت عندما مررت بعنيزة بالشيخ عبدالله بن محمد العبد العزيز البسام ، فكتب لي لائحة باسماء بلدان القصيم وسدير والعارض ، وبت انتظر وصول المعلومات الاخرى ، فمرت الايام ، وتزاحمت الحوادث في نجد ، ولم تكتب النبذة الاولى .

وكانت حرب الحجاز . وكان من حظي ان اتشرف ثانية بزيارة السلطان عبد العزيز . فذكرته ، ونحن في جده ، بتلك النبذة وبما وعدني به لاتمامها ، فقال : ما يخالف . ولكني وجدته مشغولاً في مسائل أهم منها ، فسكت ثم سألت الدكتور عبدالله الدملوجي عن بعض البلدان فقال : لا يستطيع ان يجيب اسئلتك هذه غير السلطان ، وهو الملقب بجغرافية البلاد العربية .

السلطان الاستاذ! ولحسن الحظ ، عندما جئته ذات يوم بعد الظهر حسب العادة ، لقيته يطالع كتاباً للسيد محمود شكري الالوسي ، عنوانه تاريخ نجد (المطبعة السلفية بمصر) فسألته رأيه فيه فقال : لا بأس به ، ولكنه لا يخلو من اغلاط في اسماء البلدان . فقلت ، وقد تمسكت بتلابيب الفرصة : اذن ، يا طويل العمر ، عليكم باصلاحها .

واخرجت القلم والدفتر من جيبي قائلاً :

اتأمرون بان تكونوا الان الاستاذ وان اكون انا التلميذ؟ اتأمرون بان ابدأ سؤالاتي ؟

فاجاب عظمته : وما هي ؟ فذكرت بعضها ، فقال : الامر يطول . تأذنون اذن بان امد رجلي .

فقلت مبتسماً : وهل في ذلك اشارة الى قصة الامام ابي حنيفة؟[١]

فرفع يديه ضاحكا وقال : لا والله . لا والله . القصة لاتنطبق عليك

وكانت ساعة نادرة ذكرتني بليالي الرياض ، ومكنتني من كتابة النبذة الاولى .

***

اما مراجع هذا التاريخ الاخرى فاهمها ما يأتي :

الكتاب الاخضر النجدي . كتاب الوفد الهندي

الكتاب الاحمر الحجازي

تقرير المندوب السامي لحكومة بريطانية العظمى في العراق من اول

---

(١) كان ابو حنيفه يخطب في حلقة من تلاميذه في ان صلاة الفجر ينبغي ان تكون قبل طلوع الشمس ، وبينا هو يخطب ، وقد جلس جلسة الالفة ومد رجله ، دخل شيخ جليل الطلعة ، وتبوأ مكاناً في الحلقة ، فتربع الامام اكراماً له ، واستمر في كلامه ان صلاة الفجر ينبغي ان تصلى قبل طلوع الشمس ، فسأله الشيخ : واذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ فقال الامام : وهو يعود الى جلسته الاولى : عندئذٍ يمد ابو حنيفة رجله ولا يبالي .

اكتوبر سنة ١٩٢٠ الى آخر مارس سنة ١٩٢٢

تاريخ الكويت لعبد العزيز الرشيد (المطبعة العصرية بغداد)

مذكرات الفريق شفيق كمالي باشا (متصرف عسير والقائد العام فيها من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٢، ووالي البصرة سنة ١٩١٣) نشرت تباعاً في الاهرام في شهري نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢٤

عنوان المجد في احوال بغداد وبصره ونجد تأليف ابراهيم فصيح الحيدري البغدادي (نسخة خطية)

ومن الكتب الانكليزية :

قلب البلاد العربية (The Heart of Arabia, H. St. John Philby, Constable : London)

الطواف في البلاد العربية (Wanderings in Arabia, Charles M. Doughty, Duckworth : London)

التغلغل في البلاد العربية (The Penetration of Arabia, D. G. Hogarth, Alston Rivers : London)

انك ترى اذن مما تقدم ان اهم مصادر النبذات الثلاث هي نجدية ، اي ان ابن بشر هو ركن النبذة الثالثة ، وابن غنام وابن تيمية ركنا النبذة الثانية ، والسلطان عبد العزيز ، الملقب بجغرافية البلاد العربية ، والشيخ عبدالله البسام الذي قال فيه عظمة السلطان انه من العارفين المدققين ، هما مرجعي في النبذة الاولى .

اما السيرة فقد قصصت قصتها . وقد شفعت المصدر الاول الاعلى بما استوجبه التدقيق من مراجعات ما طبع في البلدان المجاورة لنجد ، وما نشره السياح المستشرقون ، وبعض الترك والعرب ، في ما يختص بالبلاد العربية لخمسين سنة مضت .

ولا بدَّ من ذكر مرجع آخر هو رحلتي العربية الاولى، ورحلتي الثانية الى الحجاز . فقد كنت اثناء ذلك استقي الاخبار من مصادرها العليا، واسمع من ذوي العرفان ممن حدثتهم ما يثبت او يكمل الرواية

السلطانية . فقد كان عظمته يقتضب الكلام في ما يتعلق بشخصيته ، فيمسك النفس عما فيه فخرها والثناء عليها . واني اختم هذا الفصل بقصة واحدة من القصص العديدة التي كنت اسمعها ، والتي تمثل الحلم والكرم في شخصية هذا العربي الكبير .

عندما كانت الحرب قائمة بينه وبين اقاربه « العرايف » في الحساء ارسل خصمه سلمان بن محمد بن سعود وفداً من قبله الى قطر ، وعمان ، ومسقط ، والبحرين يستنجد شيوخها على السلطان عبد العزيز . وكان العجمان يومئذ حلف « العرايف » وكان احد رجال الوفد من هذه القبيلة ، فسافروا الى عمان ، ومنها جازوا الخليج الى لنجا على الشاطىء العجمي ، وهم يقصدون سلطان الحمادى حاكم تلك الناحية الذي يدّعي ان العجمان من العجم ، فاعطاهم لذلك مئة بندقية واربعة آلاف روبية . ثم جاءوا البحرين فاعطاهم الشيخ عيسى مئة بندقية واثني عشر الف روبية . وقد ساعدهم آل زايد بُعمان باكثر من ذلك .

عاد رجال الوفد موفقين . وبينما هم مسافرون الى العقير التي كانت يومئذ بيد العجمان ، ومعهم ما جمعوا من الاسلحة والمال لمحاربة ابن سعود ، علم بهم الشيخ عبد الرحمن بن سويلم امير القطيف . فسارع الى ارسال عساكر في مراكب شراعية ، وطاردوا مركب العدو بين البحرين والعقير ، ثم حلقوا به فحجزوه والقوا القبض على ثلاثة من رجاله .

حدثني احد الثلاثة ، وهو العجماني ، قال : جاءوا بنا الى القطيف وارسلونا مقيدين الى السلطان عبد العزيز بالحسا . فلما وصلنا امر بفك قيودنا وبأخذنا الى المضيف . وبعد ثلاثة ايام أحضرنا الى المجلس وكل واحد منا لا يرى من قسمته غير الموت ، فخاطبنا السلطان قائلاً : ياعيالي نحن لا نقهر احداً . فمن كان منكم يبغي معزّبه (شيخه او اميره) فاليه به . ومن كان منكم يبغينا فاهلاً ومرحباً . فقال واحد منا : انا

يا طويل العمر افضل نارك على جنة سلمـان ، فامر له ببندقية و كسوة وادخله في الجيش . وقال الاخران : ودّنا نروح الى معزبنا نعتز واياه ونتذبح واياه . فامر لكل منهما بكسوة ، وذلول ، وشيء من المـال ، ثم اطلق سراحهما .

وفي التاريخ بقية القصة التي انتهت بتسليم العرايف ، فكان الحلم انجع بهم من السيف .

النبذة الاولى

نواحي نجد

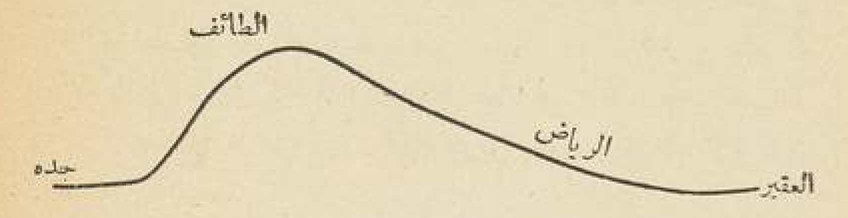
*

نواحي نجد[1]

ليس في نجد ارض يستوي سطحها وسطح البحر . فانك اذا جئت البلاد من خليج فارس تمر بالحساء، ثم تأخذ بالتصعيد – والعرب يقولون التسنيد – وتستمر مصعداً ، دون ان تدرك ذلك في اغلب الاحايين ، الى العارض (١٨٠٠ قدم) فالشعره (٢٠٠٠) فالحرة الصغيرة (٤٠٠٠) فرأس السيل (٤٥٠٠) ومن هناك تنحدر الى مكة .

واذا جئت نجداً من البحر الاحمر ، من جـــدة مثلاً ، فتصعد الى الطائف (٦١٧٠ قدم) وتشرف بعد ذلك على جبل حَضَن – من رأى حضناً فقد انجد – ومنه تنحدر الى نجد ، وتستمر في الانحدار دون ان تدرك ذلك لانه في اكثر الاحايين غير محسوس ، حتى تصل الى الحساء.

وبكلمة اخرى اذا شطرنا شبه الجزيرة شطرين من جده الى العقير على الخليج ، يظهر نصفها في هذا الشكل :



(١) في كتاب الالوسي صفحات ٦ و ٧ و ٨ شيء من كلام الاقدمين المتناقض المتضارب في ما هو نجد وما هي حدوده ، فللقارىء الراغب بمثل هذا العلم ان يرجع اليه

اما حدود السلطنة النجدية الحـــاضرة فالذي قررته الطبيعة حدٌ واحد فقط هو الاحقاف او الربع الخالي في الجنوب . اما الحدود الاخرى فقد قرر ابن سعود الشرقية والغربية منها بالسيف وقد تقررت الحدود الشمالية ، والشمالية الغربية والشرقية ، بالاتفاق وصاحبة الانتداب في العراق وشرقي الاردن ، اي حكومة بريطانية العظمى . وهذه الحدود ظاهرة في الخارطة الملحقة بهذا التاريخ .

ان نجداً ليصدق اذن معنى اسمه ، اي هو المرتفع من الارض . وفي هذه الاراضي المرتفعة ، شمالاً وغرباً وجنوباً ، اماكن تختلف في العلاء والوطاء بعضها عن بعض . فالقصيم مثلا يعلو الف قدم فوق العارض، وحائل تعلو نحو ذلك فوق القصيم ، واليمامة هي خمسمئة قدم دون الرياض.

وفي هذه البلاد السهول والجبال ، وصحاري الرمال ، والاودية والشعاب والواحات والقفار. وهنالك من الاراضي المنبسطة الفسيحة التي لا اكلأ فيها ولا ماء كالصمان ، ومن صحاري الرمل التي تكثر فيها المراعي كالدهناء، ومن السهول التي تزرع مرتين في السنة كالوشم ، ومن الواحات التي تغزر فيها المياه، وتتعدد البساتين ، كالعارض ، والاحساء، والافلاج. ومن البقاع العالية الطيبة التربة والهواء كالقصيم وجبل شمر .

اما اطول سلسلة من جبالها فهي التي كانت تدعى قديماً العارض او عارض اليمامة . والعارض ما اعرض او برز في الارض . قال الشاعر :

واعرضت اليمامة واشمخرّت كاسياف بايدي مصلتينا

وبما ان هذه السلسلة من الجبـــال تطوّق قلب نجد من القصيم الى وادي الدواسر فاهل نجد يسمونها جبل طويق . وبما ان الاسرة السعودية اتخذت الرياض مركزاً لها ، وقاعدة لبلاد نجد ، فقد اطلقوا على البلد اسم الناحية اي العارض، فنقول اليوم طويق والعارض كما كان الاقدمون يقولون اليمامة .

واليمامة هذه ، التي كانت من اشهر البلدان النجدية قديماً ، والتي لا يزال اسمها يرن في كتب الادب والشعر ، هي اليوم واحة صغيرة تكاد تخنقها النفود، فيها اربع قرى وبعض «القصور» مساحتها نحو ميل واحد مربع ، وعدد سكانها لا يتجاوز الالفين ، كلهم مزارعون من بني مرة وقحطان وبني هاجر . وهم يزرعون في بساتينهم الرمان والعنب والتين، وبعض القطن ، والحنطة والبرسيم الذي يسمونه الجت . هذه البقية من

اليامة هي في وادي الخرج المنخفض الذي تصعـــد منه جنوبا الى الافلاج ، وشمالاً الى الرياض . ولكننا قبل ان نعود الى العارض سنعلم القارىء بالنواحي الكائنة جنوبا منه . ان اكبرها واخصبها

الافلاج

التي تكسر فيها الابار ، والعيون والنخيل ، وتزرع فيها الحبوب والثمار وشيء من القطن. قاعدتها ليلى ، على سبع مراحل من الرياض ، واكبر قراها البدَيّع ، والاحمر ، والهدّار . وفي هذه النـاحية بقعة تدعى السيح ، من العيون السائحة ، بل فيها بحرات عدة هي من مياه جبل طويق التي تصب غربا بجنوب تحت ارض الوشم وفي وادي حنيفة ، ثم تظهر على وجـــه الارض بصورة دائمة في الافلاج . اما العرب الذين يقطنون هذه الناحية فهم من قحطان ، والدواسر ، وسبيع . ان بعد الافلاج الى الجنوب الغربي

وادي الدواسر

وفي طرفه الشمالي ناحية تدعى السُليّل وفيهـــا من القرى الدّمام ، وحنابج ، ورويسه ، وفرعه وغيرها . وفي طرفه الجنوبي ناحية تثليث ومن قراها العَمق ، ومطَيله ، وعين ، وخرَيقة . اما سكان الوادي فاغلبهم من عرب الدواسر الاشاوس البدو منهم والحضر . بعد الوادي جنوبا ، على ثلاثة مراحل منه

نجران

لبني يام الذين كانوا في الماضي خارجين على كل سلطة مشروعة ، فما دانوا لاحد غير شيوخهم . ولكنهم منذ ثلاث سنوات دخلوا في الرعوية السعودية فصاروا يدفعون الزكاة طائعين . ان اكبر قرى نجران مخلاف

وحبوته ، وعند نجران تنتهي الحدود الجنوبية الغربية لسلطنة نجد .
نعود اذن شمالاً بشرق الى الافلاج ومنها الى

الخرج

تلك الناحية الخصبة التربة ، الغزيرة المياه ، التي تُزرع في ارضها الحبوب ، وفي بساتينها الثمار على انواعها ، من مشمش ودراق وتين وعنب، وتُربى فيها احسن الجمال . اما قاعدة الخرج فهي الدلّم على ثلاث مراحل من الرياض ، واهم بلدانها زميقه ، ونعجان، واليمامة، والسلمية في طرفها الشمالي .

ثم وادي الفرع الى الجنوب ، وفيه بلدان ، او بلادين كما يقول اهل نجد ، وسط جبل اليمامة ، اكبرها الحوطة التي تبعد عن الدلم جنوباً ثمانية واربعين ميلاً . وفي اعلى الوادي الحريق على مسافة اربعة وعشرين ميلاً من الحوطة . اما اهل هذين البلدين فمن بني تميم الاشداء ، ومن غلاة الحنبلية المحافظين على تقاليدهم وعزلتهم ، الغيورين على استقلالهم .

عندما دانت بلاد نجد لابن الرشيد ظل اهل الحوطة ، التي تدعى حوطة بني تميم ، خارجين عليه متمردين . وعندما عاد ابن سعود ونازعه السيادة ابن عمه سعود العرافة نصر اهلُ الحوطة والحريق سعوداً على الشاب عبدالعزيز. وكان ما هو مدون في هذا التاريخ من انتصار عبدالعزيز. ولكنه ضمن لاهل هذه الناحية، اي الفرع، استقلالهم النوعي على شريطة ان يعترفوا بسيادته، فيدفعوا الزكاة ويلبوا الدعوة للجهاد. ومن البلدان الاخرى في الخرج نعام ، ومفيقر، والحلوة التي يغلب في سكانها عرب عنزى .

ثم حائر في طرف وادي حنيفة الجنوبي ، على مسافة خمسة وعشرين ميلاً من الرياض ، وهي تدعى حائر سبيع لان سكانها من عرب هذه

القبيلة النازحين من الغرب . وفيها ايضاً السهول حلفاء سبيع .

ومن حائر شمالاً بعد بضع ساعات من السير ، نصل الى البلدة التي كانت قديماً تشاطر اليامة الشهرة والمجد . هي المنفوحة بلدة الشاعر زهير بن ابي سلمى القريبة جداً من الرياض ، والتي امست اليوم منفوحتين ، الواحدة القديمة ولا تزال خرائبها بادية للعيان، والثانية الجديدة على رمية سهم منها .

ان السبب في بوار اودية مثل وادي الرمّه (العرب يلفظونها مخففة)، وخراب مدن مثل اليامة والمنفوحة، هو اما انقطاع المطر اعواماً متوالية فتجف العيون والآبار فينزح اهلها ، واما تهطال الامطار التي ترسل السيول في البلاد فتغمر ما يكون في طريقها من العمران وتتركه خراباً يباباً . ان من هذه الاخربة ما نشاهده في الخرج ، وفي وادي حنيفه ، وفي الباطن من وادي الرمّه .

العارض

قلت ان العارض هو اسم الناحية والعاصمة معاً ، فيه واحة جميلة تمتد من سفح جبل طويق شرقاً بجنوب الى المنفوحة ، وفيه العيون العذبة ، والقلبان — الآبار — المتعددة، والبساتين التي يزدهي فيها النخيل، وتتماوج في ظلالها اخضرار الجت والبقول .

ويلحق بالرياض او العارض عدة قرى كبيرة ، كالدرعية الجديدة ، على ثلاث ساعات الى الشمال منه ، وعزره ، وابو كباش ، التي كانت مسكن آل سعود الاقدمين قبل ان اسست الدرعية، والعماريه، والجبيله، احدى قرى بني حنيفة ومسكن مُسيلمه قديماً ، والعُيينه بلد آل معمر ومسقط رأس محمد بن عبد الوهاب .

وهناك جنوب العاصمة المنفوحة ، والمصانع ، وحائر سبيع التي مر

ذكرها . وغرباً منها ، في طرف الحماده الجنوبي ضُرمْه (تلفظ اضرُمه) المؤلفة من قصور ومزاوع عديدة تسمى المزاحميات . وجنوبي ضُرمه الغطغط بلدة الاخوان المشهورين ببسالتهم ، اخوان عتيبه . ثم البرّه على مرحلة منه شمالاً ، وهي اول بلدة في الجهة الجنوبية من الوشم . اما

الحمـاده

التي ذكرت فهي سهل يمتد من الشمال الى الجنوب بين جبل طويق ونفود السر ، وفيه الزُلفى وغيرها من القرى ، بعضها في النفود الكائنة بينها وبين عنيزه ، وبعضها في السهل . ومن هذه القرى مليح ، بين الزلفى والغاط ، وفريسان ، وهما هُجرتان من هجر مطير . وجنوبي فريسان الداهنه من هجر عتيبه .

اما الغاط التي هي بين المجمعة قاعدة سدير وبين الزلفى ، على مرحلة واحدة من الاثنتين ، فهي مشهورة بانها مسكن « السداره » من اعيان اهل سدير ، الذين صاهرهم آل سعود قديماً وحديثاً [1] وامّروهم في البلاد . فقد كان تركي السديري اميراً على عُمان في الزمن الغابر ، وكان ولده احمد ، جد عبد العزيز ، اميراً على الاحساء في عهد الامـام فيصل ، وولداه محمد وعبد المحسن متولين الحكم في القصيم وفي المجمعة .

نعود الان الى النواحي التي هي شمالي الرياض ، واولها

الشعيب

التي تفصل بين العارض وسدير ، قاعدتها حريمله على مرحلتين من الرياض ، (عُمرت سنة ١٠٤٥ هـ) . واهم بلدانها قرينه (عمرت سنة ١١٠١ هـ) ، وملهم ، وصُلبوخ ، وسَدوس التي فيها اثار قديمة قيل انها حميرية . ثم

---

(١) والدة جلالة الملك عبد العزيز من السدارة

المحمل

وثادق قاعدتها ، التي عمرت سنة ١٠٧٩ ﻫ ، والصفرّات ، هي والبير تدعى كلها اللهزوم . اما الصفرّات فهي عدة بلاد قريبة من ثادق . وهناك البير جنوبي الصفرّات (عمرت سنة ١٠١٥ ﻫ) ، ورَغبه (عمرت سنة ١٠٧٩ ﻫ) . من الشعيب والمحمل نستمر مصعدين في جبل طويق الى

سدَير

اكبر نواحي الجبل ، وقاعدتها المجمعة (عمرت سنة ٨٢٠ ﻫ) التي يقال لها ولحرمه منيخ ، والتي تبعد مئة ميل عن عنيزه الى الشرق ، تفصل بين البلدين نفود كبيرة تمتد جنوباً الى وادي السر . اما بلدان سدير فعديدة ، ومن اكبرها واقدمها حرمه (عمرت سنة ٧٧٠ ﻫ) ووشي ، وجوي ، وجلاجل ، والتويم (عمرت سنة ٧٠٠ ﻫ) والداخلة ، والحصون ، والجنوبيــة ، والعطّار والجنيفه ، والعودة ، وعشيره ، والخطامه ، وتميريم ، والخيس ، والروضة (روضة سدير)

الوشم [1]

هذه النـــاحية هي غربي جبل طويق ، وغربا بجنوب من سدير . قاعدتها شقراء ، واهم بلدانها ثرمدا ، والجريفة ، والقراين ، واشيقر على ساعتين من شقراء ، والفرعه على رمية سهم من اشيقر ، والقصب على ثمانية عشر ميلاً من شقراء ، ومرآة بلد امرىء القيس «ثم الحريف على مرحلة واحدة من روضة سدير .

القصيم

لم تكن تعد في الماضي من نواحي نجد ، وقد يجوز ان لا نعدها اليوم الا من ملحقاته . فقد طالما تنازعت السيادة فيه ،

---

(١) راجع ملوك العرب ، الجزء الثاني ، صفحات ١٠٣ / ١١٧ الطبعة الثالثة

عنيزه وبريده ، ونزعت كلتاهما الى الاستقلال عن ابن الرشيد وعن ابن سعود .

ان في هذا التاريخ الكفـــاية عن البلدين وامرائها ، وفي « ملوك العرب »[١] الكفاية في وصف اهل القصيم وسجاياهم المرنة التي تختلف عن سجايا اهل الجنوب .

اما اهم بلدان هذه النـــاحية ، بعد بريده وعنيزه ، فهي البكيريه (عمرت سنة ١١٨٠ هـ) والهلالية ، والخبراء (عمرت سنة ١١٤٠ هـ) والبدايع . وكلها لا تبعد عن عنيزه اكثر من خمسة وعشرين ميلاً . ثم الرّس وملحقاته ، وهي على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً غربي عنيزه . ثم النبهانية على مرحلتين منها الى الغرب ، والمذنب على مرحلة منهـــا الى الجنوب ، والقصيبا على مرحلتين منها الى الشمال ، والاسياح ، وعين فهيد ، والطرفية على مرحلتين شرقاً من بريده . وهناك شمالاً بغرب من القصيم ، على خمسة مراحل منه .

جبل شمر

اي جبلا طيء ، اجا وسلمى ، وما يتبعهما من السهول والجبال .
اما حائل ، عاصمة شمّر ، فهي من اكبر المدن العربية واجملها ، سكانها نحو ثلاثين الف وهم مثل اهل القصيم يكثرون الاسفار والاتجـــار ، ويبارون بالترفه اهل الامصار ، وبالبسالة والشجاعة اهل القفار .

وهناك قرى عديدة منها قفار ، وقبَة ، وبقعاء ، وسميراء ، و كهفة هي كلها تابعة لحائل . واذا سرنا منها شمالاً بغرب واجتزنا النفود الكبرى نصل الى جوف آل عمرو او

وادي سرحان

التي كانت لعرب الروله من عنزى فاستولى عليها ابن الرشيد، ثم بعد

(١) الجزء الثاني ، الفصل الخامس عشر ، صفحات ١١٨/١٢٥ الطبعة الثالثة

سقوط حائل دخلت في حوزة ابن سعود . قاعدتها الجوف واهم قراها سكاكه ، وكاره ، وقرايا الملح ، وأثره ، وقراقر . هناك عند الطرف الشمالي من وادي سرحان الحدود الشمالية الغربية لسلطنة نجد .

الاحساء

هي اكبر واخصب النواحي ، بعد جبل شمر والقصيم ، التابعة لسلطنة نجد . جاء في الكامل للمبرد[١] : «الحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة ، فاذا امطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة ان يغيض ، ومنع الرمل السمائم ان تنشفه . فاذا بحث ذلك الرمل اصيب الماء . يقال حسي ، احساء وحِساء» .

هذا الوصف علمي صحيح . الا ان في الاحساء واحات متفرقة اهمها واحتا الحساء والقطيف ، وبينهما ارض رملية مثل التي وصفها المبرّد . وفي هذه الواحات المياه الجارية ، والعيون العذبة ، والبساتين الغناء ، والارض التي تصلح للحراثة ، فتزرع فيها الحنطة ، والشعير ، والسمسم ، والذرة ، والارُز . وفي الحساء قرب الهفوف عيون معدنية متنوعة ، ماؤُها حار وبارد ، اهمها عين نجم قرب المبرّز التي يتغنى الشعراء بمائها العجيب — مائها المعدني الحار .

قد كانت الحسا في ايام القرامطة عاصمة مقاطعة هجَر ، ثم استولى عليها الامراء العيونيون[٢] وفي سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) في عهد السلطان سليم الاول ، دخلت في حوزة الدولة العثمانية التي كانت قد استولت على اليمن ، فعدت الحسا من الولايات اليمانية . ثم أخلتها الدولة فاستولى عليها بنو خالد الى حين ظهور آل سعود الذين ادخلوا بني خالد في طاعتهم .

وعلى اثر الشقاق الذي حدث بين ابناء الامام فيصل سنة ١٢٨٧ هـ

---

(١) الجزء الاول صفحة ٧٦ طبعة ليبسك سنة ١٨٤٦ في ٤ اجزاء
(٢) راجع «ملوك العرب» الجزء الثاني صفحه ٢٣٤ الطبعة الثالثة

(١٨٧٠ م) يوم كان مدحت باشا متولياً على بغداد ، عادت الدولة الى الاحساء فاحتلتها ، واطلقت عليها تيمناً اسم لواء نجد . ولكنها في مدة اربعين سنة لم تتمكن من بسط سيادتها على باع من الارض خارج الواحات .

هذي هي نواحي نجد واهم ملحقاتها ، ما عدا عسير ، وفيها يسكن الحضر من اهل البلاد . اما البدو فسكناهم الخيام ، وقد قل عددهم في عهد السلطان عبد العزيز بسبب الهجر (القرى المستحدثة) التي شرع في تأسيسها منذ عشرين سنة[١] فسكان نجد اذن هم اليوم اساساً ثلاث طبقات ، البدو ، واهل الهجر ، والحضر .

---

(١) في الملحق اسماء هذه الهجر وعددها وعدد سكانها.

النبذة الثانية

محمد بن عبد الوهاب والوهابية

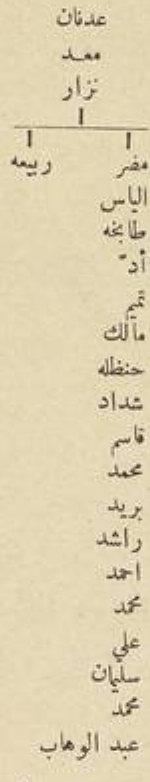
وُلد سنة ١١١٥ هـ ١٧٠٣ م

توفي سنة ١٢٠٦ هـ ١٧٩١ م

من مؤلفاته

التوحيد في ما يجب من حق الله على العبيد
السيرة المختصرة
كشف الشبهات
كتاب الكبائر
اصول الايمان
فضائل الاسلام
احاديث الفتن
مختصر زاد المعاد
مختصر صحيح البخاري
مسائل الجاهلية
مجموع الحديث
استنباط القرآن
رسائل عدة ذكرها ونقل بعضها حسين بن غنام في تاريخه

نسب محمد بن عبد الوهاب[١]



محمد بن عبد الوهاب

- حسن
  - عبد الرحمن
    - اسماعيل
    - اسحق
      - عبد الرحمن
    - عبد اللطيف
      - ابراهيم
      - عبدالله
        - محمد
- علي
- عبدالله
- ابراهيم
- حسين
  - حسن
  - علي
  - محمد

---

(١) محذوف من اجداده اكثر من ١٥ درجة

« ان الدعاء كله لله ، يكفر من صرف منه شيئا لسواه »

محمد بن عبد الوهاب

« محبة الاولياء والصالحين انما هي اتباع هديهم وآثارهم والاستنارة بضياء انوارهم » .

محمد بن عبد الوهاب

«المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت اوثانا تعبد من دون الله ، والاحجار التي تقصد للتبرك والنذر والتقبيل ، لا يجوز ابقاء شيء منها على وجه الارض مع القدرة على ازالته »

من رسالته الى عبدالله بن سُحَيْم

محمد بن عبد الوهاب

والوهابية

١

في وادي حنيفة ظهر مسيلمة الذي حارب النبي والاسلام فكان مدحوراً . قتله خالد بن الوليد في وقعة الروضه . وفي وادي حنيفة ، بعد الف ومئة سنة ، ظهر محمد بن عبد الوهاب الذي كافح البدع والخرافات فكان من الفائزين .

قبل ظهور هذا المصلح النجدي كان العرب في نجد ، بل في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة ، منغمسين في عقائد وعبادات جاءتهم من النجف ومن الاهواز ، او بالحري من بلاد فارس . فكان لا يزال لاباحات القرامطة اثر في الاحساء ، وكانت للقبور شفاعة لا شفاعة فوقها ، فحلها الناس المحل الاعلى في العبادة والتوسل . والحق يقال ان هذه البدع ، او هذه الخرافات القديمة ، ابعدت العرب بادية وحاضرة عن حقيقة الدين الكبرى وجوهره الازلي الحي .

ابعدتهم عن الاسلام الذي جاء يبطل عبادة الاوثان وكل ما فيه رائحة العبودية لغير الله . فعادوا الى ما كان فيه اجدادهم وامعنوا اكثر منهم في الخزعبلات والاضاليل ، فلم يتوسلوا فقط الى قبور الاولياء بل تعددت القباب فوق القبور فصارت الشفاعة الكبرى للاحجار . بل كانوا يعبدون حتى الاشجار ، فيعلقون على اغصانها الرقاع ويقدمون لها النذور ومن هذه الاشجار في نجد ، خصوصاً في كهوف جبل طويق ووادي حنيفة ، ما كانت تفوق سواها شهرة ، وتمتاز اسماً وفعلاً ، في نظر عبادها الذين كانوا يجيئونها من اقصى نواحي الجزيرة متبركين متوسلين .

قلت ان هذه العبادات ابعدت العرب عن الاسلام بل انستهم حقائقه واركانه ، فقلَّ منهم من كانوا يقرأون القرآن ويفهمون . قال المؤرخ النجدي : « اهمل الناس الصلوة والزكوة والحج وكانوا لا يعرفون حتى مركز الكعبة » . وبكلمة اوضح عادوا الى الوثنية ، فجاء ابن عبد الوهاب يعيدهم الى الاسلام . فكان منذ نشأته الى يوم وفاته يدعو للرجوع الى الكتاب والسنة ، وقد انتشرت دعوته في نصف قرن بين الحاضرة والبادية ، وعمت في عهد سعود الكبير البلاد العربية جمعاء .

نعم قد كان في نجد علماء يتبعون الامام احمد بن حنبل في المذهب والاحكام . ولكن علمهم لم يخلُ مما يشوب طريقة المجتهدين والمتصوفين . فكانوا من هذا القبيل يشبهون علماء الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى .

ومن كبار اولئك العلماء النجديين جد صاحب الترجمة محمد بن سليمان بن علي التميمي . فقد كان رجلاً فاضلاً كريماً ، تولى منصب الفتوى في نجد ، ودرس علمي التفسير والحديث ، وكان لحبه العلم ينفق على الطلبة من ماله الخاص ناهيك عن بيته الذي كان على الدوام مفتوحاً للفقراء والمظلومين اللاجئين الى بره واحسانه .

وكان ابنه عبد الوهاب مثله من رجال العلم والحجى ، تولى القضاء في بعض بلدان العارض فكان عادلاً حكيماً ، وألَّف رسائل عدة في الفقه والتفسير ، ولقن ابنه محمداً شيئاً من العلوم التي كان يحسنها . اما سجيته الكبرى ، تلك التي تميز العالم الحقيقي عن سواه من الناس ، انما هي الوداعة والاتضاع . وناهيك بها من سجية تحمل صاحبها على الاقرار بالفضل حيثما كان في ولد صغير ، او في خصم كبير . فقد طالما استعان الشيخ عبد الوهاب بابنه محمد في حل المعضلات الفقهية والدينية ، وهو القائل : « قد استفدت من ولدي محمد فوائد شتى في الاحكام » .

كانت ولادة محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن سليمان بن علي التميمي في

السنة الخامسة عشرة والمئة بعد الالف هـ. الموافقة (١٧٠٣م) في العُيَينه بوادي حنيفه، وقيل في حُرَيملة. على ان المؤرخ ابن بشر يزيل على ما ارى الريب في الرواية الاولى اذ يقول: «ولد في العُيَينه قبل ان ينقل ابوه الى حُرَيملة». فكأن عبد الوهاب نقل يوم كان ابنه صغيراً فتضاربت بعدئذ الآراء في اية البلدتين مسقط رأسه. والاقرب الى الصحة رواية ابن بشر.

ولد محمد على شيء من الشذوذ، وكان سباقاً في عقله وفي جسمه، سريع البلوغ في الاثنين، متوقد الذهن، حاد المزاج. فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل اكمال الاثنتي عشرة سنة. قال ابوه. «ورأيته اهلاً للصلوة في الجماعة وزوّجته في ذاك العام». وما عتم بعد ذلك ان حج وأدى المناسك على التمام واقام شهرين في المدينة. ثم عاد الى بلده واخذ في القراءة على والده ولكنه لم يكتف بذلك فرحل طالباً المزيد. زار الحجاز والأحساء والبصرة مراراً وكان الشيخ عبدالله بن ابراهيم آل سيف النجدي والشيخ محمد حيوة السندي المدني من اساتذته. فغرست في ذهنه مذاهب دلت في نموها الضئيل على ما تأصل فيه بمسقط رأسه تحت سقف والده من مذهب الامام احمد بن حنبل.

وقد كانت اكثر اقامته في البصرة حيث قرأ الكثير من كتب اللغة والحديث على الشيخ محمد المجموعي. ولم ينحصر جهده في الدرس بل شرع يبشر هنالك بما تجلى له من حقائق التوحيد. انما هو القائل: «كان اناس من مشركي البصرة يأتون الي بشبهات يلقونها عليّ فأقول وهم قعود لدي، لا تصلح العبادة كلها الا لله، فيبهت كل منهم، فلا ينطق فوه.»

اما النفوذ الاكبر في البصرة في تلك الايام فكان لا يزال للشيعة، مكبرة الاولياء. ولكن ابن عبد الوهاب الشاب لم يحجم عن القول الحق

حسب اعتقاده ، فادهش الناس واثارهم عليه ، فاخرجوه ذات يوم من البصره . مشى في الهجيرة مطروداً يقصد الى الزبير ، وكان في نيته ان يزور الشام، ولكنه لضيق ذات يده انثنى عن عزمه وعاد الى نجد فأقام ووالده عبد الوهاب في حريمله . ثم شرع يبث مبدأ التوحيد وينادي باخلاص العبادة لله وحده ، فكان شديد اللهجة ، قوي الحجة . وكان في حريملة قبيلتان لاحداهما رهط من العبيد كثيري الفساد والفسق ، فحاول الشيخ محمد ان يردعهم فاغضبهم ، فقاموا عليه ذات ليلة يريدون قتله ، ففر هارباً الى العُيَينه .

بعد عودته الثانية الى مسقط رأسه بدأ فعلاً نشر الدعوة . بل قد شبّت هناك نيران حربها ، فرفعت بين الانصار اعلام التوحيد ، ولمعت سيوف الحق المسلولة . اردعوا المعاندين والمعارضين ! وكان الشيخ محمد يزداد شدة يوماً فيوماً ، فاشتهر امره في جميع بلدان العارض ، في حريملة والعينه والدرعيه والرياض والمنفوحة ، وتعددت اتباعه واعداؤه . بل ظهرت الانصار وكان ثنيّان بن سعود واخوه مشاري في طليعتهم

ولكن النصير الاول الكبير هو عثمان بن معمر الذي كان يومئذ امير العينه . وقد اتفق بن معمر وابن عبد الوهاب على العمل الاول الخطير في نشر الدعوة ، العمل الذي أضرم نار الحماسة ونار العداء في الناس.

قلت ان عرب نجد كانوا يومئذ يقدسون القبور ، بل كانوا يعبدون القباب فوق القبور ، والاشجار التي يزرعونها في ظل القباب . فأول ما باشر الشيخ محمد هو انـــه امر الامير عثمان تلميذه الاول من الامراء الحاكمين ، بهدم القباب والمساجد المبنية في الجبيله على قبور الصحابة ، وبقطع الاشجار التي كانت تتوسل اليها الناس .

قبل الامير ، وخرج والشيخ وجماعة من الانصار الى الجبيله فهدموا قباب القبور ، قبور الصحابة هناك . ثم تناول الشيخ محمد الفأس بيده

وانهال بها عـــلى الشجرة التي كانت مشهورة في وادي حنيفة بعجائبها ، شجرة « الذيب » ولية الفتاة طـــالبة الحبيب ، والارملة ذات القلب الكئيب ، والزوجةِ حاملةِ الطيب ، تبغي الابن الحبيب .

صـــاتت الشجرة العجيبة وهي تهوي الى الارض ، فكان لصوتها الرهيب صدى تردد في شعاب الوادي وفي جبال سدير . ثم اقتدى التابعون بامرائهم فشرعوا يهدمون القباب ويجعلون القبور مسنمة كقبور الصحابة .

هذا هو الحادث الاول الخطير في تاريخ الدعوة . اما الحادث الثاني فهو اشد منه خطورة لان فيه قطع امرأة لا قطع شجرة . انت تعلم ان الشرع الاسلامي يوجب قتل الزانية رجماً . ودعوة الشيخ انما هي الرجوع الى الشرع – الى القرآن قبل كل شيء . الزانيـة ، هي ذي في العيينة . وقد ثبت زناها باقرارها وبشهادة اربعة اعيان [1] فجيء بها الى الساحة وامر الشيخ ان تُشد عليها ثيابها وتُرجم . رمى الامير عثمان بن معمر الحجر الاول ، وتبعه الراجمون ليتم الحكم المشروع بالسنة والاجماع . لم يذكر التاريخ اختاً لهذه الفاجعة ، فكأن الشيخ رأى فيها الارهـاب الـكافي .

رُجمت الزانية ! فسرى خبرها سير البرق في البوادي والحضر ، ووقع وقع الصاعقة في القلوب الاثيمة والقلوب الطـــاهرة ، فسكت أناس ، وصـاح اخرون . ومن هؤلاء اهل الحساء الذين قاموا يحتجون ، فقد كانوا كما قلت مستمتعين باشياء من الاباحات القرمطية ، فكتب اميرهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد الذي كان يحكم يومئذ حتى في العارض ، وكان ابن معمر عاملا لهُ ، يهدد الشيخ المصلح بالقتل اذا كان لا يرجع

---

(١) وقيل ان امرأة بغي جاءت الى الشيخ تلتمس التوبة على يده فردها اولا وثانياً وثالثاً ثم حكم عليها بالرجم .

عن غيّه » في تخريب قلوب المسلمين وافساد دينهم » .

لم يرجع الشيخ المصلح عن دعوته . فارسل الامير سليمان الى عامله الامير عثمان يأمره بقتل محمد بن عبد الوهاب . فرأى الامير ان خير طريقة لحفظ منصبه ، وخلاص صاحبه ، هي ان يغادر الشيخ العيينة .

رحل المصلح الى الدرعية [١] فكانت الهجرة الثالثة وهو في الثانية والاربعين من سنه . وقد نزل هناك ضيفاً على احد تلاميذه احمد بن سويلم ، فتهافت عليه الانصار وبالغوا في اكرامه . الا ان محمد بن سعود امير الدرعية تردد في مقابلته ، فالحّ عليه بذلك اخواه ثنيان ومشاري ، فظل متردداً . ثم لجأ الى زوجته [٢] وكانت من النساء العاقلات النبيهات ، فاخبراها بما يدعو الشيخ اليه وبما ينهي عنه ، فارتاحت الى ذلك ووعدتها خيراً . انما عملها يدل على ما للمرأة حتى داخل الحريم ووراء الحجاب من التأثير الطيب اللهم اذا كانت عاقلة ، وعالمة بشؤون الامة . قالت هذه « الخديجة » الفاضلة لاميرها ابن سعود : « ان هذا الرجل ساقه الله اليك وهو غنيمة ، فاغتنم ما خصك الله به » .

قبل الامير قولها « وقذف الله في قلبه محبة الشيخ ومحبة ما دعا اليه » فاراد ان يدعوه للمقابلة ، فقال اخوه مشاري : « سر برجلك واظهر تعظيمه وتوقيره ليسلم من اذى الناس » فسار محمد بن سعود الى بيت ابن سويلم ورحب بابن عبد الوهاب قائلا : « ابشر ببلد خير من بلادك وبالعز والمنعة » . فقال الشيخ : « وانا ابشرك بالعز والتمكين اذا عاهدتني على كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل كلهم » .

وفي ذلك اليوم عُقد العهد الذي اجمع بين عقيدة المصلح وسيادة الامير

---

(١) كتاب « ملوك العرب » (الجزء الثاني) الطبعة الثالثة ، الفصل ١٤ ص ١٠٣ وما يلي من القسم الخامس وصف لوادي حنيفة وبلدانه .

(٢) هي موضى بنت ابي وهطان من آل كثير

- بين المذهب والسيف - فتعهد ابن سعود بنشر دين التوحيد في البلاد العربية ، وتعهد ابن عبد الوهاب بان يقيم في الدرعية معلماً ، وان لا يحالف اميراً آخر من امراء العرب .

ولا يزال هذا العهد مرعياً بين البيتين بيت سعود وبيت الشيخ [١] حتى اليوم .

٢

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العقد الرابع من العمر عندما بايع ابن سعود (١١٥٧ ﻫ ١٧٤٤ م) على ان يكون اماماً يتبعه المسلمون، وتعاهد الاثنان على كلمة التوحيد ونشرها بين العرب .

ولما علم الامير عثمان بن معمر بذلك جـاء يسترضي صديقه ويسأله الرجوع الى العيينة فلم يفز ببغيته . ذلك لان الشيخ عاهد ابن سعود على ان يقيم في الدرعية ، فجعلها مقره الدائم ، فاصبحت في الشطر الثاني من حيـاته قطب دين التوحيد ، ومطلع انوار العلم التي كانت تنبثق من شمسه المشرقة . فقد تخرج عليه اناس كثيرون ، كان يرسلهم الى البلدان القاصية والدانية مبشرين ، معلمين مرشدين ، منذرين .

كانت الدرعية يومئذ بلدة صغيرة قليلة اسباب الرزق والثروة . ولما كثر الوافدون على الشيخ ضاق بهم العيش فكانوا يحترفون في الليل ويتعلمون في النهار . وما دنا القرن الثاني عشر من الزوال حتى اصبحت اكبر مدينة في البلاد العربية ، يقيم فيها العرب من اليمن وعمان ومن الحجاز والعراق والشام .

قد رأى ابن بشر الدرعية في زمن سعود بن عبد العزيز فدهش مما شاهد من مظاهر الثروة والعمران . وقد وصف موسمها فقال « نظرت

---

(١) في نجد يُعرف محمد بن عبد الوهاب بالشيخ وتدعى سلالته ببيت الشيخ .

الى موسمها وانا في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي لآل سعود المعروفة بالطريف، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها ابناء الشيخ، ورأيت موسم الرجال في جانب، وموسم النساء [١] في جانب اخر، وما فيهما من الذهب والفضة، والسلاح والابل والاغنام، وكثرة ما يتعاطون من البيع والشراء، والاخذ والعطاء. وهو مد البصر لا تسمع فيه الا كدَوي النحل الاصوات، والدكاكين الى جانبيه الشرقي والغربي وفيها من الثياب والقماش وانواع الالبسة والسلاح ما لا يوصف».

عمّرت كلمة التوحيد الدرعية، فأضحت في ايام سعود الكبير عاصمة البلاد العربية، وصار الشيخ محمد فيها المرجع الاعلى في العلوم والاحكام. على انه ظلّ مع ذلك يعلم ويبشر ويؤلف ويراسل ويناقش نشراً لمذهبه ودفاعاً عنه. حتى ان اولاده الخمسة حسن وحسين وعلي وعبدالله وابراهيم كانوا عوناً له في التعليم. قال ابن بشر: «قد رأيت لهؤلاء الخمسة مجالس ومحافل للتدريس في بلد الدرعية، وعندهم الطلبة الكثيرون من سائر نواحي نجد ومن اهل صنعاء وزبيد وعمان وغيرها من الاقطار.

اما التعليم فقد كان مجاناً، بل كان للطلبة نفقة جارية من بيت المال، وللاذكياء منهم جوائز فوق ذلك من مال وكسوة. هناك تلألأت انوار الدين والفقه والحديث، فكانت الدرعية في تلك الايام مثل رومه في العهد المسيحي الاوسط، وكانت مدارس الشيخ محمد واولاده مثل المدرسة الكبرى برومه لنشر الايمان. ولد هذا النجدي الكبير ونشأ في بيت العلم والزهد فأشرب روحه بنيه، واخذ احفاده وابناؤهم العلم عنهم وعنه، فهم لا يزالون حتى اليوم محافظين على هذا الارث الثمين، الا انه ينقصهم شيء من المرونة العقلية والروحية،

(١) للنساء حتى اليوم في نجد سوق خاص بهن يبعن ويشترين فيه

يعادون عبثا سنة التطور والعمران .

لم يتدخل الشيخ محمد في شؤون الملك المدنية ولكن الامير محمداً وابنه عبد العزيز كانا يستشيرانه في الاحكام الشرعية ، وكانت له الكلمة الاولى في المبايعة على الامامة .

٣

ظلت الدرعية قطباً للعلم والتعليم الى يوم دمرها ابراهيم باشا المصري . وبعد ان استوطنها الشيخ شرع يكاتب الرؤساء والمشايخ يحذرهم من الشرك ويدعوهم لدين الله دين التوحيد . وكان آنئذٍ سليمان آل محمد امير الحساء ، وابن مُفلق امير القطيف ، وابن تويني اميراً في البصره ، وابن دواس حاكما مستقلاً في الرياض ، وكلهم اعداءٌ لمذهب التوحيد . هم الامراء المعادون . وهناك العلماء السنيون والشيعيون الذين سخروا منه ، وافتروا عليه ، وشرعوا يتهمونه بكلما اتهم به الخوارج من قبل . حتى ان بعضهم سعى لدى الحكام في قتله .

اول من ضلله وكفره ، وسعى الى العلماء في البصره والاحساء والحرمين في مقاومته وقتله ، اثنان من مطاوعة الرياض هما محمد بن سحيم وابنه سليمان ، فقالا ان ابن عبد الوهاب خارجي ، بل من اقبح المضللين والكفار ، واشر الخوارج والفجار . ومن جملة من رفض دعوته ورد عليه في بادىء الامر اخوه سليمان بن عبد الوهاب الذي كان متولياً القضاء في حريملا . ولكنه اهتدى بعدئذ وتاب ، فأقر بخطئه وقال ان كتابه لم يكتب لوجه الله

حارب المصلح العلماء اعداءَه بالعلم . ولكن الجهلة ، اي عامة الناس الذين اثارهم العلماء عليه ، لا يقرأون ، وقلما يفهمون . فلا يميزون بين الزيارة والعبادة مثلاً ، وبين الاكرام والتوسل . قيل لهم ان ابن عبد الوهاب ينكر كرامة الاولياء ، وهو لا ينكر غير الدعوة لهم . وقيل انه يحرّم

زيارة القبور وهو لم يحرم غير عبادتها والتشفع بها . ولكن العربان لا يقرأون وقلما يفهمون غير لغة العنف والقوة . وقد احرز المصلح في تحالفه وابن سعود سيفاً بتاراً. فالذي لا يفهم بالقلم يُفهم بالسيف، والذي لا يرتدع بالحسنى يُردَع بابن عمها .

استل محمد بن سعود الحسام وراح ينهى الاعراب عن افعال الجاهلية، ويدعوهم لدين الحق الذي هو الاسلام المجرد من الخرافات . ويامرهم العمل بالكتاب والسنة . وكان اتباع ابن عبد الوهاب يدعون انفسهم بالمسلمين واعداءَهم بالمشركين .

أشهرت الحرب على المشركين في السنة الاولى (١١٥٧هـ) من العهد الوهابي السعودي ، فكانت الوقعة الاولى في الرياض بين رجال ابن سعود ورجال دهام بن دواس . ودهام هذا عصامي دون فضيلة اخرى له تذكر الا الثبات . اغتصب الامارة ، وهو من خدام القصر واستمر اميراً ثلاثين سنة في زمن الزعازع الدينية والفتن والحروب .

كان دهام خادماً لعبد يدعى خميس قتل قاتل امير الرياض زيدَ بن موسى ابا زرعه وتولى مكانه . ثم فر هارباً فتولى الامارة دهام خادمه، فقامت عليه الاهالي ، فاستنجد بابن سعود فانجده واقره في مركزه . ولكن العبيد مناكيد فكيف بخدامهم ؟

دعا ابن سعود صديقه ابن دواس لدين التوحيد فابى. ثم انذره فاستكبر وقال : ومن هو ابن مقرن ليحمل مفاتيح الجنة وينذر الناس بالنار ؟ شبت الحرب . وكان ابن دواس فيها اشد اعداء التوحيد وآل سعود ، حاربهم في الدور الاول عشر سنين وهو يحتل اليوم بلداً ويخليه غداً. وحاربهم كذلك بالدسائس والفتن. فقد ظهرت الردة في سنة ١١٦٧هـ في بعض بلدان العارض التي كانت في حوزة ابن سعود وكان هو من عواملها الخفية .

ولكن المصلح غلب المفتن . بادر الشيخ محمد الى نجدة ابن سعود في تأديب المرتدين . جاءت الكلمة النارية تشحذ السيف وتعضده . فقد دعا الشيخ الرؤساء والزعماء من جميع البلدان الى الدرعية ، وخطب فيهم باسم الله ، فاعاد الى قلوبهم قبس الايمان ، واضرم فيهم ثانية نار الجهاد.

ومع ذلك فقد استمر ابن دواس يحارب ابن سعود عشرين سنة ، يحاربه بالمقاتلة والمخاتلة . والاه ثم عاداه مراراً . عاهده اربع مرات حباً بدين الله والسلم ، ونكث اربع مرات عهده . حتى انه انضم مرة الى جيشه وحارب المشركين . على انه بعد تعدد الوقعات والهدنات والمعاهدات والخيانات دُحر في سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣م) الدحرة التامة النهائية . دحره الامير عبد العزيز بن محمد الذي دخل الرياض ظافراً . ولكنه لم يفز بدهام الدواس الذي فرّ هارباً الى بلاد الخرج وتوفي هناك.

وكان للموحدين خصم اخر لدود يدعى عُريعر ، خلف الامير سليمان رئيس بني خالد في الحساء . فقد جاء بجيش جرار من العربان ، وفيهم جنود من عنزى كبيرهم ابن هذال[1] ، وبمدافع حملتها الجمال فاجتازت بها الدهناء . نُصبت المدافع وحوصرت الدرعية . وانضم الى العدو كثيرون من اصحاب الردة ، ومن اهل الوشم وسدير الذين ترددوا في قبول التوحيد .

وقد كان عريعر صاحب مكر وحيلة ، بل كان مخترعاً . فبعد ان حاصر الدرعية شهراً دون نتيجة يشكر عليها اخترع آلة جديدة للحرب سميت الزحافة . وهي صندوق من خشب يسير محمولاً على دراجات ، يجلس فيه من العشرة الى العشرين رجلا وهم في امن من رصاص العدو فيسوقونه الى السور يريدون هدمه . وما اشبه زحافة عريعر بدبابة اليوم.

---

(١) كانوا ولا يزالون من اعداء التوحيد وآل سعود ، وكبيرهم اليوم فهد بك الهذال شيخ العمارات ، فخذ من عنزى .

ثم حاول عريعر ان يصب مدفعاً كبيراً يدمر به الدرعية فامر بجمع الحديد والنحاس لهـذه الغاية وباشر العمل . شبت النيران ، ونفخت المنافخ ، وذابت في المراجل المعادن ، ولكنها في النهاية صدت الطالب ، وعصت القالب . قال مؤرخ ذاك الزمان : « كلما افرغها في القالب ابت »

وكان لعريعر ابن اسمه سعدون لم يرغب مثله في التوحيد فحمل على اهله في الجنوب . اجتاز الدهناء بجيشه ، ومعه المدافع ايضاً ، وهو يبغي اليَمامة لينجد اهلها على الموحدين . ولكنه ، بعد ان جاء اليمامة بمدافعه ، عاد منها بدونها ، مثلما عاد ابوه من الدرعية . ولا تزال هـذه المدافع محفوظة في بريده .

كُسر الاب وكسر الابن ، فجاء للمرة الثالثة موحدين قواهما — لا بد من التوحيد على الاقل في القتال — وحاصرا بُريدَة ، فاستمر الحصار اربعة اشهر ، واستخدمت فيه الزحافات التي لم تخفف عن الاب والابن وجيوشهما ذل الخيبة والاندحار .

ولكن اهل التوحيد لم يستفيدوا من هذه الغلبات المتوالية لان وجود العدو في نجد كان يشجع على العصيان اولئك الذين اكرهوا في دينهم ، واولئك الذين تخاذلوا . لذلك تعددت الردات في الشمال وفي الجنوب . فكان الموحدون اذا امسكوا القصيم ينفلت من ايديهم الخرج واذا وُحدت المجمعة تعود اليمامة الى شركها القديم .

اول من باشر الجهاد في سبيل الدعوة الامير محمد بن سعود واخوانه . ولكن بطل التوحيد الاول هو عبد العزيز بن محمد الذي كان يغزو في الجزيرة شمالها وغربها وشرقها وجنوبها ست غزوات في بعض الاعوام ، فوصل في الجنوب الغربي الى وادي الدواسر ، وفي الشمال الشرقي الى السماوة بالعراق . باشر الغزو في سبيل التوحيد وهو شاب ، وباشره كذلك ابنه سعود — سعود الكبير فاتح الجزيرة .

قد عاش محمد بن عبد الوهاب ليسمع بهذا النصر المبين ويشاهد ثمار دعوته في من كانوا يؤمنون في الدرعية من سائر الاقطار ليسلموا عليه. ولكنه لم يعش ليسمع بفتح الحجاز ودخول سعود ظافراً الى مكة المكرمة. فقد كانت وفاته قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، اي في السنة السادسة والمئتين والالف هـ. الموافقة (١٧٩٢م) يوم كان سعود يحارب عرب المنتفق خارج البصرة، ويوم كانت جيوش الشريف غالب زاحفة من الحجاز لمحاربة اهل نجد.

٤

ان في الصفحة الثالثة من كتاب(١) يتضمن عدة رسائل لمحمد بن عبد الوهاب وابن تيمية ما يلي:

اعلم رحمك الله انه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلُّم هـذه الثلاث مسائل والعمل بها:

اولاً ـ ان الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً بل ارسل الينا رسولاً فمن اطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار. والدليل قوله تعالى.

إنا أرسلنَا إليكُمْ رَسولاً شاهداً عَليكُم كما أرسلْنا الى فِرعونَ رَسولاً. فعَصَى فِرعونُ الرَّسولَ فأخذْناه أخذاً وَبِيلا.

(سورة المزمل آية ١٥)

الثانية ـ ان الله لا يرضى ان يشرك معه في عبادته احداً، لا ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل. والدليل قوله تعالى.

وانَّ المسَاجدَ للهِ، فلا تَدعُوا مَعَ اللهِ أحدًا.

(سورة الجن آية ١٨)

---

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة المنار بمصر على نفقة عيسى بن رميح من اهالي نجد، وهو يوزَّع مجاناً. وكذلك «التحفة السنية» التي طبعت على نفقة الامام جلالة الملك عبدالعزيز.

الثالثة – ان من اطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله ولو كان اقرب قريب . والدليل قوله تعالى .

لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ. (سورة المجادلة آية ٢٢)

انك ترى اذن ان الشيخ محمد بن عبد الوهـــاب ، مثل ابن تيمية والامام احمد بن حنبل ، يعود في هذه الاصول الى المصـــدر الاول الاعلى – الى القرآن فكل ما هو مبني عليه من العقائد والاحكام لا يُرَد ولا ينتقد . ولكن الحنابلة والوهابيين لا يختلفون في هذا والائمة الاخرين . انما الخلاف في التفسير والاجتهاد . فالجعفريون اي علماء الشيعة ، وهم على جهة الاجتهاد في التطرف ، يفتحون الباب على مصراعيه . والحنابلة وهم على الجهة الاخرى المنـــاقضة يقفلونه . يقرأ الجعفريون بين سطور الكتاب ، وفي تلافيف الآيات . يبنون عليه الاحكام ، وما لا يخلو في بعض الاحـــايين من ابهام ، فيتخذون التفسير وسيلة للفرار من معنى الآية الحرفي . ويقول العلماء الحنابلة ان لا باب بعد الخلفاء الراشدين للاجتهاد ، ان كل ما في الكتـــاب واضح جلي . وهناك بين الفريقين ، علماءُ المذاهب الاخرى اي الحنفيون والشافعيون والمـــالكيون الذين يثبتون حق التفسير ولا يغالون في استخدامه .

بعد الكتاب تجيءُ السنة وهي محترمة متبعة عند الحنابلة والوهابيين . ولكن الاسناد في السنة لا يكون دائماً محققاً فيثبت بعض المحدثين بعض اعمال النبي واقواله ، ويثبت كل المحدثين بعضها ، ويختلف المحدثون في جملة منها . هوذا منشأ الاختلاف بين الشارحين والمفسرين .

ولكن الامام احمد بن حنبل اهتدى على ما راى الى الطريق التي

فيها العلم الوضعي ، الواضح الجلي ، في ما هي السنة . وكانه غربل الاحاديث ونبذ كل ما ليس بالاجماع ، فلا يقبل الا ما يثبته الائمة أجمع. وقد توصل والحال هذه الى اصح الطرائق العملية وجاء بمذهب في الانتخاب ، ولنا ان نقول في التفسير ، يصح ان يدعى بالمذهب العقلي الوضعي .

هي القاعدة التي وضّحها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في قوله : « الحق والصواب ما جاءت به السنة والكتاب ، وما قاله وعمل به الاصحاب ، وما اختاره الائمة الاربعة المقلدة في الاحكام المتبعة ، فقد انعقد على صحة ما قالوه الاجماع » . ثم قال : « والسنة في عرف العلماء المتأخرين هي السالمة من الشبهات في الاعتقادات » .

وقد قام ابن تيمية في القرن الثامن للهجرة ينصر ابن حنبل وينشر مذهبه ، بل ينصر ما رآه حقاً ، ويبين ان مذاهب الائمة كلها لا تختلف في الحق بعضها عن بعض . فألف الرسائل في الحديث والعبادات ، وفي زيارة القبور ، وكان للائمة مثل الرسول بولس للمسيح .

قد اسلفت القول ان اهل نجد ، على ما كانو فيه من سخيف العبادات ، هم اصلاً حنابلة . وقد كان جد الشيخ محمد وابوه وغيرهما من القضاة يستخرجون الاحكام على مذهب الامام احمد . اما الشيخ محمد نفسه فقد طالما تمثل بهذه الابيات :

باي لسان اشكر الله انه لذو نعمة قد اعجزت كل شاكر
هداني الى الدين القويم تفضلاً علي وبالقرآن نور البصائر
وبالنعمة العظمى اعتقاد بن حنبل عليه اعتقادي يوم كشف السرائر

قد كان الشيخ محمد معجباً ايضاً بابن تيمية مكثراً من مطالعة كتبه . وهو القائل : « لست اعلم احداً يجاري ابن تيمية في علم الحديث والتفسير بعد الامام احمد بن حنبل » . انك ترى اذن

ان المذهب الوهـــابي هو في اصوله المذهب الحنبلي . وازيدك علماً ان كثيرين من اهـــل نجد – من اهل التوحيد – يدعون انفسهم حنابلة ويؤثرون هذا اللقب على سواه .

ما فضل ابن عبد الوهاب اذن ؟ ان فضله بالرغم عما ذكرت لعظيم . ليس من الواجب ان يكون المصلح مبتكراً طريقته او مكتشفاً لناموس جديد في الكون او في الحياة . ان المصلح المخلص اولاً في يقينه لا يهاود فيه ولا يحابي ، وهو مخلص في عمله لا يخرج فيه عن يقينه . وانه اذا ما بلغ هذه الدرجة من الاخلاص لمتعصب . والمتعصب مقاتل حتى يستقيم المعوج ، وتصفو موارد العبادة واليقين .

اما مواد العمل واسباب الاصـــلاح فقد يجدها مدفونة في زوايا النسيان ، في ظلمات الماضي ، مكفنة بالغبار والصدأ والعنكبوت ، ولا يزال الرمق فيها . لا تزال ، رغم ما أثقلت به من الخزعبلات والخرافات ، على شيء من الحياة . ان المصلح ليجد ها هنا دعوته ومصدر العمل والالهام . اجل ، حيثما الحياة هنـــاك ايضاً بذورها ، وحيثما البذور هناك النشوء والنمو والخلود .

اننا نقول اذن ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الذي انقذ المذهب الحنبلي مما كان يكتنفه في نجد من اسباب الفساد والاضمحلال . هو الذي اكتشف بذور الحياة فيه فاعاد زرعها وجدد موسمها . فهل ندعوه مجدداً ؟ انه لكذلك وفوق ذلك . هل ندعوه مصلحاً ؟ قد كان ولا شك الباعث الاكبر لاصلاح كبير في نجد ، ولكنه قصر ، اذا توسعنا بمعنى الكلمة ، دون الاصـــلاح الاكبر في الاسلام . عاد الشيخ محمد الى الكتاب والسنة فجاء في حملاته على الشبهات والخرافات شيءٌ من الشدة في التحريم لا نظنهـا تدوم . هل ندعوه معلماً ؟ نعم هو معلمٌ كبير ، وقد تجاوز في رسالته التعليم . فقد علّم اهل نجد دين التوحيد الذي كانوا

قد نسوه ، ونفخ فيهم فوق ذلك روحاً قوميـــة عظيمة ، تلك الروح القومية التي مكنتهم ، وهم محصورون في بوادٍ من الرمـال في قلب البلاد العربية ، من التوسع والاستيلاء ، فقلدتهم من القوة سيفاً نبوياً ، ومن التفوق رمحـــاً حنفياً ، ومن التقشف والصبر والثقة بالنفس ، بعد الثقة بالله ، درعاً من دروع الصحابة . هوذا الفضل الاكبر للشيخ محمد بن عبد الوهاب . ان دعوته في نتائجها سياسية كما ترى ودينية معاً . وما كانت كذلك لولا تمسكه في اكثر الاحايين بمعاني الكتـــاب والاحاديث الظاهرة اي بمعانيها الحرفية .

خذ لك مثلاً مسألة من أدى الشهادتين ولم يصلّ ولم يزكّ . فان الامام الشافعي وابا حنيفة لا يحكمان بكفره ، اذا كان لا يجحد الصلاة وغيرها من اركان الاسلام . وحجتهما في ذلك حديث رواه عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله (صلعم) يقول : خمس كتبهن الله على العباد من اتى بهم كان له عند الله عهد ان يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ، ان شاء عذبه وان شاء غفر له . اما الامام احمدفيحكم بكفره ، ويحتج باحاديث منها : بين الرجل وبين الشرك والكفر ، ترك الصلوة . ومنها : امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ، ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ويقيموا الصلوة ويأتوا الزكوة .

وهناك مسألة اخرى في الصلوة والعبادة. يقول العالم الوهابي: من قال: لا اله الا الله ومحمدرسول الله وهو مقيم على شركه يدعو الموتى ويسألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، فهذا مشرك كافر حلال الدم والمال. اما اذا وحّد الله تعالى ولم يشرك به شيئاً ولكنه ترك الصلوة والزكوة تكاسلا فقد اختلف العلماء في كفره . ولا عصمة للعلماء الا في الاجماع. كل واحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله . جـــاء في الكتاب : فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله . وقال العلماء : الرد الى

الله هو الرد الى كتابه .

العود اذن الى الكتاب وما فيه من آيات يلزمها شرح او تفسير ، وغيرها ما هي واضحة جلية الا انها انزلت لغرض معلوم ، في وقت معلوم . فمن عاد الى التاريخ ، ولجأ الى مفاتح التفسير ، رحب لديه ولدى اتباعه مجال الفكر ، وضاق غالباً مجال اليقين . ومن تمسك بالمعنى الظاهر كانت النتيجة عنده وعند اتباعه عكس ما ذكرت . اما اليقين فقد يضيع او يضعف في تعدد الشروح والتفاسير ، والعزم يضعف في ضياع اليقين ، ونشر المذهب اذا ضعف العزم في رجاله لا يتم وقد يستحيل .

٥

لم يكن محمد بن عبد الوهاب خشن الطبع قاسي القلب عتيا ، بل كان في حياته الخاصة والعامة لطيفاً ،محسناً ،شفيقاً ،حليماً . على انه في يقينه ، شأن كبار المصلحين ، لم يكن ليهاود او يلين . علّم الناس معرفة الله ومعرفة النبي ومعرفة الدين بالادلة القرانية ، والاحاديث النبوية ، على طريقة الصحابة ، خلافاً لعلماء المسلمين في الامصار الذين يعلمون هذه الموضوعات الثلاثة على طريقة المتكلمين . قد ناله من الجهلاء وادعياء العلم ما نال كل مصلح كبير . ولا سيما وقد جاء يردعهم عن عادات الاباء الاسلاف الذين درجوا على حب البدع والخرافات . على انه لم يكفر احدا من هؤلاء بل كان يقول : معاذ الله ان اكفّر من قال : لا اله الا الله . ولكنه في رجوعه الى الكتاب والسنة اصطدم بآيات واحاديث نبهت فيه نعرة الاقدمين فحرض على الاعمال التي شوهت في الماضي كل دين . على أن الاصلاح ، في بادىء امره ، لا يكون بغير الهدم ، ولا يقوم بغير شيء من الارهاب .

قد جد الشيخ محمد واجتهد في نفع الناس ، ولكنه رآهم واكثرهم من البدو لا يفقهون دقيق الكلام ، ولا يساقون بالبرهان ، فقال بالجهاد ،

خصوصاً والكتاب يقدم السلاح، والسنة تقدم الذخيرة.

«وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً»

سورة الجن آية ١٨

أُمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ويقيموا الصلوة ويأتوا الزكوة (الحديث)

قُل لِلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. (سورة الزمر آية ٤٥)

عليهم اذن! فأنهم وان قالوا: لا اله الا الله وهم يرجون شفاعة غيره، او يشركون بالشفاعة غيره، انهم لمشركون. قد أمرت ان اقاتل الخ. هوذا مصدر الشدة، ومبرر القتال. وقد كتب الشيخ محمد الى عبدالله بن سحيم مطوع الرياض يقول:

«الغلو في علي بن ابي طالب مثل الغلو في المسيح. من غالى في نبي، او صحابي، او رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الالوهية مثل ان يقول: يا سيدي فلان اغثني. او انا في حسبك، فهذا كافر يستتاب فان تاب والا قتل». ومن كتاب اليه ايضاً:

«المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت اوثاناً تعبد من دون الله، والاحجار التي تقصد للتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز ابقاء شيء منها على وجه الارض مع القدرة على ازالته».

وقد قال النبي: خيرُ القبور الدوارس.. ان الشيخ محمد ليستشهد اذن بالكتاب والحديث، وبأقوال الصحابة والائمة الاربعة، على قتل الكفار والمشركين. ولكنه في بعض رسائله يشكو ويعتذر. فقد جاء في واحدة منها:

« ولا يخفاكم ان الذين عادونا في هذا الامر هم الخاصة لا العامة

فكاتبناهم وخاطبناهم بالتي هي احسن وما زادهم ذلك الا نفوراً »

وفي كتاب الى عبد الرحمن السويدي في العراق يقول :

« اما القتال فلم نقاتل احداً الى اليوم الا دون النفس والحرمة وهم الذين اتونا في ديارنا ولا ابقوا ممكنا . ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة . وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها »

ان هاهنا شيئاً من الغلبة للطبع الانساني ، ولكنها غلبة لا تثمر دائماً ، خصوصاً اذا اصطدمت بالنزعات والنعرات ، فتقوم الآيات مقام الحسنات ، فلا يرى المصلح اذ ذاك غير مشرك حلال الدم والمال ، وقبورٍ ذي قباب لا تصلح لغير الهدم . ولكن الاشراك درجات ، وفي الايات معانٍ ظاهرة او باطنة يتسلح بها من قاوموا الشيخ وضللوه .

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ . (الاية)

(سورة السبا آية ٢٢)

مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ (الاية)

(سورة البقرة آية ٢٥٦)

قال المقاومون : ورسول الله مأذون ، وبالتالي ملائكته ، فتوسع المتطرفون في المسألة وقالوا : والمقربون كذلك من رسول الله وملائكته ، اي الاولياء مأذونون ، فجرّ ذلك الى الشرك العميم ، والكفر الذميم .

هي ذي حجة ابن تيمية وابن عبد الوهاب الكبرى . ليس للملائكة ولا لاحد من المخلوقات سهم واحد في ملك الله ، وليس له اعوان تعاونه كما تكون للملوك اعوان .

ولكن – « ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له » (الاية) . اذن هناك شفاعة ، وهي تنفع اذا كان المتشفع به مأذوناً له . وها هنا اختلف العلماء والمفسرون . كيف السبيل الى معرفة من اذن له الله

بالشفاعة ؟ قد اجاب ابن تيمية عن هذا السؤال واحسن التخلص فقال : « وفي كل حال الاذن من الله فالامر اذن كله له تعالى » . لا نزال في الدائرة التي لا نهاية لها . انت تردني الى الكتاب وانا اردك الى الله . واذا رددتني الى الله اردك الى كتابه تعالى وسنة رسوله .

اما الدعاء وهو نوع من التشفع ، فقد حلله ابن تيمية في قوله مامعناه: ان كل ما لا يستطيعه الا الله لا يجب ان يطلب الا منه تعالى[١] ولا يجوز ان يقول الانسان لملك او لنبي اولشيخ ، سواء كان حياً ام ميتاً ، اغفر ذنبي او انصرني على عدوي الخ. ومن سأل ذلك فهو من المشركين الذين يعبدون الملائكة والانبياء والصور والتماثيل . ولكن هناك نوعاً من الدعاء يجوز ، كأن تقول لجيرانك عند ارتحالك عنهم : ادعوا لنا بالخير والسلامة . هذا ما يسميه العلماء اجابة غائب لغائب . ثم توسعوا فيه فقالوا ان الناس لما اجدبوا سألوا النبي ان يستقي لهم فدعا الله لهم فسقوا . وفي الصحيحين ايضاً ان عمر بن الخطاب استسقى بالعباس فدعا فقال: اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بعم نبينا فأسقنا فسقوا .

هي ذي حجة اصحاب الاولياء . فاذا استجاب الله طلبة النبي وعم النبي افلا يستجيب كذلك طلبة صهره وابنته وابنيها والصالحين من سليلتيها ؟ ولكن ابن تيمية وابن عبد الوهاب يردان عليهم في قولهما ان هذا من باب طلب الانسان الحي ما يقدر عليه فان حقيقة التوسل بالنبي وبعمه هو طلب الدعاء منهما في حياتهما . وذلك جائز . اما الميت فلا يستطيع امراً .

قد نهى النبي حتى عن التعظيم . لذلك لا يقبل اهل نجد يد سلطانهم ،

---

(١) قد ذكر ابن تيمية شفاء الامراض – امراض الادميين والبهائم – والنصر على الاعداء وغفران الذنوب ، وتعلم القرآن ، واصلاح القلوب ، كلها من الامور التي لا يجوز ان تطلب من غير الله .

ولا يخضعون امامه او يطأطئون له الرأس . لا يجوز السجود والتعظيم لغير الله . وقد نهى النبي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، فتُصلى صلوة الفجر قبل الشروق وصلوة المغرب بعد الغروب ، ليبعد المسلمين عن العقائد التي كانت شائعة في الجزيرة خصوصاً في اليمن وفي الاحساء ، اي عقائد عبدة الشمس والكواكب ، المجوس والصابئين ، فلا يسجدون مثلهم للشمس .

اما زيارة القبور فمشروعة شائعة عند الوهابيين ، والدعاء للميت هي بمنزلة الصلوة على جنازته . فاهل نجد الذين يواظبون على هذه العادة يقولون: سلام عليكم اهل ديار قوم مؤمنين وإنّا ان شاء الله بكم لاحقون. يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين. نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا اجرهم ولا تفتنّا بعدهم .

هو دعاء جميل . واجمل منه جواب النبي لرجل قال له : ما شاء الله شئت . فقال النبي « أجعلتني لله نداً . ما شاء الله وحده » . وقد قال ايضاً : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد . ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد » . وهذي هي القاعدة التي يجري عليها اليوم اهل نجد فيقولون مثلا : ما شاء الله ثم ما شاء ابن سعود ، نسأل الله ثم ابن سعود، لولا الله ثم ابن سعود لهلكنا .

اما التوسل فهو على ثلاث درجات :

الاولى — ان يأتي المرء الى قبر نبي او ولي او ما يعتقد انه قبر نبي او رجل صالح ويسأله حاجته في ما لا يقدر عليه الا الله ، فهذا شرك صحيح يجب ان يستتاب صاحبه . فأن تاب ، والا قُتل .

الثانية — ان يطلب المرء من النبي او الولي او الشيخ الصالح ان يدعو له كما يقول للحي: ادع لي كما كان الصحابة يطلبون من النبي الدعاء. هذا مشروع في الحي لا في الميت من الانبياء والصالحين. دليل ذلك ان

الناس في زمن عمر استغاثوا بالعباس عم النبي ولم يجيئوا قبر النبي مستغيثين به . وقد قال النبي لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فأن صلوتكم تبلغني [١] .

الثالثة - ان يقول المرء : اللهم بجاه فلان عبدك او ببركة فلان ، او بحرمة فلان ، اسألك كذا وكذا . هذا شائع بين الناس ولكن لم ينقل عن احد من الصحابة انهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء . وانهم اذا اجازوا التوسل بحق احد الصالحين او بشفاعته فيجب ان يكون ذلك في حياته وحضوره .

هذي هي درجات التوسل الثلاث ، ومنها واحدة فقط فيها الشرك الصحيح فيحلل ابن تيمية وابن عبد الوهاب قتل صاحبه ان لم يتب . اما الدرجتان الثانيتان فالذنب فيهما شبيه بالخطيئة العرضية عند المسيحيين ، ولا يجوز قتل من عُدَّ توسله منهما .

---

(١) ليس في المذهب الوهابي او الحنبلي ما يمنع المسلم عن الحج او يوجب هدم قبر النبي ولكن الحنابلة والوهابيين يختلفون عن سواهم من المسلمين في انهم يزورون القبور للسلام كما قلت والدعاء لا للتوسل والاستغاثة . وقد كان الصحابة اذا زاروا قبر النبي يسلمون عليه فأذا ارادوا الدعاء ينحرفون عنه ويستقبلون القبلة ويدعون الله وحده . وكانوا ينهون عن التمسح بالقبر والتقبيل . قال ابن تيمية . « ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها الا الحجر الاسود . وقد ثبت في الصحيحين ان عمر رضي الله عنه قال والله اني لاعلم انك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا اني رايت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

النبذة الثالثة

آل سعود

منذ نشأتهم الى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد

١١٥٧ – ١٣٠٩ هـ

١٧٤٤ – ١٨٩١ م

امراء آل سعود

سعود بن محمد بن مقرن			توفي ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م
محمد بن سعود	تولى الامارة بعد ابيه		توفي ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م
عبد العزيز بن محمد	تولى الامارة	١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م	توفي ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م
سعود بن عبد العزيز	تولى الأمارة	١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م	توفي ١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ م
عبد الله بن سعود	تولى الامارة	١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ م	توفي ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م

فترة الاستيلاء المصري .

محمد بن مشاري بن معمر
ومشاري بن سعود } تنازعا الامارة نحو سنة ونصف سنة

تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود	تولى الامارة	١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م	توفي ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م

مشاري بن عبدالله بن حسن بن مشاري بن سعود   حكم ٤٠ يوماً

فيصل بن تركي (الدور الاول)	تولى الامارة	١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م	تنزل ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م

خالد بن سعود بن عبد العزيز	تولى الامارة	١٢٥٥ هـ ١٨٣٩ م	توفي	١٢٥٧ هـ ١٨٤١ م
عبدالله بن ثنيان بن سعود	تولى الامارة	١٢٥٧ هـ ١٨٤١ م	توفي	١٢٥٨ م ١٨٤٢ هـ
فيصل بن تركي (الدور الثاني)	تولى الامارة	١٢٥٨ هـ ١٨٤٢ م	توفي	١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م
عبدالله وسعود ابنا فيصل تنازعا الامارة تسع سنوات	من	١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م	الى	١٢٩١ هـ ١٨٧٤ م
عبد الله بن فيصل	تولى الامارة	١٢٩١ هـ ١٨٧٤ م	تنزل	١٣٠٢ هـ ١٨٨٤ م
محمدبن الرشيد	تولى على نجد من	١٣٠٢ هـ ١٨٨٤ م	الى	١٣٠٧ هـ ١٨٨٩ م
عبد الرحمن بن فيصل	حكم نحو سنة			
فترة الاستيلاء الرشيدي نحو عشر سنوات				
الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن	تولى الحكم	١٣١٩ هـ ١٩٠١ م	توفي	١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م
الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود	تولى الملك	١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م		— —

آل سعود

الدور الاول – الفتوحات

في عهد السلطان احمد الثالث {١١١٥ – ١١٤٣ هـ / ١٧٠٣ – ١٧٣٠ م} وقبله ، ايام كانت بلاد الشام تئن من مظالم الولاة وفظائع الانكشارية ، لم يكن للدولة العثمانية اثر يذكر او يشكر في شبه جزيرة العرب . ولكن شبه الجزيرة نفسها لم تكن في حال تغبطها عليه جارتاها الشام والعراق . فقد كان الاشراف يحكمون في الحجاز وعسير ، والسادة العلويون يحكمون اليمن . وكان الامراء وشيوخ القبائل كل في قطره ، وفي قبيلته ، يحكم مستقلاً عن الامراء الاخرين ومعادياً لهم في اكثر الاحايين .

وكانت بلاد نجد والاحساء من الشعرى الى قطر والكويت ومن الافلاج الى جبل شمر ، مقطعة الاوصال ، مشتتة الاحوال لا صلة لقبيلة باخرى تثمر خيراً او تدوم ، ولا بين الحواضر المستقلة بعضها عن بعض صلات ولاء الا نادراً .

لم يكن والحق يقال غير السيف فاصلاً واصلاً ، ولم يكن غير الغزو سبيلاً الى الاستيلاء ، وسبيلاً رحباً الى الرزق والثراء .

اجل قد كان القتل طمعاً بالاستيلاء من الامور المألوفة . وهناك بيت من الشعر طالما سمعت امراء العرب يتمثلون به :

بسفك الدما يا جارتي تحقن الدما   وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

هذا اذا استقام الامر لامير واحد فيحكم في الجميع حكماً ابوياً ركناه المساواة والحكمة . اما العدل فامراء العرب على الاجمال يعرفونه ويعززونه غالباً في احكامهم . ولكن القتل عندهم لا يكون دائماً دون الحرمة والنفس ، ولا يكون دائماً من اجل المساواة والعدل . قد كان

القتل على الاجمال الطريق الاقرب والاسهل الى الاستيلاء والسيادة . انا صاحب الرياض وانت صاحب الدرعية ، فاما ان اقتلك او اغلبك ثم اجلوك عن البلاد واستولي عليها واما ان تفعل انت ذلك فيكون لك فيّ ما اريده فيك . السابق الى القتل الفائز .

ولم يكن القسم الجنوبي من نجد الذي يدعى بالعارض ليخرج عن هذه القاعدة . فقد كانت بلدانه في حوزة امراء من بيوت وقبائل شتى يتوالون ويتغازون عملا بمصلحة ، او طمعاً بكسب او دفعاً لمحنة او خطر . هذي هي اليمامة وهي في عزلة عن المنفوحة . وهذي هي المنفوحة وهي تابعة للرياض اليوم ولخصم الرياض غداً . وهذي هي الرياض وهي مستقلة عن الدرعية ، والدرعية وهي لا تقر بالسيادة لا للعيينة ولا للرياض ، وقس على ذلك . اما المسافة بين اقصى البلدين من هذه البلدان فلا تتجاوز الخمسة والسبعين ميلا .

ومن اولئك الامراء حكام ذلك الزمان مقرن بن مرخان الذي يمت بنسبه الى بكر بن وائل ،فجديلة ،فربيعة[1]. ومن كبار اجداد مقرن الاولين الامير مانع الذي بسط سيادته على الاحساء وقطر والقطيف . هو جد الموانعة الاسرة المعروفة في نجد ، ومؤسس الدرعية . ولكن ملكه الذي تجاوز حدود نجد لم يدم طويلا ، ولم يكن ملك ابنائه ليختلف كثيراً عن ملك سواهم من الامراء ، فما اشتمل على غير بلدين او ثلاثة والقرى التابعة لها . هي حال بني مقرن في طليعة القرن الثاني عشر للهجرة ، فقد كان محمد بن سعود بن محمد بن مقرن اميراً على الدرعية ، وهو على ولاء وابن معمّر امير العيينه وابن دواس امير الرياض . وفي عهده ظهر محمد بن عبد الوهاب مجدد المذهب الحنبلي ورسول التوحيد ،

---

(١) كل من انتسب الى بكر بن وائل ومتّ بنسبه الى ربيعة بن نزار يجتمع مع النبي في نزار بن معد بن عدنان .

١١٥٧ هـ
١٧٤٤ م

فعقد بينهما العهد الذي جاء ذكره في النبذة السابقة ، وكان امير الدرعية واخوانه ثنيان ومشاري وفرحان اول من باشروا الجهاد في سبيل الدعوة الوهابية .

اما اول من قاوم المجاهدين فهو كما اسلفت القول دهام بن دواس او دياس صاحب الرياض . قد حدثت المناوشات الاولى في المنفوحة ، التي حمل عليها دهام لان بعض اهلها تمذهبوا بالمذهب الجديد فبادر ابن سعود الى الدفاع عنهم وعن بلدتهم . هذي هي فاتحة الحرب الدينية السياسية بين صاحب الدرعية وصاحب الرياض ، ثم بين صاحب نجد واصحاب الاقطار العربية الاخرى .

وقد انتصر اهل التوحيد انتصاراتهم الاولى في البلدان المجاورة لهم بوادي حنيفة ، اي في العيينه والجبيلة وحريمله وقراها . ثم استمروا غازين متقدمين حتى وصلوا شمالاً الى الزلفى وجنوباً الى الخرج . على ان المناوئين في وسط البلاد » في الوشم وسدير ، ظلوا يقاومونهم اكثر من عشرين سنة وهم يحالفون اعداءهم الكبار مثل الدواس والعريعر عليهم.

قد كان سعود الاول اذا اخذ بلداً يولي عليه احد ابنائه ، اي ابناء ذاك البلد المتوجهين ، كما فعل في العيينه التي كان عثمان بن معمر متولياً الامارة فيها لصاحب الحساء . فقد تذبذب عثمان وتردد بين صاحبه وبين الموحدين ، فقتل في المسجد بالدرعية ، فولى سعود ابنه مشاري بن معمر مكانه . وذلك برايه كما يقول ابن بشر « لا برأي الناس الذين ارادوا انقراض بيت معمر ». وهذه الخطة التي اتخذها سعود الاول هي خطة الملك عبد العزيز .

قلت ان اهل الوشم وسدير لم يقبلوا في اول الامر التوحيد بل ظلوا يقاتلون اهله ، ويعيشون في بلدانهم ، فيغرونهم على الردة . لولا ذلك لما تمكن ابن دواس من محاربة آل سعود ثلاثين سنة ، فكان اذا ضاق

في الجنوب ذرعاً يشغلهم بالدسائس في الشمال.

ولم تكن الوقعات في بادىء الامر كبيرة . — واشتد القتال في وقعة دلقه في قلب الرياض امام القصر فقتل من الفريقين عشرون رجلا. ولم تكن الغارات كلها ويلا وثبوراً . — شن ابن سعود ورجاله الغارة على دهام في قصره بالرياض فرموه بالرصاص في عليته وخرجوا سالمين . كانهم خرجوا الى الصيد . وان هي الا نزهة في بعض الاحايين .

الا انها حرب في تاثيرها بالناس وفي اعم نتائجها ، حرب متقطعة طويلة العهد . وقد كانت الوقعات تزداد شدة والقتلى يزدادون عدداً كلما توسعت سيادة ابن سعود . بيدَ انه لم يقتل في مدة ثلاثين سنة غير اربعة الاف من العرب ، الف وسبعمئة من الموحدين والفان وثلاثمئة من اعدائهم ، اي مئة وثلاثة وثلاثون رجلاً كل سنة . وقد لا يخلو حتى هذا العدد من المبالغة ، خصوصاً اذا كانت الوقعات او اكثرها مثل التي يصفها ابن بشر في قوله :

« وفي هذه السنة سار المسلمون واميرهم عبد العزيز الى الرياض وجرت وقعة عظيمة على اهل الرياض تسمى وقعة ام العصافير قتل فيها اربعة من اهل الضلال ولم يقتل من المسلمين غير واحد . ثم انقلب المسلمون الى بلادهم ، بعد تحصيل مرادهم » .

« وقعة عظيمة » قتل فيها « اربعة من اهل الضلال » . هذا الذي يحملني على الاعجاب بابن بشر . فهو المؤرخ العربي الوحيد، على ما اظن، الذي لا تصعد ارقامه في عد الجيوش والقتلى الى الآلاف ، الا في الفتوحات الكبرى التي سيجيء ذكرها .

بعد محمد بن سعود واخوانه الانصار ظهر عبد العزيز بن محمد الذي شرع في عهد ابيه يشن الغارات، فحمل رايات التوحيد الى اقصى الاقطار العربية وزرع بذور السيادة السعودية في البوادي والحضر . ولكنه على تعدد

غزواته واتساع مجـــال جولاته ، لم يكن غير ممهد السبيل لابنه سعود الفاتح الاول الاكبر .

١١٧٨ هـ
١٧٦٤ م

وصل عبد العزيز في غزواته الغربية الجنوبية الى وادي الدواسر ، فخرج عليه اهـل نجران ، فتقهقر الى بلاد الخرج فتبعوه . وقد اصطدم الجيشان في حائر سبيع فكانت الغلبة لاهل نجران الذين قتلوا اربعمئة من الموحدين . اما الفاجعة الاخرى في هذه الوقعة فهي ان دهام بن دواس الذي كان قد حالف آل سعود خذلهم بل خانهم فانضم بجيشه الى اهل نجران . ولما رجع عبد العزيز من هذه الوقعة الكبيرة عزّاه الشيخ محمد بن عبد الوهاب قـــائلاً: لا تهِنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين .

وفي السنة التالية لوقعة حائر سبيع توفي الامير محمد فبويع على الامامة ابنه عبد العزيز الذي ظـل يغزو الغزوة تلو الاخرى واكثرها على الرياض حتى تمكن من فتحها بعد خمس سنوات من امـامته ، اي في السنة السابعة والثمانين والمئة والالف ، ففر ابن الدواس هارباً .

ولم يأت بعد ذلك بحركة تزعج اهل التوحيد او غيرهم من اهل نجد . مات دهام في الدلم ، على حاشية الربع الخـــالي المحرقة ، وهو بعد هذه السنين الطوال يستحق الرحمة فقد كان ، رحمه الله ، ثابتاً في النضـال والضلال ، ثابتاً في تصلبه وتقلبه .

١١٨٩ هـ
١٧٧٥ م

بعد فتح الرياض بسنتين اجتاز عبد العزيز برجاله النفود فوصل الى القصيم ووقف امام بريده فحاصرها ثم دخلها ظافراً . وكان قبل ذلك قد دحر مراراً اعداء التوحيد الاخرين اي عريعر بن دجين وابنه سعدون وعربانهم الحسويين والعراقيين ، وغنم مدافعهم التركية التي جاءوا بها من الحسا محملة على الجمال . ولم ترضه هذه الانتصـارات في بلاده فخرج يتتبع العريعر فغزا الاحساء التي كانت

يومئذٍ لبني خالد وعاد منها ظافراً بغنائم كثيرة .

ولكنه في غزواته وفتوحاته لم يقلق الدولة ويزعج المسلمين الا عندما دخل ابنه سعود كربلاء ، محط رحال الشيعة ، ونقطة الدائرة في شفاعة الاولياء ، فالتحمت رجاله باهلها ، وبعد مذبحة هائلة في الاسواق هدم الموحدون القبة التي قيل انها كانت فوق قبر الحسين « ونهبوا البلد . ثم زحفوا الى المشهد (النجف) ، وخارج سورها مدينة اخرى هي مدينة القبور ذي القباب ، فردهم عنها يومئذٍ بحرها [1] .

١٢١٥ هـ
١٨٠٠ م

اما غزوة كربلاء التي ضج لها المسلمون ، خصوصاً الشيعة منهم ، فقد ادت الى اغتيال الامام عبد العزيز وهو يصلي العصر في الجامع بالدرعية . قتله في شهر رجب من هذه السنة رجل شيعي جاء من العراق متنكراً كدرويش . وقيل ان الرجل كردي من اهل العمادية قرب الموصل . ولكن الرواية الاولى هي اقرب الى الصواب .

١٢١٧ هـ
١٨٠٣ م

وكان قبل وفاته بخمس عشرة سنة قد عين ابنه سعوداً خلفاً له ، فبايعه الناس اذ ذاك على الامامة عملاً برأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولا عجب اذا اعتزل عبد العزيز العمل في شيخوخته ، وهو الذي قضى اكثر من اربعين سنة من حياته في الغزو والحروب ، فلا كلّ ولا ملّ ، ولا قعد بعد هزيمة ، ولا لها بعد انتصار . فقد كان يزحف برجاله من اقصى البلاد الى اقصاها في يومي البؤس والنعيم ، فيهب يوماً على حواشي الربع الخالي ويوماً في القصيم ، ويوماً في الحساء ، ويوماً في السماوة بالعراق ، وآخر في وادي الدواسر ، كانه من العناصر كالمطر او السموم . وقد

---

(١) كان بحر النجف غوراً مثل الاهوار التي تكثر عند ملتقى الرافدين وحول البصرة ولم يبق منه اليوم غير ارضه المجوفة الجافة .

كان مطراً للموحدين وسموماً لاعدائهم ، يغزو في بعض السنين ست غزوات ويعود بالغنائم الى الدرعيه فيقسمها على السواء بين رجاله .

اما ابنه سعود فكان قد باشر الغزو وقبل ان بويع على الامارة والامامة ، فظهرت فيه قوى التوحيد ، توحيد الدين وتوحيد السيادة العربية ، بأروع مظاهرها وأتمها . هذا بالرغم عمن تظاهر عليه من الاعداء الاشداء ، وقوة كل واحد الحربية تفوق قوتي العريعر والدواس معاً . كيف لا وهم من ولاة الدولة العثمانية او من حلفائها تعضدهم وتمدهم بالسلاح والرجال ، وبالذخيرة والمال .

ومن هؤلاء الاعداء الشريف غالب بن مساعد شريف مكة في ذلك الزمان . فقد كان على ما يظهر حائراً في بداءة امره لا يريد ان يعادي ابن سعود او يواليه . ولكنه اظهر في الموالاة ميلا مريباً عندما كتب الى عبد العزيز ابي سعود يسأله ان يرسل اليه عالماً من علماء نجد ليفهمه دعوة ابن عبد الوهاب . فارسل الامام احد قضاة نجد يحمل كتاباً من الشيخ الى العلماء الاعلام في بلد الله الحرام . ولكن اولئك العلماء لم يرغبوا في مناظرة القاضي النجدي ، ولا كانوا مع الشريف في ما اظهر من حب المسالمة والولاء . وقد يكون هو المصانع وهم خدام قصده الحقيقي ، اذ انه شمر منذ ذاك الحين ، وهذي هي الحقيقة التي لا ريب فيها ، عن ساعد العداوة لاهل نجد ، فارسل اخاه الشريف عبد العزيز بجيش من عرب الحجاز ، وقد انضم اليه كثيرون من عربان شمر ومطير وقحطان ليهاجموا الدرعية . ولكنهم توقفوا في وادي السر ، فحاصروا قصراً من قصوره دون طائل . ثم جاء الشريف غالب نفسه ينجد اخاه ، وعادوا بعد اربعة اشهر الى الحجاز دون ان يصيبوا مغنماً .

على انه قد كان لهذه الغزوة نتيجة سياسية ظهرت في قيام عرب شمر

ومطير على الموحدين ، فضربهم سعود في وقعة العدوة[١] ضربة شتتت شملهم ثم غزا جبل شمر فادخل اهله في دين التوحيد .

ومن اعدائه سليمان باشا والي العراق الذي لم يكن في قصده مخاتلاً . فقد سير العساكر الى الاحساء لمحاربة اهل نجد فيها ، وكان ابن سعود قد احتل الهفوف والمبرز ، فعادت عساكر الدولة مدحورة .

اما ثويني بن عبدالله الذي كان عاملاً في المنتفق والبصرة ، والذي انهزم مراراً في حملاته على اهل نجد ، فامره عجيب . عندما عزله والي بغداد لجأ الى عدوه الامير عبد العزيز في الدرعية فاكرمه واغدق عليه . ثم عاد فلجأ الى الوالي سليمان عندما كان يجهز حملة جديدة على آل سعود. جاء ثويني متندماً ، ثم جاء متبجحاً — انا الذي يجمع الاموال ، ويقتل الرجال ، وينتصر في كل حال . نُخدع الوالي ثانية وامرّه على الجيش فجاء بالمدافع الضخمة يحاصر بريده فحاصرها ، وترك مثل عريعر مدافعه وكثيرين من رجاله تحت اسوارها .

لم تهزم لسعود راية في غزواته كلها وفتوحاته ، ولا حالت دونها اوعار شبه الجزيرة واهوال بواديها. فقد اجتازت جيوشه حتى الحرة . قال ابن بشر : « سار بالمسلمين يعتسف من الفيافي السهل والصعاب ، ويطوي من اديم الارض كل موحشة يباب ، لا يسمع فيها غير اصوات العرج والذباب ، يضل فيها القطا ، ويحير الخريت في مهامهها ، لا يرى بقفرها أنيس ، ولا يبصر في رحبها اثر العيس . مظمأة يحاكي لون اديمها زرقة السماء ، مغبرة الافق والارجاء ، يحس الساري بها للجن فيها من الغمغمة والزمزمة . وبعد انضاء الاعوجيات ، وارقال المهريات[٢] وسباسب الفلاة تبين له سواد الحرة » .

---

(١) من مزارع شمر قرب حائل

(٢) الارقال نوع من السير والمهريات نوع من الابل تنسب الى مهره اسم قبيلة.

الحرة ! تلك المفازة البركانية وهي في حصاها المسنمة وحجارتها التي كالسياخ اكثر اهوالاً مما وصف ، وكان في وصفه صادقاً . اني اتخيّل ابن سعود ورجاله يرددون دائماً بيت ابن ثعلبه :

ولا تجهمني ليل ولا بلد ولا تكائدني عن حاجتي سفر

رفعوا رايات التوحيد في ما وراء الحرة ، وفي جبال شمر وعمان ، وشيد سعود قصراً للحامية في البريمة على حدود مسقط الف قدم فوق البحر[١] ووصل الى رأس الخيمة على الخليج ، وزحف الى تربه فاحترب والشريف غالب فيها فكسره. ثم بايعه اهل البلد « ودينوا »[٢] فكانت فاتحة المأساة الحجازية التي ختمت بنصر ابن سعود ثانية في العقد الثاني من القرن العشرين .

١٢١٤ هـ
١٧٩٩ م

قيل والقول سديد، ان تربه مفتاح الطائف ، والطائف مفتاح مكة. ومن مدهشات التاريخ في ما يعيده من اخباره ما سأقص الان. كان للشريف غالب وزير من بيت المضايفي اسمه عثمان بن عبد الرحمن[٣] ولم يكن على ما يظهر مداجياً فوقع بينه وبين الشريف خلاف، فطرده من مكة ، فجاء المضايفي الى ابن سعود يبايعه . ثم جمع له من اهل البادية والحاضرة ، من بيشة ورنية وتربه وقراها جيشاً كبيراً لمحاربة الشريف. فزحفت الجيوش الى الطائف وكان الشريف غالب فيها ففر مهزوماً الى مكة ، فتقفاه سعود والمضايفي بالجنود. وكان وقت الحج فهمّ الحجاج بمقاتلة الفاتحين ولكنهم تخاذلوا وعاد كثير منهم الى اوطانهم . دخل سعود مكة ظافراً ، وكان الشريف غالب وعساكره

١٢١٦ هـ
١٨٠٣ م

---

(١) قد زار الدكتور زويمر Zwemer بريمة سنة ١٩٠١ فوجد الناس هناك مقيمين على دين التوحيد مع انهم من رعايا صاحب مسقط.

(٢) يقول اهل نجد « دين » اي دخل في دين التوحيد .

(٣) من حسنات امراء العرب والاشراف انهم يحافظون على البيوتات التي تخلص لهم الخدمة. فقد عرفت واحداً من بيت المضايفي في خدمة الشريف علي ملك الحجاز السابق.

واتباعه قد رحلوا الى جده ، فاعطى اهلها الامان . ثم شرع ورجاله يهدمون القباب التي بنيت فوق القبور[١] .

وقد كتب سعود كتاباً الى السلطان سليم الثالث هذا معناه :

« من سعود الى سليم : اما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من محرم سنة ١٢١٨ وآمنت اهلها على ارواحهم واموالهم بعد ان هدمت ما هناك من اشباه الوثنية ، والغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً . وثبّت القاضي الذي وليته انت طبقاً للشرع فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدس فأن ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته » .

بعد فتح مكة بسنتين استولى الوهابيون على المدينة ، وكانت الدعوة اثناء ذلك اي دعوة التوحيد ديناً وسياسة تنتشر في عسير واليمن حتى كادت تعم تهامة باسرها . وكان الزعيمان عبد الرحمن ابو نقطه وطامي بن شعيب من اكبر حلفاء سعود هناك ، فبايعه اللُحية ثم الحُديدة وبيت الفقيه ، وكانت قد بايعته اشد القبائل بأساً ، منها رجال ألمع في عسير وعرب اليام في نجران .

١٢٢٠ هـ ١٨٠٥ م

بعد فتح المدينة اتجهت انظار اهل نجد الى الشمال فوصلوا في غزواتهم الى الجوف والبتراء ، واجتازوهما الى حوران والكرك ، فوقفوا منتصرين عند ابواب الشام وفلسطين . وقد ارسل

---

(١) خذ النسخة الثانية لهذه الصفحة وقد كتبت بعد مئة وعشرين سنة . الشريف خالد بن لؤي هو نسيب الملك حسين السابق ، وقد كان بين الاثنين خلاف تأصل فاخرج خالداً واحرجه . خرج على الشريف حسين فجمع العربان من تربه والخرمه ورنيه وقراها وانضم الى الاخوان جيش ابن سعود في حملتهم على الحجاز ، فاكتسحت الجيوش الطائف وقد كان فيها الشريف علي فتقهقر الى مكة . ثم دخلوا مكة محرمين يوم كان الملك حسين المخلوع وابنه الملك علي والجنود والاتباع قد انسحبوا الى جده .

الامام سعود كتباً الى الولاة هناك يدعوهم فيها الى دين الله . ولكنه في طموحه الى بلاد الشام لم يكن ذاك الرجل الذي دوّخ البلاد العربية كلها فدانت له العرب حتى على حواشي الربع الخالي في نجران وعُمان . ومع انه حاول ان يتخذ له انصاراً من اولياء الامر في سورية جرياً على طريقته في الاستيلاء فان منعه للحج ومعاملة رجاله للحجاج افسدا الامر عليه . قال محمد كرد علي في كتابه خطط الشام :

« خرج عبدالله باشا العظم (والي الشام يومئذٍ ١٢٢٠ هـ) بالمحمل فحدثت بينه وبين الوهابيين امور عظيمة، فهلك عسكره وانتهب الحاج» وفي السنة التالية منع الامام سعود الحجاج غير الموحدين عن الحج واخرج من مكة من كان فيها من الترك. اضف الى ذلك انه لم يؤمّن الاوروبيين الذين كانوا في جده ، فخرجوا منها سنة دخوله الى مكة ، وكانوا في مجرد عملهم ذاك حجة على حكمه .

اما الدولة العثمانية ، وقد اصبح العدو على ابواب اغنى ولاياتها وأجلها، فلم تستطع في فساد احوالها ان تقوم مباشرة بعمل خطير . ولكنها بعد ان كسر الوهابيون الجيوش التي ارسلها عليهم ولاتها في العراق والشام ادارت بنظرها الى مصر ، فطلبت من محمد علي باشا ان يتولى بنفسه انقاذ الحرمين واخراج اهل نجد من الحجاز .

تردد محمد علي في بادىء الامر لا لانه لم يكن ليرغب فيه او يستطيعه بل لان المماليك كانوا يومئذ مسيطرين وكان يخشى ان يترك البلاد وشؤونها في ايديهم . اعاد الباب العالي الطلب مراراً وقد هدد الباشا اذا كان لا يذعن للامر ، والباشا راغب فيه ، الا انه كان يتحين الفرص. وقد رأى في الاذعان ثلاث فوائد كبرى لنفسه: الاولى انه يبعد جيشه الالباني الغير المنظم الكثير التمرد فيتمكن اثناء غيابه من تنظيم جيش مدرب على الطريقة الغربية . والثانية انه يأخذ من الدولة الاموال التي كان في

حاجة اليها بحجة لزومها لنفقات الحرب المقدسة . والثالثة ان هذه الحرب تجمع عواطف المسلمين في العالم على حبه وولائه بصفته منقذ الحرمين ومعيد مناسك الحج .

وفي هذه الاثناء كان الامام سعود يحج ورجاله كل عام ويكسو الكعبة « بالقيلان الفاخر » . وكأنه تصالح والشريف غالب فاذنه بالعودة الى مكة ، وكان الاثنان يتزاوران ويتبادلان الهدايا . اما المؤرخ ابن بشر فهو لا يحسن الظن بالشريف ، وقد قال في هذه المهاداة : « واعطاه غالب مثل ذلك خدعة والمؤمن غرٌّ كريم » هي كلمة لا تخلو من حق ، فقد كان الشريف غالب مستمراً في سعيه الخفي لاخراج سعود وجماعته من الحجاز .

[١٢٢٦ هـ — ١٨١١ م] في خريف هذه السنة بعد قتل المماليك وانجاز اسطول من السفن في السويس ، لبي محمد علي طلب الباب العالي ، فارسل ابنه طوسون ، الذي كان لا يزال في السابعة عشرة من سنه ، يقود ثمانية الاف من الجنود جاءوا بحراً وبراً [١] الى ينبع ، ومعهم ضباط اوروبيون وعدد من المجازفين والمسترزقين الذين كانوا في عسكر بونابرت . زحف هذا الجيش من ينبع بعداته ومدافعه ، وكان اهل نجد قد استعدوا للقائه ، فخرج ثمانية الاف منهم بقيادة عبدالله ابن الامام سعود الى مكان يدعى الخيف بوادي الصفرى قرب المدينة . هناك التحم الجيشان في العشر الاواخر من ذي القعدة ، وكان الغلبة بعد ثلاثة ايام من القتال الشديد لاهل نجد ، فانهزم المصريون تاركين وراءهم الخيام والمدافع والذخيرة والارزاق وعدداً كبيراً قيل خمسة الاف من القتلى والجرحى والشاردين ما عدا الخيل والرواحل . اما العرب فقد قتل منهم

---

(١) جاء ستة الاف بالسفن ، وجاء براً الفان من الخيالة الترك والعرب يقودهم طوسون .

نحو ستمئة . واذا فرضنا المبالغة في العددين فوقعة الصفوف تظل مع ذلك اكبر وقعات الحرب الوهابية حتى ذاك الحين .

تقهقر طوسون بما تبقى من جيشه المنهزم الى ينبع ، فارسل منها يطلب النجدات .

وفي هذه السنة التي هي خاتمة المجد لآل سعود الاولين حج الامام سعود للمرة السادسة او السابعة وكسا الكعبة على عادته بالقيلان والديباج الاسود . ثم طاف رجاله في اسواق مكة يردعون الناس عن الخبائث، وينهون عن المنكر ، فمن رأوا منه عملا مخالفاً للشرع ادّبوه في الحال بموجب الاحكام الشرعية . وقد ادت هذه الشدة الى الردة في بعض البوادي كما سيلي .

قال ابن بشر ان الامام سعودا ارسل النجدات الى المدينة وامر بتحصينها ثم عاد الى نجد . ولا نعلم السبب في عودته في مثل تلك الحال وهو يعلم ان طوسون مرابط في ينبع ينتظر النجدات ، وان عرب الحجاز يتذبذبون بينه وبين اهل نجد وقد ينقلبون عليهم .

١٢٢٧ هـ ١٨١٢ م

جاءت النجدات المصرية في السنة التالية ، فاعاد طوسون الكرة على المدينة ، بعد ان احتل ينبع النخل ، وضمّ الى جيشه كثيرين من عرب جهينه وحرب . وقد كان في المدينة سبعة الاف من اهل نجد فحاصرها المصريون حصاراً شديداً دام خمسة وسبعين يوماً . وصوبوا على القلعة المدافع ، وحفروا اليها السراديب التي اشعلوا فيها تحت الاسوار البارود ، ثم قطعوا عن المدينة المياه ، وجاءت الامراض تساعدهم على المرابطين المحاصرين . بل قام الاهالي ايضاً على النجديين فامسوا بين نارين ، والوباء يساعد في حصادهم . مات منهم اربعة الالف ، على ماقال ابن بشر ، قبل ان انفتحت ابواب المدينة للمصريين .

١٢٢٨ هـ
١٨١٣ م

قد استبشر الشريف غالب بهذا النصر فباشر السعي جهراً في تحقيق المقاصد التي كان يبطنها . ثم بدت في هذه السنة قرون الفتنة فانتشرت الردة في مكة والطائف ، فدخلها طوسون بمساعدة الشريف بدون قتال . ولكن النكبات التي توالت على النجديين لم تبقِ حتى على عدوهم الشريف . ولم ينجُ المصريون من اهوالها الطامية الجارفة . فقد مات منهم مئات بالوباء الذي كان حليفهم على اعدائهم ، وقد قدرت خسارتهم كلها في الحملتين بثمانية الاف من الرجال . ثم جاء محمد علي نفسه بنجدات جديدة . جاء يسرع بانجاز العمل الذي باشره ابنه وخسر فيه هذه الخسارة الجسيمة ، فوصل الى جده في ٣٠ شعبان (٣١ آب) من هذه السنة ، فاستقبله فيها الشريف غالب مرحباً مكرماً ، ثم رافقه الى مكة .

وعندما استقر محمد علي هناك جازى الشريف في ان قبض عليه وعلى اولاده عملاً بامر شاهاني كما ادعى وارسلهم اسرى الى مصر . ثم حجز جميع ما كان في خزائن غالب من الذهب والفضة ، واخرج حرمه من قصر جياد ، ونصب مكانه ابن اخيه الشريف يحيي بن سرور .

اما آل سعود فلم يكونوا اوفر حظاً لدى القضاء من بيت عدوهم الشريف . فبعد اربعة اشهر من جلائهم ، اي في ١١ وقيل في ٨ جمادى الاولى من السنة التاسعة والعشرين والمئتين والالف (٢ ايار سنة ١٨١٤) مات في الدرعية الامام سعود وهو في الثامنة والستين من عمره . مات ، لا بالحمى ، كما قال هوغارث نقلاً عن احد المستشرقين الذين كانوا يومئذٍ في مكة ، بل بعلة في المثانة ، وقل بعلة اخرى هي نكبة اهل نجد في الحجاز التي عجلت ولا شك في اجله . وقد كانت ولايته احدى عشرة سنة اذا حسبناها من يوم وفاة والده عبد العزيز ، وسبع وعشرين سنة اذا عُدت من يوم بويع بالامارة في السنة الثانية والمئتين والالف .

هو يدعى بالكبير ، وقد خص بتلك السجايا او باكثرها التي تؤهل رجل التاريخ لهذا اللقب . فقد كان في عظمته متواضعاً ، وفي حكمته ورعاً ، وفي عدله حليماً ، وفي سياسته جامعاً بين المرونة والمضاء . اضف الى ذلك ذكاءً لم يكن عاديا ، ولم يقف به عند حد السياسة . فقد كان مولعاً بالعلم ، محباً للعلماء وللطلاب ، فلم يستنكف من عقد مجالس القراءة والتدريس في قصره وتحت مشارفته عندما يكون في العاصمة . بل كان هو يتولى التعليم في بعض الاحايين فيدهش حتى العلماء بما كان يحسنه من علمي التفسير والفقه . وبالرغم من تعدد مشاغله ومشاكل ملكه البعيد الارجاء كان يزور مجالس التدريس العامة ، فيطلع على اعمال الطلبة ويجزي منهم الاذكياء المجتهدين .

وقد كان سعود كبيراً في اخلاقه مثله في اعماله ، لا ينكر الفضل على ذويه وان كانوا من اعاديه ، ولا يقف في احسانه ومكارمه عند شبهات النفس واهوائها . مثال ذلك معاملته للشريف غالب على ما كان يبطنه الشريف من الكيد والغل . فلو كان فاتح مكة غير سعود ، لو كان محمد علي مثلاً ، لما اذن للشريف بالعود اليها بعد ان فرّ منها هارباً الى جده .

اما في غزواته وفتوحاته فلم يكن ليخرج عن القاعدة ان الحرب خدعة . وللعرب في ذلك اساليب تقترن فيها السذاجة بالدهاء . فقد كان سعود اذا اراد ان يغزو الى جهة الشمال يظهر انه يريد الجنوب اوالغرب والعكس بالعكس . وعندما نزل الرقيعة في غزوة الاحساء امر رجاله ان يوقد كل واحد منهم ناراً وان يطلقوا كلهم البنادق عند طلوع الشمس ليرهبوا اهلها . فلما اطلعت الشمس فعلوا ذلك دفعة واحدة فارتجت الارض واظلمت السماء واسقط كثير من الحوامل في الاحساء . هذه الطريقة في الحرب طريقة الارهاب والترويع مألوفة عند العرب خصوصاً

عند اهل نجد .

ولا حاجة لذكر البسالة في سعود الكبير والاقدام ، وعلو الهمة والمرام . فان في فتوحاته الشاهد الاكبر على ذلك . اما حكمه فقد كان له مزيتان كبيرتان رائعتان هما الامن والعدل – الامن وكان اساسه العقاب الشديد السريع بموجب الاحكام الشرعية ، والعدلُ وكان اساسة الامتن المساواة وعدم المحاباة . بيدَ انه لم يكن على شيء من الادارة ، ولا كان النظام ، ما عدا بعض قواعد اساسية تتعلق بالجيش ، معلوماً . فلم يكن ليربط النواحي القصية بعضها ببعض غير كلمة الامير ، ولم يكن ليحفظها وثيقة العرى غير صولته فاذا ذهبت الصولة ذهب الملك .

آل سعود

الدور الثاني – الفوضى

لم يكن طوسون الشاب قوي البنية او الارادة ، ولا كان على شيء من الحزم كبير ، فأعيته حرب الحجاز واضنته . ولولا عرب الحجاز لما عقد له النصر في حملته الثانية على عرب نجد . بيد انه كان مثل ابيه واخيه ابراهيم متساهلاً في دينه ، عاملاً بتساهله في امور شتى سياسية وغير سياسية. وكان يميل خصوصاً الى الاوربيين ويحب الانتفاع بعلومهم واختراعاتهم. قد اشرت الى اولئك المجازفين منهم والمسترزقين الذين كانوا في الجيش المصري . ومن اغرب امورهم ، مما يدل على التساهل الذي ذكرت ، ان احدهم وهو اسكتلندي اسمه ثوماس كيث تولى برهة حكم المدينة المنورة .

على انه لم يكن بينهم اديب عالم يدوّن حوادث تلك الايام ، او ينقل الينا شيئاً من معلوماته هنالك. ولا اظن ان احداً منهم دخل مكة ولو خلسة عندما استولى طوسون عليها ، لانه لم تكن لهم العقلية العلمية التي تحمل صاحبها على الاستكشاف والاستطلاع ، الا احداً ذكره هوغارث وقال ان ما كتب يُعد تافهاً .

على ان هناك ثلاثة لم يجيئوا الحجاز محاربين ، ولا جاءوا مع المصريين ، وهم جديرون بالذكر لانهم من العلماء المستشرقين المستعربين الذين دخلوا مكة يوم كان الوهابيون مستولين عليها ، فرأوهم عن كثب وكتبوا عنهم بدون تحيز او تحامل .

اول هؤلاء رجل اسباني اسمه دومنغو باديا اي لبلخ[1] انتحل اسماً

---

(١) Domingo Badia y Leblich (١٧٦٦ – ١٨١٨)

ونسباً وديناً عربياً وجاء من فادش عن طريق الجزائر الى الحجاز . هو علي بك العباسي الامير المكرم ، والعالم المحتوم ، والحاج الورع الموقر ، رسول بونابرت الى البلاد العربية . اجل قد جاء حاجاً ، مستكشفاً ، فنزل في جده تحف به الخدم والحشم ، وسار الى مكة المكرمة محرماً ، مثل من جاءوها من اهل نجد ، فدخلها في ٢٣ يناير سنة ١٨٠٧ (١٤ ذي القعدة ١٢٢١) . وقد شاهد جموع الوهابيين ، وحج معهم واعتمر .[١] سمع العج ، وحضر الثج وكان في ظاهره عربياً قحاً ، ومسلماً حقاً ، لاتعييه كلمة يقولها ولا تخونه فعلة او اشارة ، فما شك احد في دينه او في نسبه.

وقد اجتمع علي بك بالشريف غالب فقال انه في العقد الرابع من العمر وانه على جهله ذو حصافة ودهاء . رآه لاول مرة في مجلسه وهو يدخن النارجيلة التي كانت محجوبة خوفاً من الوهابيين . فلم يرَ السائح الاوربي غير النبريج الذي كان يتصل من خرق في الحائط بالنارجيلة وراءه في الغرفة المجاورة للمجلس .

والعباسي هذا كان عالماً يحمل في حقائبه ادوات للرصد والمساحة ، فاستخدمها في مكة وجوارها دون ان يعترضه احد من الناس . بل كان يحترمه الجميع . وقد حاز فوق ذلك شرفاً لم يحزه سواه من المستشرقين ولا يحوزه الا الافراد القلائل من المسلمين . الا وهو شرف كناسة الكعبة . ولكنه على ما يظهر لم يفلح حتى النهاية في تنكره . فعندما قصد الى المدينة زائراً صده عنها الوهابيون فعاد الى ينبع ومنها الى مصر فباريس حيث اجتمع بنابليون وعُين في حاشية اخيه يوسف بونابرت . وقد عاد علي بك الى الشرق في سنة ١٨١٨ م فسافر الى دمشق ليرحل رحلة ثانية الى البلاد العربية ، ولكنه وهو لا يزال في اول الطريق

---

(١) كان الامير سعود وابو نقطه يتقدمان الى عرفات الحجاج وهم خمسة واربعون الفا ، ومعهم علي بك

اصيب بالديزنتاريه فمات في المزاريب .

اذا صرفنا النظر عن مهمة علي بك السياسية فانه كعالم صادقُ الرواية. وهو اول اوروبي شاهد الوهابيين في مكة وقضى واياهم مناسك الحج. وصفهم وهم يتزاحمون عند الحجر الاسود ويتسابقون اليه فقال (الجزء، الاول صفحة ٧٢) انهم مُرهبون ولكنهم :

« لا يسلبون الا ما كان حلالاً في مذهبهم اي مال العدو والكفار. وهم اذا اشتروا شيئاً يدفعون ثمنه كما انهم يدفعون اجرة من يخدمونهم، فلا يصادرون ولا يسخرون. ومنهم الفقراء الذين كانوا يدفعون رسوم زمزم والكعبة من البارود والرصاص الذي كان معهم . وبما انهم يطيعون اميرهم طاعة عمياء فهم يحتملون من اجله كل شدة ساكتين صابرين ، ويسيرون اذا امرهم الى اقصى اطراف الارض » .

من فضل الوهابيين في فتحهم الحجاز انهم لفتوا نظر العالم الى البلاد العربية، ونبهوا العلماء المستشرقين الى تكشف احوالها، فجازفوا بحياتهم، وفادى اكثر من واحد بها، طلباً للعلم .

ومن هؤلاء العالم الالماني أُلْرِيخ زِتسِن [١] الذي قضى عشرين سنة يدرس ويتأهب لرحلته في الشرق . فجاء سورية سنة ١٨٠٥ واقام في الشرق الادنى بضع سنين، وكتب في رحلته كتاباً باللغة الالمانية قيماً [٢] ثم سافر الى الحجاز في زي درويش اسمه الحاج موسى فدخل مكة حاجاً سنة ١٨١٠ ، وارتحل منها الى اليمن، فزار صنعاء ونزل الى عدن . قد كان في نية زتسن ان يجتاز شبه الجزيرة الى الخليج ليسوح في الشرق الاوسط ، فعاد من عدن ووجهته الجبال . ولكن عند مروره بتعز

---

(١) Ultrich Jaspar Seetzen (١٧٦٧ – ١٨١١)

(٢) قد نشرت مجلة الكلية في سنتها العاشرة خمس مقالات للاستاذ هارلد نلسن عن زتسن ورحلته في سوريه ولبنان .

اعترضه بعض الناس وقد رابهم امره فقتلوه . لم يكن هذا المستعرب الالماني على ما يظهر مثل علي بك العباسي بارعاً بالتنكر ، ولكنه كان اوفر علماً واتزه قصداً .

وهو الذي قابل الامام سعوداً في مكة وكان قد تريب بقيافته واسلامه . ولكن كبير الوهابيين بل كبير العرب يومئذ لم يمانع العالم الافرنجي في تجوّاله . قال هوغارث : «كان زتسن نباتياً مشهوراً في اوربه ، وهو من العلماء الافاضل ، له نظرات ثاقبة صائبة في الاشياء وفي الناس» . وان من يقرأ ما كتبه عن بعض الحكام في سوريه ، وبعض النباتات والصناعات في لبنان ، ليتأكد ذلك ويأسف جداً لان كتبه ومذكراته فُقدت بعد موته في اليمن ، فحُرمنا رأيه في الوهابيين واميرهم الاكبر سعود .

ولكن المستشرق الثالث الذي ساح في الحجاز في العقد الثاني من القرن التاسع عشر كان اوفر حظاً من زميليه الالماني والاسباني . هو الحاج عبدالله اي السويسري المشهور بركهارت[١] صديق محمد علي وصديق العرب والاسلام . جاء الحجاز عندما كان محمد علي هناك ، فنزل في جده في ١٥ تموز سنة ١٨١٤ ، وسار منها الى الطائف ، ثم دخل مكة المكرمة في ١٩ رمضان ١٢٣٠ (٢٤ اغسطوس ١٨١٤ م) بعد استئذان صديقه العظيم ، وهو يومئذ سيد الحرمين ، فحج مع من حجوا في ذاك العام ، واقام في مكة ثلاثة اشهر . ثم سافر الى المدينة فادى الزيارة في ابريل سنة ١٨١٥ يوم كان محمد علي باشا هناك . ولكنه مرض في المدينة فعاد الى القاهرة في ربيع ذاك العام ، وتوفي فيها وهو في ربيع الشباب .

كان بركهارت في قيافته وفي اسلامه محترماً موقراً . وقد قال

---

(١) Johann L. Burckhardt. (١٧٨٤ – ١٨١٧)

يصف نعمة تبجبج فيها . « ما شعرت في مكان آخر بمثل الطمأنينة التي كنت اشعر بها وانا في مكة » .

ولكنه لم يجهل او يتجاهل ما اشتهر به المكيون والترك يومئذ من قبيح العادات والتقاليد ، فذكرها كلها ، وقد قال في كلامه على الوهابيين انهم حقاً جاؤا يطهرون الحجاز — ثم قال :

« وما الوهابية اذا جئنا نصفها غير الاسلام في طهارته الاولى . واذا ما جئنا نبين الفرق بين الوهابيين وبين الترك مثلاً فما لنا الا ان نعدد الخبائث التي اشتهر هؤلاء بها » .

هاك شهادة الاجانب وهي شهادة العلماء المنزهين عن الاغراض الخصوصية والمذهبية . « جاء الوهابيون يطهرون الحجاز » .

وجاء الترك او بالحري المصريون ينقذون الحرمين من المطهرين فانقذوهما وجلس محمد علي في مكة يصدر الاوامر الى جيشه في المدينة ليزحف الى نجد ، وجيشه في الطائف ليحتل تربه ، وجيشه الثالث ليذهب براً وبحراً الى القنفذة فيؤدب عرب عسير المدّينين، انصار ابن سعود وزعيمهم ابن شعيب .

١٢٢٩ هـ
١٨١٣ م

كان المصريون قد احتلوا القنفذة في اذار من هذه السنة فاغار العرب عليهم بعد شهرين بقيادة طامي ابن شعيب ، فهزموهم فلاذ من سلم منهم بالسفن . وقد غنم العرب المدافع والذخيرة كلها مع عدد كبير من الخيل والجمال .

١٢٣٠ هـ
١٨١٤ م

اما الحملة الاولى التي سيرها محمد علي على تربه في صيف هذا العام بقيادة ابنه طوسون فقد عادت مدحورة تشكو الحرّ والجوع . والحملة الثانية عادت تحدث عن بدوية[1] باسلة كانت في طليعة العربان تحرضهم

(١) هي غالية امرأة احد مشايخ سبيع وقد هاجمت بنفسها جيوش مصطفى بك قائد الحملة فهزمتهم شر هزيمة .

على القتال . فجهز محمد علي حملة ثالثة مؤلفة من الفين جندي والفين من عرب الحجاز وخمسمئة خيال ، كما جاء في البلاغ الذي ارسله بعدئذٍ الى اهل المدينة ، الشبيه ببلاغات الدولة العلية في الحرب العظمى ، وراح هو بنفسه يقود تلك الحملة ، فالتقى في بِسل بين الطائف وتربه بجيش عظيم ، قدّره باربعين الف ، من اهل نجد وعسير يقودهم فيصل بن سعود وحليفه طامي بن شعيب . التحم الجيشان هنالك وكان القتال شديداً من الفجر حتى المساء ، فخسر اهل نجد ستمئة من رجالهم وتشتت الباقون . ثم واصل المصريون الزحف الى تربه فاحتلوها بدون قتال .

١٢٣١ هـ
١٨١٥ م

وقد جاء في البلاغ الذي اشرت اليه، المؤرخ في صفر ان قد غنم الجيش الظافر في وقعة بِسْل خمسة الاف خيمة وخمسة الاف من الجمال ما عدا الارزاق الكثيرة .

استراح محمد علي قليلاً في تربه ثم زحف الى رَنيَه وفيها عرب سبيع فسلمت . وبعد اربعة ايام ، وهو يواصل السير جنوباً بشرق ، وصل الى بيشة[1] مفتاح اليمن الشرقي وفيها بنو سالم فقاوموا يوماً وسلموا.

ومن بيشة مشى الظافر الى جبال عسير . ولكن تلك الانتصارات انهكت الجيش وأفقرته لانه لم يكن في البلدان التي اكتسحوها شيء يذكر من الغنائم ، فقل الزاد ، وكثرت المشقات، وكانت الخسائر خصوصاً في الركائب كبيرة. قيل انه مات مئة رأس من الخيل في يوم واحد. ترجل محمد علي ومشى مع الماشين وهو يعدهم بالغنائم العظيمة في اليمن . فلما صاروا في جبال زهران ، بعد خمسة عشر يوماً من السير ، التقوا بطامي الذي انهزم في وقعة بِسْل ومعه بضعة الالف من العربان ، فنازلهم محمد

(١) تربه هي على مسافة ثمانين ميلاً من الطائف شرقاً بجنوب . وبيشة تبعد نحو مئة ميل عن تربه .

علي وكان في الجولة الاولى مهزوماً . ثم عاد الكرة عليهم فأخرجهم من معاقلهم في الجبال ودحرهم في القتال فشتت شملهم. ومن غنائم هذه الوقعة ان ابن شعيب أخذ اسيراً ثم أرسل الى مصر ومنها الى الاستانة، فضُرب عنقه بعد ان شُهر في الاسواق هنالك .

بعد هذا الفوز في عسير عاد محمد علي الى مكة فولى فيها احد رجاله . ثم سافر الى المدينة ليؤدي الزيارة، وكان قد حج في العام السابق، ليطلع على احوال الحجاز الشمالي. بيد انه لم يلبث طويلاً في المدينة لان الاخبار التي كانت قد جاءته انبأت بفتنة في القاهرة وبفرار نبوليون من جزيرة البا . فسافر فجأة في شهر يونيو سنة ١٨١٥ وهو يبغي صون ملكه من الاخطار الداخلية والخارجية .

من حسنات محمد علي في الحجاز انه وزّع كثيراً من المال والارزاق على المحتاجين، وخفض رسوم الجمرك في جده ، وابطل الضرائب التي كان قد ضربها الشريف غالب ،ومثّل بالاشقياء، وعاقب بشدة كل من تعدى على الاجانب. بيد انه لم يحسن عملاً في ابقاء جنوده بعسير. اذ بعد سفره اعاد عرب ألمع وغامد وزهران الكرة على اولئك الجنود في تهامه وفي الجبال ، فدحروهم دحرات متعددة ، وردوهم خاسرين براً الى الطائف وبحراً الى جده .

اما طوسون فكان قد جهز حملته على نجد وزحف الى الرّس[1] فاحتلها بالاتفاق مع اهلها ، فجاء عبدالله بن سعود بجيشه يخرجه منها . ولكن عبدالله مثل طوسون من اولئك القواد الذين يضعفون ما عندهم من قوة بما ينقصهم من زعامة واقدام . وقف الضعيفان في القصيم وقفة المنازل الراغب في الصلح المتظاهر بعكس رغبته ، فتناوشت الجنود وتقهقرت ،

---

(١) الرّس والقرى التابعة لها هي على مسافة مئتين وسبعين ميلاً شرقاً بشمال من المدينة وخمسة وثلاثين ميلاً غرباً بجنوب من عنيزه .

وتخازلت ، وتقاعست ، حتى سئم الحالة اولو العزم في الجانبين وقام منهم من يطالب بشيء يشفع بتردد القائدين وتذبذبها . قال اهل نجد لعبدالله: اخرج الى طوسون او اخرج عليه اي صالحه او حاربه . وقد توفق الفريقان الى عقد صلح فيه تعهد المصريون ان يخرجوا من نجد ، وتعهد النجديون ان يأذنوا بالحج ، ويؤمنوا السبل ، ويرجعوا ما سُلب من الحجرة النبوية .

عاد طوسون بجيشه الى المدينة ومعه وفد من اهل نجد يحمل معاهدة الصلح الى محمد علي ليصدق عليها . وكان محمد علي قد رحل فتبعه الوفد الى مصر : قال ابن بشر « وصل الوفد الى مصر ورجع منها وانتظم الصلح ». والقول مبتسر. فقد تعاكست الاقدار على الجميع في هذه السنة فما خدمت اهل نجد ولا خدمت خصمهم . امر محمد علي ابنه طوسون بالرجوع الى بلاده. وقد مات بعد بضعة اشهر في الاسكندرية ، قيل من مرض غشيه في الحجاز وقيل من استرساله في اللذات.

١٢٣١ هـ
١٨١٥ م

وفي هذه السنة ايضاً توفي عدو النجديين الاخر الشريف غالب وهو في منفاه بسالونيك . وكان صاحب مصر قد نقض عهد الصلح الذي أقره [1] وجهز ابنه ابراهيم بحملة جديدة على اهل نجد .

كان ابراهيم صلب العود ، شديد البطش ثابتاً في عزمه ومقاصده . ولكنه لم يكن ماهراً في تعبئة الجنود ، ولا كان باهراً في المفاجئات الحربية . انما كان جلداً كدوداً بطيء منشأ الفكر ، سريع منشأ الهوى ، ارادته من حديد ، وقلبه مثل ارادته .

---

(١) في المسألة روايتان : قال ابن بشر ان فريقاً من عرب الرس المعادين لعبدالله سافر الى مصر ليقابل محمد علي ويفسد على وفد الصلح عمله فافلح سعيه . وقال المؤرخ الافرنسي ان محمد علي لم يعد الوفد بالصلح ولا استقبله حتى بوجـــه باش . بل اغلظ له الكلام وختمه بقوله : « سأسير عليكم ابني ابراهيم فيهدم دياركم حتى لا يبقى فيها حجر على حجر » .

جاء وهو في السابعة والعشرين من سنيه يطوي بساط الجزيرة ليصل الى قلبها الملتهب فيطفىء النــــار فيه ويفرغ منه الحياة . جاء بجيش لا يتجاوز الاربعة الآلاف وفيهم الالباني والمغربي والسوداني وقد اضاف اليهم في مروره بالصعيد الفين من الفلاحين للاشغال والخدمة .

وكان معه مهندس افرنسي[١] واربعة اطباء وصيادلة ايطاليين[٢] ومـدافع ضخمة ترمي القنابر التي روّعت العرب[٣]. سافر ابراهيم من القاهرة في النيل في ١٠ شوال ١٢٣١ (٣ ايلول ١٨١٦) الى قنا ، ومنها براً الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ، ومنها بحراً الى ينبع ، فوصلها في ٨ ذي القعدة (٣٠ ايلول) . وسار منها دون مقاومة الى المدينة، فزار قبر النبي وقبور الصحابة، ثم نقل بجيشه الى الحناكية[٤] وعسكر هناك.

اقام ابراهيم في الحناكيه ولبث يراقب كالصياد طرائده، فكان يُغير تارة على البدو وطوراً ينتظر اغارتهم عليه ، فينصب لهم شراكاً من الوعود الخلاّبة التي كانت تتخللها الهدايا وشيء من الذهب الوهاج . ولم يكن على ما يظهر في ما يستوجب العجلة . اقام ستة اشهر على ذاك الماء وهو ينتظر العربان ليخون بعضهم بعضاً وينضموا الى جيشه . وكذلك كان . جاءت حرب[٥] وجاءت عتَيبة وجاءت مطير[٦] — والله يا ابراهيم

---

(١) Vaissière

(٢) Sacio و Todeschini و Gentili و Scoto.

(٣) منها مدافع افرنسية محفورة عليها هذه الكلمات : صنعت في باريس في السنة الثانية من عهد الجمهورية. الحرية والاخاء والمساواة. قال ابن بشر يصف مدافع ابراهيم: كل مدفع يثور (يطلق) مرتين مرة في بطنه ومرة تثور رصاصة وسط الجدار بعد ما تثبت فيه فتهدمه .

(٤) الحناكية ماء معروف على مسافة تسعين ميلاً شرقي المدينة.

(٥) «غانم بن مضيان شيخ من مشايخ حرب انضم الى جيش ابراهيم بالف من رجاله وهم مرتون ومسلحون» — ادوار غوان

(٦) كانت مطير يومئذ مثلها اليوم بزعامة ابن الدويش

حنًا (نحن) ما نبي (ما نبغي) اهل نجد . حنا رجالك وحياة الله ! وكانوا يقولون مثل هذا القول لابن سعود .

بعد ان اقام ستة اشهر في الحناكية يستغوي العربان ويجندهم زحف في شتاء السنة التالية (٥ ربيع ثاني ١٢٣٢هـ ٢٢ فبراير ١٨١٧م) الى نجد فوصل الى الرّس التي سلمت قبلاً لاخيه طوسون وابت ان تسلم لابراهيم، فكانت عليه حرباً عواناً . اخسرته في الهجمات الاولى ثمانمئة من رجاله فبعث يطلب النجدات من المدينة . وكان اهل الرّس رجالاً ونساء يدافعون من وراء الاسوار عن بلادهم ، فيردون على قنابر المصريين برصاص البنادق،ويبطلون فعل الغامهم بالغام اخرى يحفرونها الى جانبها.

جاءت النجدات من المدينة فشدد على البلدة الحصار وضاعف ضرب اسوارها.ولم يكن ابراهيم ليضن حتى برجاله.فبعد ذبحات هائلة في الجيشين طلب عبدالله بن السعود الصلح ، فطلب ابراهيم البلدة من اميرها محمد ابن مزروع فقال الامير : تعالَ خذها .

استؤنف القتال. وكان ابراهيم في الهجمة الاولى على رأس الف خيال فتكوا باهل الرّس ، فذبحوا منهم اربعمئة ونكلوا بهم. وكانوا يقطعون رؤوس الزعماء ويرفعونها على الرماح ليراها النجديون. اما عبدالله فاستمر يفاوض بالصلح ، فتمسك ابراهيم بشروطه واهمها ان يتقدم اهل الرّس الفي رأس من الخيل ، والفين من الجمال ، ومؤونة الجيش لستة اشهر ، ورهينتين من اولاد عبدالله. واستؤنف القتال. واستمر الفوز فيه لاهل الرّس ، فتنازل ابراهيم اذ ذاك عن شروطه الا شرطاً واحداً هو ان يضع المحاصرون سلاحهم ، ويقيموا على الحياد فلا يعاونون ابن السعود ولا يتعرضون للجيوش المصرية. فقبلوا بذلك ورُفع الحصار الذي استمر ثلاثة اشهر وسبعة عشر يوماً والذي خسر فيه ابراهيم ثلاثة الاف واربعمئة من عسكره النظامي .

وبعد ان سلمت الرّس زحف ابراهيم الى عنيزه ، وكان عبدالله قد لجأ اليها فصالحهٍ اهلها ، وابى المرابطون في القصر الا القتال ، فاطلقت عليهم المدافع ليلاً ونهاراً فسلموا .

ثم حمل على بُريده وكان عبدالله قد رحل من عنيزة اليها فرحل اذ ذاك منها الى الدرعية . راح يستنفر اهل نجد البوادي والحضر ليجتمعوا في العاصمة للدفاع عن الوطن .

لم يدم حصار بُريده الا ثلاثة ايام . وبعد ان سلمت المدينة عاد ابراهيم بجيشه الى المذنِب اخر بلدة في جنوب القصيم ، فبادر اهلها الى التسليم . ثم دخل الوشم ذاك السهل الكائن بين وادي السر ووادي حنيفة فوصل الى شقرا اهم بلدانه — أم بلدان الوشم — في ١٨ صفر ١٢٣٣هـ. (٢٨ ديسمبر ١٨١٧م) وحاصرها ستة ايام فدافع اهلها عنها ما استطاعوا ثم سلموا . ومما هو جديرٌ بالذكر ان ابراهيم اسس في شقرا مستشفى للجرحى بعناية اثنين من الاطباء والصيادلة الافرنج الذين كانوا معه . ولكن هذه الرحمة لم تشمل غير جرحى جيشه . فقد كان يأمر بقتل الاسرى . وقد قطع جنوده في شقرا آذان القتلى النجديين فارسلها مع رسول الى والده بمصر .

استمر الجيش الظافر زاحفاً في الوشم فسلّمت بقية بلدانه بدون قتال . ولكن عندما وصل الى ضُرمه [١] اصطدم هنالك باهلها وهم الف ومئتان فكانوا عليه مثل اهل الرّس . نصب الباشا مدافعه وضرب البلدة فهدم سورها واباحها لجنوده ، فدخلوها فاتكين مكتسحين . لم ينج حتى الحريم من سورة بل من شهوة الجيوش الهائجة ، وقد ذُبح ثمانمئة في البيوت والاسواق حرباً وخدعة . قال ابن بشر : «كان الروم [٢] يأتون اهل

---

(١) يلفظها اهل نجد اضُرْمه

(٢) كان العرب يدعون المصريين والترك بالروم

البيت او العصابة المجتمعة فيقولون الامان، فيأخذون سلاحهم ويقتلونهم ».

بعد ان نهب الروم ضرمه وهتكوا عرض حريمها ، وذبحوا ثلثي اهلها الباقون هاربين ، ودمروها تدميراً وساروا الى وادي حنيفة ، فمروا بالجُبَيْلة ثم بالعُيَيْنة ثم اشرفوا في اواخر جمادى الاولى على الدرعية ، وكان عبدالله بن سعود واخوه فيصل وغيرهما من آل سعود قد خرجوا بجموع من اهل المدينة للدفاع ، فتوزعوا في الوادي واقاموا فيه وفي منعطفاته المتاريس .

كانت الدرعية قائمة على الاكام الى جانبي الوادي[1] ولا يتمكن منها الجيش القادم من الوشم او من سدير الا اذا اجتاز واديها وصعد الى الربوة الشرقية فنصب مدافعه هنالك . ولذلك خرج اهل المدينة يصدمون المصريين ويناجزونهم ليمنعوهم من احراز ذاك المركز الخطير .

كان جيش ابراهيم باشا عندما وصل الى الدرعية وباشر حصارها في ٢٩ جمادى الاولى ١٢٣٣هـ . (٦ ابريل ١٨١٨م) مؤلفاً من اربعة الاف من المصريين والالبانيين ، وخمسمئة من المغاربة ، وبضعة الاف من عربان مطير وحرب وعتيبة وبني خالد، ونحو الفين من العمال والخدم ، وعشرة الاف من الجمال حاملة المؤن والذخيرة .

استمر الحصار خمسة اشهر وبضعة ايام فتعددت فيه الوقعات واشتدت الحملات ، وكانت الغلبة غالباً لآل سعود . ولكن النجدات كانت ترد متوالية على ابراهيم . فتجيئه الجنود والذخيرة من مصر ، والارزاق من البصره والمدينة ، والغنم والسمن من القصيم . ومع ذلك فقد نكب في ١٦ شعبان (٢١ يونيو) نكبة كادت تقضي عليه . فبعد ان انهزم يومئذ في وقعة قتل فيها مئة وستون من رجاله هبت ريح السموم فحملت شرارة من نار من احدى الخيم الى مستودع الذخيرة ، فاشتعل البارود،

---

(١) راجع (ملوك العرب) الفصل الرابع عشر من القسم الخامس (الجزء الثاني)

وتفجرت القنابل ، واتلف كل ما كان هنالك . بل امتدت النيران الى مستودع القمح ايضاً فاستحال في ذاك اليوم رماداً . قال ابراهيم لطبيبه الافرنسي : خسرنا كل شيء ما عدا شجاعتنا وسيوفنا . والحق يقال ان لولا الشجاعة والعزم والثبات ، تلك السجايا الكبيرة فيه ، لعاد من الدرعية بعد تلك الفاجعة مدحوراً .

ولكنه ثبت في مراكزه واستعاض عن القتال بالمناوشة والمخادعة الى ان جاءته النجدات من المدينة والذخيرة والمؤن من القصيم . وكان قد شاع ان اباه جهز محافظ الاسكندرية بحملة ليرسله الى نجد ، وقد ولاه القيادة العامة ، فأثار هذا الخبر غضب ابراهيم وحميته ، فحمل على اهل الدرعية في متاريسهم وفي معاقلهم ، وفي ابراجهم ، وفي بيوتهم ، حملات شعواء استخدمت فيها المدافع الضخمة ، والقبوس النارية ، والبنادق والسيوف . ثم احاطت جيوشه بالمدينة واحتلت حياً من احيائها فبدأت تتزعزع عزيمة المدافعين ، فطلب فريق منهم الصلح ، فأبى ابراهيم الا ان يسلم عبدالله بن سعود .

رفض آل سعود التسليم . ونهضوا نهضة واحدة يستأنفون القتال فحملوا على الجنود المحتلين قسماً من المدينة فذبحوا عدداً كبيراً منهم واخرجوا الباقين . ذلك تمهيداً لصلح شريف . ولكن ابراهيم ادرك قصد العدو فأفرغ كل ما لديه من المدافع على الدرعية وقصورها ومعاقلها حتى وعلى المسجد الجامع فيها .

وكان ذلك في آخر الشهر الخامس من الحصار فاضطرمت في المدينة النيران بعد ان هلك كثيرون من اهلها [١] وتفرق كثيرون من المجاهدين

١٢٣٣ هـ
١٢١٨ م

فخرج عبدالله بن سعود الى ابراهيم باشا في اليوم الثامن من ذي القعدة (٩ سبتمبر) فاستقبله ابراهيم في خيمته ، فقال

(١) قيل انه قتل من اهل نجد في حصار الدرعية الف وخمسمئة ومن المصريين اكثر من تسعة آلاف

عبدالله : « ما غلبتنا جنودك ، انما الله اراد ذلنا » .

سلمت الدرعية ، وأرسل عبدالله ، ومعه بعض رجاله وعبيده بمحافظة اربعمئة من الجنود الى المدينة ، ومنها الى القاهرة ، فوصلها في ١٨ محرم ١٢٣٤هـ. (١٨ نوفمبر ١٨١٨م) ومثل بين يدي محمد علي ، فسأله رأيه بابنه ابراهيم فقال : « هو عمل واجبه ، ونحن عملنا واجبنا ، وما شاء الله كان » .

لم يلبث عبدالله غير يومين في القاهرة ، ثم أرسل اسيراً الى الاستانة ومعه كاتب سره ورجل آخر من رجاله كرها ان يفارقاه . وهنالك عند وصولهم طُوفوا في الاسواق ونُفذ فيهم في اليوم الثالث حكم الاعدام .

اما ابراهيم فعندما دخل الدرعية امر بالقبض على بعض الزعماء والعلماء ونكل بهم تنكيلا شنيعاً . فمنهم من طُرحوا مقيدين تحت سنابك الخيل ومنهم من وضعوا مكبلين عند فوهة المدفع فتطعهم ارباً ارباً « طير اوصالهم في الفضاء » قال ابن بشر : « وكان الشيخ العلامة القاضي احمد بن رشيد الحنبلي صاحب المدينة في الدرعية عند عبدالله فامر الباشا بضربه وتعذيبه وقلع جميع اسنانه فقلعت . » وقال المؤرخ الافرنسي « سام الشيخين احمد الحنبلي وعبد العزيز بن محمد عذاباً شديداً ولكنه ندم بعد ذلك على استرساله في غضبه » .

ولم تكن هذه خاتمة المظالم والفظائع التي ارتكبها الظافر تأديبا وانتقاماً . بل قيل ان محمد علي هو الذي امر بتدمير الدرعية . ولو سئل محمد علي لقال ان الامر جاءه من الاستانة . فقد طالما تذرع الاب والابن بالاوامر الشاهانية في تنكيلهم بالعرب . على ان هذا الامر يشين صاحبه اياً كان . ولا فضل للظافر في تنفيذه ، ولا مجد ، ولا فائدة . والا ما الفائدة بعد كسرة اهل نجد من تدمير عاصمتهم ؟ قد امر ابراهيم باخراج من تبقى في الدرعية من اهلها ، وكان قد اجلى الى مصر فريقاً

كبيراً[١] من آل سعود وآل الشيخ، ثم بتدميرها، فدمّر عساكره قصورها، واشعلوا النار في دورها، وقطعوا النخيل في بساتينها. ثم فعلوا كذلك في البلدان الاخرى التي اكتسحوها اي في العارض وفي الخرج، وهدموا الحصون والقصور في الوشم وفي القصيم.

قال هوغارث: «لم يكن يطمع محمد علي بضم البلاد العربية الى ملكه، لذلك لم يحسن معاملة اهلها. وجل ما ابتغاه ان يظلوا كما كانوا قبل ظهور المذهب الوهابي نهب الشقاق والفوضى»

وهي الحالة التي كانوا فيها عندما انسحب ابراهيم باشا بجنوده من نجد في فصل الصيف من سنة ١٨١٩ بعد ان اقام سبعة اشهر في الدرعية، فضربت الفوضى اطنابها في البلاد، وجاءت عساكر الترك تحل محل العساكر المصرية، فكانت ضغثاً على ابالة. قال ابن بشر: «كان الناس يهجرون بيوتهم، فيهيمون على وجوههم في البراري فراراً من التسخير والارهاق والقتل والتعذيب، فانحل في البلاد نظام الجماعة، وشاعت المحرمات، فصرت لا ترى من ينهى عن منكر، او يأمر بمعروف».

وفي هذه الآونة قام رجل من بيت معمّر هو محمد بن مشاري يحاول الاستيلاء على قسم من البلاد، فافلح بادىء ذي بدء سعيه. وقد دانت له الوشم والعارض وسدير، ولكنه لضعف عزمه لم يحكم سنة كاملة، ولم يكن في تلك الايام الوحيد الطالب السيادة من اي وجه كان.

وعندما وصل عسكر الترك الى عنيزة بقيادة رجل يدعى عبوش اغا كتب اليه ابن معمر يقول انه طائع للسلطان وانه القى القبض على ابناء سعود الخ. فأقره عبوش في مركزه.

كان ابراهيم باشا كما اسلفت القول قد اجلى آل سعود الى مصر.

---

(١) قيل اربعمئة ومعهم اربعة من ابناء سعود الكبير اخوان عبدالله هم: فهد ومشاري وسعد وخالد. امـا الاربعة الاخرون اي فيصل وابراهيم وناصر وتركي فقد قتلوا في الحرب

ولكن مشاري بن سعود الكبير عاد منها هارباً ، وتركي بن عبدالله بن محمد كان قد لاذ بالحرج عند تسليم الدرعية . فلما عاد مشاري يطالب بالامارة قاومه ابن معمر وتمكن من القبض عليه فسلمه الى الترك فقتلوه. وكان تركي قد عاد من الحرج فنازع ابن معمر الامارة ، وحمل عليه ثم قتله انتقاماً لمشاري. وفي ذاك اليوم كان قد جاء وفود اهل سدير والمحمل يبايعون مشاري ، فبايعوه في الصباح ، ثم بايعوا تركي بعد الظهر .

١٢٣٦ هـ
١٨٢٠ م

وفي هذه المبايعة ينتقل الحكم من سليلة عبد العزيز بن محمد الى سليلة عبدالله اخي عبد العزيز، ويستمر فيها الى اليوم. ولولا تركي لما أنقذ في تلك الاونة بيت آل سعود . بيد انه لم يستطع في مدة امارته ، التي استمرت عشر سنوات ، ان يعيد الى هذا البيت سالف مجده ، والى ذاك الحكم تلك الصولة التي كانت لابن عمه سعود الكبير . ولا اظن ان سعوداً نفسه كان يستطيع ذلك بعد ان توالت على نجد النكبات ، وانتشرت بين اهله الردات ، ففسدت اخلاق الناس ، وتلاشت فيهم القوى المعنوية والروحية .

مع ذلك فقد استطاع الامام تركي ان يستعين بما تبقى من شتات الفضيلة في قوم مغلوب ليحفظ السيادة السعودية في زمن الزعازع والفتن، بل في زمن كانت عساكر الروم (الترك) محتلة قسماً كبيراً من البلاد.

على انه مات شهيداً . فقد قتله ابن عمه مشاري بن عبد الرحمن الذي يمتُ بنسبه الى الثالث من ابناء سعود الاول ، قتله طمعاً بالامارة ، ولكنه لم يتمتع بها اكثر من اربعين يوماً ، لان فيصل بن تركي قام يثأر لابيه ، فهجم رجاله على القصر بالرياض ، وادركوا مشاري فيه فقتلوه .

آل سعود

الدور الثالث – الحروب الاهلية

ان في قتل مشاري قاتل الامام تركي منشأ إمارة بيت الرشيد في حائل ، فالحادث اذن جدير بالاسهاب . يوم قُتل الامام كان ابنه فيصل في القطيف ومعه جنوده من قبائل شتى ، فلما جاء يثأر لابيه ودنا من الرياض خرج اليه وفد من المدينة يطلب منه ألا يأذن بالدخول اليها غيرَ اهلها من الجنود ، لانه اذا هجم عليها النجديون من غير الرياض قد يقاومهم الاهالي ليمنعوهم من احتلالها ، فيحدث قتال في المدينة ، فتولّد المحنة محنة اخرى اشدّ منها .

وكان مع فيصل رجل يدعى عبدالله بن الرشيد طرده من حائل امراؤها يومئذٍ آل علي فلاذ بآل سعود ، فلما همّ الجنود ابناء الرياض بالدخول الى المدينة استفزت الحمية عبدالله فاستأذن فيصلا بان يكون معهم فأذن له ، فدخلوا الرياض بدون قتال لان اهلها كانوا من حزب تركي ، وهجموا على القصر الذي تحصن فيه مشاري (هو قصر الملك اليوم وقصر دهام بن دواس سابقاً) اما عبدالله بن الرشيد فقد سبق المهاجمين الى « مفتول » (برج) من مفاتيل القصر ، فرأى فيه رجلا اسمه سوَيْد كان اميراً في جلاجل بسُدَيْر ، وكان قد جاء يسلم على الامام تركي دون ان يعلم بما حل به ، فرحب به مشاري وانزله ذاك البرج في القصر .

قال عبدالله يخاطب سويّداً : وما دخلك انت بآل سعود ؟ اجابه سوّيد : اني مغصوب . فقال عبدالله : اذا جئتك بالامان من فيصل اترمي لنا حبلًا لنصعد الى القصر ؟ فقال سوّيد : اني من رجال تركي وساساعدكم على شرط ان يعطيني فيصل الامان ويهبني نخل الداهنه [١] .

---

(١) الداهنة هجرة من هجر الرُوقة وهم فخذ من عتيبه

فتوائق الرجلان ورمى سويد بحبل فصعد ابن الرشيد الى القصر وصعد وراءه عشرون من جنود فيصل ، فتصادموا ورجال مشاري وتجالدوا ، فجرح عبدالله في يده جرحاً بليغاً شوهها . ولكنه ورجال فيصل استولوا على القصر وحافوا بمشاري ومن معه فقتلوهم .

سُر فيصل خصوصاً بشجاعة عبدالله بن الرشيد . وعندما رأى جراحه قال له : لك مني ما تريد . فقال عبدالله : اطلب منك ان تؤمرني في حائل وان تكون الامارة لي ولعائلتي بعدي . فاجاب فيصل طلبه ، فكان عبدالله هذا مؤسس امارة بيت الرشيد . وسنعود الى ذكره وذكرها في فصل آخر .

١٢٤٦ هـ
١٨٣٠ م

يقسم عهد فيصل الى دورين ، الاول يبتدىء في توليه الامارة ، بعد قتل ابيه ، وهو دور الاضطرابات والفتن ، وينتهي بعد تسع سنين في تسليمه الى القائد خورشيد باشا . وكان قد عاد من مصر خالد بن سعود احد الذين اجلاهم ابراهيم باشا ، وهو حائز على ثقة محمد علي ومحبوب من المصريين . بل جاء خالد مع خورشيد ليساعده في الاستيلاء على نجد والقضاء على فيصل . فعندما قرب الجيش من الرياض رحل فيصل الى الدلم في بلاد الخرج لانه ، لخلافٍ كان بينه وبين اهل الرياض ، لم يرَ من الحكمة ان يُحاصر فيها .

كان اهل الدلم اصدقاء لفيصل مخلصين فلجأ اليهم ، فتعقبه خورشيد بجيشه وحاصره هناك . وقد ثبت فيصل اربعين يوماً في الدفاع ، ولكنه عندما اشتد الحصار ، خصوصاً على اهل الدلم ، ظهر في مظهرٍ من كرم الاخلاق يندر مثله في المتحاربين . اجل ، قد عرض على خورشيد ان يسلم نفسه بشرط ان يعفو القائد عن الاهالي ويؤمنهم على ارواحهم واموالهم .

قبل خورشيد ، فسلم فيصل في ٢٣ رمضان من هـذه السنة

١٢٥٤ هـ
١٨٣٨ م

(١٠ ديسمبر) ما كان معه من عتاد الحرب الى اهل الخرج ، ثم سلم نفسه الى القائد ، فبرّ بوعده اذ عفا عن الاهالي. وقد احسن معاملة فيصل فاستصحبه الى مصر ، وولى مكانه خالد بن سعود .

وخالد هذا هو اخو عبدالله من جارية حبشية . كان متوقد الذهن ، رقيق الشعور ، مسترسلاً في اللهو واللذات . نشأ في ذرا محمد علي فتمصر ، وجاء يحكم في نجد حكماً عصرياً ، فنفر النجديون منه وعدوه اجنبياً . ثم اجمعوا على خلعه فخلعوه بعد ان قاوموه سنتين ، فتولى الامارة بعده

١٢٥٧ هـ
١٨٤٢ م

عبدالله بن ثنيان بن ابراهيم بن ثنيان بن سعود وكان مستبداً عادلاً . بيد انه ارهق الناس بالضرائب فلم يصبروا على حكمه اكثر من سنة . ولكنهم لم يخلعوه كما فعلوا بسلفه خالد . فقد صدف ان فيصلاً ، الذي اطلقه محمد علي من السجن في هذه السنة ليعيده حاكماً الى نجد ، وصل الى القصيم يوم كان عبدالله بن ثنيان محاصراً عنيزه ، فدعاه للطاعة فاجابه عبدالله انه لم يحكم نجداً الا بالنيابة عنه . وكانت خدعة منه يتوسل بها الى القبض على خصمه .

سار فيصل مخدوعاً الى عنيزه ، ولكن القدر والاه. فقبل ان يدخل المدينة جاءه رجل يعلمه بنية ابن ثنيان ، فأخذ للامر اهبته ، ودخل برجاله ليلاً وهم ينادون ان الحكم لفيصل .وضجت عنيزه لهذه المفاجأة وخذل اهلها ابنَ ثنيان ففرّ هارباً الى الرياض ، فتعقبه فيصل وحاصره عدة ايام ، ثم صفح عنه واعطاه الامان .وخرج ابن ثنيان من القصر شاكراً حامداً ولكنه بُعيد ذلك اصيب بمرض اودى بحياته .

استقام الامر لفيصل . فبايعه اهل نجد وتمتعوا بالنعم الجمة في عهده

١٢٥٨ هـ
١٨٤٢ م

الذي استمر في الدور الثاني اربعاً وعشرين سنة . حكم فيصل حكماً عربياً سعودياً ، مثل ابني عمه عبد العزيز وسعود ، فاقام العدل ، وعزز الامن ، واعاد الى نجد شيئاً من اليسر وسالف المجد . بل

الى ما وراء نجد، فقد بسط سيادته على الشطر الاكبر من شبه الجزيرة، فدانت له الاحساء والقطيف ووادي الدواسر وعسير والجبل والقصيم. فدانت له حباً لا كرها.

ولكن الدولة العلية، او بالحري الحكومة المصرية، لم تهمل امره كل الاهمال. وبما انها تكبدت الخسائر الفادحة في حملاتها السابقة على اهل نجد، رأت من الاوفر والاسلم ان تسيّر قواتها على من يدين لابن سعود في عسير. وما كانت تهامة باسوغ لقمة من نجد.

قد سير عباس الاول عشرة الاف جندي نظامي الى جبال عسير في

١٢٦٨ هـ
١٨٥٢ م

هذه السنة، فنازلهم هناك العربان يقودهم عائض ابن مرعي رئيس آل عائض، وهزموهم شر هزيمة، فتقهقر من سلم منهم الى تهامه. وكانت الغلبة في هذه الحرب لآل عائض وبالتالي للامام فيصل. الا ان فيصلاً كان يتحاشى ما استطاع سفك الدماء. وعندما حاصرت جنوده بريده كانت خطته العسكرية ان يمدد الحصار فيحمل الاهالي على التسليم بدون قتال. وقد استنجد اهل القصيم يومئذ بالامير طلال بن الرشيد فلم ينجدهم خوفاً من ابن سعود. ثم استنجدوا بامير مكة فابى كذلك. ثم ارسلوا يفاوضون الحكومة المصرية فنفضت يدها منهم. مما يدل على ان فيصلا كان عزيز الجانب رهيباً.

وكان محبوباً ولا غرو. فقد جمع في سياسته بين الشدة واللين، فكان كريم الاخلاق، قوي الارادة، سمحاً حليماً، محباً للعلماء، رؤوفاً بالناس، محسناً اليهم، حريصاً على مصالحهم.

جاء بلغراف[١] نجداً في عهده فساح في الجبل والقصيم، ونزل من

١٢٧٨ هـ
١٨٦٢ م

بريده الى العارض عن طريق سدير، فاقام في الرياض وضواحيها خمسين يوماً، ثم رحل الى الاحساء ومنها الى الخليج. كان

(١) William Gifford Palgrave (١٨١٦ – ١٨٨٨ م)

بلغراف شديد اللهجة في انتقاده الوهابية والوهابيين ، بل كان متحاملا. وقد جاء البلاد العربية من قبل نابوليون الثالث ، كما جاء قبله بخمسين سنة باديا الاسباني (علي بك) من قبل نابوليون الاول ، مستكشفاً مستخبراً. وللاثنين غرض سياسي يتقدم الغرض العلمي. بيد ان بلغراف، على ما كان من الشدة والنفرة في انتقاده اهل نجد المتعصبين (وهو الانكليزي اليهودي اليسوعي[1] المتساهل) قد انصف الامام فيصلا. فقد قال يصف حكمه : « ان القوافل تجتاز القصيم وسدير والوشم ومقاطعات نجد الاخرى آمنة، بفضل الحكم الوهابي، شر البدو وتعدياتهم. ويسير التجار والحجاج والفلاحون في البلاد بأمن وسلام ».

ولكن عهد فيصل السعيد لم يكن اطول عمراً من عمره. فبعد وفاته في ٢١ رجب (١١ ديسمبر) من هذه السنة ، تنازع انجاله الملك كما سترى واضاعوه . ، وهم عبدالله ومحمد وسعود وعبد الرحمن مثلوا الدور الاخير المحزن من رواية آل سعود الملأى بانواع الحوادث التاريخية .

١٢٨٢ هـ
١٨٦٥ م

وبعد ان انهك الترك والمصريون اهل نجد بحملاتهم المتعددة، وبددوا صفوف وحدتهم القومية والدينية ، عادت الى الوجود تنكأ الجراح تلك العداوات القديمة لآل سعود اي عداوات القبائل . فانتقضت قحطان ، وعصت العجمان ، وتمردت عنزى ، وتقلبت مطير ، وتذبذبت عتيبه ، وصال بنو مرّة ، وتنمر بنو خالد . ناهيك بالاخوة وابناء العم من البيت نفسه ، وقد قام بعضهم على بعض يتنازعون السيادة ، فكانوا في

---

[1] (١) ولد بلغراف عبرانياً - اسم اسرته كوهن - فصار بعدئذ مسيحياً ، ثم اباً يسوعياً ثم سياسياً ملحداً . وكان في سورية مع الاباء اليسوعيين يدعى الاب ميخائيل . اما رفيقه بركات وترجمانه في البلاد العربية فهو الذي ارتقى بعدئذ الى السدة البطريركية الرومية الكاثوليكية فصار البطريرك بطرس الجريجيري وكان مشهوراً .

حروبهم مغنماً لهذه القبائل النازعة الى الغزو والمسترزقة منه.

قامت القبائل توالي هذا الامير وتناوىء الاخر اخاه او ابن عمه طمعاً بكسب، او شفاء لغليل، او حباً بسيادة يحتقونها في انفسهم. وكان عبدالله قد حمل على العجمان لتعديهم على الحجاج فكسرهم في وقعتين قرب الكويت، فرحلوا شمالاً وتحالفوا مع رؤساء المنتفق على اهل نجد.

ثم اجلى عبدالله بعض العجمان الى وادي الدواسر. فلما قام سعود ينازع اخاه الامارة بعد موت ابيهما، لجأ الى ابن عائض في ابها فرده خائباً لان آل عائض في تلك الايام كانوا موالين لآل سعود. ثمَّ عاد سعود بن فيصل من ابها الى نجران وكان العجمان هنالك، فاجتمعوا حوله ينصرونه على اخيه، وانضم اليهم عدد كبير من الدواسر وبني مرَّة. هذي هي بداية الحرب السعودية التي اشتركت فيها قبائل نجد، فكانت يوماً لهم ويوماً عليهم — وكانت في الحالين على آل سعود. هي الحرب الاهلية التي استمرت متقطعة اكثر من ثلاثين سنة فاستثمرتها الدولة العثمانية، وكانت في النهاية المغنم الاكبر لامراء بيت الرشيد.

ولكن ابن الرشيد كان لا يزال في بداءة الحرب يدين لابن سعود. وعندما خرج عبدالله الى وادي الدواسر غازياً سار معه الامير متعب بن الرشيد الذي قُتل بعد تلك الغزوة، فتولى اخوه بندر الامارة بعده وأقره فيها الامير عبدالله.

وكان محمد بن فيصل مع اخيه عبدالله على اخيه سعود، فاحتربوا في وقعة المعتلا، فجرح سعود وانهزم، ثم سار، بعد ان داوى جروحه عند اهل مرة، الى عمان يستنجد صاحبها فلم ينجده. وراح من عمان الى البحرين فلباه شيخها. ثم حالف العجمان في الاحساء واعاد الكرة على

١٢٨٨ هـ
١٨٧١ م

اخويه محمد وعبدالله، فالتحمت جنود الاخوة عند ماء يسمى جودة، وكانت الغلبة لسعود. قال ابراهيم بن عيسى: «والسبب في ذلك ان بعض جنود محمد وهم سبيع خانوه وانقلبوا على اصحابهم ينهبونهم». وقد قتل اربعمئة من جنود الفريقين في وقعة الجودة، وأسر محمد فاعتقل في القطيف. ثم دعا سعود اهل الحساء للمبايعة فجاؤوه على عين جودة مبايعين.

بعد وقعة الجودة احتل مدحت باشا، يومئذٍ والي بغداد، الحساء وذلك بمساعدة عربان الكويت الذين جاؤوا بحراً الى العقير وبراً الى القطيف بقيادة الشيخ مبارك الصباح. وفي احتلال الحساء في هذه السنة قطع مدحت الصلة بين نجد وعمان، ووسع ثلمة العداء بين سعود واخويه، فاطلق محمداً من سجنه في القطيف، ووعد عبدالله بان يعينه «قائمقام ولاية نجد». ولكن عبدالله خشي الخدعة — قيل ان مدحت كان ينوي القبض عليه — ففر هارباً الى الرياض، فاستقبله اهلها مرحبين مهللين.

ولكن سروره لم يدم طويلاً. فقد زحف سعود في السنة نفسها اي سنة ١٢٨٨ هـ الى الرياض، فدخلها ظافراً ونهب رجاله المدينة. ثم كتب الى رؤساء البلدان ان يقدموا اليه للمبايعة فجاؤوا يبايعون. اما عبدالله فكان قد جمع بدو قحطان وانسحب الى وادي حنيفة، فتعقبه سعود بجيش من آل مرة، والعجمان، وسبيع، والسهول، والدواسر. وبعد وقعة في البرة انهزم عبدالله وعاد الى الحساء.

قد كانت هذه السنة (١٨٧١ م) والتي تليها سنتيَ قحط في نجد، فجاءت المجاعة تنجد الحرب على اهله. نعم قد توالت النكبات وتعددت، فمن لم يمت بالسيف مات جوعاً. وكان الناس يأكلون جيف الحمير ويحرقون جلود الاباعر ويدقونها، بل كانوا يدقون حتى العظام ويأكلون مسحوقها.

لم يصفُ الجو والحال هذه حتى لسعود، فقد قام اهل الرياض عليه في هذه الآونة فأخرجوه، بعد ان أمَّنوه على حياته، من المدينة. ثم تولى الحكم فيها عمه عبدالله بن تركي.

رحل سعود الى الدلم بالخرج ومنها الى الاحساء يستنهض العجمان وآل مرَّة على الترك، فاجتمع حوله جيش من تلك البوادي وهجموا على الحساء، فخرج الترك اليه في الحويرة وبادروه القتال فهزموه. على ان الفشل لم يكن ليثني هذا السعودي عن عزمه. فقد عاد يقطع الدهناء الى الافلاج، وحمل على اخيه الآخر وابناء عمه هناك، فانتصر في وقعة الدلم التي فر منها محمد بن فيصل هارباً، وأسر فيها عبدالله بن تركي الذي مات بعد ايام قليلة في السجن.

استمر النصر بعد ذلك حليفاً لسعود. فحارب اهل ضُرُمه وهزمهم، ثم اهل حريملا فادخلهم في طاعته، ثم اعاد الكرة على الرياض، وكان اخوه عبدالله قدعاد اليها، فخرج واهلها عليه، فاحتربوا في الجزعة وكانوا مهزومين. ارتحل بعد ذلك عبدالله ومعه بعض خدامه الى ناحية الكويت، فاقام على ماء الصبيحية هناك عند بادية قحطان. ودخل سعود الرياض ثم امر رؤساء البلدان ثانية ان يقدموا اليه ويبايعوه ففعلوا.

١٢٩٠ هـ
١٨٧٣ م

سنة واحدة استقام الامر فيها لسعود بن فيصل فتنفس الصعداء وقال للحرب استريحي. ولكن ابن الامام فيصل الرابع وهو عبد الرحمن قام يخطب ودها فبادرت اليه. وكان قد نهض بحلف من العجمان وآل مرة يريد اخراج الترك من الحساء، فهجم عليهم هنالك وكاد يظفر ببغيته لولا نجدة جاء بها ابن السعدون من العراق، فكسر العجمان وشتت شملهم.

١٢٩١ هـ
١٨٧٤ م

عاد عبد الرحمن الى الرياض فالفى سعوداً في القصر مريضاً، وقد توفي في هذه السنة، فتولى الامارة بعده، وكان اخواه

عبدالله ومحمد اذ ذاك مع بادية عتيبة .

جاء محمد بجيش من عتيبة يحارب عبد الرحمن فحشد عبد الرحمن جيشاً من اهل الرياض والخرج وبوادي العجمان ومطير ليحارب محمداً . وقد التقى الجيشان في ترمدا، فكانت هنالك وقعة تلاها صلح بين الاخوين. اما ابناء سعود فقد كانوا مع عبد الرحمن في هذه الوقعة ، ثم انقلبوا عليه، فراح يقصد اخاه الاكبر عبدالله وهو يومئذ في بادية عتيبة ، فاكرمه وعاد واياه الى الرياض لمحاربة ابناء اخيهما الثائرين . على انه لم يدركوهم في المدينة لانهم كانوا قد انسحبوا منها وارتحلوا الى الخرج فاقاموا هنالك.

صفا الجو لعبدالله ، او بالحري صفا الجو في بيت انجال الامام فيصل، فكان الاخوان محمد وعبد الرحمن مطيعين لاخيهما الامام . ولكن ابناء سعود ظلوا عاصين متمردين .وهنالك غيوم اخرى تتلبد في الافق الشمالي.

حدثني جلالة الملك عبد العزيز قال : « لم يستقم الامر لعبدالله لثلاثة اسباب : اولاً ـ وجود ابناء اخيه في الخرج يحرضون القبائل عليه . ثانياً مناصرته لآل عُلَيان امراء القصيم السابقين على اعدائهم آل مَهنا الامراء الحاكمين في ذاك الحين . وكان هذا جهلاً من عبدالله لانه في وقت ضعفه ليس من الحكمة ان يتحزب لبيت مغلوب فيضعضع نفوذه في القصيم . ثالثاً ـ ظهور محمد بن الرشيد الطامع بحكم نجد . فقد تحالف مع آل ابي الخيل (من آل مهنا) وكانوا كلهم يداً واحدة على ابن سعود .

النزاع الذي اشار اليه جلالة الملك يستوجب الشرح . ورأس هذا النزاع بريدة التي كانت في الماضي ماء لآل هذّال من شيوخ عنزى . فاشتراها منهم سنة ٩٥٨ هـ راشد الدريبي العنقري التميمي من آل عليان ، ثم عمرها وسكنها ومن معه من عشيرته ، فاستمرت رئاستهم فيها الى ان تغلب عليهم آل مهنا من عنزي في آخر القرن الثالث عشر للهجرة .

ولكن آل عُليان ظلوا يدسون الدسائس لآل مهنا ويستنجدون بهذا

وذاك عليهم ، فافضى العداء الى قتل مهنا ابي الخيل في عهد عبدالله ، فكتب اولاده الى الامام يشكون الامر اليه ، فلم يسمع شكايتهم . بل انحاز كما قال جلالة الملك الى آل عُليان . اما آل مهنا فاستنجدوا ابن الرشيد الامير محمداً ، فجاء هذا بُريده ، وطفق يحفر تحت سيادة ابن سعود فيها.

وعندما حدث الخلاف بين الامام عبدالله وبين اهل المجمعه فأدى الى الحرب كان محمد بن الرشيد قد اتفق مع اهل ذلك البلد على ان يكون حليفهم وحاميهم ، وان يكونوا من رعاياه ، فاستنجدوه عندما بلغهم خبر قدوم عبدالله بن فيصل ، فبادر الى نجدتهم بجيش مؤلف من بوادي شمَّر وحرب . وعندما وصل الى بُريده انضم اليه اميرها حسن آل مهنا ابو الخيل ومعه جند من القصيم . ثم زحفوا الى الزلفى ، وكان عبدالله ومن معه من اهل المحمل وسدير والوشم وبادية عتيبة قد عسكروا في ضرمه ، فلما علموا بتحالف ابن الرشيد وابن مهنا وزحفهما الى الزلفى انسحبوا من ضرمه وعادوا الى الرياض .

١٢٩٩ هـ
١٨٨١ م

دخل ابن الرشيد المجمعة وامَّر عليها احد رجاله ، فكانت بعد فوزه في القصيم الخطوة الثانية في استيلائه على نجد .

اعاد الامام عبدالله الكرة على المجمعة فاستغاث اهلها بامير الجبل ابن الرشيد وامير بُريده ابن مهنا فاغاثاهم ، فأدى ذلك الى وقعة بينهم وبين الامام ، كانت الغلبة فيها لابن الرشيد الذي كتب بعد ذلك الى رؤساء البلدان في الوشم وسدير يدعوهم اليه في الحماده مكان الوقعة فجاؤوه طائعين ، فعزلهم من وظائفهم وامَّر في كل بلد من بلدانهم واحداً من رجاله . وكانت وقعة الحماده الخطوة الثالثة في استيلائه على نجد .

١٣٠١ هـ
١٨٨٣ م

بعد هذه الوقعة بعث الامام عبدالله باخيه محمد رسولاً الى ابن الرشيد فاكرمه وتفاوض واياه . وقد عاد محمد من حائل يحمل الى اخيه من امير الجبل هدية وتعهداً بان يترك له بلدان الوشم وسدير ، فبادر الامام

الى عزل من اراد عزله في تلك البلدان، فزاد ذلك في الشقاق والتخاذل، اذ لم يستقم نفوذ ابن سعود فيها ، ولا تقلص نفوذ ابن الرشيد .

اما اولاد سعود بن فيصل الذين نزحوا الى الخرج فقد قام منهم محمد ينصر عمه عبدالله، فحشد جيشاً من عتيبة وراح يطلب الخصم الجديد ابن الرشيد ، فالتقى به عند ماء يسمى عروى فنازله هناك وكان مهزوماً .

هذي هي بداية العداء بين ابن الرشيد وبين اولاد سعود بن فيصل .

ولكنهم لم يكونوا يداً واحدة على خصمهم . فقد قاموا في هذه السنة على عمهم عبدالله يحاولون انتزاع الحكم منه، فقبضوا عليه والقوه في السجن ، فجاء ابن الرشيد يقطف على عادته ثمار الخلاف . جاء فزعاً كما ادعى وكان قد كتب الى رؤساء البلدان في نجد يشجب عمل اولاد سعود ويدعو لنصرة عمهم عبدالله. فلبى الناس دعوته، ومشوا معه الى الرياض ، فخرج اليهم عندما دنوا منها وفد للمفاوضة يرئسه عبد الرحمن بن فيصل ، فقال ابن الرشيد : ما قصدي والله غير ان اخرج عبدالله من السجن وان تكون الولاية في بلدكم لكم يا آل سعود. ثم عاهدهم على ذلك .

١٣٠٢ ﻫ
١٨٨٤ م

اما اولاد سعود بن فيصل فلما رأوا اتحاد الناس عليهم طلبوا من ابن الرشيد الامان فأمنهم على دمائهم واموالهم ، فعادوا الى الخرج . وبعد ان دخل ابن الرشيد الرياض واستولى عليها ظهر في مظهر الفاتح القهار ، اذ اطلق عبدالله من السجن وارسله واخاه عبد الرحمن وعشرة اخرين من آل سعود اسرى الى حائل . ثم اقام سالم السبهان (بيت السبهان اخوال بيت الرشيد) اميراً في الرياض .

وبعد خمسة اشهر جاء سالماً وفد متظلمٌ من الخرج الذي كان اهله قد اختصموا مع ابناء سعود بن فيصل، فراح سالم يحسم الخلاف هنالك. وقد حسمه حسماً تستحيل عنده المعاودة ، اذ انه قتل ابناء سعود محمداً

وسعداً وعبدالله[١] اولئك الذين امنهم ابن الرشيد على حياتهم ، واجلى اهلهم الى حائل . ضج الناس وقاموا يحتجون على السبهان ، فعزله ابن الرشيد وامّر مكانه فهاد بن رخيص من كبار شمر .

وفي السنة التالية مرض عبدالله بن فيصل في الجبل فاذن له ولاخيه عبدالرحمن واسرتيهما بان يعودوا الى الرياض . وقد عاهد عبدالله على ان يكون اميراً في بلاده . ولكنه توفي في ٢ ربيع الثاني (٢٦ نوفمبر) من هذه السنة بعد وصوله الى الرياض، فكتب عبد الرحمن الى ابن الرشيد يخبره بذلك ويسأله ان يعزل عامله حسب العهد المذكور ، فكان جواب ابن الرشيد ان عزل فهاد بن رخيص وعين مكانه سالم السبهان ، اي انه نكث عهده . وفي ١١ ذي الحجة من هذه السنة بلغ عبدالرحمن ان ابن السبهان قادم ليسلم عليهم سلام العيد ويقتلهم. فاحتاطوا للامر . وعندما وصل السبهان امر عبد الرحمن بان يجمع آل سعود ليلقي عليهم كلاماً من ابن الرشيد ، وكان في نيته ان يفتك بهم فيذبحهم جميعاً . على ان السعوديين سبقوه الى شبه ما كان يبطن، فوثبوا عليه وعلى رجاله وقتلوا عدداً منهم .

١٣٠٧هـ
١٨٨٩م

وبلغ خبر هذا الحادث اهل القصيم ،وكانوا قد اختلفوا مع ابن الرشيد، فكتبوا الى عبدالرحمن يعاهدونه على الطاعة والتعاون . وعندما مر ابن الرشيد ببلادهم وهو قادم الى الرياض ليثبت ابن السبهان في مركزه ، وقفوا له في الطريق وصدوه ، فعللهم بالوعود - وعد بان يعطيهم بادية مطير «والخوة» التي كانت تفرض على الحجاج - فرضوا بذلك ونكثوا عهدهم مع ابن سعود عبدالرحمن .

زحف ابن الرشيد الى الرياض بجيشه فحاصرها اربعين يوماً . ثم دعا اهلها للصلح فخرج اليه محمد بن فيصل والشيخ عبدالله بن عبد اللطيف

(١) لسعود ابن رابع اسمه عبد العزيز وقد كان وقتئذ مع المجلوبين في حائل .

(من آل الشيخ[١]) ومعهما ابن عبد الرحمن عبدالعزيز الذي كان يومئذٍ في الحادية عشرة من سنه ، فتفاوضوا مع ابن الرشيد وتصالحوا على ان تكون الامارة في العارض لعبدالرحمن بن فيصل . الا انه كان صلحاً مموهاً لان ابن الرشيد لم يتمكن في الحصار من فتح المدينة ، ولا تمكن اهلها من رده عنها .

اما اهل القصيم فعندما عاد الامير محمد الى الجبل طلبوا منه ان يبر بوعده فسوّف وتردد ، فنهضوا ثانية عليه وحشدوا قواتهم للحرب . وما كان هذا الامير الشمَّري ليرد طالباً ، فقد استنفر قبائله وتلاقى واهل القصيم في القرعا ، فتصادموا وتناوشوا في العشر الاول من جمادى الاولى من هذه السنة وكانت الغلبة لاهل القصيم ، فاقترح بعض رجال ابن الرشيد ان يخرجوا من ذاك المكان كانهم منهزمون ويسيروا الى البادية حيث لا « ضلعان » ـ تلال ـ ولا « مزابن » ـ اماكن يكمَن فيها ـ فيظن العدو انهم انهزموا ، فيتقفاهم ، فيقطعون ساقته بالخيل . قال الراوي : « واهل القصيم اناس شجاعتهم كثيرة ورأيهم قليل » فلما رحل محمد بن الرشيد صاحوا : انهزم ، انهزم! ولحقوه ، فبعدوا عن مراكزهم ومواشيهم ، فهجمت عليهم الخيل ، فاجتزت مؤخرهم . وكانت الهزيمة عظيمة . قيل انه قتل الف رجل من اهل القصيم في تلك الوقعة التي تدعى وقعة المليْده والتي كانت الخطوة الكبرى النهائية في استيلاء ابن الرشيد على نجد .

١٣٠٨ هـ
١٨٩٠ م

لم يقم لآل سعود قائم بعدها . فقد كان الامام عبد الرحمن خارجاً برجاله من الرياض لينجد اهل القصيم ، ولكنه عندما علم وهو في منتصف الطريق بوقعة المليدة ، عاد الى الرياض ، فأخرج حريمه واولاده منها وارتحلوا الى الحساء وكان يومئذ عاكف باشا متصرفها .

---

(١) راجع الشرح في صفحة ٤١

وكان طبيب الجيش شاباً لبنانياً هو الدكتور زخور عازار الذي انتدبه المتصرف ليفاوض ابن سعود، ويعرض عليه شروط الدولة. فاجتمع الدكتور زخور على عين النجا قرب المبرز في جمادى الثانية سنة ١٣٠٨ (يناير ١٨٩١ م) بالامام عبد الرحمن وكان معه ابنه الصغير عبدالعزيز . وقد عرض عليه ولاية الرياض بحكمها من قبل الدولة ، اذا اعترف لقاء ذلك بسيادتها، ودفع بمثابة الخراج شيئاً ، الف ريال او اقل مثلاً ، في السنة . فرفض الامام عبد الرحمن قائلاً ان بعد ذبح بندر بن الرشيد[١] تفلتت العشائر فصارت خائنة بعضها لبعض ، وللأمراء الحاكمين كذلك . وانه لا يستطيع والحال هذه ان يثق بها ويتكل عليها .

وكان صاحب قطر قاسم بن ثاني خارجاً يومئذٍ على الدولة فشاع ان الدكتور زخور يسعى في عقد اتفاق بين ابن سعود وابن ثاني لاخراج الترك من الحسا . فأوقف خمسة عشر يوماً في الهفوف ثم استدعي الى بغداد وكان بعد التحقيق بريئاً . ولكنه مع ذلك ابى ان يعود الى منصبه.

اما الامام عبد الرحمن فبعد تلك المفاوضات رحل واولاده الى الكويت ، فمنعهم الشيخ محمد الصباح الحاكم يومئذ من الدخول اليها ، فعادوا الى البادية واقاموا بضعة اشهر مع العجمان. ثم أمُّوا قطر فأقاموا فيها شهرين. وكانت الدولة لا تزال تبغي عقد اتفاق مع ابن سعود لتأمن حركاته وسكناته ، فارسل متصرف الحسا يستدعيه اليه فلبى الدعوة . وقد تم بعد ذلك الاتفاق على ان تدفع الدولة الى الامام عبد الرحمن ستين ليرة مشاهرة — وقلما كانت تدفعها — وان يقيم وعائلته في الكويت. فقبل ابن الصباح اذ ذاك ان يتوطنوا بلاده .

١٣٠٩ هـ
١٨٩١ م

(١) ذبحه عمه الامير محمد وذبح اخوته الاربعة الاخرين كما سيجيء في ما يلي .

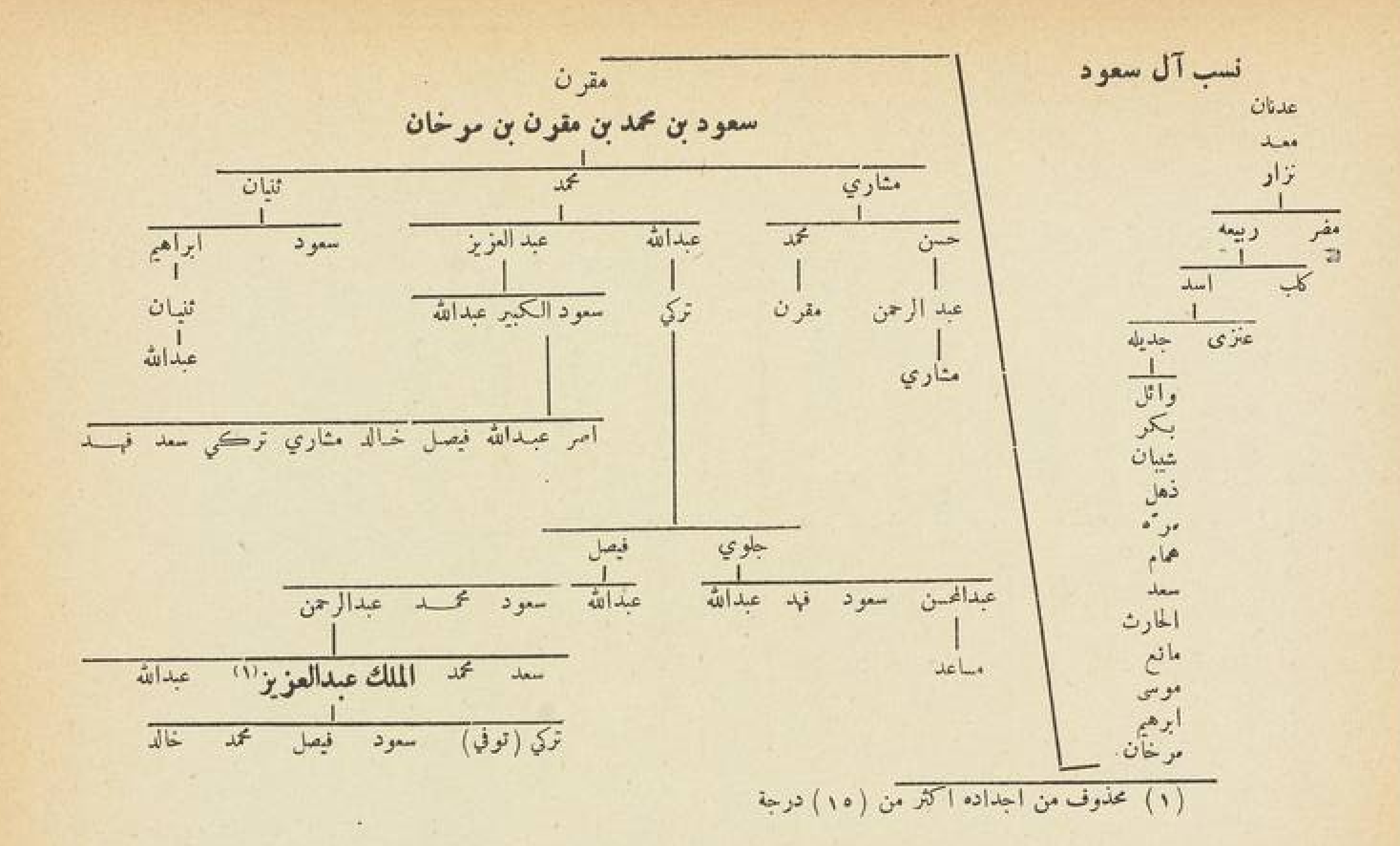
سيرة

الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن

آل فيصل آل سعود

ولد في:
٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ هـ
٢ ديسمبر ١٨٨٠ م

توفي:
اثنين ربيع الاول سنة ١٣٧٣ هـ
٩ نوفمبر سنة ١٩٥٣ م



(١) محذوف من اجداده اكثر من (١٥) درجة

تمهيد

بعض الامراء الذين كانوا سائدين في الشطر الشرقي
او في قسم منه من شبه الجزيرة يوم كان
ابن سعود منفياً في الكويت

الشيخ مبارك الصباح . امير الكويت. (١)

كان حاد المزاج ، شديد البأس، كثير التقلب . فيه شيء من الاسد واشياء من الحرباء . بدوي الطبع ؛ حضري الذوق ، تارة يجبه الخصم وطوراً يجامله . وكان كريماً جواداً ؛ بل كان مسرفاً . يسترسل الى الترف والبذخ ، ويقدم بعد حبه للمجد والسيادة ، نواعم العيش ونوافله على كل شيء سواها .

اما سيف مبارك فكان مثل سياسته ذا حدين . قتل اخويه محمداً وجراحاً طمعاً بالامارة ، وحباً بالمجد ؛ فكان اميراً مجيداً . هو من اولئك الحكام المتفردين بالحكم الذين يرهقون الامة بالضرائب ليحوكوا لها حللاً من الفخر والعز باهرة .

شيد قصوراً في الكويت وهدم قصوراً في السياسة . كان يلقب بـ « الحواقة » من حاق ومرادفاتها مثل دار ولف ، اي ما يراد به السير على عكس الخط المستقيم . نصف عمله سر لا يدركه سواه ، والنصف

---

(١) تولى الامارة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) توفي ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م)

الاخر خدعة باهرة ؛ او خدعة مضحكة ، او خدعة كثيفة مدلهمة .

لاعب العشائر وغالبها ، وما كان دائماً من الفائزين. أجزل لها العطاء، فاخذت ماله وهداياه ، ودعت لاعدائه .

خطب الدولة العلية ولامهر غير الحب والاخلاص — نقسم بالله العلي العظيم اننا مخلصون للدولة ونفديها بدمنا — فكتب كتابه عليها ، ففتحت له قلبها المحنّط المضمّخ بالطيب . ثم انقلبت عليه .

غازل الدولة البريطانية ، فبادرت اليه ولهانة ويدها على قلبها المقفل بعشرة اقفال . ثم بنت لها حصناً في ظلال قصوره .

احب آل سعود فطوقهم بذراعيه — انتم اعز من اولادي — ثم ضرب بهم عدوه ابن الرشيد .

احب العجمان ؛ ثم حاربهم ، — نحزمكم كالحطب بالله ونحرقكم ونحرق دياركم — ثم اشغلهم حرباً على ابن سعود .

ولكنه احب الامير خزعلا حباً جماً ، صافياً ، فبنى له قصراً في الكويت ، وبنى خزعل لمبارك قصراً في المحمرة ، فكان الاثنان يجتمعان على ضفاف قارون او على شاطىء الخليج ليقضيا اياماً وليالي بين سرب من القيان والراقصات ، ولسان حالهما يقول : بعداً للسياسة والحروب .

الامير محمد بن الرشيد . امير نجد .(١) .

كان امير الحاج العراقي يوم كان بندر ابن اخيه طلال متولياً الامارة . وعندما قام بندر واخوه بدر على عمهما متعب فقتلاه رحل محمد عمهما الثاني الى الرياض ، ولاذ بالامام عبدالله بن سعود ، فوفق الامام بينه وبين ابني اخيه . وكان بندر قد تولى الامارة ، فأمّن عمه محمداً على حياته ، فعاد الى حائل واستمر اميراً للحاج . ولكنه طمع بامارة اكبر منها ، فقام بعد ثلاث سنوات يحقق مطامعه . بل قام كما قيل يثأر لاخيه وقيل

(١) تولى الامارة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١ م) توفي ١٣١٥ ﻫ (١٨٩٧ م)

انه قام يرد السيف الذي ذبح اخاه وكان يومئذٍ مستلاً عليه . على ان القول الذي لا ريب فيه هو ان سيف الامير محمد تقاضى خمسة رؤوس بدل الرأس الواحد . فقد قتل بندراً واخوته الاربعة ابناء اخيه طلال

يا لك من قــبرة بمعمرٍ خلا لكِ الجو فبيضي واصفري

صفر الامير محمد للقبائل فلبته مختارة او مكرهَة ، فكتُب له النصر في حروبه كلها . ولكنه قال في خطبة خطبها في ساحة حائل يبرر قتله ابناء اخيه .

« يا مسلمين ما قتلتهم والله الا خوفاً على هذه (وضرب رقبته بيده) هموا بقتلي فسبقتهم ومنعتهم . وهل تظنون ان من ذبح اخي متعباً يعفو عني ؟ » .

تولى الامير محمد الامارة فكان كبيرها ، وكبير شمّر ، بل كبير العرب في ايامه . فقد استولى على بلاد نجد كلها حتى وادي الدواسر ، وكان في حكمه عادلاً بل كان حليماً حكيماً . على ان البدو كانوا يسخرون ، فقد قالوا ان الامير محمداً لا يحسن الحكم لانه لا يكثر من قطع الرؤوس . كأن كبير بيت الرشيد آلى على نفسه بعد ذبحه ابناء اخيه الخمسة ألا يقطع رؤوساً الا في الحرب .

اما في السياسة فلم يختلف كثيراً عن زميله « حوّاقة » الكويت . ولكنه كان ابعد نظراً واسدّ رأياً منه ، فيقدر الناس بعقولهم ، ويعاملهم بموجب ذلك .

قد كان للامير محمد طرائق ثلاث في التغلب والاستيلاء هي الكرم ، والسيف ، والارهاب . فيستميل اليه من يستطيع استمالتهم بالهدايا ، ويمتشق الحسام على من لا تغرهم هداياه ، ويمشي الى غرضه على ظهور اولئك الذين يخشون سطوته . فقد كان ولا غرو مهيباً ولكنه على الاجمال لم يكن محبوباً

الامير عبد العزيز بن متعب بن الرشيد [١]

حدثني اعرابي من شمر قال : كان عبد العزيز جالساً للناس في الفلاة يوماً من الايام فاحس بشيء يلذعه في ظهره ، فخاف ان تكون حشرة لا تستحق الاهتمام ، فسكت وتجلد حتى انتهى من عمله . ثم دخل الى الخيمة وطلب احد عبيده ، فرفع العبد ثياب عبدالعزيز فاذا ما بين كتفيه عقرب كبير يقرص جلده . صاح العبد مذعوراً ، وخشي ان يمس العقرب ، فتناوله عبد العزيز بيده ورماه خارج الخيمة . ثم امر العبد ان يذرّ على مكان اللذع رماداً حامياً ففعل ، ونام الامير بعد ذلك كأن لم يكن شيء .

قد سمعت غيرها من القصص التي تدل على ان عبد العزيز الرشيد كان جباراً ، وقد كان في الحرب فارساً مغوارا . قال فيه القائد التركي الفريق صدقي باشا : « هذا فارس كعلي » . ولكنه لم يكن كعلي في غير ذلك . ولا اظنه سمع بالبيت القائل :

« الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو اول وهي المحل الثاني »

طمع بالاستيلاء على الكويت ، وهو يبغي منفذاً على الخليج ؛ فاصطدم هنالك بالشيخ مبارك ، فاظهرت الصدمة عدواً آخر ، عدواً جديداً له ولبيته ؛ هو سميّه عبد العزيز بن سعود ، فحاربه ، فقضى في الحرب نحبه ، بعد ان خسر نصف ملكه .

الشيخ خزعل بن مرداو . امير المحمرة سابقاً .

راجع الفصل الخامس من القسم السادس من كتاب « ملوك العرب » الجزء الثاني صفحة ١٨٦ .

الشيخ عيسى ال خليفة . امير البحرين .

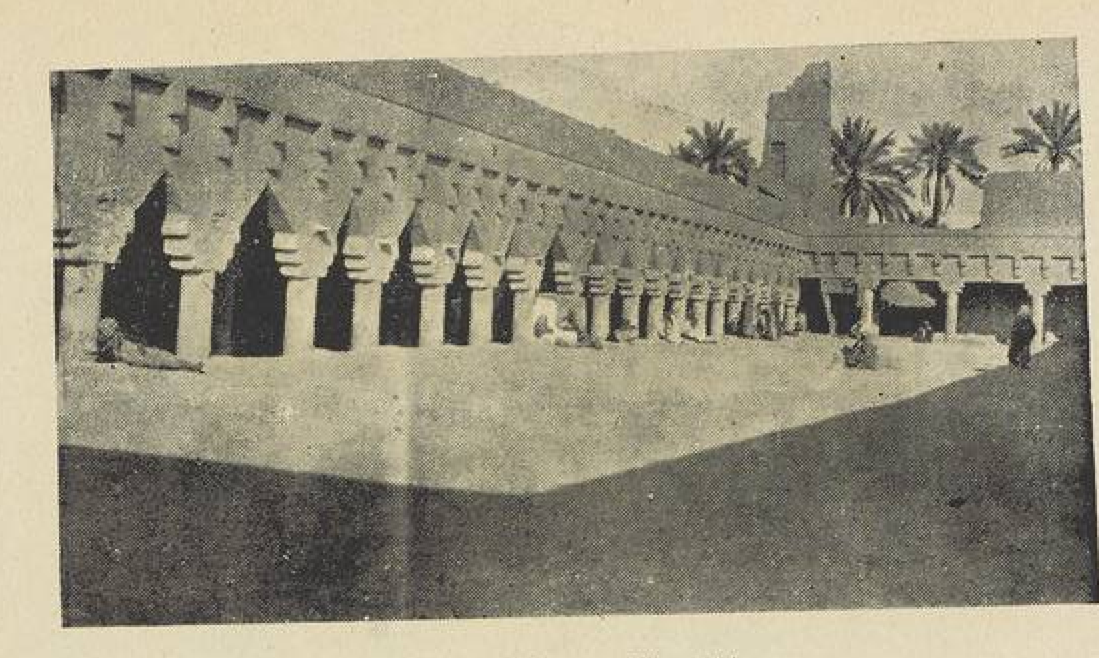
راجع الفصل السادس من القسم السابع من « ملوك العرب » الجزء الثاني

---

(١) تولى الامارة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) توفي ١٣٣٤ هـ (١٩٠٦ م)



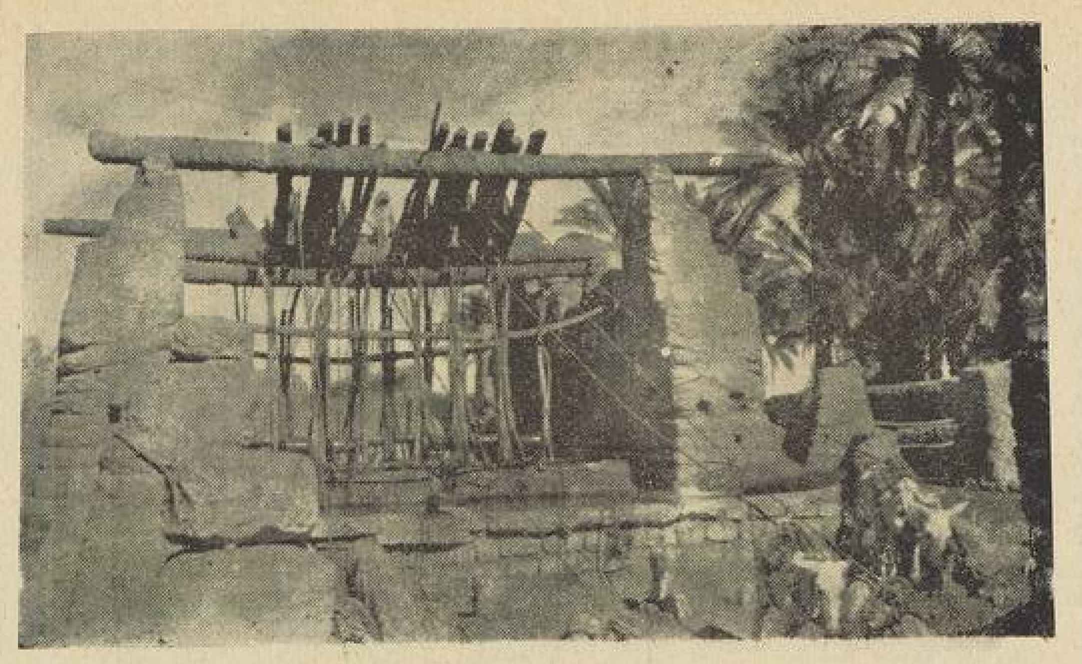
المغفور له جلالة الملك عبد العزيز سعود



الجامع الكبير في الرياض



عبدالله بن سعود الكبير عن رسم رُسم في مصر يوم اعتقاله هناك



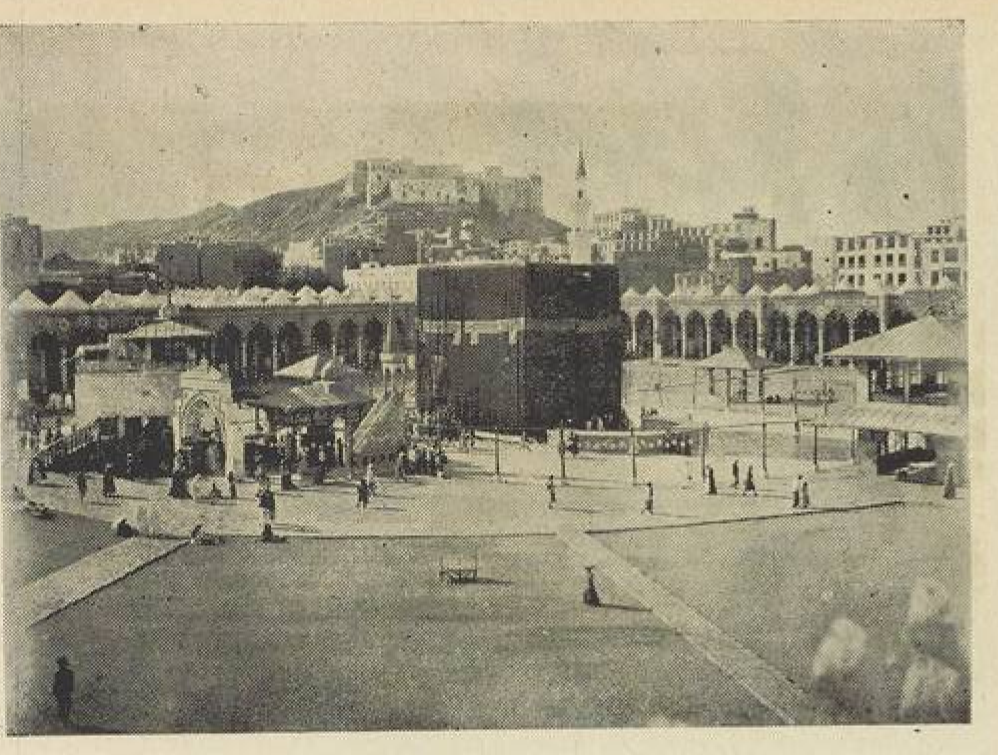
الغرب (العدة) فوق القليب (البئر) لرفع المياه



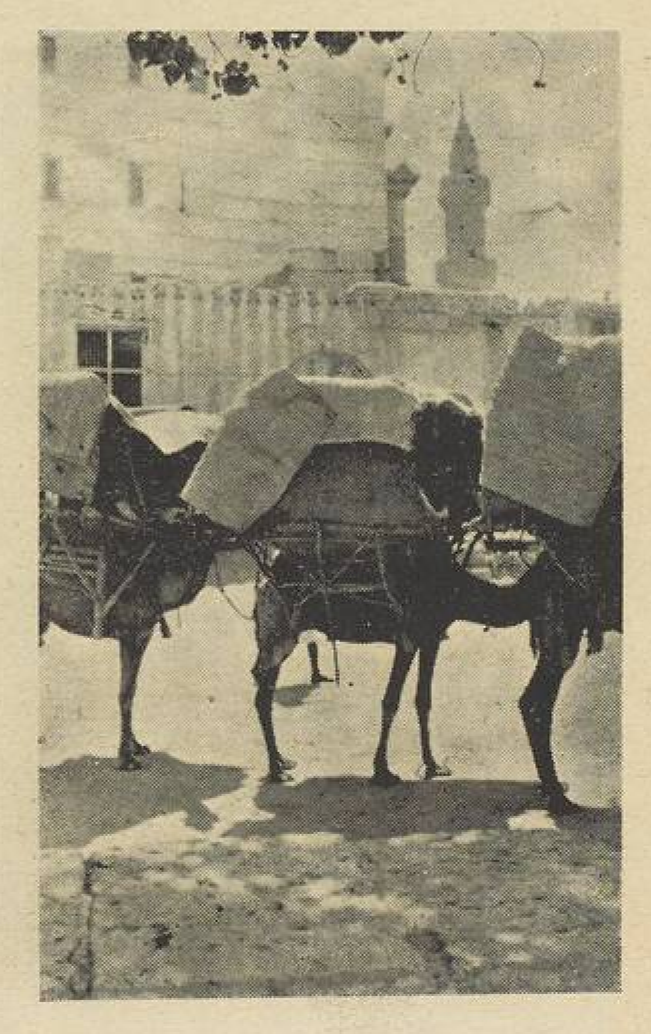
الامير سعود بن عبد العزيز ، الملك سعيداً اليوم



سيارة المغفور له الملك عبد العزيز وعلى جنبيها الحرس سنة ١٩٢٨



الحرم الشريف . والكعبة



الثقاديف لنقل الحجاج الى مكة والمدينة. وقد حلت اليوم محلها السيارات

صفحة ٢٥٩ .

الشيخ قاسم بن ثاني . امير قطر .

ولد سنة ١٢١٦ هـ وتوفي سنة ١٣٣١ فيكون قد عاش مئة وخمس عشرة سنة ، قضى معظمها في اكثار النسل الانساني . فقد تزوج على ما قيل بتسعين امرأة وبعدد من الجواري عديد . وكان له من الاولاد والاحفاد وابناء الاحفاد ذكوراً واناثاً ما نضرب صفحاً عن عددهم فلا نُتهم بالمبالغة . ولكنه كان اذا ركب يركب ستون فارساً في موكبه من صلبه .

لم يكن الشيخ قاسم ، او جاسم كما تلفظ هنالك ، سيداً على غير عشيرته يوم كانت قطر تابعة لحكومة البحرين . فقام ، وكان يومئذٍ قد تجاوز الخمسين من سنه ، يدعو العشائر كلها الى الاستقلال فلبت دعوته . وبعد وقعات بحرية وبرية مع اهل البحرين ، وكسرات وغلبات ، حازت قطر استقلالها . وكادت تستولي على البحرين .

ومن عجائب السياسة في الخليج انه كان للانكليز يد ، ولنا ان نقول يد سلبية ، في استقلال قطر . اي ان حكومة بريطانية العظمى ارسلت عليها سفينة من سفنها الحربية ، فضربت الزبارة عاصمتها بالمدافع ومنعت القطارنة عن التوسع والاستيلاء . ثم ارضتهم بان فصلت شبه جزيرتهم عن جزائر آل خليفة .

اما الترك فقد حاربهم ابن ثاني فكسرهم في وقعات عديدة ، وذبح عدداً كبيراً منهم ، ولكنه لم يتمكن من اخراجهم من الحساء . والحق يقال ان الحرب لم تكن من الاوليات في حياة الشيخ جاسم ، ولا همه ان يكون له صفحة ذهبية ، او بالحري قرمزية ، في التاريخ . بل كان همه الاكبر اكثار النسل الانساني كما قلت . وهمه الآخر ان يحسن تجارة اللؤلؤ (كان له خمس وعشرون سفينة للغوص) وان يجمع المال من

هذي التجارة ويبذله في سبيل البر والاحسان .

ومن احسانه انه كان ولوعاً في جمع العبيد وعتقهم . قيل انه عتق في حياته اكثر من خمسين عبداً ، وان مماليكه الاحرار اسسوا بلدة في قطر سموها السودان .

ومن دواعي احسانه الورع والتقوى . فقد كان حنبلي المذهب ، متصلباً فيه ، يصرف واردات اوقافه على الجوامع والخطباء بل كان هو نفسه يعلم الناس الدين ، ويخطب فيهم خطبة الجمعة .

اضف الى الورع والتقوى اذن فصاحة اللسان ، والى الفصاحة العلوم الدينية والفقهية ، والى العلوم الضمير الحي واليقين ، والى ذلك كله الثراء والجود ، فيكون المجموع رجلاً ولا كالرجال ، عاش قرناً ويزيد في قطر ، فكان اميرها ، وخطيبها ، وقاضيها ، ومفتيها ، والمحسن الاكبر فيهـــا .

الشاب المجهول

ولد في الرياض عاصمة ملك اجداده ، فرأى عمومته يتنازعون الملك ويتحاربون ، ورأى العدو على ابواب العاصمة وهو يطمع بالاستيلاء على نجـد اجمع ، ورأى اباه يحارب في الوقعة الاخيرة ويستسلم الى الله . ثم سمعه وهو جالس الى جنبه في الحساء يرفض شروط الدولة العلية ،فسُدّت امامه الابواب كلها الا الباب الى الصحراء ، فلجأ الى خيام الشعر وهو مثل اصحابها لا يملك فتراً من الارض وليس له غـير تلك الثقة الوطيدة العالية ، الثقة بالله ، التي هي كنز الاعرابي الاكبر .

ثم سكن الاب الكويت ، وصار الصبي شابا ، فكانت الذكرى الاليمة رفيقة افكاره وسميرة احلامه . قرأ شيئاً من العلوم هنالك ، وهو يفكر في الملك المفقود . جلس امام البحر وهو لا يدري اذا ركبه الى

اين تحمله الاقدار ، ثم نظر الى البادية وهو يهجس بالملك المفقود . عاشر الامراء والعلماء ، وجلس ساكتاً متأدباً في مجلس الشيوخ ، وهو يحلم بالملك المفقود . فتح الكتاب ثم القاه جانباً ، وهو يرمق السيف بنظرة كلها شوق وامل .

عاش مجهولاً في الكويت ، مجهولاً الا في الاسم والنسب ، وفي ما يبدو للعين المجردة . فقد كان الناس يعرفون ان ذاك الشاب القوي البنية ، الطويل القامة ، البراق العين ، هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود . وما كان كبار القوم فكراً وفراسةً ليعرفون اكثر من ذلك. بل كانوا كلهم في ظلال سور الغيب كالاطفال . جهلوا ما كان يجهله حتى اقرب الناس الى عبدالعزيز ، حتى ابوه وامه . جهلوا ما كان يجهله التاريخ. جهلوا ما كان يجهله الشاب المجهول نفسه . جهلوا ما لم يكن يعلم به غير الله .

الفصل الاول

وقعة الصريف

ما كاد الشيخ مبارك الصباح يجلس على العرش الملطخ بدم اخويه حتى قامت عليه الاعداء من كل جانب ، واهمهم من غير الحكام خال ابناء المقتولين يوسف آل ابراهيم كبير تجار اللؤلؤ في ايامه واغناهم . فقد بذل يوسف ثروته كلها ، ووقته وجهده ، وجازف بحياته ، طالباً الانتقام . ثم سافر الى قطر والى البصرة والى حائل والى الحجاز يحرّض الامراء والحكام على الشيخ مبارك [1] ،

١٣١٣ هـ
١٨٩٥ م

وكان يومئذٍ الشيخ قاسم بن ثاني ناقماً على مغتصب الحكم في الكويت فنصح ليوسف ان يذهب الى حائل مستنجداً بابن الرشيد . وقد كتب صاحب قطر كتاباً الى الامير محمد يزّين له احتلال الكويت ، ويعده بالمساعدة الحربية . على ان ابن الرشيد ،وهو يومئذ كبير العرب ، عقلاً وحنكةً واقتداراً ، لم تستفزه كلمات ابن ثاني ، ولا استغوته اموال ابن آل ابراهيم . قيل انه اوصى وهو على فراش الموت ابن اخيه عبد العزيز الذي تولى الامارة بعده الا يطمح بانظاره الى الكويت ، والا يباشر صاحبها العداء .

١٣١٥ هـ
١٨٩٧ م

ولكن الامير عبد العزيز لم يحفظ وصية عمه وعندما جاءه يوسف

---

(١) قد رويت الحادث وبينت اسبابه في الفصل الثاني من القسم السادس من « ملوك العرب » ومما قلت ان القتل كان بالسيف فكتب احد ادباء الكويت مقالاً يشير فيه الى بعض الاغلاط ويصلحها ، فقال ان القتل كان بالبندقية . تعددت الاسباب والموت واحد.

ثم قال منتقدي ان يوسف آل ابراهيم لم يسافر الى الاستانة بعد حادث القتل ولكنه سافر الى الحجاز يحمل الهدايا الثمينة الى شريف مكة ليتخذه عوناً في تحريك نفس السلطان على الشيخ مبارك . تعددت الاسفار والوطر واحد .

آل ابراهيم واحد الموتورين خالد بن محمد بحرضانه على مبارك نهض للامر وشرع يشن الغارات على الكويت تمهيداً للهجوم والاستيلاء .

فقد كان الشيخ مبارك عالماً بالقصد الاكبر من هذه الغارات ، وبما تقدمها من المؤامرات عليه ، فارسل رسله الى العراق مستنجداً بالدولة. ولكن يوسف آل ابراهيم كان قد سبقه الى ذلك ، فأقنع اولي الامر بما بذله من المال ، فأرسلت حملة مؤلفة من اربعة طوابير الى الزبير لتهدد صاحب الكويت . بيد أنها أبطأت جداً في السير – ظلت ستة اشهر في الطريق بين بغداد والزبير – وقيل ان الحكومة تعمدت هذا الابطاء املاً بأن يقضى الامر قبل وصول الحملة ، وطمعاً بالمزيد مما كان يبذله بدون حساب خال الموتورين .

ولكن مباركاً لم يفشل كل الفشل في العراق ، فقد حالفه سعدون باشا ابو عجيمي رئيس عشائر المنتفق وخرج معه بعدئذٍ على ابن الرشيد.

اما حلفه الاكبر ، وان كان يومئذٍ قليل ذات اليد ، فهو صاحب نجد السابق الذي كان عنده في الكويت ، اعني به الامام عبد الرحمن آل سعود . فقد تعاهد الاثنان ان يكونا يداً واحدة على ابن الرشيد . وبعد ذا التعاهد خرج عبد الرحمن بجيش من الكويت وأغار على عشائر قحطان في روضة سدير .

اما الشيخ مبارك فكان قد رمى بشبكتين في بحر السياسة دفعاً للحرب واستعداداً لها ، اذ ارسل الى ابن الرشيد يفاوضه بالصلح ، وكتب الى بعض الرؤساء من اهل نجد يستنهضهم على ابن الرشيد . وكان الامام عبد الرحمن قد غزا غزوته وقفل راجعاً ،فارسل اليه يأمره بأن لا يرجع الى الكويت ، ولم يأذنه عندما قرب من المدينة بالدخول اليها ليشاهد عائلته . قد كان للشيخ مبارك في ذلك مأرب سياسي ، ولكنه عندما علم ان ابن الرشيد رفض التوسط بالسلم جهز جيوشه وخرج يقودها

بنفسه ، ومعه اخوه حمود والامام عبد الرحمن آل سعود وابنه عبد العزيز . اما ابو عجيمي السعدون فكان قد خرج بعشائره ليطارد ابن الرشيد الذي كان قد وصل في اغاراته الى اطراف العراق . والظاهر ان الغلبة في الوقعة الاولى كانت على ابي عجيمي فارسل يطلب النجدة من الشيخ مبارك الذي كان اذ ذاك في الجهرى ، فبادرة الى نجدته.

وزحف الى السماوة حيث كان ابن الرشيد. ولكن حكومة البصرة مانعت في سيره عندما وصل الى ما بين الزبير والخميسية ، فاستغرب مبارك الامر ، وطلب مقابلة الوالي فوافاه الى قرب الزبير . وبعد المفاوضة أذن لاخيه حمود وعبد الرحمن ابن سعود ان يطاردا ابن الرشيد فلما وصلا بالجيش الى عين صيد رحل الامير الشمري من السماوة .

ولما عاد حمود وعبد الرحمن شرع مبارك يعد العدة للغزوة الكبرى غزوة نجد . فاستنفر القبائل فلبته مطير باجمعها ، ولباه العجمان وآل مرة وغيرهم من بوادي الجنوب . ثم جاء ابو عجيمي السعدون بعشائره من الشمال . ناهيك بان بعض الزعماء من اهل نجد كانوا قد كتبوا اليه يعدونه بالمساعدة فانضم عدد منهم الى جيشه ، وفيهم آل سليم امراء عنيزة وآل مهنا امراء بريدة .

زحف هذا الجيش، وعدده نحو عشرة آلاف، يقوده الشيخ مبارك. فقطع الصمان ثم الدهناء ونزل على ماء دونها يعرف بالشوكة . وهنالك اذن عبد العزيز بن عبد الرحمن ، اجابة لطلبه ، بان يسير بفرقة من هذا الجيش ، الف رجل من البادية ، الى الرياض فيستولي عليها .

١٣١٨ هـ
١٩٠٠ م

افترق الجيشان في الشوكة ، فزحف عبد العزيز سعود جنوباً بغرب الى عاصمة اجداده التي وصلها بعد يومين وكان في باكورة غزاوته موفقاً. فقد احتل المدينة ما عدا الحصن الذي تحصنت فيه حامية ابن الرشيد ،

فعزم على حفر نفق اليه ، وباشر ورجاله العمل .

واما مبارك فكان قد احتل بلدانا عدة في نجد بدون قتال . بل كان اهلها يرحبون به لعلمهم ان حليفه ابن سعود . اما ابن الرشيد فكان قد تقهقر وهو لا يريد ان ينازل جيشاً اكبر من جيشه . وظل يتقهقر حتى جر العدو الى قلب القصيم فوقف له عند الطرفية التي تبعد خمسة عشرميلا من بريدة الى الشمال .

وفي جوار هذه القرية ، في مكان يدعى الصريف ، في ٢٦ ذي القعدة من هذه السنة (١٦ فبراير سنة ١٩٠١) اشتبك الجيشان وتلاحما طيلة ذاك النهار فكانت الوقعة من اعظم وقائع العرب الحديثة ، ودارت فيها الدوائر على ابن الصباح وحلفائه . خسر الشيخ مبارك عدداً كبيراً من قومه ، وشيئاً كثيراً من عتاد الحرب ، فعاد ومن تبقى من الجيش منهزمين الى الكويت .

وكان الظافر قاسياً عتياً ، فقد امر بقتل الاسرى اجمعين . ثم زحف الى البلدان النجدية التي كانت قد سلمت الى صاحب الكويت ، فنكل بروؤسائها ، ونزع السلاح من اهلها ، وضرب عليهم الضرائب الفادحة .

اما عبد العزيز بن سعود فلما علم بوقعة الصريف اخلى الرياض ، التي احتلها اربعة اشهر فقط ، وعاد برجاله الى الكويت ، فاستولى بعد ذلك ابن الرشيد كل الاستيلاء على نجد اجمع . ولكن هذا الاستيلاء لم يدم طويلا لان وقعة الصريف كانت فريدة في نتائجها وعواملها . هي وقعة كان الظافر فيها مغلوباً . هي اول خطوة باهرة في سقوط ابن الرشيد عبد العزيز ، كما ان حملة عبد العزيز بن سعود على الرياض هي اول خيبة في فتوحاته .

الفصل الثاني

احتلال الرياض

بعد وقعة الصريف واستتباب السيادة الرشيدية في نجد شد الظافر ثانية على ابن الصباح ، فنزل الحفر الماء المعروف الكائن في منتصف الطريق بين القصيم والكويت[1]. وراح يوسف آل ابراهيم يشحذ بالاصفر الرنان عزم الدولة او بالحري عزم اولي الامر من رجالها في العراق .

وكانت شكوى الموتورين ابناء اخوَي الشيخ مبارك قد وصلت الى الاستانة ففتحت لها السياسة اذنها وبريطانية العظمى وقتئذٍ وراء الستار. قال السفير الكلمة التي طالما اصاخ لها الباب العالي فأنذر صاحب الكويت. نعم ، انقلبت الدولة العلية على الشيخ مبارك ، وهو الذي ساعدها لتستولي على الحساء ، فسيرت الى الكويت باخرة حربية .

وكان ابن الرشيد قد زحف الى اطراف البلاد وهم بالهجوم على الجهرى ، تلك البلدة الكائنة وراء الخليج على ضفة الجون الغربي ، على مسافة خمسة عشر ميلاً من العاصمة . احاط الاعداء بالشيخ مبارك ، حاقت « بالحواقة » الاخطار . ولكنه لم يفقد من عزمه ودهائه شيئاً . فعند ما رأى نفسه وبلاده في شبه الحصار فتح قلبه للدولة الاخرى الراسية بواخرها الحربية عند الشاطىء الفارسي من الخليج . ارسل الى ابي شهر يستنجد الانكليز ، فجاءه بعد ثلاثة ايام مركب حربي ورسى في مياه الكويت عشرين يوماً .

تلبد جو السياسة في بغداد والبصرة ، فابتسم مبارك وهو يجهز الحملة

---

(١) راجع الفصل السابع عشر « الحفر » من القسم الخامس (الجزء الثاني) من « ملوك العرب »

الثانية على ابن الرشيد . بل ضحك وهو زاحف الى الجهرى ، والمركب الحربي سائر في مرأى من الجيش اليها - اتبغون حصاري براً وبحراً ؟ ها اناذا جئتكم بحراً وبراً بالقوات التي لا تُغلب .

ولم يطلق المركب الحربي مدفعاً . الا ان الربان اذن ببعض المدافع الرشاشة فانزلت في الزوارق الى البر ومعها ضباط علموا الكويتيين استخدامها . ثم خطر في بال ذاك الربان الذكي ان يرهب العربان بالاسهم النارية ، فارسلها ليلاً في الفضاء وكان لها التأثير المطلوب . قيل ان ابن الرشيد ورجاله لاذوا بالفرار عندما رأوا النيران تشتعل في كبد السماء.

بعد هـذا الحادث وتلك الاسهم النارية ادرك الامير الشمري انه بدون مساعدة الدولة مباشرة لا يستطيع الاستيلاء على الكويت . عاد اذن بجيشه الى الحفر ، وشرع يفاوض الترك في بغداد . فلما علم الشيخ مبارك بذلك اراد ان يشغله بنجد وراء الدهناء .

وكان السعد في وجود آل سعود بالكويت خادماً لمبارك . هوذا عبد العزيز وهو يأبى ان يقف في الغزو عند خيبته الاولى . هوذا عبدالعزيز وهو منذ رجوعه من الرياض يلح على والده ليستأذن من الشيخ مبارك باعادة الكرة على ابن الرشيد ، فاذن الشيخ حباً وكرامة .

ولكن الغزو يكون جماعة . والجماعة - اربعون رجلاً من عائلة ال سعود وخدامهم السابقين - حاضرون ، لا يلزمهم غير الركائب والبنادق والزاد ، وشيء من المال . اجاب الشيخ مبارك الطلب فاعطى عبدالعزيز اربعين ذلولاً ، وثلاثين بندقية ، ومئتي ريالاً ، وبعض الزاد .

١٣١٩ هـ
١٩٠١ م

كان عبدالعزيز في الواحد والعشرين من سنه عندما خرج بهذه الشرذمة من الكويت . خرج « ينحر » - يقصد - البوادي علّه يزيد في الاقل عدد رجاله . نحروا العجمان فتردد الرؤساء فيهم ولكن كثيرين من العامه انضموا الى غزو ابن سعود . وكذلك

آل مرة وسبيع والسهول ، فاشتد ساعد عبدالعزيز . اصبح معه بدل الاربعين ذلولاً الف ذلول واربعمئة خيال .

هو جيش في البادية يذكر . ركب القائد الشاب على رأسه يقطع الصمان والدهناء فوصل الى مكان يقال له العرض بنجد وغزا هناك عرب قحطان الذين كانوا تابعين لابن الرشيد ، فاصاب منهم مغنماً كبيراً ، وعاد الى ناحية الحساء .

عند ما علم ابن الرشيد بهذه الغزوة هجم في اطراف الكويت على قبائل عريبدار[1] ليظهر انه لا يبالي بمثل هذا العدو .

ولكن ابن سعود بعد ان موّن جيشه في الحساء خرج غازياً مرة اخرى فوصل الى سدير ، فاغار هناك في مكان يدعى عُشيرة على قبيلة من قحطان واخرى من مطير فاخذهما ورجع بالغنائم فنزل ثانية في اطراف الحساء. وكان جيشه يزداد في كل غزوة حتى اصبح الف وخمسمئة ذلول وستمئة خيال .

اما ابن الرشيد فعاد بجيشه الى الحفر . ولما بلغه خبر غزوات ابن سعود الموفقة ارسل رسولاً اسمه الحازمي الى الشيخ قاسم بن ثاني يستنهضه على هذا العدو الجديد . ثم كتب الى حكومة البصره لتوعز الى حكومة الحسا بطرد ابن سعود من تلك النواحي وبتحريض البوادي عليه . اجابت الحكومة طلب ابن الرشيد ، فشرد خوفاً منها ومنه اكثر من الف هجّان ومئة خيال من جيش ابن سعود ، فلم يبال بذلك لانه لم يكن ليركن الا لرجاله الاربعين الاولين .

غزا بما تبقى معه الغزوة الثالثة فوصل الى جنوبي نجد واغار هناك على قبائل من الدواسر فلم يصب مغنماً كبيراً . ولكنه عاد الى ناحية الحسا. وكان وقت الشتاء فتفرق البدو طالبين المرعى لمواشيهم. ولم يكن ليربطهم

(١) يطلق هذا الاسم على خليط من العرب لا ينتسبون الى قبيلة من القبائل

بابن سعود الا حب الكسب، فمن اين له والحال هذه ان يكرههم على البقاء.

اربعون رجلاً ظلوا اربعين بعد ان ذاقوا حلاوة النصر ومر الفشل والخسران. ولم يكن لعبدالعزيز الشاب ما يشحذ عزمهم، ويفتح لاٰمالهم ولو كوّة من النور. استمر ابن الرشيد يحرض الترك وصاحب قطر عليه، فكتب اليه والده والشيخ مبارك يسألانه ان يرجع الى الكويت فابى. وعندما اشتد عليه ضغط الحكومة، حكومة الحسا، فرّ ورجاله هاربين جنوباً فوصلوا الى مكان بين حرْض وواحة جبرين، واقاموا هناك شهراً.

وكان ابن الرشيد لا يزال في الحفر وهو يستنجد الاتراك في احتلال الكويت، ويستحثهم على عدوه الجديد بل على آل سعود كلهم. فقطعت الدولة معاش كبيرهم، وسدت ابواب الحسا على صغيرهم، وهمّ ابن الرشيد ان يحصر هـذا الصغير سميّة في تلك الواحة القصية على حاشية الربع الخالي[1]

تشتت جيش عبدالعزيز، وتزعزعت اماله، فنهض يائساً يضرب الضربة الاخيرة، وهو يرجو ان تكون القاضية اما عليه واما على خصمه. اعتزم الهجوم ثانية على الرياض فاما ان يستولي عليها واما ان يقتل في سبيلها.

وكانت قوته يومئذٍ ستين رجلاً لا غير، اي انه لم يبقَ معه من ذاك الجيش الذي بلغ عدده الفين غير عشرين مقاتلاً. وكان في الرياض قلعتان الواحدة ضمن الاخرى شيدهما ابن الرشيد واقام فيهما تسعين من رجاله يرأسهم امير اسمه عجلان.

وخرج ابن سعود والستون البسلاء من مراحهم بين حرْض وجبرين في ٥ رمضان ووجهتهم الرياض، فوردوا ليلة العيد ابا جفان، وساروا منه في اليوم التالي فوصلوا في ٤ شوال الى حدود الرياض، ونزلوا في الساعة

---

(١) واحة جبرين هي علـى مسافة مئة وستين ميلاً من الحسا جنوباً ومئة وخمسة وسبعين ميلاً من الرياض شرقاً بجنوب

الثالثة عربية (التاسعة ليلاً) في ضلع يبعد ساعتين عن العاصمة .

ترك عبد العزيز عشرين من قومه هناك كجيش احتياطي ، وتقدم بالاربعين الاخرين ، وفيهم اخوه محمد وعبدالله بن جلوي امـــير الحسا اليوم. فلما وصل الى البساتين خارج السور اقام اخاه محمداً ومعه ثلاثون رجلاً هناك ، ومشى بالعشرة الباقين الى غرضه . ولكنه لم يتمكن من الدخول الى الحصـن الخارجي اي حصن السور الا من البيت المحاذي وهو لفلاح يتجر بالبقر .

قرع عبدالعزيز الباب فاجابت امرأة تقول : من انت ؟

عبدالعزيز : رجـل من رجال الامير عجلان اريد من رجلـك ان يشتري لنا بقراً صباح الغد .

الامرأة : خسئت يا شبه الرجال – ما جئت تبغي البقر يا فاجر بل جئت تبغي الفساد .

عبدالعزيز : لا والله ليس هذا مأربي . بل ابغي صاحب هذا البيت فاذا لم يخرج الي الان فالامير يقتله صباح الغد .

سمع الرجل هـذا التهديد فجاء يفتح الباب ، وكان عبدالعزيز يعرفه من الهجوم الاول في السنـة الماضية ، ويعرف حريمـه وفيهن من كنّ خادمات سابقاً في بيت سعود . فلمـا خرج امسكه بيده قائـلاً : اذا تكلمت قتلتك في الحال. فصاح النساء وقد عرفنه: عمنا،عمنا عبدالعزيز[1] .

عبدالعزيز : لا بأس عليكن اذا سكتن . قال هذا وقد ادخلهن الى غرفة واقفل عليهن الباب .

ثم تسلق الجدار الى البيت الاخر عند الحصن فاذا فيه شخصان نائمان عـلى فراش واحد ، فلفهما بالفراش وحملهما الى غرفة صغيرة ، فاودعهما هنالك واقفل الباب .

---

(١) في بعض اقطار البلاد العربية كنجد والحجاز ينادي الخادم سيده : عمي

اطمأن من عبدالعزيز البال ، فارسل يطلب اخـــاه محمداً والباقين فجاؤا دون ان يشعر احد بهم واجتمعوا كلهم في ذاك المكان .

وكان البيت الاخر الى جانب الحصن للامير عجلان ، وفيه احدى نسائه وهو يزورها تارة في الليل وطوراً في النهـــار . مشى عبد العزيز وعشرة من رجاله الى ذاك البيت ، فدخلوه وطافوا بغرفه ، فوجدوا في احداها اثنين نائمين على فراش واحد ظنهما عبدالعزيز الامير عجلان وامرأته .

دخل متسللاً ومعه رجل يحمل سراجاً . فلما دنا من الفراش رفع الغطاء فاذا هناك امرأتان ، فأيقظهما ، فاستوتا جالستين دون ان يعروهما شيء من الخوف . وكانت الواحدة منهما امرأة عجلان والاخرى اختها امرأة اخيه .

عرفت امرأة عجلان الرجل فبادرته بالقول : انت عبدالعزيز . فاجابها : نعم . فقالت : من تبغي ؟ فأجابها : ابغي زوجك . فقالت وهي تقسم بالله : اني احب ان تقتل كل من في البلد من شمر الا زوجي . ولكني اخشى عليك منهم ، اخشى ان يقتلوك يا عبد العزيز .

عبدالعزيز : ما سألناك عن هذا الامر . انما نريد ان نعرف متى يخرج عجلان من الحصن الداخلي .

امرأة عجلان : لا يخرج الا بعد طلوع الشمس بساعة .

عبدالعزيز : هذا كل ما نبغيه منكن ، ولا بأس عليكن اذا سكتن .

قال هذا وهو ورجاله يسوقون الامرأتين وبقية النساء الى غرفة واحدة ، فحبسوهن فيها . ثم كسروا الباب الذي يوصل الى البيت الذي كان فيه بقية الرجال فدخلوا منه ، واجتمعوا كلهم في بيت عجلان .

وكانت الساعة الثامنة عربية (الثانية بعد نصف الليل) فاستراحوا ، واكلوا التمر ، وشربوا القهوة ، وناموا قليلاً . ثم شرعوا عند انبثاق الفجر يدبرون طريقة للهجوم على الحصن الداخلي . وبعد قليل فُتح ذاك

الحصن فأخرج بعض العبيد الخيل الى الشمس. فلما رأى عبدالعزيز البوابة مفتوحة خرج عادياً ، فتبعه من رجاله خمسة عشر رجلاً فقط .

واتفق ان الامير عجلان كان قد خرج من الحصن عند هجومهم عليه وهو قادم الى بيته. فلما رآهم عراه الدهش والرعب فنكص ورجاله على اعقابهم وهم يبغون الرجوع . ولكن البوابة الا الخوخة (الباب الصغير فيها) كانت قد اقفلت ، وبينا كان ورجاله يدخلون من ذاك البوَيب اطلق عبدالعزيز البندقية عليه فاصابه ولم يقتله . ثم ادركه وقد صار نصفه داخل البوابة فامسكه برجليه وسحبه الى الخارج فتصارع الاثنان برهة .

واما الرجال الذين كانوا قد دخلوا الحصن فصعدوا الى احد الابراج المشرفة على السوق ، وشرعوا يطلقون النار من المصاليت على رجال ابن سعود ، فجرحوا اربعة منهم وقتلوا اثنين .

وتراجع الهاجمون الا عبدالله بن جلوي فكان اول من دخلوا الحصن، وراح يعدو وراء عجلان الذي كان قد تفلت من عبدالعزيز ، فرماه بالرصاص فخرَّ لوجهه قتيلاً .

ونادى عبدالعزيز برجاله واستفزهم فاقتفوا اثر عبدالله . هجموا على الحصن هجمة واحدة، فصاحوا بمن فيه وفتكوا بهم، فقتلوهم الا عشرين رجلاً كانوا قد تحصنوا في جهة منه . ولكن عبدالعزيز أمنهم على حياتهم فسلموا .

وبعد سقوط الحصن في الخامس من شوال ١٣١٩ (١٥ يناير سنة ١٩٠٢) والاستيلاء على الرياض باشر الامير السعودي الشاب بناء السور الجديد القائم اليوم حول اقسام متهدمة من السور القديم ، فتم بناؤه في نحو خمسة اسابيع .

الفصل الثالث

الحرب في الخرج

لم يحدث احتلال الرياض امراً جديداً في السياسة الدولية اي بين الدولة العلية والحكومة البريطانية . فظلت الاولى مذبذبة مراوغة ، واستمرت الثانية مراقبة ومن وراء الستار حاكمة بامرها .

واما الشيخ مبارك فقد كان احتلال الرياض برداً وسلاماً على قلبه . ولم يكن عكس ذلك ظاهراً في ابن الرشيد،فقد سمع الخبر غير مكترث به وضرب له الامثال فقال : ارنبة محجرة واهلها مقيمون ، اي انه يستطيع اي يوم شاء ان يخرج ابن سعود من الرياض . لذلك لم يتزحزح من الحفر فاقام هناك اربعة اشهر يفاوض الترك في بغداد وهو يعلل النفس باحتلال الكويت .

وكان الترك يرحبون برسله وهداياه ، ويعدونه بالمساعدة ويتقاعسون . انت تذكر ان الحملة التي ارسلوها مرة على الشيخ مبارك ظلت ستة اشهر في الطريق من بغداد الى الزبير.وقد اشرت الى السبب بل السببين في ذلك . ناهيك بانه لم يكن للدولة آنئذٍ في ابن الرشيد الغرض الذي ولدته الحوادث في ما بعد . بل كانت اميل الى مبارك وهو على البحر منها الى امير في داخل البلاد العربية.

ولكن مباركاً والى الانكليز ، ودعاهم الى بلاده ، فاستحق لذلك اهمال الدولة بل نقمتها . وبما انها كانت عاجزة عن اظهار تلك النقمة في مظهر من القوة يليق بعظمتها ، فقد اكتفت بان تظهر ولاءها لابن الرشيد ، وتأذن له بان يفاوضها في محاربة ابن الصباح . وقيل ان الحكومة البريطانية كانت تضغط عليها لتمنعها من مساعدة ابن الرشيد

مساعدة حربية . ولا غرو ، فالسبب في ذلك – السبب المعروف – هو انها بعد ان استقرت في الكويت وتعاهدت وابن الصباح ، اصبحت حامية البلاد .

الشيخ المبارك المسعد ! قد حماه الانكليز من البحر ، وحماه ابن سعود الشاب من البر . كيف لا وهو يشغل عنه عدوه ابن الرشيد . – ولدي عبد العزيز تولاك الله ، وعافاك ، وقواك ، وجعل النصر دائماً اخاك ! ارسل مبارك يهنىء ولده ويبارك له . ثم بعث اخاه سعد بن عبد الرحمن بالنجدة التي طلبها .

ومشى عبد العزيز الى غرضه فاستولى اولاً على النواحي الجنوبية اي الخرج والحوطة والحريق والافلاج والدواسر . اما النواحي الشمالية ، مثل الشعيب والمحمل والوشم وسدير ، فظلت في حوزة ابن الرشيد مع انها كانت موالية لابن سعود .

١٣٢٠ﻫ / ١٩٠٢م

في اوائل هذا العام اغار عبد العزيز مرتين على قبائل من قحطان كانت نازلة حلبان [١] في اطراف نجد فأخذهم . ولكنه مرض في الغزوة الثالثة وهو على ماء الحسي شمالي الرياض . ثم خرج اخوه محمد غازياً لفخذ من عتيبة يرأسهم ابن ربيعان وهم في مكان قرب الشعرى [٢] .

واما عبد العزيز بن الرشيد فلما يئس من مفاوضات الترك وبان له من امر « الارنبة المحجرة » ما لم يكن ليخطر في باله ، امر بشد الرحال واسند (العرب يقولون سنّد) عائداً الى حائل ، فعبأ جيشاً جديداً من شمر والقصيم وسدير والوشم ، وزحف به في ربيع الاول من هذا

---

(١) العرب يلفظونها احلبان

(٢) لكي يدرك القارىء شيئاً من مشقات الغزو عند العرب يجب ان يعلم مقدار المسافات التي يقطعونها غازين . فالمسافة بين الرياض مثلاً ووادي الدواسر هي نحو ثلاثمئة ميل اي مسير هجّنة عشر يوماً ، ومثل ذلك تقريباً بين الرياض والشعرى .

العام قاصداً الرياض .

فلما علم ابن سعود بذلك ارسل الى ابيه في الكويت يقول ان الحرب قائمة ، وان الاستيلاء على الرياض يقتضي ان يكون هو اي الامام عبد الرحمن فيها . جاء الوالد مسرعاً ، ولم يمنعه الاسراع من ان يغزو في طريقه قبائل من الظفير وشمر الموالين لابن الرشيد ، وخرج عبد العزيز ورجاله فساروا مسافة ثلاثة ايام ليستقبلوا الامام الذي عاد الى الرياض عودة الظافر ، وكان قد خرج منها منذ احدى عشرة سنة مهاجراً .

ثم حدث خلاف بين الاب والابن نادر المثال . فقد ارسل عبدالعزيز من القصر الى الوالد في بيته يقول: الامارة لكم وانا جندي في خدمتكم. فجمع الوالد العلماء واعلمهم بالامر ، ثم ارسل الى ابنه الصغير يقول : اذا كان قصدك في استدعائي الى الرياض لأتولى الامارة فيها فهذا غير ممكن ، ولا اقبله مطلقاً ، ولا اقيم في المدينة اذا الححت به .

تدخل العلماء في الامر فقالوا لعبدالعزيز : على الابن ان يطيع اباه . وقالوا لعبدالرحمن: انت كوالد عبد العزيز رئيس عليه، وبالتالي على اهل نجد . فقال عبدالرحمن : ولكن الامارة له

فقال عبدالعزيز : اني قابلها بشرط ان يكون والدي مشرفاً على اعمالي دائماً فيرشدني الى ما فيه خير البلاد، ويردعني عما يراه مضراً في مصالحها.

كذلك تمت البيعة لعبد العزيز . وكان يومئذ سميّه ابن الرشيد نازلاً في رَغبه من بلدان المحمل، وقصده محاصرة الرياض، فأرسل سالم السبهان بجيش من قحطان الى ضرمه ليهجم عليها من الجنوب الغربي ، وأمر الحازمي مندوبه في الحسا بان يستنهض العجمان وآل مرة بمؤازرة الحكومة فيهجموا من الشرق الجنوبي .

ولكن ابن سعود ارسل اخاه محمداً وابن عمه عبدالله جلوي الى تلك النواحي الجنوبية يستنجدان الدواسر وآل مرة ، فظفرا بما لم يظفر

الحازمي والترك اعوانه. وقد علم ابن الرشيد ان كثيرين ممن كان يظنهم من اتباعه قد انضموا الى ابن سعود، فاقام شهرين في رغبه واسبوعين في الحسي ، وهو يعجز عن الهجوم على الرياض . ثم رحل الى الحفر ليحول دون تموين العدو من الكويت .

ولكل امير من امراء العرب دائرة استخبارات ، ولكنهم هناك يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية . قال السلطان عبدالعزيز : « فلما علم ابن سعود من جواسيسه، ان ابن الرشيد ينوي ان يصادر الارزاق التي تجيء الى نجد من الكويت والحسا تذاكر ووالده فعقدت النية على حيلة تقربه منهم فيتلاحمون واياه ويقضون عليه او في الاقل يحولون دون تنفيذ خطته » .

خرج عبد العزيز من الرياض ووجهته الجنوب ، وراح شمالاً الى مناخ ابن الرشيد مَن اشاع ان ابن سعود خائف من خصمه وانه فر هارباً. فلما سمع ابن الرشيد ذلك شد الرحال مسرعاً ودرهم[1] فنزل على ماء بنبان[2] ولم يكن بينه وبين الرياض غير عشرين ميلاً او اقل . ثم جاءه الخبر اليقين وهو ان الرياض محصنة وان ابن سعود في حائر سبيع بالخرج ، فامسى في حيرة مزعجة ابت عليه التقهقر وحالت دون الهجوم .

وكان لابن سعود سرية في الدلم عاصمة الخرج بقيادة احمد السديري ، فأمره ان يتأهب للزحف معه الى الرياض اذا هجم ابن الرشيد عليها . اما اذا تجنبها ومشى الى الخرج فاهل الرياض يتقفونه بالسلاح وعبد العزيز يفزع الى السديري في الدلم . بعد هذا التدبير وكّل ابن جلوي بمن كان معه من الجنود فاقامهم في عليّة ، وهو ضلع حصين بين الحريق والحوطة ، قريب منها . ثم ارسل اخاه سعداً الى الحريق يستنجد اهلها،

(١) درهم يدرهم من اصطلاحات اهل نجد والدرهام سير سريع بين الخبب والغارة.
(٢) بنبان هو على مسير سبع ساعات شمالي الرياض بينها وبين الحسي .

وراح هو للغاية نفسها الى الحوطة ، فبلغه في اليوم الثاني هنالك خبر هجوم ابن الرشيد على الدلم – طاح في الشرك الذي نُصب له ! فبادر ابن سعود الى ذاك المكان .

وجمع جيوشه من اهل الحوطة والحريق فبلغوا مع من كانوا في ضلع عليه الف وخمسمئة مقاتل . اجتمعوا في ماوان على مسافة عشر ساعات من الخرج واسروا فوصلوا الى الدلم قبل انبثاق الفجر . وكان ابن الرشيد قد نزل في نعجان على مسير ساعتين من البلدة ، فلم يدرِ بدخول ابن سعود اليها . على انه في عصر ذاك النهار ارسل سرية مستكشفة فخرجت لها خيل ابن سعود ، فتهاجم الفريقان وتطاردا ، فانهزمت خيل ابن الرشيد .

وكثيراً ما تكون الحرب عند العرب مناورات ومجاولات، وهم قلما يسارعون الى الملحمة التي تطيح فيها الرؤوس. ولكنهم يسيرون اليها على طريقتهم سير الهون، وهم يغزون ، ويعتزون، ويناوشون، ويتقهقرون . اما ان الحرب خدعة فكلهم يعرفون الحديث ويؤمنون بل يعملون به.

في فجر اليوم التالي راح ابن سعود يكمن لابن الرشيد ، وكان قد علم ان من عادته ان يخرج وبعض رجاله صباح كل يوم ، فيطوفون في البساتين يرعون ابلهم ويقطعون النخيل . وكان ابن الرشيد أحس ان خصمه في الدلم فلم يخرج كعادته باكراً ، فارسل ابن سعود خيالة مستكشفين ، فعادوا يقولون انه متحصن في نعجان . ولم يكن لابن سعود ان يهجم عليه في النهار ، لان خيله قليلة ولأن الهجوم يبعده عن الحصون .

على ان الكشافة لم يصدقوا اميرهم الخبر لانهم لم يصلوا جُبناً او جهلاً الى مكان الاستكشاف . فبعد ان عاد ابن سعود الى البلدة بلغه الخبر ان ابن الرشيد قد خرج على عادته يجول في النخيل ، فبادر بقسم

من جيشه اليه .

وكانت المواجهة الاولى بين العزيزين خارج الدلم وسط النخيل . تواجها واحتربا ، فكانت الوقعة شديدة ، واستمرت ست ساعات حتى غروب الشمس . ولكنها لم تسفر عن شيء كبير . فقد اسر رجال ابن سعود جماعة من رجال ابن الرشيد يدعون باهل لُبده فحصروهم في القصر، ففروا منه في المساء . وطارد ابن سعود ابن الرشيد فتقهقر الى معسكره.

ولم تكن الذخيرة متوافرة عند ابن سعود فنفدت او كادت في تلك الوقعة ، فارسل يطلب قسماً من الحوطة . اما ابن الرشيد فشد في اليوم التالي الرحال وسار جنوباً الى اسفل الخرج ، فنزل السلَيمية التي تبعد ست ساعات عن الدلم ، فتقفاه ابن سعود بعد وصول الذخيرة ونازله في السلَيمية فاخرجه منها .

ولكنه لم يتمكن من تعقبه فادراكه، لقلة خيله وركائبه ، ولكثرتها مع ابن الرشيد . فقد كان جيش الشمري مؤلفاً من اربعة الاف ذلول واربعمئة خيال ، على حين ان الجيش السعودي لم يكن يتجاوز الالفين ولم يكن فيه غير اربعين من الخيل . ومع ذلك فقد انهزم ابن الرشيد في الخرج ، وثبتت سيادة ابن سعود فيه ، بل في النواحي الجنوبية كلها.

الفصل الرابع
الاستيلاء على القصيم

لم يغير فوز ابن سعود في الخرج موقف الترك تجاه ابن الرشيد وابن الصباح . فظلوا يجافون هذا ويعللون ذاك بالوعود . ومع ذلك فقد عاد ابن الرشيد الى الحفر بعد تلك الهزيمة واستأنف الغزو ، فاغار على عريبدار قرب الكويت ، وعلى سبيع في الدهناء ، وعلى عتيبة قرب الارطاوية[١]. ثم باشر محاصرة الكويت فارسل الشيخ مبارك يعلم «ولده» عبدالعزيز بذلك ويستنجده . والدهر في الناس قلّب ... فقد صار منجداً من كان بالامس مستنجداً .

وكان عبدالعزيز بعد شهرٍ اقامه في الرياض قد غزا عرب مطير في الصمان ، وعتيبة في عِرق رَغبه بين الوشم وجبل طويق . مما يدل على ان النزعات او المصالح بدأت تشق القبائل فصار قسم منها يدين لابن سعود ، وقسم لابن الرشيد ، فيغير هذا على عتيبة مثلاً السعودية ، ويغير ذاك على عتيبة الموالية لابن الرشيد .

ولبى عبدالعزيز دعوة الشيخ مبارك فسار فزعاً الى الكويت بجيش لا يقل عن العشرة الآلاف ، وهو الذي خرج منها باربعين ذلولاً اجرب منذ سنتين . فرحبت الكويت به وهللت له ، وانضم منها الى جيشه ما كان قد جنده مبارك بقيادة جابر بن الصباح . ثم خرج الاثنان جابر وعبدالعزيز غازيين طالبين ابن الرشيد .

زحف هذا الجيش الجرار المؤلف من قبائل الحساء كلها — من العجمان وآل مرة وبني خالد وبني هاجر والعوازم والمناصير وسبيع

(١) لم تكن تأسست هنالك البلدة او الهجرة التي تدعى بهذا الاسم .

والسهول - البالغ عـدده اربعة عشر الفاً ، منهم اربعـة الاف خيال ، ووجهتهم الحفر . ولكنهم أخبروا في الطريق ان ابن الرشيد قد عاد الى بلاده ، فهجموا لذلك على مطير في الصمان ، فذبحوهم عن بكرة ابيهم ، وغنموا اموالهم وارزاقهم كلها - ذبحناهم واخذنا حلالهم ! (امتعتهم)

على ان حلاوة هذا النصر لم تدم طويلاً . فقد بلغهم عندما وصلوا الى ماء طوال الحبر اليقين وهو ان ابن الرشيد - الذي يحسن مثلهم الخدعة - لم يرجع الى بلاده ، بل زحف الى الرياض يبغي محاصرتها . وقد مر في طريقه بعربان من السهول فضربهم وضمهم الى جيشه، ثم تقدم مسرعاً وهو ينوي ان يفاجيء العاصمة بالهجوم ليلاً عليها. فلما دنا منها عسكر عند ضلع يدعى ابا أم خروق [١] دون ان يعلم بذلك احد من اهل المدينة . ولكنه عندما مشى اليها ، واصبح في ظلال نخيلها، شرد رجل من السهول المكرَهين ودخل يصيح بالناس : العدو قرب منكم ! العدو عند السور !

١٣٢١ هـ
١٩٠٣ م

نهض اذ ذاك الامام عبدالرحمن باهل الرياض للدفاع ، فخرجوا على ابن الرشيد ونازلوه خـارج السور ، فردوه خائباً ، فنقل بعـد ذلك معسكره من بمخروق الى نخيل يبعد ساعة عن المدينة ، واقام هناك ثلاثة ايام دون ان يأتي بحركة .

ثم بلغـه ان عبدالعزيز بن سعود زاحف الى القصيم ، فشد الرحال مسرعاً ومشى الى الوشم عن طريق ضرمه . وكان الامام عبدالرحمن قد ارسل سرية [٢] بقيادة مساعد بن سويلم فاستولت على المحمل والشعيب ، ثم زحفت الى شقرا التي كان فيها امير لابن الرشيد اسمه الصويَغ . فلما

(١) اهل نجد يلفظونها بمخروق . وهذا الضلع هو على مسير ساعة من الرياض وفيه غار يخرج اليه الملك للنزهة .

(٢) السرية من مئة الى الخمسئة خيال .

دنا مساعد من البلد رحل الصويغ الى ثرمدا ، فاستولى مساعد على شقرا برضى اهلها . ثم هجم على ثرمدا فادرك الصويغ فيها ، فقتله ، والقى القبض على العنقري اميرها وارسله الى الرياض .

ولم يكن ابن الرشيد بطيئاً في تعقبه ابن سويلم . فقد هجم عليه في ثرمدا فاخرجه منها ، فراح يتحصن في شقرا ، فتقفاه وحاصره فيها .

واما عبدالعزيز بن سعود فقد عاد بعد غزوة مطير الى الكويت ، فجاءه وهو هناك البشير من والده يخبره بهزيمة ابن الرشيد في هجومه على الرياض ، فاطمأن باله واهتم في نقل عائلته التي كانت لا تزال في الكويت فعاد بها الى نجد .

وما كاد يصل الى العاصمة حتى علم ان ابن الرشيد محاصر لشقرا وفيها مساعد بن سويلم ، فاستراح يوماً واحداً وشد للنجدة . ولما وصل عبدالعزيز الى حريملا علم ابن الرشيد بذلك ففك الحصار ورحل الى الغاط[1].

واستمر عبدالعزيز زاحفاً الى شقرا فاحتلها . ولكن سرية ابن الرشيد بقيادة حمد العسكر امير المجمعة كانت لا تزال في ثرمدا ، فارسل عليها عبدالله بن جلوي ، فاعطى عبدالله اهل البلد الامان ، فابوا الا القتال ، فقاتلهم ودحرهم . اما السرية فتحصنت في القصر ، فأمر عبدالله بمهاجمتها ليلاً ، فكانت النتيجة ان قُتل عدد منها ، ولاذ الاخرون بالفرار .

عندما سلمت ثرمدا الى عبدالله بن جلوي رحل الرشيد من الغاط ورحلته القصيم . ولكنه ترك سريتين في سدير ، الواحدة في المجمعة والاخرى في الروضة ، فارسل عبدالعزيز سرية عليهما بقيادة خاله احمد السديري ، فنازلت سرية الروضة فدحرتها واستولت على البلد . ثم مشت في سدير ظافرة ، فاستولت على بقية بلدانه ما عدا المجمعة التي حافظت على سيادة ابن الرشيد فيها ، وقد دافعت عنها دفاعاً شديداً . ولكن

(١) الغاط من بلدان سدير وهي تبعد عن المجمعة قاعدة تلك الناحية عشرين ميلاً .

عبدالعزيز قنع يومئذ بما حاز من النصر فترك سريتين اخريين ، الواحدة في الروضة والثانية في جلاجل ، وامّر السديري في شقرا ، ثم عاد الى الرياض .

كل هذه الحوادث — هذه الغزوات والغارات — حدثت في سنة واحدة بعد سقوط الرياض. فلم يكن عبدالعزيز وسميّه الشمري ليستريحان الا قليلاً في الفترات القصيرة التي هي هدنات اضطرارية .

عاد ابن سعود بعد فوزه في الوشم وسدير الى الرياض . ولم يكد يتم الشهر حتى جاءته اخبار ابن الرشيد وفيها انه خرج من القصيم غازياً ، وقصده الهجوم على عتيبة وقحطان (بعد استيلاء ابن سعود على سدير والوشم اصبحت هاتان القبيلتان من قبائله) فحاصر التويم قرية من قرايا سدير .

خرج ابن سعود مسرعاً من الرياض ، وكان قد امر اهل الوشم بان يبادروا مع احمد السديري الى انجاد سدير . فلما وصل الى ثادق علم ان ابن الرشيد لم يفز بشيء في غزوته وحصاره ، بل انه انهزم وشرّق ، فنزل ماء شمال الارطاوية . اما المجمعة قاعدة سدير فكانت لا تزال في حوزته وله سريّة فيها .

سار ابن سعود من ثادق الى جلاجل فاقام فيها عشرين يوماً وهو يعد القوة للحرب في القصيم . فبلغه وهو هناك ان ابن الرشيد قد عاد الى تلك الناحية ماراً بالزلفى ، فزحف بجيشه الى المجمعة ، واتفق واهلها على التسليم اذا هو استولى على القصيم .

قد كان جيش ابن سعود مؤلفاً يومئذ من سبعة الاف من المشاة واربعمئة ذلول لا غير ، فمشى به الى الغاط ثم الى الزلفى ، فكتب من هناك الى الشيخ مبارك يسأله ان يرسل اليه من كان عنده من اهل القصيم ، مثل آل الخيل وآل سليم ، وما يستطيعه من المدد ، فارسل

مبارك اولئك الذين لاذوا بالكويت بعد وقعة المليدا ومعهم مئتان من الرجال فقط .

وكانت تلك السنة قليلة الامطار ، فضاق العيش بسكان الزلفى وبالتالي بالجيش، فصاروا يأكلون حتى رؤوس النخل اي لبها . لم يكن بالامكان السير الى بريدة لقلة الزاد والركائب، ناهيك بالطريق وليس فيه بلد يأوون اليه . أضف الى ذلك ان ابن الرشيد كان مستولياً على القصيم اجمع . فماذا عسى ان يفعل ابن سعود ؟ قد كتب الى بعض الموالين له هناك يطلب منهم ان يؤلفوا سريات تهجم على بعض البلدان تمهيداً لدخوله - تفتح له الباب - فلم يلبوه . ولما تيقن انه لا يستطيع الهجوم على القصيم ، ولا البقاء في الزلفى لشدة القحط ، وضيق العيش فيها ، عاد الى الرياض .

اما ابن الرشيد فرحل من القصيم قاصداً البطينيات عله يظفر هنالك ببعض عربان ابن سعود ، فاقام على ذاك الماء عشرة ايام وارسل اربعمئة من رجاله بقيادة ماجد آل حمود بن الرشيد الى جهة عنيزه ، وثلاثمئه بقيادة حسين بن جراد الى السر . ثم انحدر الى اطراف العراق ليستنفر شمراً هناك ويستنجد الاتراك. فلما علم ابن سعود بارتحال ابن الرشيد الى العراق شد مسرعاً من الرياض ، وواصل السير بالسرى ، فالتقى في ١٨ ذي الحجة من هذا العام بحسين بن جراد في السر ، وبادره القتال، فقتله واكثر من معه، وغنم اموالهم وارزاقهم كلها.

١٣٢١هـ
١٩٠٣م

تدعى هذه الوقعة بوقعة ابن جراد. وقد كان من نتائجها انها قسمت قبائل حرب المقيمة بين السر والقصيم، والتي كانت كلها تابعة لابن الرشيد، فانحاز قسم منها بعد الوقعة الى ابن سعود .

عاد بعد ذلك عبدالعزيز الى الرياض ، فاقام فيها شهر ذي الحجة ، ثم مشى في آخر الشهر الى الغرض الاكبر ، فارسل الى اهل القصيم في شقرا

يأمرهم بان يوافوه الى ثادق لانه يريد ان ينحدر الى الكويت .

شاع هذا الخبر ، فترك عبدالعزيز ثقيل احماله في قصر الجريفة من قصور الوشم ، وراح بجيشه يدرهم قاصداً ماجد بن الرشيد في القصيم . فلما وصل الى ماء الشريمية في وسط النفود علم بعض من كان معه من البادية انه يريد ابن الرشيد فشردوا ، فما بالى ابن سعود بذلك . بل استمر مسرياً، فضل الدليل وتاهوا في النفود طيلة ذاك الليل، ثم خرجوا منه فاذا بكشافة لماجد على حواشيه .

نزل ابن سعود في ذاك النهار قصر الحميدية من قصور عنيزه ، على مسير اربع ساعات منها ، وتقدم ساعة الغروب فوصل الى نخل من نخيل المدينة ، فعسكر هناك ، وامر من كان معه من اهل القصيم، وفيهم آل سليم ، ان يهجموا على اهل عنيزة في تلك الليلة . قد كان يومئذ بعض الزعماء فيها ، مثل آل يحيى وآل بسام ، مع ابن الرشيد وعندهم سرية من سراياه رئيسها فهيد السبهان . اما ماجد فكان نازلاً قرب المرَيبط وهو باب من ابواب المدينة .

عند ما هجم اهل القصيم على عنيزه اصطدموا بطلائع ابن الرشيد من اهلها ومن شمر ، فتلاحم الفريقان ، فقُتل فهيد السبهان وما سلمت رجاله ، فطلب السعوديون المدد ، فارسل عبدالعزيز مئتين من رجاله بقيادة عبدالله بن جلوي . وكان عبدالله قد اشتهر بالبسالة والبطولة، فلما سمع اهل عنيزه بالنجدة التي جاء يقودها سلموا حالاً الى آل سليم .

اما ابن سعود فركب بعد ان صلى الفجر على راس سرية من الخيل و«نحر» المكان الذي كان فيه ماجد بن الرشيد . فلما رأى ماجد خيل ابن سعود لاذ بالفرار، فتعقبه واستولى على مركزه، بعد ان قتل اكثر قومه وفيهم اخوه عبيد .

ثم عاد ماجد ومعه بضع وعشرون من الخيل والركائب ، وفيهم نفر

من آل سعود الذين كانوا منفيين في حائل ، جاء بهم ليرد العدو المنتصر لانه اذا عرفهم ، وهم من آل سعود ، قد يمتنع عن القتال فلا يُقتل احد منهم . ولكن عبدالعزيز عند ما عرف اهله – قد دُعوا منذ ذاك اليوم « العرايف » –[1] امر بعقر خيلهم ليتمكنوا من خلاصهم . وكذلك كان . فقد فازوا يومئذٍ ، بعد عقر الخيل اثناء المعركة ، بسعود بن العزيز وسعود بن محمد وفيصل بن سعد ، فخلصوهم من القتل ومن الاسر .

١٣٢٢ هـ
١٩٠٤ م

وفي ٥ محرم من هذه السنة (٢٣ اذار) بعد اندحار ماجد بن الرشيد وفراره الى حائل ، تم فتح عنيزة ، فدخلها ابن سعود ، واقام فيها بضعة ايام . ثم شد على بريدة فسلم اهلها . ولكن امير ابن الرشيد والحامية فيها تحصنوا بالقصر فحاصرهم ابن سعود فثبتوا شهرين في الحصار ، ثم سلموا في ١٥ ربيع اول ، فتمّ في تسليمهم الاستيلاء السعودي على بريدة وعنيزة ، وبالتالي على القصيم اجمع .

---

(١) اذا خسر البدو في الغزو جمالهم ثم استعادوها فهم يسمونها العرائف – مفردها عرافة – اي المعروف . فاطلق ابن سعود الاسم على ابناء عمه هؤلاء .

الفصل الخامس

البكيرية

ان اطول وادٍ في البلاد العربية هو وادي الرُّمة الذي يمتد شرقاً من حرَّة خيبر الى الرَّس ، ثم شرقاً بشمال الى البصرة . وهـذا الوادي يخترق بلاد القصيم بين عنيزة وبريدة ، فيشطرها شطرين ، الشطر الغربي الشمالي والشطر الجنوبي الشرقي . وفي الشطر الاول بين بريدة والرس بضعة بلدان منها البكيرية والشيحية والخبرا التي يهمنا الان ذكرها .

في ذاك المنعطف من الوادي تنازع ابن سعود وابن الرشيد السيادة في القصيم . في تلك الزاوية التي يمتد ضلعها بضعة وخمسين ميلا من الرس الى بريدة ميدان القتال الهائل الذي سنروي خبره الان . هناك احترب الفريقان ومع احدهما عساكر الدولة العلية واطوابها واقتتلا في وقعات عدة تعرف عند اهل نجد بوقعة البكيرية ووقعة الشنانة .

ذكرنا في الفصل السابق ان عبد العزيز الرشيد بعد توزيع قواته في نجد والقصيم سافر الى العراق ليستنفر عرب شمر هناك ويستنجد الاتراك . وكأن الدولة ادركت آجلا حقيقة الحال في نجد ، وأوجست خوفاً من امتداد سيادة ابن سعود في البلاد ، فأصاخت هذه المرة لابن الرشيد وأمدته بنجدة مؤلفة من احد عشر طابوراً ، واربعة عشر مدفعاً ، وشيء كثير من الذخيرة والمونة والمال . وقد صادر ابن الرشيد جمال «العقيلات»(١) لتحمل هذه الجيوش والمعدات الى القصيم . اضف الى ذلك ان عدداً كبيراً من بادية شمر نفروا الى نجدته .

---

(١) العقيلات اسم يطلق على تجار القصيم خصوصاً من يتجرون بالجمال فيجيئون بها من نجد الى بر الشام .

عندما سلمت السرّية التي كانت محاصرة في قصر بريدة أمّن ابن سعود رجالها على حياتهم وأذن لهم بالرجوع الى بلادهم. وقد اتفق ان ابن الرشيد كان قد وصل يومئذٍ بجيشه الى القصيبة ، فالتقى هناك باولئك الرجال رجاله وهم عائدون الى حائل ، فاخبروه بما جرى وان ابن سعود في بريده . فاستمر ابن الرشيد سائراً ليهجم على المدينة من الجهة الغربية ، ونزل القرعا على مسافة خمسة عشر ميلاً منها .

اما ابن سعود فقد اخلى بريده عندما علم بذلك ونزل البُصر خبأ من خبوب القصيم[1] فنقل ابن الرشيد من القرعا الى جهة من البكيرية ، ثم نقل ابن سعود الى الجهة المقابلة لها .

١٣٢٢ هـ
١٩٠٤ م

وفي ذاك اليوم بل في الليلة الاولى من هلال ربيع الثاني من هذه السنة اصطدمت الجيوش صدمة شديدة هائلة ، فالتحموا وتجالدوا بضع ساعات وكانت خسارة الفريقين عظيمة .

فقد تواجه في تلك الليلة عسكر الدولة،وفيه كثيرون من السوريين[2] والعراقيين ، بعسكر ابن سعود الخاص اي باهل العارض ، فأطلقت البنادق والاطواب ، ولمعت في نور الهلال الضئيل السيوف ، وكانت المذبحة هائلة . فقد قتل من جيش ابن سعود تسعمئة وفيهم ستمئة وخمسون من اهل الرياض ، وقتل من جيش الدولة نحو الف وفيهم اربعة من كبار الضباط ، وخسر اهل حائل نحو ثلاثمئة وفيهم اثنان من بيت الرشيد هما ماجد بن حمود وعبد العزيز بن جبر .

وفي تلك الوقعة أصيب عبد العزيز بن سعود بشظايا قنبلة في يده

(١) الخب منخفض من الارض بين كثب من الرمال فيه ماء ونخيل

(٢) اخبرني تحسين باشا الفقير انه كان ضابطاً في تلك الحملة فحارب ابن سعود في وقعة البكيرية . ومن غرائب الاتفاق والتاريخ انه بعد عشرين سنة حارب ابن سعود ثانية في الحجاز . فقد كان تحسين باشا قائداً للجيش الحجازي او بالحري قائد الفرقة السورية الفلسطينية التي كانت تدعى فرقة النصر — فرقة النصر التي لم تنتصر

اليسرى ،ووقع ابن الرشيد من فرسه فطاحت الفرس فوقه فآلمته ولم تقعده . اما اهل القصيم وعرب مطير فقد هجموا بقيـــادة عبد العزيز جلوي على جناح العدو فبعجوه ، ثم اغـــاروا على بادية شمر فغنموا ارزاقها . ولكن الشمريين كانوا قد هجموا على معسكر ابن سعود فنهبوه . واحـــدة بواحدة . لم تمل كفة الميزان كثيراً ان في الغنائم وان في القتلى الى احدى الجهتين في هذه الوقعة الكبيرة . على ان قوات ابن الرشيد على رغم الخسارة ظلت متماسكة .

قال السلطان عبد العزيز : « رحت انا وعشرين من الخيالة — اخذ الترك خيامنا وهجم البدو على الترك فاخذوا خيامهم وهربوا » .

فسألت عظمته : « الى اين رحتم ؟ » .

فاجاب ضاحكاً : « انهزمنا — هربنا . »

على ان اهل القصيم ، عندما عادوا من اغارتهم على بادية شمر ، جاؤوا مركز ابن سعود فوجدوا فيه المدافع وثلاثمئة من عساكر الترك فتواقعوا واياهم وقتلوهم ، فغنموا المدافع وظلوا في البكيرية . ولكنهم عندما طلبوا عبد العزيز ولم يجدوه هناك حملوا الاسلحة الخفيفة وعادوا الى بلادهم اي الى بريدة وعنيزة .

اشكل الامر على عبد العزيز ، فأحب ان يمتحن اهل هاتين المدينتين ليتأكد اذا كان لهم رغبة حقيقية في محاربة ابن الرشيد ، فارسل اليهم يقول : اثبتوا في مكانكم واني مستفزع اهل نجد وراجع اليكم . فكتبوا اليه وكان اهل عنيزة اشد لهجة يقولون : اذا انت رحلت فلا يستقيم امر بعدك . واذا رجعت الينا فنحن نعاهدك في السراء والضراء — نقدم انفسنا واموالنا واولادنا بين يديك . اي والله ، نحمي اوطاننا او نموت جميعاً .

رجع ابن سعود الى عنيزة فخرج اهلها اليه يستقبلونه معتزين ،

واخرجوا المخدرات فرحبّن به مزغردين ، ثم عززوا قولهم في ما قدموه من مال ورجال للحرب .

وعندما بلغ اهل نجد خصوصاً بوادي عتيبة ومطير هذا الخبر جاؤوا كلهم متطوعين مجاهدين ، فاجتمع لدى ابن سعود في ستة ايام اثنا عشر الف مقاتل ، فبادر بهذا الجيش الى البكيرية يهجم على ابن الرشيد فيها. ولكن ابن الرشيد كان قد رحل منها في اليوم السابق وهجم على الخبرا وفيها سرية لابن سعود .

فدافع اهل الخبرا مع الجنود الحامية دفاعاً شديداً ، وبالرغم عن المدافع التي ظلت تطلق قنابلها على البلد طيلة ذاك النهار لم يسلموا . ولكنهم وقعوا في قبضة عدو جديد فعلموا لاول مرة ماهو الهواء الاصفر (الكوليرا) وكان قد سرى اليهم من جيش ابن الرشيد ، بعد ان تفشى فيه من اختلاطه بعسكر الدولة . وقد قيل ان الهواء الاصفر لم يكن معروفاً قبل ذاك الحين بنجد .

عندما علم ابن الرشيد بزحف ابن سعود الى البكيرية التي كانت المركز العام للجيش ، وفيها مون وذخائر كثيرة ، ارسل اليها سرياته الكبرى - الف وخمسمئة خيال - بقيادة سلطان بن حمود الرشيد ، فتصادموا وخيالة ابن سعود - ستمئة وخمسين - عند انبثاق الفجر قرب البكيرية ، وكانت الهزيمة على الرشيديين .

ثم دخل ابن سعود البلدة وفتك بحامية ابن الرشيد فيها ، فقتل اكثر رجالها ، وانهزم الباقون فلاذوا بالفرار . ثم طاردت خيله خيل ابن الرشيد حتى الخبرا ، فرحل ابن الرشيد منها الى الرس ، فهجموا على بواديه وغنموا عدداً كبيراً من الابل . ثم تقدموا الى الرس وكان ابن الرشيد قد نزل الشنانة على مسافة ساعة جنوباً منها .

ونصب مدافعه وشرع يضرب الرس كما ضربها ابراهيم باشا في

طليعة القرن الماضي ، فدافع اهلها على عادتهم حتى الرمق الاخير ، فقتل اميرهم ولم يسلموا واقام ابن سعود ثلاثة اشهر في الرس ، منذ منتصف ربيع الثاني حتى منتصف رجب ، بينما كان ابن الرشيد في الشنانة ، وهم يتناوشون ويتهاجمون ويتطاردون كل يوم ، فمل اهل نجد هذه الحال وخافوا ان يسري الهواء الاصفر اليهم ، فرفعوا اصواتهم متذمرين شاكين.

سمع ابن سعود الشكوى فأرسل رسولاً من كبار بريدة اسمه فهد الرشودي الى ابن الرشيد يدعوه للصلح ، فضحك ابن الرشيد وقال متهكماً متهدداً : من يبغي حكم نجد لا يتضجر . وهل يصالح من بيده قوة الدولة ؟ لا والله — لاصلح قبل ان اضرب بريدة وعنيزة والرياض ضربة لا تنساها مدى الدهر . وانتم يا اهل القصيم لا يغرنكم ابن سعود. لا يغرنكم شاب طائش يبغي الدراهم ليأخذها لامه الفقيرة .

رجع فهد الرشودي يحمل هذا الكلام الى ابن سعود ، فالفاه في مجلسه دامع العين . ، وختمه قائلاً : « والله يا اهل نجد ما رأيت هناك الا ظالماً عتياً كفرعون ، ولا يبغي لنا غير ما كان من فرعون لبني اسرائيل » .

وكان الرشودي رجلاً حصيفاً رصيناً يحترمه الناس ، فأثرت كلماته فيهم تأثيراً شديداً . ولكن بادية ابن سعود كانت قد تفرقت ، ولم يبق لديه غير ثمانمئة من الحاضرة وثلاثمئة من رؤساء القبائل . اما السبب في تفرق البدو فهو انهم كانوا قد ملوا الحالة كما اسلفنا القول ، وكان فوق ذلك وقت الربيع فذهبوا يرعون مواشيهم . ولم يكن لابن سعود ان يكرههم على البقاء لانهم لم يكونوا من الجند ، بل من اولئك الذين يجيئون الامير متطوعين متكسبين .

على ان هذه الحال لم تنحصر في بادية ابن سعود فقط ، بل كانت قد ظهرت كذلك في عسكر ابن الرشيد . فقالت البادية تخاطبه : «هلكت مواشينا وهلكت اولادنا جوعاً ، فاما ان نرحل جميعاً فنمشي

وراءك ، واما ان نرحل نحن ونتركك وراءنا » . فاجابهم ابن الرشيد : « وكيف نرحل ولا ركائب عندنا لعساكر الدولة »[١] فقال رجال شمّر : « كل قبيلة منا تقدم الركائب لقسم من العسكر » . فقبل ابن الرشيد وامر ان توزع امتعة العسكر احمالاً على شمّر . ولكن عندما اعتزموا الرحيل هجم ابن سعود عليهم بخيله ليحول دون ذلك ، فتصادموا وتقارعوا من صلاة الفجر حتى غروب الشمس . خرج ابن الرشيد مع ذلك من الشانة. وكانت البادية التي ارتحلت قبله ، قد تركته وراءها ، فراح ابن سعود يطارده الى ان اذنت الشمس بالمغيب . نصب ابن الرشيد خيامه اذ ذاك خدعة للمبيت ، فخدع ابن سعود ورجع بخيله بعد ان اقام هناك بعض الحرس والكشافة . عندئذ شرع ابن الرشيد يتأهب للرحيل .

قد كانت خطة عبد العزيز الحربية ان ينهك خصمه بالمفاجآت والمناوشات فيضربه بعد ذلك الضربة القاضية . عندما عاد مساء ذاك اليوم الى الرس جاءه وهو جالس الى العشاء احد الكشافة يقول : رحل ابن الرشيد فقام ورجاله عن العشاء وسارعوا الى الخيل يتقفون العدو ، فرأوا عندما قربوا منه سواداً ظنوه غنماً فاغاروا عليها ، فاذا بها عسكر الترك . وكان قد جن الليل ، فنازلوهم ساعة ، دون نتيجة تذكر ، ثم عادوا الى الرس .

واما ابن الرشيد فكان قد نزل الجوعي ، ودنا من قصرٍ هناك يعرف بقصر ابن عُقيل فيه سرية لابن سعود ، فهمّ في صباح اليوم التالي بالهجوم عليه .

ولكن ابن سعود قبـــل رجوعه الى الرس الليلة السابقة ترك حراسه

(١) قيل ان ابن الرشيد خسر في وقعة البكيرية والمناوشات التي تبعتها نحو عشرة الاف من الجمال .

وكشافته حسب العادة في مكان معلوم ، ومعهم رجال من اسرته زوّدهم بهذه التعليمات : اذا رحل ابن الرشيد وقرب الخنق (درب بين جبلي أبان) فارسلوا اخبروني وانتم تقفوه لتظلوا عالمين بمسيره . اما اذا مشى الى قصر ابن عقيل فعليكم انتم ياهل سعود ان تسبقوه الى القصر لتشجعوا اهله وتقولوا لهم اننا مسارعون الى انجادهم . زحف ابن الرشيد الى القصر الذي لم يكن يخشى عليه الا من المدافع لانه حصن منيع ، فسبقه بنو سعود اليه ، وكانوا قد ارسلوا يخبرون عبد العزيز .

وصل ابن الرشيد فنصب في الحال مدافعه كلها وشرع يضرب القصر . وعندما علم ابن سعود بالحصار بعد ظهر ذاك النهار صاح برجاله قائلاً : « انهزم ابن الرشيد ونريد ان نعمل مناورة خارج البلدة » . فاستبشروا وخرجوا للمناورة ، فكشف النقاب اذ ذاك عن قصده الحقيقي - امرهم بالزحف الى قصر ابن عقيل ! فترددوا لانهم لم يكونوا متأهبين للرحيل . لم يكن لديهم شيء من الماء والزاد . وقد كانت الساعة الاخيره من النهار والمسافة امامهم لاتقل عن العشرين ميلاً .

خطب ابن سعود فيهم محرضاً مستنهضاً ثم قال : « انا واحد منكم ومثلكم . انتم ماشون وانا امشي . انتم حفاة وانا والله لا انتعل . وهذا نعلي وهذا ذلولي .

قال ذلك وهو يضع النعل في الخرج ويلقي بحبل الذلول على غاربه . ثم مشى امامهم حافياً ، فمشوا وراءه متحمسين . وعندما وصلوا الى القصر قبل نصف الليل بساعة ارادوا ان يهجموا على ابن الرشيد في ذاك الحين ، فمنعهم عبد العزيز لانه كان عالماً بما حل بهم من التعب والجوع ، فدخلوا القصر واستراحوا تلك الليلة .

اما ابن الرشيد فبعد ان شغل مدافعه بضع ساعات دون طائل شد في صباح اليوم التالي للرحيل ، فتركه ابن سعود يرحّل إبله ويحمّل

اطوابه . وعندما مشى هو ورجـــاله وعسكر الترك خرجت الخيل للمفاجأة، ومشى الجند السعودي من القصر وراءها،فادركوا العدو في وادي الرمه .

اناخ ابن الرشيد هناك وجمع جيوشه . ثم نصب المدافع وبنى بيوت الحرب [١] فتهاجم الفريقان وتقارعا حتى منتصف النهار ، وكانت الغلبة اذ ذاك لابن الرشيد . ولكن ابن سعود عندمـــا رأى جانحه الايمن متقهقراً هجم بقومه هجمة الاستبسال وهـدم بيوت الحرب ، فاشتد الضرب والطعان ، فولت عساكر الترك الادبار . ثم انهزم ابن الرشيد وفر ورجاله هاربين .

واراد ابن سعود ان يتعقبهم ولكن الحملات واموال [٢] البادية حالت دون ذلك فشغلوا عنهم بها .شرعوا ينهبون وظلوا كذلك حتى جن الليل. ثم عادوا في اليوم الثاني والثالث والرابع ، بـل استمروا عشرة ايام يجمعون مما ترك ابن الرشيد وعسكر الدولة في ساحة القتال من الامتعة والذخائر ، والاسلحة والمون ، والفرش والثياب ، ناهيك بالابل والغنم. وقد وجدوا بين تلك الاحمال صناديق من الذهب حملوها الى عنيزة مقر ابن سعود فوزعها مثل بقية الغنائم على رجاله ولم يأخذ منها شيئاً لنفسه. انها لغنيمة عظيمة . فقد كانت قسمة الواحد من الذهب والجمال فقط تتراوح بين المئة والمئة والخمسين ليرة عثمانية وبين العشرة والعشرين بعيراً.

هذي هي وقعة الشنانة والاحرى ان تدعى وقعة وادي الرمة (١٨ رجب ١٣٢٢ هـ ٢٩ سبتمبر ١٩٠٤ م) وهي القسم الثـــاني من مذبحة البكيرية التي قضت على عساكر الدولة وأغنت اهل نجد .

---

(١) بيوت الحرب هي بيوت من الشعر تنصبها القبائل لترمز عن ذمارها والذود عنه

(٢) المال عند اهل البادية هو الانعام والجمال . ويطلق ايضاً على المواشي كلها.

الفصل السادس

الاتراك يفاوضون ويتفرجون

قد نكبت الدولة نكبتين في البلاد العربية في هذه السنة (١٣٢٢ ﻫ ١٩٠٤ م) الاولى في نجد ، والثانية في اليمن . ومن غريب التقادير ان الامام يحيى الشاب في صنعآء وابن سعود الشاب في القصيم كسرا الجيوش « المنصورة » كسرات شنيعة ، ورفعا للسيادة العربية اعلاماً لا تزال تخفق في سماء الاستقلال . اما نكبة الدولة في صنعآء فتختلف شكلاً عن نكبتها في القصيم . هناك كان جيشها محصوراً ، وهنا تشتت ما تبقى من الجنود بعد الوقعة الاخيرة فكانت حالتهم محزنة . فقد فر بعضهم مع ابن الرشيد ، وهام الاخرون على وجوههم في الفيافي كالسائمة ، ومنهم من لجأوا الى ابن سعود فآواهم وكساهم واعطاهم الامان .

اما ابن الرشيد الذي فر هارباً الى الكهفة — قرية من قرى حائل — فقد ارسل يستنجد الدولة مرة اخرى . وكانت الدولة كمن خسر في المقامرة فغامر بقسم اخر من ماله املاً باسترجاع الخسارة . وقد غامرت بقسم كبير هذه المرة فارسلت احد رجالها الكبار المشير احمد فيضي باشا الذي اشتهر بشجاعته وبحسن سياسته ، وشفعته برجل اخر الفريق صدقي باشا المتصف ببعـــد النظر وطول الاناة . جاء الاول بثلاثة طوابير وخمسة اطواب من بغداد ، وجاء الثاني من المدينة بطابورين ، فالتقوا وعسكروا قرب القصيم .

ولم تكن تقصد الدولة الحرب ، ولكنها وقد رغبت في المفاوضة من اجل السلم ارسلت هذه القوة من جندها لتعزز جانبها . وكانت قد بعثت الى ابن سعود بواسطة الشيخ مبارك تقول انها تريد ان تفاوض اباه الامام

عبدالرحمن ، وطلبت ان يوافي والي البصرة الى الزبير .

اجاب الامام طلب الدولة ، فسافر الى الكويت ، ومنها والشيخ مبارك الى الزبير ، فاجتمعا هناك بالوالي، وبعد المفاوضات في امور نجد والقصيم قرروا ان يكون القصيم على الحياد، اي ان يتكون منه مقاطعة مستقلة تقوم حاجزاً بين ابن الرشيد وابن سعود ، وان يكون للدولة فيه مركز عسكري ومستشارون .

لم يوافق الامام عبدالرحمن على هذا القرار . الا انه قبل ، اكراماً للشيخ مبارك ان يعرضه على اهل نجد . ولكن اهل نجد لم يقبلوا البتة ان يكون القصيم على الحياد ، ولا ان يكون فيه حامية للدولة .

وعند ما علم ابن سعود بعودة ابيه خرج يلاقيه الى الحسي ، فاجتمع به هناك وسار واياه الى شقرا ، فاقام الامام فيها واستمر عبدالعزيز سائراً برجاله الى القصيم ، فنزل العماد التي تبعد خمسة وعشرين ميلاً عن بريدة الى الجنوب . وكان فيضي باشا وصدقي باشا قد اجتمعا بابن الرشيد فتفاوضوا واختلفوا . اراد ابن الرشيد ان يضغط على اهل نجد ، وان يأخذ اهل القصيم بالسيف ، فخالفه المشير ولسان حاله يقول : الرأي قبل شجاعة الشجعان .

عاد ابن الرشيد بعسكره الى الكهفة حانقاً ، وركب المشير على رأس جنوده قاصداً القصيم ، فلما وصل الى بريدة ابى اهلها ان يدخل المدينة . ولكن واحداً منهم هو صالح الحسن من آل مهنا ارسل اليه رسولين هما ابن عمر ومحمد آل علي ابو الخليل يقول انه واتباعه يطلبون حماية الدولة والاستقلال .

ولكن اهل بريدة وعنيزة وتوابعهما من القرى لم يقبلوا بالسيادة او بشبه السيادة التركية ، فارسلوا الى ابن سعود يستشيرونه في المقاومة . وكان فيضي باشا قد ارسل رسولاً الى الرياض يقول ان الدولة لا تبغي

محاربة اهل نجد وانه جاء مسالماً . ثم ارسل الى ابن سعود في العماد يؤمّنه قائلاً : انني لا اريد الا السلم ولست محققاً مقاصد ابن الرشيد . وقد سأله ان يلزم مكانه ويرسل اباه عبدالرحمن ليوافيه الى عنيزة للمفاوضة . فقبل عبدالعزيز بذلك ، وامر الناس بان يخلدوا الى السكينة ، فلا يأتون عملاً عدائياً اثناء المفاوضات .

ركب الامام عبدالرحمن من شقرا الى عنيزة وسار فيضي باشا جنوباً فنزل على مقربة منها . وقد تواجه الاثنان في المدينة ، فطلب المشير ان يكون للدولة مركزان عسكريان الواحد في بريدة والثاني في عنيزة ، وذلك موقتاً ، الى ان يتم الصلح بين ابن سعود وابن الرشيد . ولكن اهل المدينتين ، الا صالح الحسن واتباعه ، رفضوا هذا الطلب ، فرأى الامام ان يقبلوه موقتاً ، واقنعهم بذلك .

وكادت تتم المفاوضات على هـــذه الصورة لو لم تحل دونها حوادث صنعاء اليمن . فقد كان الامام يحيي الشاب وعربانه قد شدوا نطاق الحصار على المدينة هناك ، وفيها ستون الف من الترك العسكريين والمدنيين ، وليس عنـد الدولة قريباً من مكان النكبة اقدر واشجع من فيضي باشا تكل اليه انجاد ابنائها المشرفين على الموت . لذلك صدر الامر الى احمـد فيضي بالاسراع الى اليمن ، فترك القصيم ومشاكله لصدقي باشا يحلها بالتي هي احسن .

تولى صدقي قيادة الجيش ونقل الى الشيحية فعسكر فيها . ولكنه لم يرَ « التي هي احسن » في بيت المتنبي او في عكسه . فلا « الرأي قبـل شجاعة الشجعان » ولا « الشجاعة قبل الرأي » استفزته او هزت منـه جارحةً للعمل .

اقام صدقي وجنوده في الشيحية لا محاربين ولا مفاوضين ، بل اقاموا هناك متفرجين ، وقد استأنف ابن سعود وابن الرشيد القتال .

الفصل السابع

كبوات الشيخ مبارك

بعد المفاوضات في السلم واثناءها سرت الى اهل القصيم روح الشقاق والفوضى ، فكان فريق منهم مع الدولة، وفريق مع ابن سعود ،واخر مع ابن الرشيد ، فعاد عبد العزيز الى الرياض وظاهر امره انه نفض يده من هؤلاء الناس المتذبذبين . عاد وهو يقول انه تركهم بين عـدوين يجاملانهم ويشدان النير على رقابهم .

ولكن الفريق الاكبر ارسل الى الشيخ مبارك الصباح يسأله ان يتوسط بين ابن سعود واهل القصيم الذين لا يبغون سيادة غير سيادته. وكان عبدالعزيز قد احس بانقلاب في سياسة الشيخ مبارك ، فاغتنم الشيخ هذه الفرصة ليظهر انه الصديق الذي يرعى العهود، فكتب الى «او لِدي عبدالعزيز » يشير بالعود الى القصيم ، وبالعفو عن اهله لانهم مخلصون له، ولا يبغون في البلاد غير السيادة السعودية .

ولكن رسل الشيخ مبارك كانت يومئذٍ « تدرهم » الى عبدالعزيز الاخر حاملةً كتب التودد والولاء التي اسفرت عن صلحٍ بين الاميرين الصباحي والرشيدي ، عقد في آخر سنة ١٣٢٣ ﻫ (١٩٠٥ م) ان لهذا الصلح سببين : الاول هو ان الدولة العلية كانت ناقمة على الشيخ مبارك، وكان يوسف آل ابراهيم ، عدوه الألد ، مستمراً في عدائه . فسعى الشيخ في استرضاء الدولة لتنصره على يوسف ، وكان من مساعيه هذه انه صالح حليفها ابن الرشيد . اما السبب الثاني لهذا الصلح فهو ذاك الشاب الظافر « ولده » عبدالعزيز ، وكان قد بدأ يخشى امتداد سيادته في نجد ويخشى كذلك نتائجها في الكويت . كيف لا وسيد نجد، اذا ما استولى

على القصيم واجتاز الحفر ، لا يقف عند حدٍ دون الخليج . ان عمل الشيخ مبارك اذن هو من باب الدفاع عن النفس .

ولكنه ، وهو الداهية ، و«الحواقة» وصاحب السيف ذي الحدين ، ضرب ضربات عدة صاردة ، بل كبا كبوات مضحكة . فقد كتب مرة الى سلطان بن حمود الرشيد يقول ما معناه :

« اني متكدر جداً من اعمال ابن سعود ، وقد جرت الامور في نجد على غير ما اشتهي . اما الان فانا واياكم عليه ، والكويت وحائل شقيقان ، ومصلحة البلدين واحدة ، ولكم مني ما تشاءون من المساعدة الخ » .

وكتب الى ابن سعود يقول :

« او لدي يا ولدي . انا معك في كل حال وحين . قواك الله وتولاك ، لا تترك هذا الكلب ، فحل الشول ، ولا تدعه يستريح ، ولا تصالحه . وانا ابوك مستعد لمساعدتك في كل ما تريد » .

كذلك كان يحاول ان يضعف الاثنين في اغراء الواحد بالاخر وتحريضه على خصمه . ولكن كاتب الديوان المباركي لم يكن موفقاً في تلك الساعة ، ساعة كتب الى « الخصمين » فقد ارسل كتاب ابن سعود الى ابن الرشيد ، وكتاب ابن الرشيد الى ابن سعود ![1]

عندما استأنف الاثنان القتال جاء نجاب من الشيخ مبارك يحمل الى ابن سعود كلمة وجيزة قاسية كتبت على قصاصة من الورق ، وفيها ان سيعلن الحرب عليه اذا كان لا يعيد «منهوبات» ابن الرشيد . والمنهوبات هذه غنمها من بعض قبائل العراق رجل من الظفير اسمه علي الصَويحي ،

---

(١) « وقد كان مبارك لدهائه يلبس لكل حال لبوسا . بل نراه وهو يحرض ابن الرشيد على ابن سعود يحرض ابن سعود ايضاً في نفس الوقت على ابن الرشيد » تاريخ الكويت : الجزء الثاني – صفحة ١٢٦

وقد كان من انصار ابن سعود، فليس للشيخ مبارك حجة في تدخله بامره. ولكنه بعد العثرة التي كان الكاتب سببها حاول على ما يظهر ان يصلح الامر مع امير حائل فلم يسعفه القدر لان الامير وا اسفاه كان قد قتل في المعركة كما سيجيء في الفصل التالي .

لله انت ايتها الاقدار ! فهل تحاولين ان تغلبي الشيخ مباركاً ؟ انه لا يُغلب . فقد تجاهل قتل ابن الرشيد ، وكان قد بلغه الخبر بعد كتابة ما تقدم ، فارسل نجاباً اخر الى « اولدي عبد العزيز » يحمل كتاباً طويلاً عريضاً جاء فيه :

« اني لك دائماً ياو'لِدي يا عبد العزيز ، انا ابوك وعونك ، وعضدك . ولم اصالح ابن الرشيد الا لاقهر الترك . ولكنني مستعد ان امدك بما تحتاج اليه من المال والرجال المال مالك ، يا ولِدي يا عبدالعزيز ، والحلال حلالك » .

ولكن ابن سعود اطلع على الحقيقة في حديثه مع النجاب زيد المعرقب الذي كان من رجاجيل الشيخ مبارك .

قال عبدالعزيز يخاطب النجاب : « والدي الشيخ مبارك اخبرني انه امرك بان تكتم خبر قتل ابن الرشيد » .

فاجاب النجاب : « ما نام الشيخ والله من شدة الفرح عندما وصله الخبر » .

وكانت ساعة في معسكر ابن سعود مضحكة ، فكتب الى «والده» يعلمه بوصول الكتاب الاول وفيه التهديد بالحرب ، والكتاب الثاني وفيه التعطفات الطيبة ، ثم اخبره بذبحة ابن الرشيد ، وختمه بقول الشاعر :

اذا كنت في كل الامور معاتباً   صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

الفصل الثامن

ذبحة ابن الرشيد

قد المعت في ما تقدم الى الخلاف الذي كان متأصلاً في بريدة بين آل مهنا وآل عليان الاسرتين اللتين تنازعتا السيادة هناك . وقد ظهر هذا الخلاف في اشده يوم قُتل مهنا ابو الخيل في اول عهد الامام عبدالله بن فيصل ، فشكا اولاد مهنا الامر الى الامام ، فلم ينصرهم على اعدائهم آل عليان . وظل الغل كامناً على ما يظهر في آل مهنا الى الوقت الذي نحن فيه من هذا التاريخ ، فتجسم في صالح الحسن الخارج على ابن سعود عبد العزيز .

وشرع صالح يتزلف الى الترك لتحقيق مآربه . بل اتخذ تلك الخطة السياسية التي تتلون بالوان الحوادث والاحوال ، فاغضب ابن سعود وابن الرشيد معاً . وعندما ارتحل ابن سعود من القصيم ، وظاهر امره التخلي عن اهله ، كان قصده الحقيقي ان يدع صالحاً وشأنه ، فيكون له من خطأه وعجزه التأديب الاكبر ، فيتأكد هو واتباعه انهم لا يستطيعون الدفاع عن انفسهم اذا شهر ابن الرشيد عليهم الحرب .

وقد كان وقتئذٍ في قطر ثورة اهلية ، او بالحري فتنة اثارها على الشيخ قاسم بن ثاني اخوه احمد ، وهو يبغي انتزاع الملك من يده . وكان كذلك القتال محتدماً بين العجمان وآل مرّة ، فنصر الشيخ قاسم العجمان ، ونصر اخوه احمد اعداءهم ، فاشتدت الحرب بين الاخوين والقبيلتين ، فارسل الشيخ قاسم يستنجد ابن سعود ، فأنجده حباً وكرامة . هي الفرصة التي اغتنمها عبدالعزيز ليبعد قليلاً عن نجد ، فيخلو الجو لابن الرشيد لينتقم من اهل القصيم .

وقد صح حدسه . فعند ما سارع الى نجدة ابن ثاني ارسل ابن الرشيد سرية يقودها صالح العذل ومعه حسين العساف الى الرس ، فاستولت عليه ، فاجتمع بعض اهل القصيم في الشقة للدفاع ، وقد انضم اليهم عدد من العربان . ولكن ابن الرشيد فاز في هجومه عليهم فذبح اكثرهم ، وحاصر البقية في تلك القرية ، فضج القصيم وادرك صالح الحسن واتباعه ان ليس في امكانهم الدفاع عن انفسهم . بل ادركوا ان لا خلاص لهم الا بعون الله ثم بابن سعود ، فارسلوا يطلبون من الشيخ مبارك التوسط بينهم وبينه كما جاء في الفصل السابق .

اما الحرب في الحساء وقطر فقد كانت الغلبة فيها اول الامر لآل مرة واحمد بن ثاني . فلما وصل ابن سعود حمل على القبيلتين معاً حملة شعواء فتنفس الشيخ قاسم الصعداء ، وفر اخوه احمد الى البحرين .

ثم بلغت ابن سعود اخبار القصيم ، فعاد مسرعاً الى نجد . وارسل اخاه محمداً على رأس سرية تغزو قبائل ابن الرشيد ، فهجمت السرية على حرب وعادت فنزلت وادي السر .

واما صالح الحسن فارسل اخاه مهنا الى اهل عنيزة يرجوهم ان يرسلوا معه احد وجهائهم ليعاونه في استرضاء ابن سعود . وقد كان هذا الوفد في الرياض يوم وصل اليها عبدالعزيز عائداً من الحساء ، فاستقبله مرحباً به ، وعفا عنه وعن اصحابه . ثم توجه الى القصيم . ولكنه لم يكن في ذاك الحين قادراً على محاربة ابن الرشيد لسببين ، اولهما المحل في تلك السنة ، وثانيهما تفرق البادية ليهتموا بمواشيهم .

عند ما علم ابن الرشيد بقدوم ابن سعود خرج من منزله في البقيعة فاغار على الحميدان من عرب مطير واخذهم . ثم عاد فنزل القصيبة[1] وتكررت غزواته على قبائل ابن سعود وهو يتنقل من القصيبة الى

---

(١) القصيبة هي على مسير اثني عشرة ساعة من بريدة الى الشمال .

الاجفر[١] ومن الاجفر الى البشوك[٢]

اما ابن سعود فقفل راجعاً الى نجد ليستنفر العربان من عتيبة ومطير الاعلين ، فجمع جيشاً منهم وعاد به الى القصيم ، فاحسّ عند وصوله ان صالح ابن الحسن يسعى سراً في مصالحة ابن الرشيد . وقد جاء مع ذلك، ومعه قوم من اهل بريدة ، ينضم الى ابن سعود .

قبل ابن سعود صالحاً على علاته ، وهو عالم بما خفي من امره ، ونزل الاسياح بجيشه الذي اصبح مؤلفاً من البادية والحضر ،فاقام هناك عشرين يوماً ، وقد ثبت صالح طيلة تلك المدة في ولائه . ثم وسوس في صدره ذاك الذي يوسوس في صدور الناس ، فهم بان ينسحب وقومه من الاسياح ، فيبقى ابن سعود وعربانه وحدهم فلا يقدرون على ابن الرشيد اذا اغار عليهم .

ولكن ابن سعود احسّ بما كان يجول في صدر صالح ، فنقل من الاسياح الى الزلفى[٣] ليبعد عن القصيم . فلما وصل الى مكان اسمه البنجية استأذن صالح بالرجوع الى بريدة ، فاذن له بالرغم عما بدا من خيانته .

عاد صالح الى بريدة وسار ابن سعود الى الزلفى يجمع الرجال لجيشه . ثم رحل منها فنزل غديراً بالقرب من الارطاوية ، فانضمت اليه قبائل مطير التي يرأسها فيصل الدويش . قد بلغه وهو هناك خبر الصلح الذي تم بين الشيخ مبارك الصباح وابن الرشيد . ولم يكتف الشيخ مبارك بذلك بل كتب الى صالح الحسن يحرضه على مثل عمله .

| ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م |

عاد ابن سعود مسرعاً الى القصيم في شهر محرم من هذا العام ، ومعه جيش لا يتجاوز الالف وستمئة مقاتل ،

---

(١) الاجفر هو بين القصيم وحائل في منتصف الطريق .

(٢) البشوك هو شرقي حائل على مسير خمسة ايام منها .

(٣) الاسياح عيون عند العروض على مسافة اربعين ميلاً من بريدة شرقاً بشمال والزلفى تبعد خمسين ميلاً عن الاسياح الى الجنوب .

منهم الف ومئتان من الحضر واربعمئة خيال من البادية . وكان ابن الرشيد نازلاً التويّر في عِقلة الزلفى ، وهو مكان وعر كثير الرمال ، فسرى اليه فلم يدركه هناك .

وكان اليوم من ايام الربيع العاصفة الماطرة التي لا يستحبها العرب في الغزو او في الحرب . فقد يدنو المتحاربون بعضهم من بعض دون ان يشعروا بذلك ، فاذا هم فجأة في المهلكة الكبرى .

مشى ابن سعود ورجاله حتى اصيل اليوم التالي لذاك الاسراء ، فوقفوا اذ ذاك لانهم لم يستطيعوا لشدة الامطار والرياح ان يواصلوا السير. وكان ابن الرشيد يتراجع ليصل الى الشقة ، فيجتمع هناك بصالح الحسن الذي جاءه مصالحاً مناصراً .

وعاد كشافة ابن سعود يخبرون بان العدو هو على مسير ساعتين منهم وقد نزل روضة مهنا .

الى الروضة اذن ! مشى عبدالعزيز ورجاله على الاقدام كي لا يشعر العدو بقدومهم . ولكن بعض كشافة ابن الرشيد رأوهم فبادروا الى اميرهم بالخبر .

استيقظ عبدالعزيز بن الرشيد وشرع يجمع جيشه الذي كان مؤلفاً من ستمئة من الحضر والف ومئتين من خيالة البدو .

وصل عبدالعزيز بن سعود الى ساحة القتال ، فهجمت رجاله على من تحفز من رجال ابن الرشيد ، فتصادم الجيشان وتواقعا تحت جناح الليل في ١٨ صفر (١٤ نيسان) من هذه السنة ، فتقهقر الرشيديون ، فاحتل السعوديون مراكزهم .

وكان عبدالعزيز بن الرشيد راكباً حصانه يدور في معسكره مستنهضاً محرضاً . فلما وصل الى المكان الذي كان فيه فرقة من جنوده ظن انها لا تزال هناك ، فصاح بحامل البيرق يحرضه على الهجوم :

« من هان يا الفريخ (اسم صاحب البيرق) من هان يا الفريخ » !

واين الفريخ؟ قد تقهقر وا اسفاه مع المتقهقرين،فحلّ محله بيرق ابن سعود

– « من هان يا الفريخ » !

عرف رجال ابن سعود الصوت فصاحوا : ابن الرشيد ابن الرشيد !

ثم تكلم الرصاص .

أطلقت البنادق السعودية على الامير التائه ، فخرّ صريعاً وفيه بضع وعشرون رصاصة .

– « وهذا سيفه وهذا خاتمه يا لأمام » .

...

كان عبدالعزيز بن متعب بن الرشيد في الخمسين من سنه يوم ذُبح هذه الذبحة في روضة مهنا بالقرب من بريدة. وتدعى الوقعة بذبحة ابن الرشيد.

قلت في كلمة التمهيد لهذه السيرة ان هذا الامير الرشيدي كان جباراً عتيا ، لا اثر للخوف في قلبه ، ولا شيء من الرحمة والحنان . وقد كان فوق ذلك قطوباً عبوساً ، يشد عقاله فوق عينيه ، وكوفيته على فمه ، فسمي العبوس الملثم . اذ قلما كان يبتسم ، بل قلما كان يكشف وجهه للناس. ولم يكن على شيء من السجايا التي تحبب القائد الى رجاله والامير الى رعيته .

ذكرت حادثة تدل على ما كان عليه من التجلد والتمرد . واليك بحادثة من الحوادث التي تدل على ظلمه وقساوته .

يوم كان يحارب اهل القصيم مرّ في طريقه برعاة من تلك الناحية يحشُّون وهم اربعون ، فأمر بالقبض عليهم ، ثم بايقافهم صفاً الواحد جنب الآخر، ثم بقطع رؤوسهم اجمعين. فكان كذلك. وهذه المذبحة تدعى بحادثة الحواشيش.

فلا عجب اذا كان قد فرح حتى اهل شمر ، كما فرح الشيخ مبارك الصباح ، عندما بلغهم خبر قتله .

الفصل التاسع

الاتراك يرحلون

كان قد عزم ابن سعود ، بعد ذبحة ابن الرشيد في روضة مهنا ، ان يباشر الزحف الى حائل . لذلك لم يأذن لرجاله بتعقب العدو المنهزم ، بل عاد بهم الى بريدة آملا ان يضاعف صفوفهم بمن ينضم اليه من اهل المدينة . ولكنهم بالرغم عن تأكدهم قتل ابن الرشيد تقاعسوا وتذبذبوا، وكان صالح الحسن في رأس فريق من المقاومين .

لم يكن لابن سعود القوة الكافية للزحف الى جبل شمر ولا لمحاربة من استمروا عاصين من اهل القصيم . على انه كان يحذر دائماً ان يحس الناس بضعفه يوم ضعفه او ان يدركوا يوم القوة حقيقة قوته . لذلك ترك اهل القصيم وشأنهم واغار بمن كان معه على عدو غير صالح الحسن هو ناهش الذويبي رئيس قبائل حرب الموالين لابن الرشيد ، فادركوه وعربانه في مكان يدعى الرحا بين القصيم وحائل ، وذبحوهم عن بكرة ابيهم . ثم اغاروا على قبائل من حرب في ابي مغير باعالي نجد ، فشتتوهم وغنموا اموالهم .

اما صالح الحسن فلم تفتر له همة في المؤامرات . وقد علم ابن سعود بينما هو عائد الى بريدة بانه اتفق وصدقي باشا على ان ينسحب عسكر الدولة من الشيحية ويحتل بريدة .فسارع عبد العزيز الى المدينة،واجتمع هناك بزعمائها ، فشكوا اليه امر صالح ، وطلبوا عزله واجلاءه ، فقبض عليه،واجلاه الى الرياض.ثم امرّ مكانه ابن عمه محمد آل عبدالله ابا الخيل .

اما آل رشيد فقد تولى متعب الامارة بعد موت ابيه عبد العزيز ، وكان راغباً في السلم ، فتفاوض الفريقان وتم الاتفاق على ان تكون

حائل وملحقاتها وشمر لابن الرشيد ، وباقي بلاد نجد بما فيه القصيم لابن سعود . ثم اطلق الامير متعب سراح من كانوا مأسورين من آل سعود في حائل ، فجاءوا بريدة واقاموا فيها .

بعد عقد تلك المعاهدة واجلاء صالح الحسن عاد عبد العزيز الى الرياض وما كاد يستريح من الاسفار حتى جاءه مخبر يقول ان الاتراك في اطراف القصيم يحاولون استمالة بعض البادية اليهم ، وان لفيصل الدويش يداً في المسألة .

شد عبد العزيز على الدويش ، بعد ان تحقق خيانته، فاغار على بعض قبائله واخذها . ثم عاد الى بريدة وأظعن من كان فيها من آل سعود ، اي اسرى حائل الذين مر ذكرهم ، الى الرياض ، ولم يبق معه هناك غير حاشيته ، فاطمأن اهل القصيم ، خصوصاً المناوئون منهم . ولكن امراً جديداً ازعجه ، وهو ان ابن الرشيد كان يفاوض الاتراك في الشيحية ويزين لهم الانسحاب منها الى حائل ، وقصده في ذلك ان يأخذ ما كان معهم من عتاد الحرب والذخيرة . كأنه يقول اعطونا سلاحكم ان كنتم لا تحاربون .

ولا كانت الدولة راضية عن صدقي باشا وخطته — لا حرب ولا سلم ولا مفاوضات — فأمرت كبيراً آخر من كبار جيشها وساستها هو سامي باشا الفاروقي ، الذي كان يومئذٍ في المدينة ، بالسفر الى حائل للمفاوضة مع ابن الرشيد . جاء سامي باشا واجتمع بالامير متعب في سمير ، قرية من قرى حائل ، فاتفق واياه على ان يكون القصيم في حوزة الدولة . ما خسر ابن الرشيد شيئاً في هذا الاتفاق لانه وهب ملكاً لم يكن يومئذٍ له .

ثم جاء سامي باشا الى القصيم ليفاوض الفريق الثاني وقدظنه كالاول، فعزل صدقي باشا وتولى بنفسه قيادة الجيش في الشيحية ، وارسل الى

ابن سعود يطلب مقابلته ، فوافاه الى البكيرية ، ولكن المذاكرة كانت مناكرة . فقد اصطدمت في الجلسة الاولى الارادتان ، والتهبت النزعتان التركية والعربية . ولم يكن الفاروقي لين العريكة ، ولا لبس للحالة لبوسها .

فقال يخاطب ابن سعود : « ولكن اهل القصيم يريدون ان تكون السيادة في بلادهم للدولة » . فاجابه ابن سعود قائلاً : «ليس لاهل القصيم رأي في الامر ، فهم من اتباعي » .

سامي : « التابعية تقتضي الحماية وانت لا تستطيع ان تحميهم ، ولا ابن الرشيد » .

عبد العزيز : « وهل حمتهم الدولة ؟

اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة اعظم

ومع ذلك فها زعماء القصيم في مجلسك . اسألهم يجيبوك » .

فتكلم اذ ذاك احدهم قائلاً ان صالح الحسن افترى عليهم ، وانه لا يمثلهم بشيء ، وانهم لا يرضون عن ابن سعود بديلا .

سامي: « انكم تجهلون صالحكم وتتوهمون حقوقاً ليست حقوقكم... ما جئنا نسترضيكم ولا نستغويكم . جئنا نعلمكم الاخلاص والطاعة للدولة العلية . ولا معلم اليوم غير السيف » .

عبد العزيز : « اني آسف على ما بدا منك ، بل آسف لان الدولة تكل امورها الى مثلك . ما كان العرب يا سامي ليطيعون صاغرين ، لا والله ولولا انك ضيف عندنا لما تركناك تقوم من مكانك » .

كذلك اجتمع القائدان التركي والعربي وافترقا . ولكن سامي باشا ارسل بعدئذٍ رسولاً اسمه دياب ابو بكر الى ابن سعود يقول : « يسلم عليك الباشا ويقول ان الدولة تدفع لك عشرين الف ليرة ومخصصات سنوية اذا كنت تعترف بسيادتها في القصيم » .

فلما سمع عبد العزيز هذا الكلام عمد الى سيفه قائلاً : « اتتجاسر يا خبيث ان تحمل الينا مثل هذه الرسالة ؟ الم يردعك شمم العرب ؟ ومتى كان ابن سعود يقبل الرشوة ، فيبيع بلاده ورعيته بمن يريدون استرقاقها ؟ لا ادنس سيفي بدمك يا خبيث ولكن لا ارد عنك سيفاً بيد سواي » .

بادر الرسول الى ذلوله ، بعد استماع هذا الكلام ، وراح مدرهماً . لم يرجع الى الشيحية ليؤدي الجواب بل فرّ هارباً الى المدينة .

وفي ذاك النهار ، بعد صلاة المغرب ، ارسل ابن سعود الى الفاروقي ثلاثة من رجاله لينبئه ، فيكون متأهباً ، بانه هاجم عليه في اليوم الثاني بعد صلاة الفجر . وما كان جاداً في ما فعل . ولكنها تهويلة جاءت بفائدة . فقد ارسل الباشا ثلاثة من ضباطه مع رجال ابن سعود مسترضياً ، فجاء الضباط يقولون ان الباشا وعسكره ضيوف عليكم واحسبوهم في معيتكم .

١٣٢٤ هـ
١٩٠٦ م

صفا الجو ، او ان الرياح سكنت اكراماً لرمضان ، فصام ابن سعود في عنيزة ، ولكنه علم يوم العيد ان ابن الرشيد يواصل السعي في استقدام عساكر الترك الى حائل . فجهز لحينه حملة من اهل القصيم ونزل الى البكيرية . ثم ارسل الى الفاروقي بلاغاً — وكان هذه المرة جاداً — يخيره بواحد من امرين ، اما ان ينتقل بجيشه في خمسة ايام الى وادي السر (فيحول بُعده عن القصيم دون المفاوضات وابن الرشيد) واما ان يرحّله ابن سعود من نجد ، فيرسل الجنود العراقية الى العراق والجنود الشامية الى المدينة . واذا رفض احد الامرين فهو هاجم عليه لا محال .

عندما علم الجنود ، خصوصاً الضباط بهذا البلاغ ، قاموا يطلبون من سامي باشا الاذعان ، بل طلبوا منهم ان يرحلهم الى بلادهم ، وقد هدده البعض بالقتل اذا لم يفعل ، والبعض قالوا انهم سينضمون الى جيش ابن سعود قبل الباشا بترحيل الجنود ، ولنه اشترط على ان يضمن عبد العزيز

سلامتهم وسلامة معداتهم في الطريق الى المدينة والى بغداد . قبل عبد العزيز بذلك، واشترط على ان ينقل الجنود العراقيين الى بريدة فيبقون فيها الى ان يصل سامي باشا بجنوده الى المدينة ، لانه خشي ان يسير الباشا الى حائل فينضم الى عسكر ابن الرشيد ويعيد الاثنان الكرة عليه

وقد كان عبد العزيز صريحاً على عادته ، فقال للفاروقي : « اذا سرتم الى المدينة رأساً رحّلنا جنود العراق ، واذا حدتم عن الطريق ذبحناهم وسنكون عالمين بمسيركم »

ثم دعا عبد العزيز للسماط شيوخ حرب ، التي كانت قد حملت عساكر المدينة عندما جاءوا الى نجد ، وبعد الطعام خاطبهم قائلاً : « انتم جئتم بالترك من المدينة وانتم مرجعوهم ان شاء الله . وستبقون عندنا الى ان يصلوا سالمين »

حمل عربان حرب العساكر وامتعتهم وعتادهم على الجمال وارتحلوا ، وبعد اسبوعين جاء ابن سعود نجاب يقول انهم اجتازوا الحناكية ورحلتهم المدينة ، فامر اذ ذاك ان تجهز الركائب للعساكر الذين في بريدة ، فرحّلوا آمنين شاكرين الى العراق .

وبعد شهرين ارسل السلطان عبد الحميد يشكر الامير عبد العزيز بن سعود على معاملته عساكر الدولة تلك المعاملة الشريفة ، ويسأله ان يرسل احد رجاله لمقابلته . فارسل صالح العذل ومعه اثنان اخران الى الاستانة ، فنزلوا ضيوفاً على الحضرة الشاهانية ، ومنحوا الالقاب والنياشين ، وسمعوا من الوزراء كلاماً سياسياً لم يجيبوا عليه بشيء ولا أثمر بعدئذٍ شيئاً للدولة .

اتيح لي الاجتماع بصالح باشا العذل يوم كنت في الرياض ، فالفيته شيخاً جليلاً يحمل في ايام السلم عصا من الشوحط ، ومثل اكثر اهل نجد لا يكثر الكلام . اجتمعت به في « مُخروق » يوم خرج عظمة السلطان

للنزهة و كنا في معيته . وكان عظمته قد حدثني عن ذاك الوفد فرغبت في التعرف الى احد رجاله ، ففاجأني عندما كنا جالسين في ذاك الغار قائلاً : « هذا صالح العذل » ثم ناداه : « يا باشا يا باشا تعال تعرّف الى الاستاذ » . جاء صالح يبتسم وجلس مثلنا على الارض فسألته اذا كان قد سُر في اقامته بالاستانة فاجاب موجزاً : « ما سررنا بشيء مثل سرورنا يوم رحلّونا منها » .

الفصل العاشر

ليلة الظافر

بعد ترحيل عساكر الدولة الى المدينة المنورة والى بغداد خرج على ابن سعود اثنان من رؤساء مطير هما فيصل الدويش ونايف بن هذال فتحالفا واميري بريدة وحائل عليه .

ولكن اهل بريدة ظلوا اجمالاً موالين . وقد كان لعبدالعزيز في تلك المدينة زوجة يزورها من حين الى حين ، فلما بلغه خبر خروج ابن الدويش وابن هذال ، وهما من اتباعه ، سارع الى القصيم متحققاً متأهباً معاً ، وارسل عندما قرب من بريدة الى شلهوب[1] احد خدامه فيها يخبره بقدومه ذلك النهار .

وكان قد عسكر في غدير قرب الشقة[2] يدعى المغر فشاعت اشاعة ان ابن الرشيد هاجم عليه هناك . خرج عبد العزيز بنفسه مستكشفاً ، فلم يجد ما يشغل البال او يستحق الاهتمام ، فعاد الى معسكره يتأهب لزيارة المعزّبة[3] ، وكان النهار قد شد للرحيل .

لبس عبد العزيز افخر ما لديه من الثياب ، فبدت خلال العباءة كانها من نسيج الشمس الغاربة . زبون (انباز) من الكشمير الثمين ، فوقه رداء من قماش آخر هندي تمتزج الوانه الزاهية بعضها ببعض ، وفوق الاثنين ، بين عباءة الوبر والرداء ، « كرك » (معطف) مزركش بالقصب . خرج الظافر يتلألأ ويفوح طيباً ، كأنه ظفر بالشمس فسلبها بهاءها ،

---

(١) هو الشلهوب الذي صار بعدئذ امير المال والتموين في سلطنة نجد . راجع « ملوك العرب » الجزء الثاني صفحتي ٩٤ و ٩٥ .

(٢) الشقة قرية من قرى بريدة على مسير ساعتين منها .

(٣) المعزبة ، وهي شائعة في نجد ، والعازبة امرأة الرجل .

وغنم ازاهر الارض فبطن بها عباءته ، فسرى تحت جناح الليل تحف به ستة من الخدم ، ويماشي منية قلبه جيش من الشوق . ولكنه عند ما دنا من بريدة ، ولم يكن بينه وبين تلك المنية القصوى غـــير مسير نصف ساعة ، التقى برسول من خادمه شلهوب جاء يقول ان محمداً ابا الخيل (امير بريدة) قد اقفل القصر وهو متأهب للحرب .

وكأن الليل حالف ابا الخيل ، فقصف في تلك الساعة الرعد ، ولعلع البرق في السماء ، فهطلت الامطار ، وهبت الرياح ، وامسى الظـــافر حائراً بائراً ، لا يستطيع الدخول الى بريدة ، ولا الرجوع الى معسكره وقد بعد عنه مسافة ثلاث ساعات .

ويا لها من ليلة عاصفة ماطرة ، ليلة ظلمتها دامسة ، ويا لها من خيبة ليلها اشد من تلك العواصف والظلمات ! لمز الظافر فرسه وقـــد قفل راجعاً ، فسمع بعـد قليل كلباً ينبح ، فساقها نحو الصوت ، فاذا هنـاك بيت من الشعر ، فترجل امامه يبغي ملجأ من المطر الهطال .

وما كان البيت غير خيمة صغيرة طولها ستة اذرع وعرضها نصف ذلك ، وفيها طائفة من البشر والمعزى . تكلم عبدالعزيز : « يا اهـــل البيت نحن ضيوفكم » . فاجابوه ولم يعرفوه : « اهلاً ومرحباً . ولكن البيت ضيق وذا الليل يسود الوجه » .

لم يقبلوا غير واحد من الربع ، فظل الخدم خارج الخيمة .

دخـــل عبد العزيز فرأى هناك عشرة انفار ، كبار وصغار ، فيهم عجوز مريضة وشائب مجنون ، فجلس عـلى رحل قرب الباب وقد ضمّ يديه بين جنبيه ، وهو يرتعش من المطر الذي اخترق ثيـابه . وكانت الجديان ، وهو في تلك الحال ، تثب على كتفيه ، والمعزى تبول امامه ، والمطر يصب من سقف الخيمة ، والمريضة في الزاوية تئن ، والمجنون يصيح ، والصغار يبكون ، والكبار السالمون من علل الحياة يتصاخبون .

جلس على ذاك الكور ، في تلك الخيمة ، وهو يتأمل حالتها وحالته ، ويود لو كان ابو الخيل تحت سنابك ذاك الخيل ، او في مجاري السيل ، او في مخالب العاصفة ، او تحت ذاك السقف الزارب بين العجوز المريضة والشائب المجنون .

هي ليلة الظافر ! وعندما اسفر الفجر ركب فرسه وعاد الى الشقة ليبس ثيابه وينظفها وقد امست ، وهي مثقلة بالماء والوحل والاقذار ، اكره لديه من ابي الخيل . فلما وصل الى تلك القرية رأى جدران بيوتها تنهار من شدة السيل والامطار ، فأم بيت الامير ، وكان لا يزال يملك غرفة ذات سقف وفيها نار مشبوبة ، فشكر الله على ذلك .

بعد ان يبس عبدالعزيز ثيابه ، وازال منها الاوحال ، ركب يقصد بريدة ، فلما وصل الى القصر وجده مقفلاً . قرع الباب فسئل · من انت؟ فاجاب : « انا ابن سعود » ، فلم يسع من كانوا داخلاً الا ان يفتحوا .

وعند ما واجه ابا الخيل رآه يرتعد خوفاً فسأله قائلاً : « ما بالك قبح الله وجهك » فاجابه : « افترى الناس علي . هم يكذبون والله في ما يقولون » . فقاطعه عبدالعزيز قائلاً : « اسكت ! ما بيّن امرك الا انت » .

لم يقل اكثر من ذلك . وقد اقام يوماً في بريدة مستطلعاً الاخبار فتحقق خيانة رؤساء مطير ، وسارع الى محاربتهم ، فاضطر اثناء ذلك ان يصالح اعداءه في بريدة ، فعفا عن زعيمهم ابي الخيل محمد .

سألت عظمة السلطان وهو يملي علي اخبار هذه الحوادث : « وكيف تعفو عنه بعد تلك الليلة المشؤومة ؟ » فاجاب فوراً : « مكره اخوك لا بطل »

الفصل الحادي عشر

تعددت الاعداء

حالت في حائل الاحوال ، فجرى الدم في بيت الرشيد ، وتولى الامارة سلطان بن حمود ، احد الاخوان الثلاثة الذين قتلوا ابناء عبد العزيز الثلاثة اي الامير متعباً واخويه [١] وقد باشر سلطان حكمه بالمخاتلة ، فارسل نجاباً الى عبد العزيز بن سعود يطلب الصلح ، وارسل في الوقت نفسه يخطب ود اهل نجد والقصيم ويستنصرهم عليه .

وبينما كان نجاب السلم عند ابن سعود جاءه رسل من الزعماء في تلك النواحي ومن بعض رؤساء البادية يحملون الكتب التي كتبها اليهم امير حائل الجديد

غضب عبد العزيز وهم بطرد النجاب ، فاوقفه والده الامام واشار عليه بقبول ما جاء من اجله ، فقبل بذلك مشترطاً على سلطان الشروط التي اشترطها على سلفه متعب اي ان امارته تنحصر في حائل والجبل وسيادة ابن سعود تعم نجد والقصيم .

١٣١٥ هـ
١٩٠٧ م

عاد رسول السلم الى سيده ، وراح ابن سعود غازياً بعض القبائل المتقلبة في الجنوب . ثم جيش جيشاً من بادية مطير ومن الحضر وزحف به الى اطراف القصيم لانه علم ان سلطاناً أخل بشروط الصلح . سار عبد العزيز الى بريدة فاجتمع هناك ببعض الزعماء وفيهم ابو الخيل محمد ، فاشاروا عليه ألا يصالح ابن الرشيد . قالوا ان الحرب اولى ، وان ابن الرشيد لا يركن اليه

وكان عبد العزيز قد تحقق ذلك من كتب سلطان الى رؤساء اهل

---

(١) في الفصل الثاني والثلاثين ذكر هذه الذبحه وتفصيلها .

نجد والقصيم ، ولم يخامره الريب في اخلاص هؤلاء الزعماء وفيهم من اصدقائه السابقين شيخان من مطير هما فيصل الدويش ونايف الهذّال . لذلك زحف الى حائل غازيا . ولكنه لم يتوفق في تلك الغزوة ، كما انه لم يتوفق في وضع ثقة بالدويش والهذّال ، اذ بعد ان علما بفشله تعاهدا وابا الخيل على ان ينصرا ابن الرشيد عليه

عندما تحقق عبد العزيز ذلك — عندما ادرك ان قد تفلتت مطير من يده وخرجت بريدة عليه — راح يستنجد عتيبة عدوة شمر ومطير ، فافلح بعض سعيه . وعندما هجم سلطان على قافلة له كانت خارجة من القصيبة ، فاخذها وامن رجالها ثم قتلهم ، شد عبد العزيز عليه ، فلم يدركه لانه كان قد عاد الى حائل .

عرج ابن سعود على بريدة وارسل منها الكشافة فالتقوا في الطريق برجل رابهم امره فقتلوه ، فوجدوا معه كتاباً من محمد ابي الخليل الى سلطان الرشيد يعاهده فيه على ابن سعود

تعددت الاعداء والخيانات . ولكن خيانة فيصل الدويش اثارت في عبد العزيز اشد الغضب والحنق ، فراح يدبر وسيلة للانتقام . وكان من تدبيره انه اذن لعرب عتيبة بالرحيل ليقال انهم خذلوه . ثم صالح اهل بريدة وعفا عن زعمائها كما اشرت في الفصل السابق .

ولكنه عندما اذن لبوادي عتيبة بالرحيل ضرب لهم موعداً في مكان يدعى لك الجملة فاجتمع بهم هنالك واغاروا بغتة على الدويش في جهة سدير ، فلاذ بالمجمعة التي كان فيها يومئذ حامية لابن الرشيد فادركوه ورجاله في بساتينها وفتكوا بهم فهزموهم شرّ هزيمة وغنموا اموالهم كلها

بعد هذه الوقعة التي جرح الدويش فيها جاء كبار مطير مستسلمين مستغفرين فاعطاهم ابن سعود الامان . ثم عاد الى الرياض . ولم يكد يتم الشهر هناك حتى جاءته الاخبار مثبتة خيانة ابي الخيل الذي كان قد

عقد وابن الرشيد عهد الصلح والولاء .

استنفر ابن سعود بَوادي قحطان وعتيبة ، ورفض من جاء ينضم الى جيشه من مطير التائبين واهل بريدة لانه لم يكن ليثق بهم . اما ابن الرشيد فكان قد غزا بعض عربان ابن سعود فلم ينل منهم مغنما . بل غشي جيشه الظمأ فمات عدد كبير من رواحله وخيله ، فعاد الى الجبل ونزل الكهفة .

اما ابو الخيل فاستمر عاصياً طاغياً ، بالرغم من عفو ابن سعود وبالرغم من توسط ابن سليّم امير عنيزة . وكان من رجال مطير «التائبين» ما توقعه عبدالعزيز فانضموا وطاغية مهنا الى جيش ابن الرشيد، الذي جاء الى بريدة فنزل على المياه في جوارها .

اما عربان ابن سعود ، قحطان وعتيبة ، فانحدروا يلبونه ونزلوا العرض ، ثم اجتمعوا بمن نفروا اليه من الحضر بوادي السر وزحفوا شمالاً يقصدون بريدة .

تصافت القبائل ،فكانت شمر وحرب ومطير مع ابن الرشيد وكانت عتيبة وقحطان مع ابن سعود .

وهناك اخر من الامراء انصار ابن الرشيد لا يستهان به ، الا وهو الشيخ مبارك الذي كان مخلصاً لكاتب ديوانه في الاقل فلم يعزله بعد تلك الزلة . وقد جاء ثانية بمثلها . ففي الكتب التي وصلت الى عبدالعزيز من « والده » في الكويت كتاب الى سلطان الرشيد ، أرسل خطأ الى خصمه ، وفيه يحرضه على ابن سعود ويلح عليه بالاتفاق واهل القصيم .

كتم عبدالعزيز الامر وتقدم بجيشه من السر الى المذنب ، فجاءه هناك رجل يدعى عبدالعزيز بن حسن من اهل القصيم ، ولكنه كان من خفية ابن سعود ، فاخبره ان الشيخ مباركاً ارسل يتوسط بالصلح بين اهل القصيم وابن الرشيد . ولم يكن عبدالعزيز ليحتاج الى مثل هذه البينات

في انقلاب « والده » ابن الصباح عليه ، وقد تعددت امثال فعلته هذه الحرباوية . ولكن عذر صاحب الكويت في ذلك انه كان ينشد دائماً التوازن في نجد، ويسعى في تحقيقه والمحافظة عليه، لانه اذا اختل التوازن اختلت في رأيه الشؤون كلها ، وفيها شؤون الكويت .

تقدم ابن سعود الى عنيزة فعلم ان معسكر سلطان هو خارج بريدة على مسير ساعة من قصرها ، فسرى يريد الهجوم عليه ، فعلم سلطان بذلك ، ونقل الى قرب القصر .

لحق به ابن سعود فتناوش الفريقان مراراً دون ان يتمكن بعضهم من بعض. على انه في احدى الغارات كبت فرس عبدالعزيز فوقع وقعة مشومة ، فكُسر عظم في كتفه اليسرى وأُغمي عليه .

وكان فيصل الدويش قد جاء ابن الرشيد فزعاً فأنزل اهله الطرفية[1] وتقدم بخيامه ورجاله الى بريدة. فلما دنا من عسكر ابن سعود خرجت اليه سرية فنازلته وهزمته ، فقتلت عدداً من رجاله وغنمت كثيراً من الابل . ثم تقفت من تقهقروا ، وهجمت بعد ذلك على الطرفية فذبحت اهل الدويش واستولت على البلد .

اما عبد العزيز فعاد بعد وقعته يتبع السرية التي هزمت الدويش ، فوصل العصر الى الطرفية وعسكر فيها ، ولم يشعر حتى الليل بالم في كتفه شديد حرمه النوم واقعده .

دعا قواده وهو في تلك الحال فخاطبهم قائلاً : « ابن الرشيد واهل بريدة هاجمون عليكم هذه الليلة فتأهبوا وكونوا متيقظين . بثوا الحرس والكشافة في الطرق ، وحصنوا القصر » .

وكان قد انتصف الليل عند ما جاء رجل من بريدة يقول ان ابن الرشيد ورجاله قد خرجوا وهم يريدون المهاجمة .

---

(١) الطرفية هي على مسير اربع ساعات ونصف ساعة من بريدة الى الشمال .

لم يرَ القائد الذي بلغه الخبر ان يزعج عبدالعزيز به وهو في تلك الحال، خصوصاً وان الجيش كان مستعداً للدفاع .

ولكن امرين افسدا ذاك الاستعداد. فقد تأخر ابن الرشيد فنامت الجنود، وقد سلك الى الطرفية طريقاً غير الطريق المعروفة، فلم يشعروا الا هو ورجاله في وسط المعسكر .

هجمت البادية من جهة عليه ، وهجم اهل بريدة من الجهة الاخرى، وهم يبغون احتلال القصر . ولكن الحرس ايقظوا الحامية فصادمتهم وصدتهم عن الدخول .

اما ابن الرشيد ورجاله فتقدموا هادئين ليباغتوا السعوديين وهم نيام. ولكن بعضهم استيقظوا ، فتصادموا والمهاجمين ، وتضاربوا بكعاب البنادق ، ثم بالسيوف ، فسالت الدماء وعلت الاصوات . — على المشركين ! على الخونة !

أُطلقت عندئذٍ البنادق فهب العسكر كله للقتال ، الذي استمر حتى الفجر ،فبدت اذ ذاك المياه الجارية بين النخيل وقد احمرت من دم القتلى.

— « صبحناكم لا صبحتكم العافية » .

هي الكلمة التي كان يرددها السعوديون عندما تقفوا الرشيديين المنهزمين .

قُتل في هذه الوقعة التي تدعى بوقعة الطرفية (٥ شعبان ١٣٢٥ — ١٤ ايلول ١٩٠٧) ثلاثون من رجال ابن سعود وثلاثمئة من رجال ابن الرشيد . وقد كان الفضل في هذا النصر للحضر في الجيش السعودي . اما البوادي فشردوا ، ثم عادوا بعد بضعة ايام .

الفصل الثاني عشر

كسرة ابي الخيل

قلت في ما تقدم ان ابا الخيل من آل مهنا الذين كانوا متآمرين في بريدة ، وانهم كانوا معادين لآل سعود منذ عهد الامام عبدالله بن فيصل عم عبدالعزيز اما اهالي بريدة، او الاكثرية فيهم، فكانوا يشكون حكم آل مهنا ويودون التخلص منه بل كانوا متقلبين متذبذبين . لم يستطيعوا ان يقاوموا اميرهم ابا الخيل ولا ان يعاونوا عدوه،فكانوا يوماً معه ويوماً عليه باطناً او ظاهراً شأن المستضعفين المستنسرين . وكانوا في انقلابهم وتلونهم اسرع من اميرهم واسبق ، فقد طالما خُدع ابن سعود وابن الرشيد وابن مهنا نفسه بما كانوا يظهرون او يبطنون

بعد وقعة الطرفية عاد الى بريدة من سلموا من اهلها وفر ابن الرشيد وباديته الى حائل ، فزحف ابن سعود في اليوم التـــالي ليتتبع البريديين ، فاغارت كوكبة من الخيل على المدينة وغنمت المواشي التي كانت خارج السور . ثم نزل في الزرقاء شمالاً واباح لعسكره القرى التي ساعدت اهل بريدة ، فجاء اهلها في اليوم التالي يطلبون العفو فعفا عنهم.

اما اهل بريدة فظلوا عشرين يوماً داخل البلد كانهم في حصار ، فلم يخرجوا لا موالين ولا معادين. ولكن فريقاً منهم ارسل يخبر ابن سعود سراً ان ابا الخيل مستولٍ على المدينة بمن معه من رجال ابن الرشيد ، وانـه اذا انسحب من جوارهـا يتيح لهم ان ينهضوا عـــلى اميرهم وجيشه الشمري .

وكان هؤلاء الشمريون قد عابوا سلطان الرشيد في انهزامه وفراره الى حائل،وطلبوا منه ان يعود فعاد ودخل بريدة ليلاً.فلما علم ابن سعود

بذلك مشى الى عنيزة فنزل على مسير ساعة من بريدة ، ففاجأت خيالة ابن الرشيد رعاةً له فأخذوهم . وقد حدث يومذلك قتال اشتركت فيه البدو ، فقطعت الحضر ساقتهم اي حمتها .

ان الحضر في الجيوش العربية كالجنود النظامية . اما البدو فبدوٌ هم ، وامرهم عجيب ، قد اسلفت القول ان بوادي ابن سعود شردوا في وقعة الطرفية ، ثم عادوا اليه . ومن عاداتهم ان يجيئوا ويروحوا ، ان يحاربوا ويشردوا كما توحي اليهم النفس او ترشدهم الحوادث .

وفي القتال امام بريدة هجم جيش البادية فاحتاط ابن سعود للامر بان جعل الحضر في مؤخره ليمنعه من الفرار اذا احس بالهزيمة . ولكنه كان في ذلك اليوم منتصراً فتراجع قوم ابن الرشيد ودخلوا البلد .

استمر ابن سعود في سيره جنوباً فنزل عنيزة ، ثم نقل الى البكيرية ، ثم الى الرّس ، يجمع اليه المقاتلة من الحضر . اما سلطان الرشيد فعاد الى الجبل ، وقد ترك اخاه فيصلاً في بريدة ليكون عوناً لابي الخيل على اهلها ، بل ليظل بعيداً عن حائل . ولكن فيصلاً اختلف وطاغية مهنّا فهجره وعاد الى الجبل فاجتمع باخيه الامير الحاكم واغضبه ، فارسله الامير بمهمة الى الجوف ، وقصده الابعاد .

وكان ابن سعود قد نقل من الرّس الى جهة عتيبة ، فنزل هناك في جبل يدعى سواج وهو يترقب الفرص للهجوم . فلما علم بما جرى بين فيصل واخيه سلطان سارع الى الجبل ، جبل شمّر . ولكن البدو ، وهو في منتصف الطريق ، هجروه ، فاستمر مع ذلك سائراً ، ونزل بقومه على ماء سقف ، فوجدوا هناك قبائل من حرب ، فاغاروا عليهم وغنموا كثيراً من اموالهم .

لم يتوفق عبدالعزيز في زحفه الى الجبل ، فعاد الى الرياض . ثم رجع في الشهر التالي الى القصيم ، فلاقاه جاسوس من بريدة ليخبره ان اهلها

مستعدون اذا وصل اليهم ، ان يهجموا على ابي الخيل .

لمز ابن سعود حصانه ، وراح بجيشه مسرعاً ، فوصلوا الى المكان المعين للاجتماع خارج البلد فلم يجدوا احداً هناك .

لله انتم يا اهل بريدة ! عض عبدالعزيز على نواجذه وعاد الى عنيزة ، فجاءه بعد سبعة ايام رسول منهم يقول انهم متأهبون للهجوم ، فزحف زحفة ثانية كانت كالاولى عقيدة الفشل .

ولكنه نزل الاخضر ، على مسير ساعة ونصف ساعة من المدينة ومشى اليها بالجنود مرتين لعلّ « الانصار » يخرجون اليه ، فلم يخرج احد منهم .

ثم بلغه ان سلطان بن الرشيد زاحف من الجبل لينجد اهل بريدة ، اي الرشيديين فيها ، فشد ابن سعود وبادر اليه ، ليصده عن ذلك ، فعلم عندما وصل الى كهفة ان الخبر مكذوب . وكان برغش بن طواله ، من رؤساء شمّر ، نازلاً ماء فهد بالقرب من جبل سلمى هنالك ، فسرى يريد الهجوم عليه . فلما رآه ابن طواله مقبلاً ساعة الفجر اركب الحريم على الخيل سافرات فجئن يلاقينه مستعطفات . ثم جاءه برغش طالباً العفو ، بل جاء يعاهده على الولاء واقسم بالله ان سيكون على الدوام من رعاياه المخلصين .

قد كان ابن طواله رسول السلم ايضاً بين ابن سعود وابن الرشيد ، فجُددت المعاهدة السابقة التي خرقها مرة سلطان ولم يتقيد دائماً سلفه متعب بشروطها . ولكن ابن سعود لم ينخدع . وما اراد في ذاك الحين غير حياد ابن الرشيد ، ولو الى حين ، فينشط انصاره من اهل بريدة ويمكنوه من ابي الخيل .

١٣٢٦ هـ
١٩٠٨ م

عاد عبدالعزيز ، بعد ان صالح ابن الرشيد ، الى البكيرية ، فعسكر فيها وسار بنفسه الى عنيزة مستخبراً ، فأخبر عندما وصلها ان اهل بريدة مستعدون الاستعداد التام هذه المرة للهجوم .

بادر عبدالعزيز الى حصانه ، وعدا بـه عائداً الى البكيرية ، فقطـع بساعتين ونصف ساعة مسافة خمس ساعات من السير ، وامر عند وصوله، بالزحف السريع الى بريدة ، فزحـف الجيش في ذاك النهار ووصـل الى المدينة عند غروب الشمس .

– واين الرجال ؟ اين من هم مستعدون الاستعداد التام للحرب ؟ الحق يقال ان السيادة كل السيادة كانت لمحمد ابي الخيل . ولم ينفر الى ابن سعود ليلتئذٍ الا عشرة من الانصار ، فكان الاتفاق بعض المفاوضة السرية ان يفتحوا له باب السور وقت صلاة العشي . ولم يكلفهم اكـثر من ذلك .

امر ابن سعود سريتين بالتقدم ثم بالدخول الى البلد ، اذا مـا فُتح الباب ، فيسيرون تواً الى البيوت القريبة من القصر المقيم فيـه ابو الخيل ويحتلونها .

فُتـح باب السور ، وكان الناس في الصلوة ، فدخلت السريتان ، واحتل البيوت المذكورة ثلاثمئة من الفرسان .

كان ابن سعود ساعتئذٍ واقفاً عنـــد الباب فارسل فرقة عددها خمسمئة رجل لتحتل ابراج السور القريبة منه .

ثم خطب في الباقي من جيشه قائلاً : « انا هاجمون على هذا البلد، فاحذروا ان تؤذوا من لا يعترضونكم ، او تسيئوا اليهم بشيء . حاربوا من حاربكم ، وسالموا من سالمكم . اما البيوت فـــلا تدخلوها . واما الحريم فمن اعتدى عليهن فيدي عليه » .

دخـل ابن سعود عـلى رأس جيشه يقصد من تقدمه من الفرسان . وما كاد يخرج الناس من المساجد حتى علت في المدينة صيحات الحرب . اشتبكت الجنود برجال ابي الخيل ، واستمر القتال طيلة ذاك الليـل ، فقتل من المهنّين عشرة ومن السعوديين خمسة لا غيـر . وجـاء رؤساء

بريدة عندما اسفر الفجر يطلبون العفو ، فعفا الظافر عنهم بشرط ان يسلم المقاتلون السلاح ، فسلموها قبل الضحى .

ولكن ابا الحيل ظل محاصراً يوماً وليلة . ثم طلب الامان فأمّنه عبد العزيز على حياته ، وتركه يذهب حيث يشاء ، فرحل الى العراق .

وفي كسرة محمد آل عبدالله ابي الحيل ، في ٢٠ ربيع الثاني من هذا العام (٢٣ ايار) دخلت بريدة للمرة الثانية في حوزة ابن سعود .

الفصل الثالث عشر

الاقارب والعقارب

ما سلط الله على العرب غير انفسهم . فقد طالما نكثوا العهود فراراً من تبعةٍ او خسارة،وقد طالما استحلوا،في سبيل السيادة،دم ذوي القربى.

لا نعود الى الماضي مستشهدين التاريخ ولنا في هـذا الزمان الامثال والبينات . فقد ذبح الشيخ خزعل اخاه ، والشيخ مبارك اخويه، وبندر بن الرشيد عمه ، ومحمد بن الرشيد ابناء اخيه الاربعة ، وابناء عبيد الرشيد اولاد عمهم الثلاثة – كل ذلك طمعاً بالسيادة .

وقد قتل في هذه السنة من هذا التاريخ سعود بن عبيد الرشيد اخاه سلطاناً وتولى الامارة بعده. ثم ارسل الى عبدالعزيز بن سعود يعرض عليه الصلح فصالحه على ما صالح عليه اخاه وابن اخته سلفيه .

١٣٢٦هـ
١٩٠٨م

من نوادر الله في خلقه ان يقوم في العرب ، في زمان تعددت فيه هذه الجرائم الفظيعة ، من يسلك الى السيادة مسلك الشجاعة والشرف ، فلا يسلط عليهم غير سيف الحق ، ولا يجازي طغيانهم وخياناتهم، اذا ما تابوا ، بغير الحلم والاحسان . ولكن تاريخ آل سعود المعروف هو ابيض الحاشية ، فلا يدنسه دم ذوي الارحام .

استمرت الاضطرابات والفتن في حائل ، فنكث ابن الرشيد العهد ، وعاد البيتان الى الحرب – الى الغارات والغزوات. اما سعود ابن عبيد، الذي لم يحكم غير سنة وشهرين ، فقد قُتل كما قتل هو أخاه . ثم بعث من تولى الامارة من آل سبهان ، اخوالِ بيت الرشيد ، بوفدٍ الى عبدالعزيز ، فلم تسفر المفاوضات عن سلم او شبه سلم،

١٣٢٧هـ
١٩٠٩م

فاستأنف البيتان القتال .

خرج صاحب حائل فنزل الشعيبة واغار على قبيلة من مطير السعودية فقتل رئيسها واصاب منها مغنما . وخرج صاحب نجد يطلب خصمه على ذاك الماء فلم يجده ، فاغار على قبائل حرب وشمر وغنم اموالهم ، ثم عاد الى الشعيبة فاقام هنالك يوماً « يخمس الاخماس » اي يقسم الغنائم .

وعلم صاحب حائل بوجود ابن سعود في الشعيبة فزحف اليه ، وعلم ابن سعود بذلك فمشى حتى وصل الغروب الى مكان في النفود يدعى الاشعلي فنزل هناك ، وشرع يتأهب للحرب ، فاخرج البدو من المعسكر ، وابعدهم عنه . واخرج الحضر الى رأس النفود فتحصنوا فيها ، فامست الخيام خالية . ثم امر بان لا تُعقل الابل التي غنموها من شمر وحرب في الغزوة الاخيرة . والقصد من ذلك ان يستغوي بها بوادي العدو . ان الطمع غريزة في البدو ، فهم اذا رأوا الاباعر شاردة يتبعونها ليغنموها . والاباعر اذا سمعت طلق البنادق ، ولم تكن معقلة ، تفر هاربة .

انتصف الليل فهجم امير حائل على مخيم امير نجد الفارغ فذهب رصاصه سدى ، وفرت الابل فلحقتها البادية . وقد شردت كذلك تحت جناح الظلام بادية ابن سعود ، فلم يبقَ غير الحضر في الجيشين .

وارسل عبد العزيز سرية لمناوشة من هجموا على المخيم ثم الانسحاب ففعلت ، فظنوه معها وظنوه مهزوماً . ولكنه كان ورجاله كامنين في رأس النفود ، فاغاروا عند انبثاق الفجر في ٥ ربيع اول (٢٩ اذار) من هذا العام عليهم . وكانت هذه المفاجأة خاتمة وقعة الاشعلي ، وكان في الخاتمة نصر لابن سعود مبين . خسر الرشيديون عدداً كبيراً من رجالهم ، وكثيراً من رواحلهم ، ما عدا ما كانوا قد غنموه في الليلة السابقة ، وتقهقروا عائدين الى الشعيبة .

اما ابن سعود فسار بحواضره الى قبَه ، وكانت بواديه قد شردت كما

قلت ، فتبع وقعة الاشعلي هدنة كان سببها الضيق من قلة الامطار ، فلم يستطع احد من الفريقين مواصلة القتال .

ولكن ابن سعود خرج من قِبه غازياً بعض عربانه العاصين في اعالي نجد ، على طريق المدينة ، وعاد الى القصيم فأمَّر فيه ابن عمه عبدالله بن جلوي وانحدر الى الرياض ، فلما قرب من العاصمة التقى برسول من ابيه جاءه يقول : « جنبوا جنبوا . الفتنة مشتعلة في الحريق بين الهزازنة » .

والهزازنة اي آل هزّان من عنزى وهم اقارب لآل سعود — اقارب ابعدون . كان قد قتل بعضاً منهم في تلك الفتنة ، فارسل الامام عبد الرحمن سرية قبضت على القتلة وسلمتهم الى اخوان المقتولين فقتلوهم . ولم تخلُ الفتنة من مآرب سياسية ، فعاد الهزازنة بعد رجوع السرية ، يشعلون نارها ، فاعتدوا على آل خثلان ، فذبحوا منهم شيخين طاعنين في السن ادعوا انهما اشتركا في قتل اخيهم الكبير محماس . اثار هذا الادعاء الكاذب غضب الامام عبدالرحمن ، فأمر ابنه عبدالعزيز ان يحمل عليهم في الحال . — جنبوا الى الحريق — جنبوا !

طلب عبد العزيز فرصة يومين ليزور اهله في العاصمة فكان له ذلك . وفي اليوم الثالث نزل الى الحريق ، ودعا الهزازنة لحكم الشرع فابوا ، وهم حقيقة لا يريدون الخضوع لحكم ابن سعود . ثم دخلوا حصنهم وتحصنوا فيه ، فحاصرهم شهرين وما انفك يدعوهم لحكم الشرع وهم متمردون ، وفي ذاك الحصن منيعون .

عندئذٍ اقدم ابن سعود على عمل يعد حتى في غير البلاد العربية كبيراً ، فأمر رجاله بحفر نفق يوصلهم الى الحصن ، فباشروا ذلك وكان طول النفق عندما تم اربعين باعاً . ثم عزم ان يشعل فيه البارود فينسف الحصن نسفاً ، ولكن نساء المحصورين واولادهم كانوا ساكنين في بيوت فوق ذلك النفق ، فارسل عبدالعزيز ينذرهم ويؤمنهم على حياتهم اذا هم اخلوها .

ولكن المحاصرين ابوا، واستمروا متمردين. فارسل اليهم رسولاً يقول: « اذا كنتم لا تخرجون حريمكم واطفالكم فانتم المسؤولون عن حياتهم امام الله » .

ظن المحاصرون في باديء الامر ان ابن سعود يهوّل عليهم بنفقٍ وهمي ، فلما تأكدوا الحقيقة سلموا لتسلم عيالهم .

وعاد عبد العزيز الى الرياض ومعه زعماء آل هزّان الا واحداً منهم استأذن بالسفر الى حوطة بني تميم لاشغال له هنالك فأذن له بذلك. ولكن اخاه راشدا احد الذين سلموا، كتب يشير عليه بالفرار وانه لاحق به ، فوقع الكتاب بيد عبد العزيز وكانت النتيجة ان صاحبه اصبح سجيناً ، بعد ان كان ضيفاً مكرماً ، في الرياض.[1]

١٣٢٨ هـ
١٩١٠ م

خُتمت سنة ١٣٢٧ بعصيان الهزازنة وهم كما قلت اقارب آل سعود الابعدون ، وفُتحت سنة ١٣٢٨ بخروج « العرائف » وهم اقارب آل سعود الادنون . بل هم الذين كانوا اسرى في حائل ، فجاء بهم ماجد بن الرشيد الى عنيزة ليقاتلوا اهلهم ، فخلصهم عبدالعزيز من الاسر ومن القتل ، فقاموا بعدئذٍ يجازون عمله بالعصيان.

قد يكون بين فتنة الهزازنة وخروج « العرائف » صلة سرية ، او ان الواحدة أوحت الاخرى. وجاء فوق ذلك الجدب يزيد بشدائد هذه السنة التي كانت تدعى « الساحوق » فخسر ابن سعود مبلغاً جسيماً من الاموال –الابل والمواشي– ولم يكن لديه ما يمكنه من الحرب والغزو.

وعُقد مجلس للمذاكرة بخصوص « العرائف » فقال احد الحضور يخاطب عبد العزيز : « ادعوهم اليك للجواب ، فاذا ابوا اضربهم » ، وقد

---

(١) جاء راشد بعدئذ الى الحجاز وبقي فيه حتى بعد نكبة الحسين فكان مشمولا بحلم عبدالعزيز ومكارمه . وكان ابنه عبدالله قد صحب الملك علياً الى جده فاقام فيها اثناء الحرب ثم فر الى مكة قبيل التسليم فاجتمع بابيه الذي هو اليوم قائد القوات البدوية هناك.

عقب على هذا الرأي آخرون . ولكن عبدالعزيز لم يستحسنه فقال : « اذا دعوتهم الي فقد يحدث بينكم وبينهم قتال ، فاكون ذابحاً لذوي القربى وهذا مكروه عندي . دعوهم . كفانا الله شرهم » .

رحل « العرائف » ، وهم تسعة ، ورجاجيلهم وخدمهم الى الحساء فنزلوا على العجمان اخوالهم . ولكن العجمان اعتدوا على بعض عشائر الكويت فنهبوهم ، فهددهم الشيخ مبارك ، فالتجأوا الى ابن سعود . بل جاءه كذلك كتاب من الشيخ مبارك يسأله فيه ان يسعى في ارجاع تلك المنهوبات .

اما ابن سعود فكان قد كتب الى ابن الهذال رئيس العمارات وابن الشعلان رئيس الرولا ، والعشيرتان من عنزى ، يستنجدهما على ابن الرشيد ، فاجاباه الى ذلك وضُرب الموعد للاجتماع . ولكن المشاكل تعددت في الحساء ، وهي مرتبطة بعضها ببعض ، فظن عبد العزيز ان التوسط بين مبارك والعجمان يحل مشكل « العرائف » ، فبادر الى تلك الناحية . وقد كان في عزمه ، بعد حسم ذاك الخلاف وحل ذاك المشكل ، ان يستأنف السير ليجتمع بالهذال والشعلان فيشدون جميعاً على ابن الرشيد .

اما الشيخ مبارك فعندما علم بخروج آل سعود « العرائف » وانهم جاؤوا الحساء ، ارسل نجاباً الى عبدالعزيز يستأذنه بان يدعوهم الى الكويت فيسعى في الصلح بينه وبينهم . قبل عبدالعزيز ولسان حاله يقول : نصلح بينه وبين العجمان فيصلح بيننا وبين العرائف . وجزاء حسنة حسنة مثلها . اما « العرائف » فقد قبل اثنان منهما دعوة مبارك ، وجاء اثنان الى عبدالعزيز مستغفرين مستأمنين فأعطاهما الامان .

ولكن صاحب الكويت لم يقدم على ذلك العمل لقاء ما جاء ابن سعود الى الحساء من اجله . بل كان هنالك امر آخر يستوجب المعروف .

ان القارىء الذي سار معنا من بداءة هـذا التاريخ يدرك شيئاً من غوامض الشيخ مبارك السياسية ، وهو قلما كان يقدم على عمل لا سر في شطر منه في الاقل .

اما السر في توسطه بين « العرائف » و« ولده » عبدالعزيز سعود فهو ان رئيس عشائر المنتفق في العراق سعدون المنصور كان قد جهز حملة عليه — حملة كبيرة لا يستطيع مقاومتها ناهيك بغلبتها — فأسلف عبد العزيز المعروف ، ثم ارسل يستنجده على السعدون —

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

الفصل الرابع عشر

الشيخ مبارك يستغيث

أمّا وقد وصلنا الى هذا الحد من تاريخ ابن سعود عبد العزيز فلا بدّ لنا من ان نعيد شيئاً من تاريخ الانقلاب العثماني . فقد دكّ حزب الاتحاد والترقي عرش عبد الحميد ، واعاد الدستور الى الامة ،واسس فيها حكومة نيابية . ولكنه بعد ان تبوأ عرش السيادة استبد واستأثر فغدا كل واحد من زعمائه عبد حميدٍ رهيباً .

وقد اغضب الحزب العرب خصوصاً فقام منهم من أسسوا حزب الأئتلافيين ليطالب باللامركزية صونا لحقوق العناصر الغير التركية .

ثم قام في البصرة جماعة يرئسهم السيد طالب النقيب والشيخ خزعل والشيخ مبارك الصباح يؤسسون فرعاً لهذا الحزب . بل كان من مقاصد تلك النهضة طرد الاتحاديين واستقلال العراق فيحكمها احد اولئك الزعماء.

اثار عملهم غضب الحكومة فأمرت سعدون باشا الاتحادي بتجهيز حملة من العشائر على الشيخ مبارك لانه اكبر الثلاثة ، ولانه في نظر الدولة ذو سوابق سياسية .

على ان الزملاء الذين كانوا قد وعدوا الشيخ بالمساعدة خذلوه فامسى منفرداً في الورطة ، فارسل يستنجد ذاك الذي شب وترعرع في ظله . ارسل يستنجد من كان يسميه « اولدي » وقد صار زعيما للعرب كبيراً.

ولكن هذا الزعيم كان يومئذ في ورطة اشد من ورطة « والده » مبارك . ومع ذلك فقد مشى الى الكويت بجيش صغير من العربان ، وفيهم بعض العجمان .

وعندما وصل عبد العزيز كان الشيخ مبارك قد جهّز ما عنده من قوة

لمحاربة السعدون فاشار عليه بالتربص وقال : « ليس بيننا وبين الرجل خلاف حقيقي يوجب الحرب ، واني ارى مسالمته اولى . المسألة طفيفة ، وانا اتوسط بينكم وبين السعدون » .

شق على الشيخ مبارك ان يسمع مثل هذا الكلام ، فازدرى نصيحة « ولده » الذي طالما امدّه بالنصائح وكان عونه في الشدائد .

مبارك : « انت ولدي وهل يقبل الولد بأن يهان ابوه » .

عبد العزيز ، وقد عراه شيء من الخجل : « لا والله . ولك ما تريد . اني ملبٍ الطلب ان شاء الله ولكني أسأل والدي ان يمهلني لاستنجد اهل نجد . ليس معي الآن غير مئتين من رجالي . اما العشائر فلست مركناً اليها في القتال » .

مبارك : « اني اجند من الكويت الجنود الكافية ، ولا ابغي منك غير القيادة » .

عبد العزيز : « اذا انت باشرت التجنيد فابن سعدون قريب منا وعالم باخبارنا واعمالنا كلها . فهو اذ ذاك يتأهب لنا . ولا ريب عندي ان « شواوي » (رعاة) المنتفق كلهم يلتفون حوله . امهلني قليلاً سلمك الله . ومن رأيي ان تسيّر قوة صغيرة مع احد انجالك فتبعد عن اطراف الكويت ، وتتربص للهجوم على ابن سعدون يوم تتفرق عشائره . وسننال مرامنا منه بحول الله » .

ما راق هذا الكلام الشيخ مبارك فأصر على تجنيد الجنود وعلى خروج ابن سعود معهم ، ففعل مكرهاً . اما جيش الكويت الذي كان رئيسه جابر بن مبارك فقد كان مؤلفاً من الفين من الحضر ، واكثرهم من الشبان الناضرة وجوههم ، النادرة شجاعتهم ، واربعة الاف من البادية ، ومئة وخمسون فارساً . أضف اليه عربان ابن سعود والمئتين من رجاله فيبلغ عدده كله نحو سبعة الاف .

١٣٢٨ هـ
١٩١٠ م

لما بعُد هذا الجيش مسافة يوم من الكويت جاء رجل من كبار عرب الظفير يدعى الضويحي ليسأل ابن سعود ان يتوسط بينهم وبين ابن الصباح . وقد اكد له ان السعدون وعرب الظفير يقبلون بذلك .

عرض عبد العزيز الامر على جابر الصباح فأجابه قائلاً : « اني لا اعهدك جباناً » . فغضب عبد العزيز وقال : « سترون غداً . غداً تظهر الجبانة فتعرفون اين هي » .

واستمروا ذاك اليوم سائرين ، فواصلوا السير بالسرى ، وكان سعدون باشا قد علم بزحفهم فاسرى كذلك بعشائره يريد الهجوم . وقد كان عدد جيشه يوازي جيش الكويت ، بيدَ انه كله من عشائر المنتفق والظفير والبدور وغيرها ، واكثره من الخيالة .

نام عربان سعدون في الطريق ، ولكنهم عندما احسوا بقرب الكويتيين افاقوا وتراجعوا الى مقر القيادة كي لا يتصادموا واياهم ليلاً .

ولما اصبح الصباح تكلم عبد العزيز : « اسمع يا جابر . من رأيي ان تأمر البدو بالاغارة على سعدون وجماعته ، فنبعدهم عنا ، ونشغل العدو . اني والله في ريب من امرهم . اذا سيَّرناهم امامنا فنأمن خيانتهم » .

لم يستحسن جابر هذا الرأي . واصر على ان يكون الهجوم عاماً ، فقال عبد العزيز يخاطب اخاه الاصغر سعداً : « اني لا ارى غير الهزيمة لهذا الجيش . قف معي وقومنا على حدة لنتمكن عند الحاجة من الدفاع عن انفسنا . اليوم يوم دفاع يا سعد لان هؤلاء الناس لا رأي لهم ، ولا هم يقبلون النصيحة » .

عند ما رأى جابر ان ابن سعود وقومه اعتزلوا الجيش لامهم قائلاً : « انتم اخواننا والاخوان في الحرب لا يحجمون » . فخجل عبد العزيز وامر اخاه بالاشتراك في الهجوم .

وكانت الفاتحة للخيل ، فاغارت خيالة ابن الصباح ، وهم مئة وخمسون

على خمسئة من فرسان السعدون . فكرّ هؤلاء عليهم كرات سريعة شديدة هائلة ، فانهزموا هزمة شنيعة ، وانهزم معهم جابر وجيشه بدون قتال ، ولم يبقَ مع ابن سعود الا عشرة فقط من الخيالة رجاجيله . اما البقية ففروا مع الفارين ، وقد تركوا وراءهم كثيراً من الحلال والمال — من الامتعة والابل والخيل — فكانت لجيش السعدون هدية من جيش الكويت . وقد دعيت هذه الوقعة ، التي جرت في صباح اليوم الاول من جمادى الثانية من هذا العام (١٠ حزيران ١٩١٠) بوقعة هدية .

لحق عبد العزيز بجابر وقومه المنهزمين فادركهم في عصر ذاك النهار وقال يهون الامر عليهم : « هذه عادات الرجال والحرب سجال » . ولكن الشدة انستهم التهكم . فبينا هم سائرون ضلوا الطريق ، وكان قد ادركهم فوق الهزيمة الجوع ، ولم يكن لديهم شيء من الزاد . ثم جاءتهم رحمة الله فالتقوا باباعر شاردة من حملة ابن سعود ، وهي تحمل شعيراً ، فاطعموا الخيل احمالها ، ونحروها ليطعموا انفسهم . وقد رافقتهم الرحمة في اليوم التالي ، اذ علم فيصل الدويش بقربهم منه فجاء باهله يلاقيهم ، فنصب الخيام واضافهم تلك الليلة ضيافـــة كبيرة ، ثم نحر لهم ثانية في الصباح . ان بعد العسر يسرا . ولكنهم لم ينسوا تلك الهزيمة ، بل تلك الهدية — « هدية والله ، اخذنا للسعدون هدية » .

اما الشيخ مبارك فعندما بلغته اخبـــار تلك « الهدية » خرج الى قصره « الصرّه » يداوي كلومه ، فجاءه ابنه جابر و « ولده » عبد العزيز يهونان الامر عليه . ولكنه عقد النية على استنفار اهل الكويت ثانية — « سأجمع والله خمسة اضعاف هذا الجيش ، وساحرق المنتفق فلا يبقى منها غير الرماد ! » .

خطر لعبد العزيز خـــاطر يمحو فيه كلام ذاك الغضب . كان « العرائف » قد رحلوا من الكويت — « العرائف » الذين استدعاهم

مبارك ليصلح بينهم وبين ابن سعود – فارتأى ان يُجهِّز احد اولاد الشيخ بجيش صغير فيسير عبد العزيز معهم ويشاع انهم ساروا يطلبون « العرائف » ، فيبلغ سعدون الخبر ، فيسرّح عربانه – « فنعيد الكرة اذ ذاك عليه ، ونحن مدركوه بحول الله » .

رفض الشيخ مبارك ثانية ان يعمل برأي عبد العزيز . وكان ابن الرشيد قد هجم يومئذ على ابن الهذّال وابن الشعلان ، وهما حليفان لابن سعود كما تقدم ، فأخذهما في جُمَيمَة على حدود العراق ونجد . فقال عبد العزيز يستأنف الحديث : « اذا كنت تصر على تجنيد جيش كبير ، فانا اترك عندك رعاياي من عرب مطير واعود الى بلادي لان ابن الرشيد ، بعد انتصاره على الهذال والشعلان ، لا بد ان يزحف الى القصيم . واخشى ايضاً ان يقوم « العرائف » بحركة في الرياض فيتفاقم الامر علي . ولا اظنك تريد لي ذلك » .

وكان قد أمل الشيخ مبارك ان يغلب السعدون ولو بعون ابن سعود المعنوي ، فندم لانه لم يقبل بنصيحته ، فلا يعرّض به في مواقف الخطر يوم ضعفه . ندم لانه لم يهول به تهويلاً على العدو ويدخل الرجل لساعة قوته في الحرب . ولكنه ، وقد ادرك هذه الحقيقة الان ، رفع الحجاب عن نفسه المتألمة عند استماعه كلمات عبدالعزيز الاخيرة – « اذا رميتني اليوم يا وُلدي فليس لدي احد ينهض بي ، فيتمكن مني العدو . انا والدك يا عبد العزيز ، ولي عليك حق المساعدة ، والبلد بلدك وله عليك حق الدفاع ... ابقَ عندي ولا تخرج مع الجيش – ابقَ عندي فاتسلى بوجودك معي » .

اجل ، قد تجلت له الحقيقة التي حجبها عنه في اول الامر الوهم والغرور ، وهذه الحقيقة هي ان مجرد وجود ابن سعود عنده مفيد . فطلب منه ذلك وكان في طلبه بليغاً ووديعاً .

– « ابقَ عندي ثلاثة اشهر فقط » .

قال عظمة السلطان لمؤلف هذا التاريخ : « استحيت منه بعد هذا الكلام وبقيت » .

وكان مبارك اثناء تلك الثلاثة الاشهر مطمئناً فلم يهاجمه السعدون . ولكن فوائد قوم عند قوم مصائب . فقد كان ابن سعود في قلق دائم، لان ابن الرشيد كما تقدم غلب حليفيه الهذال والشعلان، والعجمان تآمروا و« العرائف » عليه ، و« العرائف » أسندوا عائدين الى الرياض ، ومنهم من كتبوا الى الشريف حسين في مكة يستنجدونه على عبدالعزيز. اضف الى ذلك ان القيظ كان يومئذٍ شديداً،فتفرقت البوادي وراحت تنشد المياه.

ثم حدث حادث بينه وبين بعض عربان مطير اعتدوا على عرب من قحطان وسبيع ولاذوا بابن الرشيد ، فاراد عبد العزيز تأديبهم عندما جاؤوا الى اطراف الكويت ، فتصدى له الشيخ مبارك ، فكتب اليه يلومه قائلاً:«كان الاجدر بك ان تساعدني عليهم وهم من قبائلي العاصية».

اشتعل الغضب في صدر مبارك – وما كان اسرع اشتعاله -- فخرج من الكويت الى معسكر ابنه جابر، فاجتمع هناك بعبدالعزيز، وكانت اول كلمة منه مرادفة للاهانة والطرد . قال الشيخ « اظنك يا ابن سعود تبغي اهلك ». فأجابه بكلمة واحدة : « نعم » . وخرج من ذاك المجلس كما دخل مبارك اليه مكتئباً متغيظاً .

انها لايام عصيبة في تاريخ عبدالعزيز، تعددت فيها الاعداء والاخطار، وهجرته بواديه ، وكان جزاء معروفه الاهانة وغمط الجميل . وهناك الطامة الكبرى ، هناك العسر المالي الذي ندر مثله في العشر السنوات الماضية من حياته .

المال ! قد كان في حاجة شديدة الى المال . وانه ليدهش القارىء مقدار حاجته وهو حاكم نجد وكبير العرب . حاول ان يستدين من اهل الكويت ، فاعتذروا خوفاً من مبارك . ثم ارسل الى نسيبه ووكيله في البصرة عبداللطيف باشا المنديل يطلب منه الفين ليرة – الفين فقط – ويقول له ان يقبض القيمة مما تبقى عند الدولة من معاش الامام والده .

الفصل الخامس عشر

الشريف حسين يشمر الاردان

من تهكم الزمان ، وقد والى المتمرد عليه من الناس ، ان يجيئه في اليوم العصيب بما لا ينفعه من نوافل الحياة ، بل بما يزيد في عسره وحزنه.

وكان السلطان عبد الحميد قد منح الامير عبد العزيز ابن سعود لقباً ونيشاناً من اعلى درجات المجد عنده، فصارت الجرائد في بغداد وفروق تنعته بالنعوت الضخمة بعد ان كانت، في ايام نصره وعزه ، تتحامل عليه .

— غزا الامير الخطير عبد العزيز باشا سعود القبائل « المحلة براحة اهل السبيل فكسب شكر اهل الجميل ». بعد ان غزا الامير الخطير والزعيم الكبير عبد العزيز باشا سعود قبائل مطير وحرب توجه قاصداً الرياض « ليجم نفسه حيناً من الزمن لامر ذي بال » ....

والحقيقة اولى ان تقال . فقد عاد عبد العزيز من الكويت في اواخر هذا العام راكباً مطية الافلاس ، يحف به جيش من الغم ، وصاحب بيرقه يدعى اليأس . فتصالح وأبن الرشيد — مكره اخوك لا بطل — لكي يتمكن من استخدام ما تبقى لديه من قوة في مقاومة « العرائف » اقاربه . وقد ارسل اخاه سعداً الذي لم يكن يتجاوز السبع عشرة من سنه الى عتيبة يستنجد رجالها لهذه الغاية .

١٣٢٩ ه
١٩١١ م

ولكن عتيبة ولت وجهها شطر مكة ، فانحازت الى الشريف حسين ، مضيف بعض « العرائف» ومكرمهم ، اكراماً لابن سعود !— « ليس بيننا وبين ابن سعود ، ايها النجيب ، غير ما يوجبه حسن الجوار وهذا لا يخفى على نباهات كمالات نجابتكم » .

لم يكن والحق يقال ، بين الحسين وابن سعود عداء في تلك الايام

يجر الى الحرب او يقضي حتى بالغزو . ولكـن الشريف كان مواليـاً للاتحاديين ، ساعياً في اكتساب ثقتهم ، طامعـاً بالسيادة له ولانجـاله . وكانت الحكومة قد فقدت الثقة ببيت الرشيد بعد ان تعددت فيه الجرائم العائلية السياسية ، فادارت بنظرها الى الحسين وهي ترجو ان يستميل في الاقل ابن سعود اليها . ولا ريب ان الشريف وعدها باكثر من ذلك .

خرج الحسين من الحجاز بجيش من البدو والحضر في رجب من هذا العام ونزل الكويعية « ديرة » عتيبة . وراح سعد « ينحر » تلك الديرة للغاية التي ذكرت ، فلما وصل الى اطراف الكويعية خرج اليه فصيلة من خيالة عتيبة ، فظنهم جاؤوا يلاقونه ، ويرحبون به . ولكنه ، عندما دنوا منه ، ادرك قصدهم الحقيقي . ولم يكن معه غير اربعين رجلاً فركب وعشرة منهم الخيل وقفلوا راجعين ، فلحق اهل عتيبة بهم ، وهم يؤمنونهم قائلين : « نحن خدامكم ، قفوا ولا تخافوا » . صدّقهم سعد ، ولم يصدقهم رجـاله . فوقف بالرغم عن تحذيرهم ، فقبض بنو عتيبة عليه واخذوه اسيراً الى الشريف حسين .

١٣٣٠ هـ
١٩١٢ م

وكان عبد العزيز قد تأهب لمحاربة « العرائف » بالحريق عندما اتصل به هذا الخبر ، فترك اربعمئة من رجاله بقيادة فهد بن معمر في الخرج ، وكر راجعاً يستنجد اهل نجد ، وينقذ اخاه .

امـا الشريف فبعـد ان اسر سعداً رحل من الكويعية شمالاً فنزل الشعرى ، ثم زحف من الشعرى شرقاً فـنزل ماءً قريباً من الوشم . ولكنه عندما علم ان ابن سعود قد وصل بجيشه الى ضرمه تراجع غرباً فنزل عـلى ماء يدعى العرجاء وارسل يستنجـد ابن الرشيد . فكتب وكيل الامارة زامل السبهان الى عبدالله بن جلوي امير القصيم يومئذٍ يقول : « ان بيننا وبين الشريف معاهدة تضطرنا الى مساعدته » . امـا عهد الصلح بينهم وبين ابن سعود فان هو الا قصاصة من الورق .

لم يكن الشريف ليقصد من هذه الحرب بل هذه المناورات ، غير ازعاج ابن سعود واكراهه في ما يريد . وقد كتب اليه ، وهو يفر ويكر من ماء الى ماء يؤكد ذلك . — اذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام وعدنا باخيك سعد الى مكة فيبقى عندنا الى ان تطلب الصلح .

اما الصلح فشروطه بيد الشريف حسين . ومن غرائب الاتفاق ان خالداً بن لؤي امير الُخرمه كان يومئذٍ الواسطة بين الاثنين . وخالد هذا واهله ، وان كانوا من اشراف الحجاز ، هم منذ القدم على ولاء وآل سعود . فقد تمذهبوا بالمذهب الوهابي في ايام سعود الكبير وظلوا متمسكين به محافظين عليه .

جاء خالد الى عبدالعزيز يعرض شروط الشريف . ولم تكن غير شروط الدولة التي كانت تطلب ان يعترف بسيادتها ولو اسمياً في نجد او على الاقل في القصيم ، وطلبت فوق ذلك ان يدفع ابن سعود شيئاً من المال ، عربون التبعة ، كل سنة .

انه لامر مضحك عجيب . ابن سعود يستدين من نسيبه ووكيله في البصرة ما يسد به حاجاته ، ويحيله على الدولة ! والدولة تسعى بواسطة الشريف ان تدخل ابن سعود في تبعتها فتتقاضاه بدل ان تدفع له المسانهات .

جاء خالد يحمل شروط الصلح . وخالد وان كان بدوياً فهو على شيء من الذكاء والدهاء . اسمعه يخاطب عبد العزيز فيقنعه .

— « اسمع يا عبدالعزيز انا اعلمك . لا غاية للشريف سيئة . لا والله . ولكنه يبي (يبغي) يبيّض وجهه مع الترك . فاكتب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرك . وانا اتكفل برجوع سعد ، واتكفل ان الشريف لا يتدخل في امور نجد — هذا اذا كنت لا تتجاوز الحدود . اما اذا

هو اعتدى عليك فانا خالد بن لؤي اعاهدك عهد الله عليه ، فاكون معك والله كما كان ابائي مع آبائك وكما كان اجدادك مع اجدادي » ! .

قبل عبدالعزيز بتوسط خالد وكتب له « قصاصة ورق » تنفع الشريف عند الترك ولا تضر كاتبها . فقد تعهد فيها أن تدفع بلاد نجد للدولة ستة الاف مجيدي كل سنة —

وما كانت غير قصاصة من ورق .

الفصل السادس عشر

العرائف والهزازنة

يذكر القارىء ان اولاد سعود بن فيصل ، الذين احتربوا وعمهم الامام عبدالله ، كانوا مقيمين في الخرج فصار لهم في تلك الناحية اشياع وانصار . ويظهر ان النزعة الى العصيان ظلت تتقد في صدور اولئك السعوديين الذين اسرهم يومئذ ابن الرشيد وخلصهم من الاسر ابن عمهم عبد العزيز . والآن ، عندما عادوا من الكويت والاحساء ، نزلوا الى الخرج يريدون الاستيلاء عليه .

ولكن اهل تلك الناحية ، واميرهم اذ ذاك فهد بن المعمّر ، صدوهم عن ذلك ، وطردوهم في اليوم الثاني بعد وصولهم ، فرحلوا الى حيث اتقدت منذ سنتين فتنة الهزازنة — الى جهات الحوطة والحريق .

اما الهزازنة الذين كانوا اسرى في الرياض فكان عبد العزيز قد اطلق سراحهم واذن لهم بالرجوع الى بلادهم ، اكراماً لامير قطر قاسم بن ثاني الذي توسل من اجلهم . فعندما جاء « العرائف » بعد ان طُردوا من الخرج ، رحب الهزازنة بهم ، وتعاهدوا واياهم ، فتوحدت القوتان والمقاصد .

وكان قد انضم اليهم اناس آخرون في الحوطة ، فمشوا معهم الى الحريق ثم هجموا على القصر ، وفيه سرية لابن سعود ، فحاصروه سبعة ايام واستولوا عليه .

اما ابن سعود فعندما عاد من القصيم ، بعد ان صالح الشريف حسينا وخلص اخاه سعداً من الاسر ، جاء تواً الى ناحية الحريق الذي كان قد استولى عليها العرائف والهزازنة ، ومعهم جمع كبير من البادية .

ان الحريق كائنة في واد بين جبلين وليس لها غير طريق واحد ، فاسرى فيه عبد العزيز ليدخل البلدة ليلاً على حين غرة . وعندما وصل في اليوم التالي الى قصر قريب منها نزل هناك وامر جيشه ، الذي لم يكن يومئذ غير الف ومئتين من الحضر ، ان يعسكر ويستعد لحصار طويـل .

ولكن خيالة العدو في جولة من الجولات اصطدمت بفصيلة من خيالته فكانت الشرارة التي اضرمت نار الحرب .

هجم حضر عبد العزيز هجمة واحدة على الحريق ولم يقفوا حتى استولوا عليها وعلى بلدة اخرى اسمها مفيجر ، فشرد آل سعود « العرائف » على خيلهم ، والتجأوا الى اهل الحوطة فردوهم خائبين ، فرحلوا اذ ذاك الى الافلاج .

وكان في السيح هناك اخوهم فيصل ، وفي ليلا[1] احمد السديري من قبل ابن سعود ، فاحترب الاثنان قليلاً قبل وصول « العرائف » .

اما عبد العزيز فبعد انتصاره في الحريق زحف جنوباً فنزل نعام ، قرية في الطريق ، واراد الجيش ان يهجم على الحوطة فيكتسحها فابى ذلك قائلاً : « لا اسعى في خراب بلدين من بلادي في يوم واحد . ساقدم لاهل الحوطة الصلح واعطيهم الامان . لعل الله يهديهم سواء السبيل » .

اما الامان فظفروا به شكراً لعالمهم ورؤساهم الذين خرجوا الى عبد العزيز وقد عقدوا المحارم في رقابهم . ولكن اهل الحوطة برابرة قتلة لا يضعون على الرقاب ، ولا يفهمون في العقاب ، غير السيف . ومع ذلك فقد صفح عبد العزيز مشترطاً ان يدخل بجيشه البلد ، فدخل ظافراً ، ثم زحف الى الافلاج .

---

(١) ليلا قاعدة الافلاج ، والسيح بلدة من بلدانها فيها مياه جارية .

وبينا هو على ماء في الطريق جاءه رسول من اميره السديري يقول ان حين وصول العرائف الى السيح علم اهل البلدة بما جرى في الحريق ففروا هاربين . وقد تركوا فيها امتعتهم واموالهم ، فغنمها السديري عند احتلاله تلك الناحية .

ولكن سعوداً بن عبدالله ، احد « العرائف » وعبد العزيز المزاني الذي فر هارباً بعد فتنة المزازنة الاولى ، ومعهم ثلاثون رجلاً ، هجموا على السيح ، بعد ان هجرها اهلها ، دون ان يعلموا بما جرى في الحريق ، فقبض السديري عليهم كلهم والقاهم في السجن .

وصل عبد العزيز ، فاطلق سراح سعود بن عبدالله ، وخيره في امرين البقاء عنده او الالتحاق باخوانه ، فاختار البقاء (هو سعود العرافة الموجود الآن في الرياض وسنعود الى ذكره) ولكن الذين شردوا من العرائف ، الا واحداً كان قد سار الى الحسا ليستنهض البادية هناك ، رحلوا الى مكة ولاذوا بالشريف حسين .

واما المزاني وجماعته المأسورون فقد عفا عبد العزيز عن راشد [١] منهم وامر بقتل الاخرين . هي المرة الاولى التي حلت القسوة محل الحلم في حكمه . ولا غرو ، فقد سبق منه الاحسان ، وتكررت منهم الاساءة .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

---

(١) راجع صفحة ٢٠٣ .

الفصل السابع عشر

لا نصر ولا انكسار

لم تنجُ البلاد العربية مما اعترى حكومة الاتحاديين من عوامل الضعف والفساد ، فذهبت هيبة السلطتين المدنية والعسكرية ، وضعفت الثقة بأولي الامر سواء من الترك كانوا ام من العرب . على ان العصبية في بعض القبائل حالت دون التفكك في الامارات والاحكام . فقد راودت حكومة المدينة عربان الحجاز ، وساومت حكومة بغداد عشائرَ العراق ، وشاركت حكومة الحساء رؤساء البدو المجرمين ، ولكن شمّر ظلت الركن الاوطد لابن الرشيد ، ومطير العضد الاكبر لابن الدويش ، والمنتفق القوة الثابتة لابن السعدون ، وظلت الظفير كتلة واحدة بيد ابن سويط .

بيدَ ان شيوخ هذه القبائل كانوا يوماً احلافاً بعضهم لبعض ويوماً اعداء . فقد تصالح مثلاً وتحارب السعدون وابن سويط مرتين في مدة قصيرة ، وكان ابن الرشيد صديق الاثنين اليوم وعدو هذا او ذاك منهما غداً .

اما ابن سعود فحاله في سنتي ١٣٢٩ و ١٣٣٠ (١٩١١ و ١٩١٢ م) حال المصارع الذي يستوي واقفاً قبل ان تلمس يده الارض . وبكلمة اخرى قد كان ، على ضعفه ، القوة الوحيدة التي لم تستطع الاخصام ان تغير هدفها او ان تلصقها بالحضيض — بل كان ، على ضعفه ، يضرب في فترات التنفُّس الضربات المدوّخة ، وفيها البرهان ان هناك قوة ، وان انهكت ، لا تُغلَب .

فقد مرّ وهو عائد من الافلاج بقبائل من الدواسر عاصين فأدّبهم ،

ثم سار الى الحساء ، بعد ان استراح بضعة ايام في الرياض ، فضرب العاصين من العجمان هناك واحسن التأديب[1] .

وبينا هو في جهات الحساء ، سمع الشيخ مباركا يستغيث . فقد جاءه وفد من الكويت بكتاب من « والده » مشفوع بذلولين ، وجاء في الكتاب : « اني مرسل اليك ذلوليّ وقد كنت اركبهما الى الغزو . وانا الآن عاجز من الركوب والمغازي ... انا والدك يا عبد العزيز ، والذلولان اللذان شهدا الغزوات والمعارك العديدة هما لك يا ولدي وهما يطلبان منك ان تأخذ بثأر والدك من ابن السعدون » .

فاجاب عبد العزيز ان مشاكله كثيرة ، وعشائره متقلبة ، فيخشى الخيانات بعد ان اجتمع له الامر في بلاده . وهو يضطر والحال هذه ان يستخدم كل ما لديه من قوة في معالجة مشاكله الداخلية ومنها في ذاك الحين مسألة تركي بن سعود العرافة الذي انحدر الى الحساء من الخرج ، كما قلت في الفصل السابق ، يستنهض العجمان. وقد انضم اليه آل سفران فخذ منهم .

لم يهم الشيخ مباركاً ذلك ، فرفض عذر عبد العزيز . ولكنه كان يحسن التأوه والاستغاثة ، فكتب ثانية الى « اولدي » : « انا اصيح واناديك وانت يا ولدي تصم اذنك . ابمثل ذلك يعامل الوالد ؟ اتهجرني يوم شدتي فيساعد هجرك العدو علي؟ اسمعني يا ولدي يا عبد العزيز اسمعني اصيح واناديك الخ . . . »

سمع عبد العزيز فاستنفر عشائره ليلبي النداء ، ومشى بعد ذلك بجيش مؤلف من الف وخمسمئة من الحضر وخمسة الاف من البدو ، يصحبه اثنان من ابناء الصباح هما سليمان الحمود وعلي الخليفة . راح ينتقم « لوالده » من ابن السعدون وابن سويط .

وكان قد اعلم الشيخ مباركاً بمسيره وانه سينزل الحفر . ولكن

(١) التأديب هو العقاب والغرامة ويكون غالباً بدون حرب .

العدو اثناء ذلك انقسم قسمين ، فاحترب اهل الظفير واهل المنتفق بعد ان كانوا متحالفين . ولذلك اسباب عربية وتركية . اما العربية فهي مألوفة وتكاد تكون طبيعية، واما التركية فمنشأها النزاع بين الاتحاديين والأئتلافيين . وقد كان هـذا النزاع يمتد الى العشائر بواسطة رؤسائها ، فيتذرعون به ليثأر بعضهم من بعض،وندر فيهم من ليس له ثأر على الاخر .

علم الشيخ مبارك بما جرى بين عدوّيه . وبما ان حمود بن سويط كان اميل الى الأئتلافيين منه الى خصومهم ، فقد كتب اليه يخبره ان ابن سعود زاحف عليه ويحذره منه . انه لانقلاب سريع ، مدهش، منكر . علم به عبدالعزيز آسفاً متجملا ، وعلم كذلك ان القصد منه ان يسترضي مبارك ابن سويط ويستعين به على الاتحادي سعدون .

ولكن الخبر اشعل الحمية في رجال ابن سعود ، فنادوا بالهجوم على صاحب الكويت : « هو عدو لنا يا عبدالعزيز . بل هو عدوّ الله. كيف يطلب منك الهجوم على ابن سويط ثم يخبره بذلك ليكون على حذر . رخّص لنا فتجري الدماء كالانهر في اسواق الكويت ! »

سكّن عبدالعزيز روعهم قائلا : « قد قمنا نحن بمـــا علينا . اما هو فقباحة عمله عليه » .

ولكن ابن سويط لم يشأ ان يعادي ابن سعود فارسل اليه يطلب العفو ، فعفا عنـــه . ثم توجه الى ناحية الزبير فورد كابدة ووجد هناك اغناماً كثيرة لابن السعدون فغنمها كلها . واستمر سائراً الى سفوان[1] فلاقاه في الطريق رسول من والي البصرة ومعه وفـد من اهل الزبير ، فاكرموه وقدموا له الهدايا الثمينة من الحكومة ومن الاهالي . وبكلمة اخرى جاؤوا خائفين مستعطفين، فامر ابن سعود جيوشه بأن لا يتعدوا على احد وان لا يؤذوا احداً في اطراف الزبير والبصرة .

(١) كابدة وسفوان ماءان في الطريق الى البصرة على حدود الكويت ونجد .

ثم جاءه الى سفوان عبد العزيز الحسن من قبل الشيخ مبارك بمهمة جديدة . قد كان لمبارك عدد من « الشواوي » اي رعاة الغنم في تلك الانحاء لا يأخذ منهم ذبيحة[1] وهم يوماً من رعايا العراق ، ويوماً من رعاياه ، فكتب الى عبد العزيز يقول : « اريد منك ان تهجم على هؤلاء الشواوي وتأخذهم او تأخذ خيولهم وسلاحهم » . لم يخفَ على عبدالعزيز القصد من ذلك . فقد اراد مبارك ان يسترضيه ، واراد من جهة اخرى ان يحرك عليه حكومة العراق . ولكن عبدالعزيز لم يمكنه من تحقيق قصده بل قصديه .

قفل من سفوان راجعاً الى الكويت ،فرفض قومه ان يرجعوا معه : — « لا ندخلها والله غير محاربين » . ابى عبدالعزيز ذلك عليهم ، فمشوا معه طائعين حتى وصلوا الى الجهرى ، فنزلوا فيها ، وقد جاء الشيخ مبارك يسلم على « ولده » فاعتذر عما بدا منه دون اسهاب في التصريح ، وقبل عبدالعزيز العذر دون معاتبة .

ثم سار يقصد الى الحساء ، وكان قد كثر فيها وفي جوارها الاشقياء ، فبلغه وهو في الطريق ان العجمان العاصين هجموا على عرب من عربان فيصل الدويش واخذوا عدداً كبيراً من الابل ملك رجل من الموصل اسمه «ذو النون» كان في ضيافة ابن سعود ،فسارع عبدالعزيز الى مقاتلة المعتدين .

ولكنه أخبر انهم على ماء قريب منه ، فراح يطلبهم هناك ، فادركهم واخذهم جميعاً . ثم علم انهم غير المذنبين ، وانهم ابرياء ، فاعاد اليهم كل ما أخذ منهم وأخلى سبيلهم .

اما المذنبون ورئيسهم تركي العرافة ، فكانوا قد التجأوا الى حكومة الترك في الحساء ، فاخبروها أن « ذا النون » من رعاياها من الموصل ، فارسلت الحكومة تحتج على ابن سعود ، وتحذره من التعرض لقبيلة العجمان . فاجاب ان في تأديبه هذه العشيرة خيراً للناس وللحكومة .

ولكنه لم يشأ يومئذ ان يغضب الترك في الحساء فتركهم وشأنهم .

---

(١) ويقال الذبيحة والميحة، فالميحة ، من ماحه عند الامير اي شفع له . والذبيحة اي عدد من الانعام يقدمها البدو للامير في سبيل الشفاعة .

الفصل الثامن عشر

الاتراك والوحدة العربية

خبطت حكومة الاتحاديين في دياجي الاثرة خبط عشواء ، وتلطخت ايدي زعمائها بدم الابرياء ، فنفرت منها كل العناصر الغير التركية ، بل هاجت عليها فئة عاقلة من الاتراك انفسهم ،ولكنها لم تظفر بشيء يذكر . ولاظفرت الحكومة بامنية من امانيها القومية او الوطنية . فقد حاولت تتريك العرب فباق بها الفشل ، وحاولت استرضاءهم بعد ذلك فكانت كالنافخ في الرماد.

فافضت تلك السياسة الى الحرب الاولى بعد الدستور ، بل الى الخسارة الاولى من الممالك العثمانية : وانتصرت ايطاليه ، وذهبت طرابلس الغرب . ولكن الذي يهمنا في هذا الصدد هو ان اميراً من امراء العرب اي السيد الادريسي كان حليف الاجانب على الاتراك ، وظل الامراء الكبار الاخرون ، ما عدا الشريف حسينا ، على الحياد في تلك الحرب .

١٣٣٠ هـ
١٩١٢ م

حتى ان الامام يحيى عدو الادريسي ظل ساكناً ، فلم يغتنم الفرصة للفتك بالادارسة واتباعهم . وجل ما كان من « اخلاصه » للدولة انه اذن لعساكرها ان تجتاز بلاده لتسقط على الادريسي من الجبال فتجتر ساقة جيشه .

ثم طلبت حكومة الاتحاديين المساعدة من ابن سعود ، وتعهدت ان تقدم له كل ما يحتاج اليه من السلاح والذخيرة والمال ، فما لبى الطلب . وقد كتب الى الحكومة كتاباً يقول انه عربي فلا يحارب من اجل الدولة العرب ، وانه والادريسي على ولاء ، وان البلاد في كل حال

بعيدة عنه فلا يتمكن من محاربة اهلها .

عادت الحكومة فطلبت منه ان يخص الاحساء بعسكر عربي لحماية تلك الناحية او بالحري لحماية الترك فيها ، فرفض ذلك ايضاً .

ثم كتب اليه والي البصرة سليمان شفيق كمالي باشا ، الذي كان حاكماً عسكرياً في عسير (١٩٠٨- ١٩١٢) يسأله رأيه في امراء العرب ، وفي شقاقهم وخروج بعضهم على الحكومة العثمانية . فكتب ابن سعود اليه جواباً صريحاً فيه البرهان على انه كان منذ ذاك الحين يفكّر في الوحدة العربية . والى القارىء خلاصة هذا الجواب . قال ابن سعود يخاطب والي البصرة :

« انكم لم تحسنو الى العرب ، ولا عاملتموهم على الاقل بالعدل . وانا اعلم ان استشارتكم اياي انما هي وسيلة استطلاع لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي . وهاكم رأيي ، ولكم ان تأولوه كما تشاؤون .

انكم لمسؤولون عما في العرب من شقاق ، فقد اكتفيتم بان تحكموا وما تمكنتم حتى من ذلك . قد فاتكم ان الراعي مسؤول عن رعيته ، وقد فاتكم ان صاحب السيادة لا يستقيم امره الا بالعدل والاحسان ، وقد فاتكم أن العرب لا ينامون على الضيم ولا يبالون اذا خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم . اردتم ان تحكموا العرب فتقضوا اربكم منهم فلم تتوفقوا الى شيء من هذا او ذاك . لم تنفعوهم ولا نفعتم انفسكم .

وفي كل حال انتم اليوم في حاجة الى راحة البال لتتمكنوا من النظر الصائب في اموركم الجوهرية . اما ما يختص منها بالعرب فاليكم رأيي فيه : اني ارى ان تدعوا رؤساء العرب كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، الى مؤتمر يُعقد في بلد لا سيادة ولا نفوذ فيه للحكومة العثمانية لتكون لهم حرية المذاكرة . والغرض من هذا المؤتمر التعارف والتآلف . ثم تقرير احد امرين ، اما ان تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة يرأسها

حاكم واحد ، واما ان تقسموهـا الى ولايات ، فتحددون حدودها وتقيمون على رأس كل ولاية رجلاً ذا كفاية من كل الوجوه ، وتربطونها بعضها ببعض بما هو عام مشترك من المصالح والمؤسسات .

وينبغي ان تكون هذه الولايات مستقلة استقلالاً اداريا وتكونوا انتم المشارفين عليها . فاذا تم ذلك فعلى كل امير عربي ، او رئيس ولاية ، ان يتعهد بان يعضد زملاءه ويكون واياهم يداً واحدة على كل من تجاوز حدوده ، او أخل بما هو متفق عليه بيننا وبينكم .

هذي هي الطريقة التي تستقيم فيها مصالحكم ومصالح العرب ، ويكون فيها الضربة القاضية على اعدائكم » .

فاستحسن والي البصرة هذا الرأي فارسل به الى الاستانه . ولكن اولي الامر هنالك لم يستحسنوه ، بل سفهوه قائلين : « يريد ابن سعود ان يجمع كلمة العرب بواسطتنا ولخير نفسه » .

وكانت سياستهم مبنية على ظنهم ، فشرعوا يقاومون فكرة الوحدة سراً وعلناً ، بمساعدة عمالهم مباشرة وبواسطة بعض امراء العرب . وقد كان يومئذ جمال باشا في بغداد ، والشريف حسين في مكة ، وابن الرشيد في حائل في مقدمة ما يسمعون كلمة الاستانة ويطيعون .

طفق الشريف حسين يحرض على ابن سعود القبائل ومنهم عتيبة . ثم جهز جيشاً لراشد الهزاني [1] الذي كان قد لجأ « العرائف » اليه ، وسيره على الحريق . وقد امد « العرائف » كذلك في محاربة نسيبهم صاحب نجد . فارسل عبد العزيز صالح باشا العذل الى الشريف ومعه هدية من الخيل وكتاب جاء فيه : اننا نستغرب منكم هذا العمل وبيننا وبينكم معاهدة .

وكان جيش ابن سعود قد اغار على فخذ من عتيبة المتشيعة للعرائف ،

(١) راجع صفحة ١٩٦

فغضب لذلك الشريف ورد صالح العذل خائباً ، ورد فوق ذلك الهدية. فخرج العرائف على ابن سعود . وقد ختمت هذه السنة بخيانة مطير ورئيسها فيصل الدويش الذي استغواه عجيمي السعدون واستنهضه وعربانه على محاربة الظفير. اما اليد الخفية في هذه الخيانة فيد الترك، واما الصوت فصوت المتتركين يومئذ من العرب .

الفصل التاسع عشر

فتح الحساء

ان خلاصة ما تقدم في ما يختص بالترك هي انهم كانوا في عهد الدستور يناوؤون العرب، وبالاخص من حاول ان يجمع كلمتهم ويوحد سياستهم، اي ابن سعود . فقد حرضوا عليه الشريف حسين ، وابن الرشيد ، وابن السعدون ، واستغووا كذلك عشيرة من عشائره الكبرى هي مطير ، ناهيك بالعجمان في الحساء وبحرب في اطراف الحجاز .

١٣٣١ هـ
١٩١٣ م

اجل قد بلغت العداوات في بدء هذا العام اشدها ، فسارع عبد العزيز الى تحقيق ما كان يبغيه . خرج في شهر ربيع الاول من الرياض ورحلته الحساء ، فنزل على ماء الخفس حتى آخر الشهر ، واغار اثناء ذلك على عربان من بني مرة مذنبين فأخذ مواشيهم. على ان الغرض من هذه الاغارة لم يكن محصوراً بظاهره .

تقدم بعد ذلك الى الحساء، فارسل الاتراك يستطلعون خبره وقصده ، فقال : « انما قصدي الامتيار » (شراء الامتعة والزاد) والحقيقة هي انه ابتاع ما كان في حاجة اليه للجنود ، وعاد الى الرياض تاركاً عسكره في الخفس .

وفي ذاك الحين وصل الى عاصمة نجد ، قادماً من الشام بطريق الجوف ، رجل انكليزي اسمه ليتشمن [١] فسأله ابن سعود : « وما

---

(١) هو Col. Gerard Leachman الذي عُين بعدئذ مستشاراً في حكومة العراق وقد كان الكولونيل ليجمن من عيشة اهل السواد في العراق اي انه كان يتقن لغة البدو ويلبس لبسهم ويركب مركبهم ويجلس جلساتهم ويفتح مضيفاً مثلهم يعالج شؤنهم كواحد منهم ويقضي ويفصل بشرعهم وقضائهم ولكنه كان عصبياً سريع الغضب وقصاري الامر لما اشتعلت نيران الثورة كان حاكماً سياسياً في لواء الدليم وقد دعى اليه مرة الشيخ ضاري شيخ قبائل الزوبع الضاربة في نواحي الفلوجة الرمادي

القصد من سياحتك ؟ » فاجاب قائلًا: « اني جغرافي واريد ان تساعدني لاجتاز الربع الخالي من واحة جبرين الى عمان » .

عبد العزيز : « ان قدومك الينا على هذا الوجه خطأ ، فلا علم لنا به ولا معك توصية من الحكومة البريطانية » .

ليتشمن : « اني رجل انكليزي طالب علم ، وانتم مشهورون باكرامكم الانكليز خصوصاً العلماء منهم » .

لم يتأكد عبد العزيز حقيقة ما ادعاه الرجل ، بل ظن انه يتجسس للترك . وبما انه كان قد اعتزم الهجوم على الحساء ، وكان قد خامر الترك بعض الريب في امره ، رأى ان يستخدم هذا الجغرافي لازالة ذلك الريب فيطمئن من الخصم البال ، ويسير هو مطمئناً الى غرضه .

لذلك قال : « لا يستطيع ان يجيب طلبك غير الترك في الحساء ، فارى ان تذهب الى المتصرف هنالك . وانا اكتب اليه بخصوصك » .

ومما قاله في كتابه : « ان هذا الرجل مجهول لدينا ، وهو واصل اليكم فلكم في ما يبغي الرأي الموفق ان شاء الله » .

رحل ليتشمن ، وبعد قليل شد ابن سعود راجعاً الى معسكره في الخفس . فكان اول ما باشره ان سعى في ابعاد العجمان لانهم ذوو مطامع سياسية في الحساء وقد لا يوافقون على احتلالها . وبما انهم وعرب مطير «قوم» اعداء سيرهم الى الشمال لمحاربتهم لانهم انضموا الى عجيمي السعدون .

ولواء الدليم وجرى بينهما الحديث فذهبا فيه المذاهب المختلفة وكان ابن الشيخ ضاري المذكور قائماً بين يدي ابيه . وقد ادى بهما الحديث الى ان يهدد الكولونيل ليجمن الشيخ ضاري تهديداً شديداً من اجل الثورة ولقد حمي وطيس المقال بينهما فادى بالكولونيل لان يضع يده على مسدسه مهدداً متوعداً ولكن ما كادت تصل يد الكولونيل الى مقبض المسدس حتى كان رصاص ابن الشيخ الهب دماغه فخر صريعاً الى الارض وهوى. وكان ذلك في ١٢ اغسطوس سنة ١٩٢٠

ثم زحف الى الحساء فالتقى في الطريق بنجاب من حكومتها يحمل كتاباً اليه من المتصرف وفيه الرجاء ان يعلمه من اية الجهات جاء الانكليزي الى الرياض. فقال ابن سعود للنجاب: وغداً ان شاء الله انا بنفسي اعلم المتصرف».

ذكرت اهم الاسباب التي حملت ابن سعود على فتح الحساء. وهنالك سبب آخر لا يقل اهمية عما تقدم منها، فقد عجل في الاقل بنتيجتها. كان جمال باشا — جمال المشانق السورية بعينه — يومئذ والياً في بغداد وكان يجامل ابن سعود ويتظاهر بصداقته، فوعده بالسعي في حسم الخلاف بينه وبين الشريف حسين، وسأله ان يرسل مندوبا الى بغداد للمذاكرة في هذا الامر.

ارسل ابن سعود رجلاً من رجاله العصريين هو احمد بن ثنيان [1]. ولكن جو السياسة العربية تغير اثناء ذلك، فسطع فيه نور ابن الرشيد وكان النور شبيهاً بوهج الاصفر الرنان. جُذب الجمال الى ابن الرشيد، وعندما وصل ابن ثنيان الى بغداد وجده غير جميل، وسمع كلاما لا جمال فيه ولا حكمة.

«ابن سعود لا يعرف مقامه، وقد غره ان صفح عنه المشير فيضي باشا. فاذا كان لا يقبل بما تطلبه الحكومة، فان في امكاني ان اخترق بلاد نجد من الشمال الى الجنوب بطابورين — بطابورين لا غير».

عاد احمد يحمل هذا الكلام الى عبد العزيز، فكتب عندما استمعه كتاباً الى جمال ارسله بواسطة وكيله في البصرة عبد اللطيف باشا المنديل، وفيه هذه الكلمة:

«قلتم انكم تستطيعون بطابورين ان تخترقوا بلاد نجد من الشمال الى الجنوب. ونحن نقول ان سنقصر لكم الطريق، وذلك قريب ان شاء الله»

---

(١) توفي في الرياض سنة ١٩٢٣

ثم كتب الى عبد اللطيف المنديل : — « اذا سألك الترك هل أنت مندوب ابن سعود فقل لهم : اني عثماني » . وقد اشار بذلك خشية ان يلحق به ضرر بعد الهجوم على الحساء .

ولكن عبد اللطيف باشا لم يعمل باشارة موكله ، فلم ينكر انه نجدي او وكيل ابن سعود . وقد قال للاتراك : « قد جهلتم قدر هذا الرجل ، وها هو الان يعرفكم بنفسه » .

وصل ابن سعود الى اطراف الحساء ، ولم يكن فيها معاونون غير وكلائه ابناء القصيبي ويوسف بن سويلم . فسألهم ان يعلموه بالمكان المناسب للهجوم على الكوت[1] ففعلوا ، واعلموه بما هناك من الصعوبات ، لعلو السور ، ووجود الحرس فارسل اليهم يقول : « اننا هاجمون في هذه الليلة ، وكل صعب مسهّل بحول الله »

كان عبد العزيز قد نزل على عين من عيون الاحساء تبعد ميلًا واحداً من الهفوف . وفي الساعة الثالثة ليلًا (١٠ افرنجية) في ٥ جمادى الاولى من هذا العام ١٣ نيسان ١٩١٣) خرج من المعسكر بتسعمئة من رجاله وخطب فيهم قائلًا :

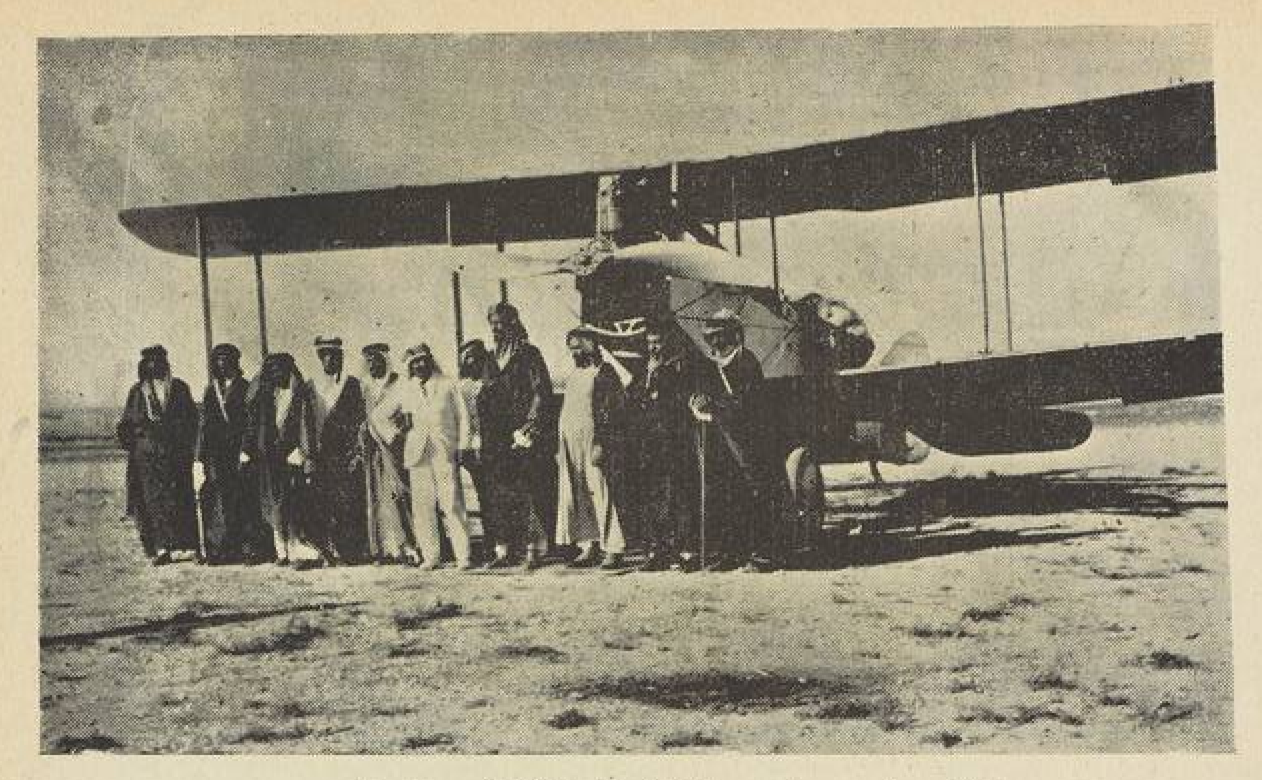
«اننا هاجمون على الترك في الكوت ، واننا منتصرون باذن الله . امشوا كانكم بكم الى غرضكم ، ولا تضجوا . اذا كلمكم احد فلا تجيبوه . حتى وان ضربتم بالبنادق ونحن في الطريق ، فلا تضربوا . اما وقد صرتم في الكوت فحاربوا من حاربكم ووالوا من والاكم . ولكن البيوت لا تدخلوها ، والنساء لا تدنوا منهن » .

قال ذلك ومشى امامهم . ساروا على الاقدام ، وهم يحملون جذوع النخل والحبال ، فلما وصلوا الى السور قسمهم ثلاث فرق فقال للفرقة الاولى : « انتم تسيرون الى الباب الجنوبي فتقبضون على الحرس

(١) الكوت جهة من الهفوف فيها القلعة والحامية .



احد جنود ابن سعود على باب قصر الامير عبدالله بن جلوي
في الهفوف ــ الاحساء سنة ١٩٢٦



الملك عبد العزيز والى يمينه الريحاني امام الطائرة في جدة سنة ١٩٢٨



اسطبل الملك عبد العزيز في الرياض سنة ١٩٢٢



الشارع الرئيسي في جدة



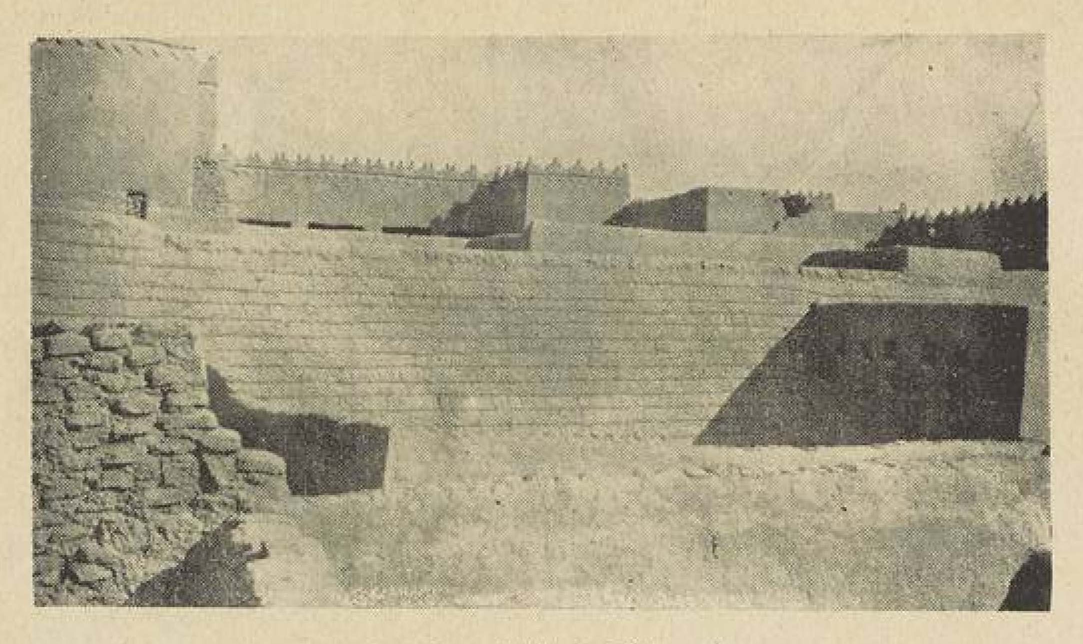
الملك حسين والبلاد العربية
صورة رمزية نُشرت في أوج العهد الهاشمي في الحجاز



الامير فيصل بن عبد العزيز سعود



عند انتهاء مؤتمر العقير ، ويرى السر برسي كوكس المندوب السامي البريطاني وعلى رأسه قبعة بيضاء من الفلين وفي المقدمة الملك عبد العزيز على حصانه يرافقه الى الشاطىء لوداعه



القصر الملكي في الرياض سنة ١٩٢٢

وتستولون على الباب وما يليه » . وللفرقة الثانية : « وانتم تسيرون الى السرايا علّ المتصرف فيها فتأسروه » . وللفرقة الثالثة : « وانتم تتفرقون في ابراج السرر . هذي هي اوامري فاعملوا بها ، ولا تتعدوها » .

باشر اناس حزم الجذوع بالحبال ، فصنعوا منها سلماً تسلقه عشرة من ذوي الشجاعة والاقدام . ثم رموا بالحبال الى العساكر فصعدوا ساكتين ونزلوا الى الكويت متسللين ، والحرس يسألون : من انتم ؟ فلا يجيبهم احد .

وكانت كل فرقة عند اكتمالها داخل السور تسير الى الجهة المعينه لها . ولكن هذا العمل لم يتم دون ان يحدث ضجة في الحصون وفي المدينة . وافاقت العساكر والاهالي من النوم ، فاستولى عليهم الخوف والذعر وهم لايدرون مَن الهاجمون . وعلت الاصوات ، وأطلقت البنادق ، فامر اذ ذاك عبد العزيز احد رجاله ان يصعد الى السور ويعدو عليه منادياً : الملك لله ثم لابن سعود ، من اراد العافية يلزم مكانه » .

نادى المنادي بذلك فاستبشر الناس ، وكان يهتف كبارهم وصغارهم : اهلاً وسهلاً ! سمعاً وطاعة ! بل جاؤوا بالمياه الى العساكر كانهم اخوانه وقد عادوا من سفر .

اما عبد العزيز فكان لا يزال خارج السور ، فاراد ان يتسلقه ، فابى عليه ذلك من تبقى معه من الجنود ، فهدموا جانباً منه ، فدخل ودخلوا معه . وكان الحرس قد لجأوا الى القلعة ، واهل الكوت ، بعد ان سمعوا صوت المنادي ، قد خرجوا من بيوتهم ، فجاؤوا يرحبون بابن سعود ويعاهدونه على الطاعة والولاء .

ثم جاء عندما اصبح الصباح من تبقى من الاهالي — جاؤوا يبايعون مثل من تقدمهم — فاكرم محسنهم وعفا عن مسيئهم .

كل ذلك والاتراك تلك الليلة في حصونهم قابعون . وقد كان لهم

اربعة في الهفوف وخارجها ، اثنـــان داخل الكوت ، وحصن الى الجنوب ، وآخر الى الشمال في المبرز . فعندمـــا ابلج الفجر شرعوا يطلقون البنادق والمدافع من تلك الحصون طلقات افصحت عن الذعر الذي كان مستولياً عليهم . فلا اضروا باحد ، ولا روّعوا احداً .

وعند الظهر جاء جندي من جنود ابن سعود باسير من الترك وهو ضابط طاعن في السن ، فارسله عبد العزيز رسولاً الى المتصرف والى قائد الحامية .

— « قل لهم يسلموا اذا كانوا يبغون العافية ، ونحن نؤمنهم ونرحّلهم الى بلادهم . اما اذا ابوا فليستعدوا للقتال سنهاجمهم في مراكزهم ساعة هاجمنا البلد الليلة البارحة » .

قبل المتصرف والقائد الامان ، ثم سلمت الحامية التي كان عددها الفاً ومئتي جندي ، فاذن عبد العزيز حتى بسلاحهم قائلاً : « لا ننزع من الجندي العثماني سلاحه » . اما المدافع والذخائر فظلت مكانها في الحصون.

ثم جهّزهم بالركائب ، ورحّلهم وعائلاتهم . الف ومئتـــا جندي بعيالهم وامتعتهم ساروا من الهفوف الى العقير وليس معهم من يخفرهم ويؤمّن طريقهم غير رجل واحد من رجال ابن سعود هو احمد بن ثنيان مندوبه السابق الى جمال باشا . وعندما وصلوا الى العقير جهزهم احمد بسفن الى البحرين .

بعد احتلال الهفوف ارسل عبد العزيز سرية الى القطيف بقيادة عبد الرحمن بن سويلم ، فلما وصل الى تلك الناحية بادر اهلها الى التسليم . ولم يكن للترك في القطيف غير شرذمة من الجنود ، ففروا في السفن هاربين .

اما العساكر الذين كانوا في الحساء فعند وصولهم الى البحرين وجدوا من يزين لهم الرجوع الى العقير ، ويشجعهم عليه ، علهم يسترجعون القصر[1]

(١) القصر مقر الامير هو غالباً الحصن . او الحصن هو غالباً في القصر .

هنالك وقد ظفر فريق منهم بمركب لآل بسام كان يحمل تمراً فركبوا فيه وعادوا الى العقير ، فهجموا ليلاً على القصر ، فردتهم الحامية خائبين . ثم هجموا على مركزين آخرين ، كان في الواحد منهما ثلاثون رجلا فهزمهم الاتراك واحتلوا مراكزهم .

بلغ الخبر عبد العزيز وهو في الهفوف ، فشد الرحال وسارع الى العقير ، فوصلها في الساعة الثانية من الليل . ولكنه كان قد سيَّر كوكبة من الخيل ، فوجدت عند وصولها ان السرية التي كانت في القصر قد هجمت على الترك في المركز الذي احتلوه فهزمتهم وأسرت منهم ثلاثين .

اخلى عبد العزيز سبيل هؤلاء في اليوم التالي واركبهم البحر .

ثم كتب الى الشيخ عيسى آل خليفة امير البحرين والى الوكيل السياسي لبريطانية العظمى هنالك يلومهم على ما بدا منهم فقال : « ايليق بكم تحريض العدو علينا ونحن اصدقاؤكم . فاذا كنتم لا تتلافون مثل هذه الاعمال وتمنعونها فالتبعة في ما قد يعقبها هي عليكم » .

جاءه الجواب دون ابطاء ، وفيه ان العساكر ركبوا السفن من البحرين قاصدين البصرة ، وقد رجعوا الى العقير دون علم من الحكومة او الوكالة .

اما الحقيقة فهي ان آل خليفة والوكيل الانكليزي خشوا ان يتقدم ابن سعود الى داخل الخليج في فتوحاته ، فاقدموا على عمل كان التسرع فيه اظهر من العداء .

الفصل العشرون

المفاوضون يتسابقون والشيخ مبارك يتعثر

ان على الخليج الى الشرق والجنوب من البحرين رأساً من الارض محاذياً لشاطىء العقير هو قطَر ، كان صاحبه الشيخ قاسم بن ثاني ، شيخ الامراء يومئذٍ سناً وجاهاً ، قد احترب والترك مراراً وحاول عبثاً ان يخرجهم من الحساء . فعندما فاز ابن سعود بذلك عراه ولا غرو هزات شتى ، منها الخوف على امارته ، وقد اصبح الفاتح جاره الادنى ، فكتب اليه في شوال (ايلول) من هذا العام كتاباً شديد اللهجة يحذره ويهدده. وما كان منه غير ذا التهديد . فقد حاصره بعد اسبوع عدو الحياة الدنيا الحصارَ الاخير ، فسلّم الشيخ قاسم صاغراً ، وكان من الظافرين بالرحمة الابدية . اما خلفه فقد كان حكيماً فوالى ابن سعود .

١٣٣١ﻫ
١٩١٣م

وكان عبدالعزيز قد توجه الى القطيف ينظم شؤونه . فأمّر هناك عبد الرحمن بن سويلم وامّر في الحساء عبدالله بن جلوي ، رجلين من كبار رجاله ، يحكمان في تينك الناحيتين .

ثم عاد في خريف هذا العام الى الرياض وقدم من البصرة عبداللطيف باشا المنديل منتدباً من الحكومة العثمانية للتوسط بالصلح بينها وبين فاتح الحساء ، فقبل عبدالعزيز التوسط ، واجل النظر في المسألة الى الربيع .

وكان الانكليز قد بدأوا يفاوضونه ايضاً ، ويطلبون منه ان يأذن بالاجتماع ، فرجع الى الحساء في ذي الحجة ، واجتمع في العقير بالوكيل السياسي للبحرين ومعه رجل آخر اسمه شيكسبير ، سنعود الى ذكره . اما اجتماع العقير هذا فلم يسفر عن شيء للتاريخ ، الا انه مهد السبيل

الى مقاومة النفوذ الالماني في تركية بعد ان تلاشى فيها النفوذ الانكليزي، ذلك النفوذ الذي كان في المقام الاول منذ حرب القرم. فخشيت انكلترة على طريق الهند، فعندما علا نجم ابن سعود، وظهرت شوكته، طفقت تخطب وده وتسعى في عقد اتفاق واياه ليكون لها عضداً على الخليج، فيقف سداً منيعاً دون ذاك النفوذ الالماني الذي كان قد خيّم في العراق.

وعاد عبدالعزيز الى الرياض فبلغه خبر دسيسة في القطيف فارسل سرية اليها، ثم سار بنفسه الى تلك الناحية، فنزل في الجبيل. وقد جاءه وهو هناك كتاب من الشيخ مبارك الصباح يخبره ان احد كبار الترك قدم الكويت، ومعه هدية من انور باشا لابن سعود واجازة للتوسط في الصلح.

١٣٣٢ هـ
١٩١٣و١٤م

ثم جاء عبداللطيف المنديل ليخبر عبد العزيز ان قد تألف للمفاوضات وفدٌ يرئسه السيد طالب النقيب وفيه ياور من ياورية السلطان. وتعدد الخاطبون فاضطرب «الوالد» مبارك، فكتب الى «ولده» يطلب ان يكون الاجتماع في ظله بالكويت ليكلأه بنظره، ويمده بارشاده — «من حقي عليك يا ولدي ألا تقبل وساطة هؤلاء الا في بلدك الكويت».

ولكن «الولد» كان قد شبع من كلاءة «الوالد» وارشاده. ومع ذلك فقد اجاب بعض طلبه فسار الى جهة الكويت ونزل الصبيحية، على مسير يوم من العاصمة. كتب «الوالد» ثانيةً يلح بالقدوم اليه، فاجابه عبدالعزيز: «اني الآن قريب من الكويت فليتقدموا الي».

وبينا هو في الصبيحيّة كتب اليه الوكيل السياسي لبريطانية العظمى في الكويت يستأذن بالمقابلة، فضرب له موعداً في ملَح، واجتمع به هنالك. وجاء الوكيل في السيارة وجاء سائقها بكتاب من مبارك يقول: «كن صلباً معه يا ولدي (اي مع الوكيل) فلا تمكنه من شيء ولا تعطه الجواب الشافي».

لم يرَ « الولد » بأساً في مجاملة « والده » هذه المرة لانه لم يكن قد قرر خطته السياسية تجاه الترك والانكليز ، فقال للوكيل : « لا يمكن ان نقرر شيئاً اليوم . ولكن والدي مبارك الصباح ينوب عني » .

عاد الوكيل غضباً الى الكويت ، وركب ابن سعود ضاحكاً فعاد الى معسكره في الصبيحية .

وفي اليوم التالي وصل وفد السيد طالب ، ووصل نجاب يحمل كتاباً من « الوالد » — من مبارك الحانق الحاقد ، اللائم الشاتم . وقد كان ناقماً على الوفد لانه لم يُنتَخب لرئاسته ، فكتب الى عبد العزيز يحذره من « هؤلاء الكذابين المكارين الخداعين . كن صلباً معهم يا ولدي ، ولا تمكنهم من شيء ، ولا تصدق ما يقولون . انهم كذابون خداعون » .

كان الشيخ جابر بن مبارك يومئذ عند ابن سعود فاطلعه على كتاب ابيه وقال : « تراه يحذرني من الانكليز ، ويحذرني من الاتراك . وهل في امكاني ان احارب الاثنين ؟ . فاجاب جابر : « انظر الى ما فيه مصلحتك واترك الناس » .

عقدت جلسة المؤتمر الاولى وكان الشيخ جابر وآخرون من رجال مبارك حاضرين ، فرمى عبدالعزيز قنبلة من قنابله السياسية ، زعزعت المؤتمر وكادت تبدد شمله . فقال يخاطب رجال الوفد: « الاتراك كذابون خداعون، وانا لا اركن اليهم في المفاوضات . فاذا كنتم تبغون مصالحتي فدونكم والدي مبارك. فهو الواسطة بيني وبينكم، ولست قابلاً بغير ذلك».

عُقدت هذه الجلسة في الصباح ، فتبعتها جلسة اخرى في ذاك اليوم بعد العشاء . ولكن الفترة بين الجلستين كافية لتثير بركاناً من الغضب خصوصاً في رئيس الوفد السيد طالب ، ومزاجه مزيج من البارود والكبريت . اظنه نام القيلولة ذاك اليوم ثم صلى المغرب استعاذة وصبراً .

ثم ضحك ضحكة طالما أضحكه بعدئذ ذكرُها .

كانت جلسة المساء خصوصية فلم يحضرها غير رجال الوفد . وقد اطلعهم عبدالعزيز قبل افتتاح الجلسة على كتاب الشيخ مبارك ، فكانت الضحكة وكان العجب . ثم باشروا المفاوضات الولائية . طلب الوفد ان يكون للدولة معتمدون في القطيف وفي الحساء فأبى ابن سعود وطلب أن تكون العلاقات ولائية فقط ، وان تساعده الدولة لقاء هذا الولاء بالاسلحة والذخيرة والمال . بعد اللتيا والتي قبل الوفد بذلك وقرروا ان يظل هذا الاتفاق سراً الى ان يقره الباب العالي .

عاد رجال الوفد الى الكويت فاحسن الشيخ مبارك استقبالهم . وعندما سألهم عما جرى اخبروه بما قاله ابن سعود في الجلسة الاولى، فقال: « نصحتكم فما انتصحتم . قلت لكم ان الرجل سفيه عيار[1] ولا يملك قياده احدٌ غيري » .

وبعد يومين ادب عبدالوهاب آل قرطاس في البصرة مأدبة للوفد حضرها الوالي شفيق كمالي باشا ، والشيخ خزعل، والشيخ مبارك . وكان الحديث في الوفد وابن سعود .

وقال الشيخ مبارك يخاطب الوالي : « ألم اقل لكم انكم لا تفلحون الا اذا انتدبتموني انا للتوسط بينكم وبين ابن سعود ؟ وما طلبت ذلك منكم والله الا لامرين . اولاً لكي اقوم بخدمة للحكومة العثمانية . وثانياً لكي استر على ابن سعود لأن السفيه لا يعقل ما يقول » .

فاجاب الوالي : « رأيك هو الصواب ، ولكن الامر انفرط » .

ثم قال مخاطباً رئيس الوفد : « وما قولك انت يا طالب » ؟

السيد طالب : « اقول ما قاله الشيخ مبارك . فلو كان حضرته معنا

(١) السفيه الجاهل . والعيار من يركب هواه ولا يزجر نفسه واللفظتان شائعتان في البلاد العربية بمناهما الفصيح .

لما فشلنا » .

وحان بعد اسبوع حين الضحكة الاخرى التي ذبحت الشيخ ، اذ جاء من الباب العالي الى والي البصرة برقية فيها التصديق على ما تقرر في مؤتمر الصبيحية[1] مقروناً بالشكر لابن سعود ، وبالوسام العثماني الاول .

حمل السيد طالب تلك البرقية وسارع الى الشيخ مبارك الذي كان يومئذٍ في الفيلية ، فقال بعد السلام : « ابشر يا شيخ ابشر . قد اتفق ولدك مع الحكومة » .

مبارك مدهوشاً : « ومتى كان هذا » .

طالب متهاتفاً : « الامر قضي بليلة » .

مبارك متغيظاً : « كلها من مساعيك يا خبيث » .

طالب في لهجته السابقة : « تعلم الولد الخباثة من ابيه » .

مبارك وقد اشتعلت النقمة في عينيه : « سلط الله عليك يا خبيث ! اليك عني » .

ضحك السيد طالب وهو يعيد قراءة البرقية .

وبعد ذلك ارسل مبارك رسوله عبدالعزيز آل حسن الى ابن سعود يهنئه ويلومه لانه لم يخبره بالاتفاق ، فكتب عبدالعزيز اليه يقول :

« اني ابنك وقد اهنت نفسي في القدوم من الجبيل الى الكويت . وما ذلك الا حباً بك وعملاً بارادتك. ولكن كيف استطيع ان ارضي والدي وهو يأمرني بأن لا اتفق والانكليز ، وان لا اتفق والترك. فاذا بيّن لي حضرة والدي الطريق الثالث أسلكه راضياً شاكراً، ولكني اسأل والدي الآن كيف استحسن ذاك الكلام في ولده على مائدة ابن قرطاس».

فكتب مبارك معتذراً على عادته فقال : « لا تصدق يا وُلدي اكاذيب اللعين طالب ،واكد يا وُلدي اني اريد ان اتظاهر امام الاتراك بالبعد عنك والجفاء لادرك لك الغاية التي تنشدها » .

فاجابه عبدالعزيز : « والحمد لله ان الامور كانت على ما يرام ، فليهنأ الوالد بعز ولده والسلام » .

---

(١) قد حالت الحرب العظمى دون تنفيذ هذا الاتفاق .

الفصل الحادي والعشرون

هادمة العهود ومفرقة الوفود

هي الحرب العظمى ! ومع ان الذي هدمته في البلاد العربية لم يكن غير اليسير في بادية الاطلال فلا بد ، ونحن نكتب تاريخاً عربياً ، من ان نقف عنده وقوف الاثري فنكشف النقاب من اجل التـــاريخ عن شيء من ادفانه .

جاءت الوفود وراحت الى الحساء والكويت ، فتفاوض المتفاوضون ، وتنافس الخاطبون ود ابن سعود . على انه لم يتجسم من النتـــائج ما يستحق الاسم والتسجيل غير ذاك الاتفاق الذي تم في الصبيحية واقره الباب العالي .

والغريب العجيب من امر ذاك الباب العالي هو ان يمينه ـــ اذا اذن البيانيون بالاستعارة ـــ لم تعلم بما كانت تعمل يسراه . او ان رجاله في العراق كانوا في واد ، ورجاله في الحجاز في آخر ، بل كان الفريقان في عزلتين ، عزلة تبعد الزملاء بعضهم عن بعض ، وعزلة تبعدهم كلهم عن النور الاعلى ، نور ذاك الباب المشهور . فتعددت الوفود ، في باب ابن سعود ، وعُقدت عهود ناسخة لعهود . ولكن الحرب العظمى ، لحسن حظ الدولة العليا ، هدمت الناسخ والمنسوخ ، ومحت بطلقة نار ، كلام الليل وكلام النهار .

وها كم الحوادث شهوداً . قبل ان يجتمع وفد السيد طالب النقيب بابن سعود في الصبيحية اجتمع سعود بن الرشيد بوالي البصرة شفيق كمالي باشا قرب الزبير وتم الاتفاق بينهما على ان تساعد الدولة في محاربة ابن سعود . وقد قدمت لابن الرشيد عشرة آلاف بندقية ، وكثيراً من

الدخائر ، وشيئاً من المال .

لم يعلم ابن سعود بهذا الاتفاق الا بعد رجوعه الى الرياض ، فكتب الى ابن الرشيد يذكره بعهد الصلح الذي بينهما ، ويعيب عليه اتفاقه والاتراك . فاجاب ابن الرشيد : « اني من رجال الدولة ، ومصالحتي اياك لا تكون الا ان رضيت الدولة بها » فعد عبد العزيز ذلك خيانة منه وكتب اليه يقول : « اذا كنت مصراً على نكث العهد فالمقاومة اولى » .

وما خطر في باله عندما كتب هذه الكلمة ان اوربه كانت يومئذ ترددها وقد قامت الدول هناك بعضها على بعض بالسلاح .

شبت الحرب العظمى ، فسارع عبد العزيز ، عندما اتصل به خبرها ، الى مراسلة امراء العرب – الشريف حسين ، وابن الرشيد ، وابن الصباح – في الموضوع ، فارسل النجابة يحملون كتاباً منه هذا فحواه :

قد علمتم ولا شك بوقوع الحرب ، فارى ان نجتمع للمذاكرة علنا نتفق فننقذ العرب من اهوالها ، ونتحالف ودولة من الدول لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا .

بعد ان بعث الرسل بهذا الكتاب جاء السيد طالب من قبل الاتراك ثانية – جاء يسترضي ابن سعود ، فاجتمع به في القصيم .

ولكن الانكليز كانوا اثناء ذلك قد احتلوا البصرة ، فجاء الملازم شكسبير الذي كان قد اجتمع بابن سعود سابقاً في العقير ، يحمل في حقيبته تفويضات لا قيد يقيدها غير المصلحة البريطانية واقترانها بمصلحة نجد .

ثم قدم من المدينة وفد عثماني آخر يحمل الى ابن سعود عشرة الاف ليرة ويتزلف منه بواسطة صديقه محمود شكري الالوسي احد اعضاء الوفد.

ثم خرج من الحجاز الامير عبدالله ابن الشريف حسين موفداً من

والده للنظر في المسألة التي كتب عبد العزيز بخصوصها ، فاجتمع على الحدود بمندوب ابن سعود وافترق الاثنان كما اجتمعا دون ان يقررا شيئاً . والحقيقة ان الشريف كان يتحين الفرص للهجوم على ابن سعود تنفيذاً كما قيل لتلك المعاهدة التي وصفها الامير خالد بن لوءي في قوله : « اكتب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرك » .

اما ابن الرشيد فقد جاوب بصراحة يقول : « اني من رجال الدولة، فاحارب اذا حاربت واصالح اذا صالحت » .

وكتب الشيخ مبارك يعلم «ولده» بان اللورد هاردنغ (Lord Harding) حاكم الهند قادم الى البصرة ، — « ومن رأيي يا ولدي ان تقدم انت الينا للمفاوضة » .

وذهبت الدعوة للتفاهم ادراج الرياح ، فعاد ابن سعود الى الوفود يعمل بما قضت المصلحة والاحوال ، فرد وفد الآلوسي رداً حسناً . وقد قال للسيد محمود : « انها كما ترى . فلا يمكنني مقاومة الانكليز بعد احتلالهم البصرة » .

وكان السيد طالب النقيب ، بعد ذلك الاحتلال ، يخشى الرجوع الى بلده فتوسط عبد العزيز من اجله ، فاذن الانكليز . وقد عاد كما عاد الالوسي خائب الامل . اما الضابط الانكليزي شيكسبير فبقي في البلاد العربية ، وبقي فيها ، كما سنفصح في الفصل التالي الى الابد !

الفصل الثاني والعشرون

يوم جراب

حُسر اللثام عن مقاصد الاخصام ، فأَمدَّ الترك ابن الرشيد ، وأَمدَّ الانكليز ابن سعود . بل عُدَّ الاول ، وقد تحالف الترك والالمان ، مع الدول الوسطى ، وعُـــدَّ الثاني مع الاحلاف . هي الحقيقة السياسية ، وقد كانت ذات قيمة في تلك الايام .

اما الحقيقة التاريخية فهي ان ابن سعود اقام في البدء على الحياد ، فلم يحارب الحسين كما اراد الترك ، ولم يشترك في محاربة الترك بالعراق كما اراد الانكليز ، ولا منع رُسل الدولة من المرور بنجد وهم حاملون المال الى اخوانهم الاتراك في اليمن . هي الحقيقة كلها ، فلم يكن ليهمه يومئذ غير امير الجبل الذي نكث عهد الصلح واستعان بالدولة العثمانية على امير نجد .

وقد تأهب الاثنان في وقت قصير للحرب ، فلم يتجاوز جيش كل منهما الثلاثة الاف مقاتل . كان مع ابن سعود نحو الف من الحضر ، اكثرهم من اهل العارض الاشداء البسلاء ، وثلاثمئة خيال من العجمان ، ما عدا البادية ، ومدفع واحد لا غير . وكان مع ابن الرشيد ستمئة من الحضر والف فارس من فرسان شمّر . وقـــد رافق جيش ابن سعود الضابط الانكليزي شيكسبير[1] الذي اشرت اليه في الفصل السابق .

لم يكن عبد العزيز ليستحسن ذلك ، وقد قال له : « ليس من رأيي ان تمشي معنا ، واني افضل ان تنتظرنا في الزلفى ، فنعود ان شاء الله اليك » .

---

(١) Capt. W. H.C. Shakespeare

فاجاب شيكسبير : « لا يجوز ان يقال ان رجلاً انكليزياً قرب من ساحة القتال بين ابن سعود وابن الرشيد ورجع جبانة وخوفاً » .

الح عبد العزيز في النصيحة ، فألح شيكسبير في الاستئذان ، وركب مع الجيش الى ساحة القتال – الى جراب .

قد كان هذا الضابط الشاب انكليزياً قحاً ، شديد التمسك بعادات اجداده وتقاليد امته في اي مكان كان . فلم يتنازل في البلاد العربية عن شيء منها . هو الرحالة الانكليزي الوحيد ، على ما اظن ، الذي ابى ان يبدل برنيطته مثلاً بالكوفية والعقال ، ولا جامل العرب في داخل البلاد بغير العباءة التي كانت تستر ثيابه الافرنجية .

ولكن البرنيطة ! – ركب في جيش ابن سعود وهو لابسها وحامل بين امتعته آلة التصوير .

شكسبير في جيش الاخوان ! وقد سمعهم يعتزون وينتخون .

اهل التوحيد ! اهل التوحيد !

اهل العوجا ! اهل العوجا ! (١)

وكانت شمّر قد اخرجت عماريّاتها (٢) الابكار الحسان ، يشجعن الرجال ، وهم يرددون نخوة شمّر المشهورة :

سناعيس ! سناعيس ! (٣)

---

(١) العوجا اسم من اسماء العارض . والاعتزاء يكون في ترداد اسماء الاباء والاجداد او اسم القبيلة او البلد او ما يرمز الى مفخرة .

(٢) من عادات العرب التي ابطلها ابن سعود ان كل قبيلة تنتخب في الحرب بنتاً من بناتها الابكار تسمى العمارية فتركب في الهودج ، او تقف فيه ، سافرة مرخية الشعر . وتتقدم قومها الى ساحة الوغى منتخية منخية .

(٣) سناعيس جمع سنعوس هي النخوة العمومية ، تعم البدو والحضر ، وهناك نخوات اخرى خاصة باهل حائل منها : اهل لبده . واهل ملحان . واهل السودان . والسود كثيرون في حائل . والملحان يدعون بصبيان الخزنة لانهم كانوا من خاصة آل الرشيد .

سار الجيشان في فيافي القصيم يطلب الواحد الاخر ، وكان سيرهما في صباح اليوم السابع من ربيع الاول من هذا العام (٢٤ يناير) في شمس كانون المدفئة المنشطة ، فاصطدمت الاصوات في جراب قرب الظهر قبل ان تصطدم الفرسان .

١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

اهل العوجا ! اهل العوجا !

سناعيس ! سناعيس !

وكان اهل العوجا ، اي اهل التوحيد ، يرددون ايضاً كلمتهم المشهورة :

هبت هبوب الجنة ! اين انت يا باغيها !

فيجبنهم العماريات الشمريات كلٌ بالعزوة او النخوة الخاصة بقبيلتها .
تصادمت الابطال وتقارعت ، في ظهر ذاك النهار ، وتطـــاردت وتراجعت ، فكانت الغلبة في بادىء الامر لابن سعود .

هبت هبوب الجنة ! اين انت يا باغيها !

وكان رصاص اهل التوحيد يقع امام الشمريات ، الواقفات فوق اسنمة الجمال ، فيصحن بالرجال : الى القتال ! ويهتفن هازجات :

يلّي يتمنى حربنا غويت يا غاوي الدليل
كم واحد من ضربنا دمه على الشلفى يسيل

احتدم القتال ودوت البنادق ، فاصيب شيكسبير برصاصة اودت بحياته .
وكان فرسان العجمان قد تراجعوا خيانة وهم يصيحون صيحة الانهزام ، فاغارت اذ ذاك بادية ابن الرشيد على جناح اهل التوحيد الايسر فدحرته ، وغنمت امواله .

اما بدو ابن سعود ، واكثرهم من مطير ، فقد اغاروا اثناء ذلك على جيش ابن الرشيد ومخيمه ، وكانوا كذلك من الفائزين الغانمين .

هو يوم جراب الذي كان على اهل التوحيد واهل شمر على السواء ، ولم يكن فيه ظافراً غير البدو من الفريقين فقد اغاروا ، فغنموا ، فشردوا .

الفصل الثالث والعشرون

العجمان

من الاغلاط السائرة بين عامة العرب ان العجمان من العجم . وفي بلاد فارس ايضاً ، على شاطيء الخليج الجنوبي، مَن يقولون هذا القول. اما الحقيقة فهي انهم من قبائل اليمن ، من عرب قحطان، وهم ينتسبون الى همَدان[1].

كان العُجمان في الماضي يسكنون نجران . ثم ارتحلوا شرقاً فوصلوا في ايام الامام تركي الى الاحساء ، فاحسن اليهم وانزلهم «ديرة» بني خالد هناك. وعندما تولى فيصل الامارة عاملهم مثل معاملة ابيه لهم، فابطرتهم النعمة واستفحل امرهم ، فصاروا يقطعون الطرق على السابلة والحجاج . هم موصوفون بالمكر والغدر . ولكنهم شديدو الشكيمة وذوو عصبية يندر مثلها في العشائر . عصوا الدولة العثمانية فتركتهم وشأنهم ، وكثيراً ما كان عمالها في الحساء يشاركون رؤساءهم الغنائم . ومع ذلك فقد كان العجماني يسلب جندي الدولة فرسه ويدخل بها الحساء لينعلها .

وعصوا كذلك الشيخ مباركاً الصباح ، فحاربهم ، واسترضاهم ، ولم يتمكن من كبح جماحهم ، ولا من كسب ولائهم . ولكنهم والوا ابن سعود ، ثم حالفوا ابناء عمه العرائف عليه . خانوه وحاربوه، وغلبوه في باديء الامر . ومع انهم اصغر القبائل عدداً ، فــلا يبلغ المقاتلة فيهم اكثر من خمسة آلاف ، فقد تفوقوا عليها كلها ونازعوا حتى بني خالد السيادة . قال الشاعر :

وقد قسموا الاحساء جهلاً بزعمهم | لعجمانهم شطر وللخالدي شطر

---

(١) جدهم مذكر بن يام بن أصا بن رافع بن مالك بن جشم بن خيوان بن همدان

المان العرب ! هم يدعون بهذا الاسم لشدة عصبيتهم وبأسهم وتفانيهم بعضهم في سبيل بعض . اذا سُئل الواحد منهم : اتقبل الخير من الله بروحك ، يجيب قائلاً : « لا اقبل خيراً لا يكون للعُجمان كافة » .

وقد جاءهم ابن سعود ، عدو البادية وصديق العرب ، بالخير العميم ، فرفضوه مراراً في بادىء امرهم ، بل امتشقوا الحسام عليه كما قلت ، ثم زرعوا ذلك الخير فاثمر في الصَّرَّار قطب ديرتهم الان . ولكنهم قبل ذلك زرعوا المكر والخيانة والعصيان . والتاريخ شاهد عليهم خصوصاً في وقعة جراب وفي الحساء .

وبعد تلك الوقعة التي لم يفز فيها غير البدو من الجيشين عاد ابن سعود الى القصيم ، وابن الرشيد الى جبل شمر . وكان من الاثنين ان ادَّب الواحد منهما عربان الاخر ، فغزا ابن سعود قبائل من شمر وحرب ، وغزا ابن الرشيد قبائل من مطير ، وكان التوفيق حليف الغزوتين .

على ان عبد العزيز لم يقنع بما ناله من البادية ، فراح يطلب خصمه الذي كان قد رحل مع رجال شمر الى العراق ثم عاد منه . لكن العجمان اثناء ذلك اعتدوا على عشائر ابن الصباح فنهبوا مواشيهم ، فكتب الشيخ مبارك الى عبدالعزيز يطلب منه تأديب المذنبين ورد المنهوبات ، فادركه النجاب في شقرا . واليها ايضاً جاء رسول من ابن الرشيد يطلب الصلح فجُددت المعاهدة السابقة . ثم ارسل عبد العزيز ابن عمه ناصراً الى الشيخ مبارك بكتاب هذا فحواه :

ولست يا مبارك بصديق صدوق . قد انالني من العجمان اكثر مما انالك . فصبرت وتحملت . ونحن الان في وقت القيظ . ولا نتمكن من شدته ان نسير بجيش الى ديرة العجمان . والامر الثاني هو اني في ريب من صلح ابن الرشيد ، فاخشى نكث العهد اذا انا غادرت نجداً ودخلت في حرب والعجمان . والامر الثالث نفقات هذه

الحروب وقد تكاثرت عليّ فضاقت في سبيلها الاسباب . والامر الرابع يا حضرة الوالد هو اني اخشى ان يلجأ العجمان بعد الحرب اليك فتنقلب علي كما فعلت يوم سعدون والظفير . ومن رأيي في كل حال ان نؤجل المسألة الى فصل الصيف .

فكتب مبارك الى «ولده» ان الامر لا يؤجل، واصر على استرجاع المنهوبات ، فاجابه عبد العزيز ان العجمان لا يرجعون ما ينهبون الا مكرهين – الا بحرب – خصوصاً وانه ، اي مبارك ، مسلفهم الاساءة. ثم قال :

« فاذا عزمت على محاربتهم تعطيني عهد الله وميثاقه ان تعينني بالمال والرجال. وان لا تسلك في سياستك معهم مسلكاً غير مسلكي، ولا تستقبلهم اذا لجأوا اليك ، ولا تتوسط بالصلح بيني وبينهم».

عاهده الشيخ مبارك على ذلك – عهد الله ! فمشى عبدالعزيز الى الحساء بفرقة صغيرة من الحضر والبدو في صيف هذا العام ، وكان العجمان ، عندما علموا بقدومه قد رحلوا تجاه قطر . فحشد جيشاً من اهل الحساء وزحف جنوباً متقفياً اثرهم .

١٣٣٣هـ
١٩١٥م

قد كان الحر شديداً فلا يستطاع المشي ناهيك بالقتال نهاراً . ولم يكن لديهم رواحل ، فاسروا ماشين فوصلوا الى مكان يسمى كنزان كان العدو معسكراً فيه. وكانت اشجار النخل في الليل تبدو كانها بيوت من الشعر ، فشرعوا يطلقون عليها الرصاص . سكت العجمان وراء ذاك النخيل حتى اسرف اهل الحساء ذخيرتهم على الاشجار . ثم خرجوا من مكامنهم ، فلفوا بهم وهاجموهم من وراء، فتلاحموا واستمروا طيلة ذاك الليل في عراك كانت العماوة فيه شجاعة ، وكانت الفوضى اخت الهول وسيدة الظلام .

جُرح عبدالعزيز في تلك الليلة ، وَقتِلَ اخوه سعد ،ودارت الدائرة

على رجاله ، فعادوا منهزمين الى الحساء ، فتقفاهم العجمان ونزلوا قرب الهفوف فحاصروها ثلاثة اشهر .

كتب عبدالعزيز الى ابيه ليستنفر اهل نجد ، والى الشيخ مبارك يستنجده . فسارع اهل نجد للنجدة بقيادة محمد بن عبدالرحمن ومعه احد العرافة سعود بن عبد العزيز الذي فر سابقاً من الخرج وانضم الى ابن الرشيد وحارب معه في وقعة جراب . فلما رأى ابن عمه عبد العزيز في تلك المحنة استفزته الحمية فعاد اليه تائباً مناصراً .

ولكن اعداء ابن سعود الاخرين تحفزوا للوثوب عندما سمعوا بحرب العجمان، فنكث ابن الرشيد عهد الصلح، ومشى الى بريدة يريد احتلالها. اما الشريف حسين، الذي كان قد امعن في مفاوضاته والانكليز ليدخل الحرب العظمى مع الاحلاف ، فلم يسره هذه المرة عمل ابن الرشيد ، فارسل عليه ابنه الامير عبدالله .

زحف الامير الى نجد . ولكنه علم وهو في الطريق برجوع ابن الرشيد من بريدة مدحوراً، فتوقف في سيره وعاد مطمئن البال الى الحجاز.

اما الشيخ مبارك فقد ابطأ في ارسال النجدة التي طلبها عبد العزيز ، فكتب اليه ثانية يذكره بالعهد ، فجهز اذ ذاك ابنه سالماً واثنين آخرين من اولاده بقوة صغيرة — مئة وخمسين رجلاً من الحضر ومئتين من البدو — فجاءوا الى الحساء وانضموا الى جيش ابن سعود .

قلت ان العجمان حاصروا الهفوف ثلاثة اشهر ، اي مدة الصيف . والحقيقة انهم نزلوا في اماكن تكثر فيها مجاري المياه وتتعرج ، فلا يستطيع المهاجمون الوصول اليهم . ولكنهم في آخر ذي القعدة رحلوا منها ، فشد اذ ذاك عبدالعزيز عليهم .

امر اخاه محمداً وسالم الصباح وجنودهما ان يبقوا في مراكزهم ، وزحف ليلاً بفرقة من رجاله ومعهم بضعة مدافع . أسروا ماشين ، لان

اكثر الابل كانت قد أرسلت الى نجد لقلة المرعى في الحساء ، فادركوا العُجمان في الصباح ، واطلقوا المدافع عليهم . ثم هموا بالهجوم ، فسارع اولئك العربان الى ركائبهم وفروا هاربين تجاه الكويت ، فلم يتمكن رجال ابن سعود ، ولا ركائب لديهم ، من اللحاق بهم .

عاد عبدالعزيز الى مقره فأمر اخاه وسالماً حليفه بمطاردة العجمان . فجمع الاثنان رجالهما ومشوا كلهم طائعين متآلفين . ولكنهم ما لبثوا ان تفرقوا .

ادركوا العُجمان – نعم ادركوهم ، فكان الانقلاب وكانت الخيانة . واتفق ابن الصباح واولئك العشائر العاصية ، وهجر حليفه ابن سعود .

لله درك يا مبارك . قلتُ ان اعماله آية في التعرج والغموض . نصفها سر ، ونصفها خداع . فقد ارسل يستنجد ابن سعود على العُجمان وقصده ان يزرع العداء بينهما فيتمكن هو من الاستيلاء على الاحساء . هذا هو السر . وقد جاء ابن سعود منجداً فغلبه العُجمان ، فاستنجد بابيه مبارك فارسل اليه سالماً وبقية اولاده – العائلة كلها – وهو يقول في نفسه : جاءت الساعة – ستُحقق الامال .

وتصادم ابن سعود والعجمان وشارك حلفاؤه المباركون في القتال ، ثم انقلب سالم فجأة فصالح العجمان واعلن حمايته عليهم . هذه هي الخدعة . وكان مبارك قد كتب الى ابنه عندما علم انه اشترك في القتال مع ابن سعود يؤنبه ويقول : « ارسلتك مراقباً لا مقاتلاً . . . اذا غلبهم ابن سعود فنحن معهم يا وَلِدي . واذا هم غلبوه فلا تردهم عنه ، ولا تساعدهم عليه » . وقع هذا الكتاب بيد العجمان فكتموه . بانت الخدعة ولكن السر ظل سراً .

عندما انقلب ابن الصباح على ابن سعود ارسل محمد بن عبد الرحمن يخبر اخاه عبدالعزيز ويستأذنه بالهجوم على العدوين العجمان والمباركين ، فاجابه قائلاً : « لا تفعل . كيف نكون حلفاء في اول النهار واعداء في

آخره والناس لا يعرفون حقيقة الحال » .

ثم كتب الى مبارك يشكو اليه خيانة سالم ويقول: « لم اقدم اكراماً لك على تأديبه » . فكتب الشيخ المريد يذكره بان بينه وبين العجمان صداقة قديمة . ثم قال : « طلبت منك ان تسترجع منهوباتي من العجمان ولم اقل لك حاربهم واطردهم من ديارهم » .

قرأ عبد العزيز كتاب مبارك وهو يحتدم غيظاً ، فهتف مردداً تلك الكلمة التي يأخذها من فاتحة القرآن اذا هو اعلن الحرب : — اياك نعبد واياك نستعين ! — صبرنا على مبارك صبراً جميلاً ، واحتملنا منه شيئاً كثيراً ، وفادينا من اجله بالمال والرجال ، وما نحن والله بصابرين الى الابد — اياك نعبد واياك نستعين !

وشد عبد العزيز الرحال وزحف مسرعاً يريد مهاجمة العجمان وابن الصباح ، وكان ذلك في محرم ١٣٣٤ (نوفمبر ١٩١٥) .

ولكنه حين وصوله الى معسكر اخيه محمد واستماعه الكلمة الاولى التي فاه بها النجاب الذي كان قد وصل من الكويت ، وقف دهشاً محزوناً . — انا لله وانا اليه راجعون . مات الشيخ مبارك !

الفصل الرابع والعشرون

الانكليز والعرب

عندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى في الحرب العظمى شرع الانكليز يفاوضون امراء العرب ليدخلوهم في تلك الحرب مع الاحلاف ، او ليضمنوا على الاقل حيادهم . وقد كانت المفاوضات مستمرة في سنة ١٩١٥ بين عدن وجيزان ، وبين القاهرة ومكة ، وبين ابي شهر والرياض ، والغرض الاكبر فيها هو محاربة الترك في شبه الجزيرة وصدهم عن تأليف كتلة عربية يقفون بها في وجه بريطانية العظمى هناك فيقطعون عليها طريق الهند .

وقد كان السيد محمد الادريسي اول من لبى الدعوة فحالف الانكليز في ابريل من سنة ١٩١٦ وحمل على الترك في عسير . ثم ابن السعود فعقد واياهم معاهدة بعد ستة اشهر اي في دسمبر . ثم الشريف حسين الذي اتفق وعميد بريطانية العظمى في القاهرة على البنود الخمسة المشهورة[1] وذلك بعد شهر من تاريخ المعاهدة وابن سعود ، اي في ربيع اول ١٣٣٤ (يناير ١٩١٦) .

ليس من غرضنا النظر في هذه المعاهدات التي امست كلها في خبر كان . ولكننا نسأل القارىء ، لقصد في ما نحن بصدده ، ان يذكر هذه التواريخ ، ويذكر خصوصاً ان الاتفاق مع الشريف حسين لم يتم الا بعد الاتفاق مع الاميرين الاخرين .

عندما علم ابن السعود بوفاة الشيخ مبارك ، وتولي ابنه جابر الحكم في الكويت ، عدل عن مهاجمة العجمان و كتب الى الشيخ جابر يعزيه

(١) ذكرت في « ملوك العرب » الجزء الاول الطبعة الثالثة ، صفحتي ٦٩ و ٧٠

عن ابيه ، وينصح له الا ينهج على منواله في السياسة . وبينا هو هنالك ، اي في الطريق الى الكويت ، جاء رسول من الممثل البريطاني في خليج فارس ، السر برسي كوكس ، (Sir Percy Cox) يرجوه ان يوافيه الى القطيف للمفاوضة في امور هامة . فتوجه عبد العزيز الى تلك الناحية واجتمع بالسر برسي في جزيرة دارين هناك .

وكان همّ بريطانية يومئذ ان تخرج الترك من العراق وسورية بل من البلاد العربية وتؤمن لبواخرها وجنودها الخليج والبحر الاحمر . فاتخذت لتحقيق هذا الغرض طرائق شتى ، منها محالفة امراء العرب وامدادهم بالمال والسلاح على العدو .

سأل السر برسي كوكس ابن سعود عما يستطيع ان يؤديه من المساعدة للاحلاف ، فاجابه : « اني اساعدهم بامرين . اعاهدهم اولاً ان لا يجيئهم ضرر مني ما دامت المعاهدة بيني وبينهم مرعية الجانب ، واعاهدهم ثانياً ان لا انضم الى حلف عربي ضدهم . واني اؤكد لكم ان العرب لا يجتمعون عليكم اذا لم اكن انا معهم . اني احب ان يجتمع امرنا على مساعدة الاحلاف ، — نعم ، وساكتب الى الشريف حسين بهذا الخصوص اذا احببتم » . ولكن ذاك الامر لم يتم كما سنرى ، فظل لذلك موقف ابن سعود موقفاً سلبياً .

ومن المسائل التي كانت حكومة بريطانية العظمى تريد ان تستطلع رأي امراء العرب فيها مسألة الخلافة . فتكلم السر برسي عن انتقال الخلافة الى العرب ، واتخذ المجاملة سبيلاً الى غرضه فعرض المنصب على ابن سعود قائلاً : « ان حكومة جلالة الملك تستحسن ذلك وتساعد في تحقيقه » .

لم يخفَ على عبد العزيز قصد المعتمد ، فقال « لا ذوق لي بالخلافة . واني لا ارى من هو اجدر بها من الشريف حسين » .

اطمأن بال الوكيل المحترم ، وارتاحت الوزارة الخارجية الى الحبر الذي مكنهـــا من اطلاق يد المعتمد في مصر . فكانت الخلافة الطعم الالذ في الصنارة التي رماها على شاطىء جدة ، فالتقفها الشريف حسين وكان عظيماً في الارض — مليكاً في مكة ، خليفةً في عمّان ، اسيراً في قبرص ! وكان ابن سعود في الارض حكيماً .

اما وقد وثبنا وثبة في هذ الفصل لا تجوز في اصطلاح المؤرخين ، فلا بأس بوثبة اخرى ما زلنا في امر الحسين . وكلنا نذكر انه شرع يتكلم باسم العرب ، بعد ان ابرم ذلك الاتفاق والمعتمد البريطاني في القاهرة ، ويدّعي انه زعيمهم الاكبر . ثم جاء يوم التتويج او بالحري المبايعة فهللت جريدة القبلة وازدهت اعمدتهـــا باللقب الجديد — صاحب الجلالة العظمى ملك العرب .

ليأذن القارىء ان نقف مرة اخرى مستطردين . ليس الذنب في تفريق كلمة العرب ذنب الانكليز وحدهم كما يظن الناس. وهاكم الحقيقة كلها.

يجيئهم احد الامراء مدعياً انه سيد العرب اجمعين، وانهم كلهم اطوع له من بنانه ، فيسبرون الانكليز غوره ، ويتحققون صدق كلامـه او كذبه ، ولكنهم يوالونه لانه على شيء من القوة .

ثم يجيئهم الآخر ودعواه اكبر من دعوى من تقدمه او مثلهـا ، وكذلك الاخرون، فيضطر الانكليز ان يحددوا قوة الواحد اكراماً للاخر ، فتكون النتيجة التقسيم والتفريق .

وعندما طفقت جريدة القبلة تهلل لملك العرب، وتهتف للمنقذ الاكبر، استبشر غلاة القومية ، وزعماء النهضة العربية ، فرددوا الهتاف ولسان حالهم يقول : هوذا الزعيم الاكبر ، هوذا المنقذ الاعظم !

على انه ما كادوا يفرحون حتى جاءتهم الاخبار ان دول الاحلاف اعترفت بالحسين ملكاً على الحجاز — الحجاز فقط . فقالوا اذ ذاك :

«هي ذي اوروبة عدوة النهضة . بل هي ذي انكلترة تفرقنا لتسودنا» .

والحقيقة هي ان ابن سعود في مفاوضاته والسر برسي كوكس بخصوص المعاهدة اشترط ان لا يتكلم الشريف باسم العرب ويدعي انه ملك العرب . فقبل الشرط حباً وكرامة ، وكان الاعتراف بالحسين ملك الحجاز — الحجاز فقط .

اما وقد برّأنا من هذا القبيل ذمة بريطانية العظمى ، فيجب علينا ، من اجل التاريخ ايضاً ، ان نسجل عليها فعلتها الكبرى في ابرام ذاك الاتفاق مع الحسين ، وقد وهبته فيه البلاد العربية كلها ما عدا عدن والبصرة .

ولا نظن القارىء نسي التواريخ التي سألناه ان يذكرها في مطلع هذا الفصل ، او انه يذكر في الاقل ان الاتفاق الانكليزي الحجازي أبرم بعد عقد المعاهدتين العربيتين في جيزان ودارين . وقد اعترفت الحكومة البريطانية فيهما بسيادة الاميرين السيد محمد الادريسي والامام عبدالعزيز آل سعود ، كل في بلاده ، وبسيادة من يتولى الحكم بعدهما من بيتهما ، ثم ضمنت حدود البلادين ، وتعهدت بالدفاع عنهما ، اذا اعتُدي عليهما . ثم بعد هذه الضمانات كلها ادخلت البلدين بلدي نجد وعسير ، في دولة عربية يرأسها الملك حسين !

ولا حاجة الى القول ان تلك المفاوضات كانت سرية اذ لولا ذلك لما تمكنت من الخداع ، او لما كانت هي خادعة نفسها . فاما ان وكلاءها السياسيين ومعتمديها كانوا جاهلين بعضهم اعمال بعض ، فكانت هي المخدوعة ، واما انها لم تهتم يومئذ لغير مصلحتها — الوقتية المحلية — فخدعت من اجلها الجميع .

وكان ابن سعود اثناء الحرب من المخدوعين . ولكنه وهو الحكيم الذي لا يطمح الى غير ما يستطيع تحقيقه في زمن معلوم ، عقد تلك المعاهدة التي استمرت مرعية سبع سنوات اي من بداءة سنة ١٩١٦ الى

بداية سنة ١٩٢٣ .

بعد عقد معاهدة دارين توسط السر برسي كوكس بين ابن سعود وابن الصباح في مسألة العجمان ، فقبل عبد العزيز ان يوقف حركاته الحربية على شريطة ان يطرد صاحب الكويت العجمان من بلاده . وقد عمل الشيخ جابر بنصيحة السر برسي فاجاب طلب ابن سعود .

اما « العرائف » الذين اغراهم الاعداء بنسيبهم الكبير ، فقد ادركوا ان اخوالهم العجمان [١] لم ينـاصروهم الا لمآرب خصوصية ولمطامع سياسية لهم في الاحساء ، وادركوا كذلك ان ابن الرشيد والشريف حسيناً في مساعداتهما لهم انما هما كالعجمان . ولكن مطامعهما السياسية اكبر وعداءهما اشد . لذلك عادوا تائبين الى عبد العزيز ، وهم اليوم كلهم — سبع بيوتات — مقيمون في الرياض .

---

(١) اول من تزوج من العجمان جدهم سعود بن فيصل .

الفصل الخامس والعشرون

هدايا وتعنيف من بلاد الشريف

بعد عقد المعاهدة في دارين عاد ابن سعود الى الرياض وارسل رسوله صالح باشا العذل الى الشريف حسين يخبره بما جرى بينه وبين الانكليز، ويعرض عليه المؤازرة في مساعدة الاحلاف. وكان الشريف، كما اسلفت القول، لا يزال في طور المفاوضات والعميد البريطاني في القاهرة، فعندما علم بعقد المعاهدة وابن سعود خشي ان يتقدمه في الزعامة والنفوذ لدى الاحلاف، فسارع الى قبول البنود الخمسة وتم الاتفاق سراً بينه وبين العميد.

ولكنه لم يعلن الثورة على الترك الا بعد اربعة اشهر (شعبان ١٣٣٤ – يونيو ١٩١٦) من تاريخ ذاك الاتفاق، لاسباب ذكر بعضها، ولم يذكر اهمها، وهو ان نجله الامير فيصلاً كان لا يزال في الشام فخاف عليه من جمال باشا. لذلك كتب الى الجمال [١] يعده بتجنيد فرقة حجازية للزحف مع جنود الدولة الى ترعة السويس، وألحّ عليه في ارسال فيصل لهذه الغاية.

وقد كتم ايضاً عن ابن سعود خبر ذاك الاتفاق، فاعطى رسوله صالح باشا العذل جواباً نصفه شكر، والنصف الآخر ابهام في ثوب المجاملة.

ولكن تلك المفاوضات السرية، او في الاقل مجيء الرسل من بور سودان ورواحهم، أيقظ في دوائر الحكومة الحجازية عيون الريب والشبهة، فادرك الوالي غالب باشا بعض ما كان يبطنه الشريف حسين، وعقد النية على مفاوضة ابن سعود في الامر. ولكنه موّه قصده بالطريقة التي اتخذها اليه. فقد ارسل رسوله وهدية الى عبدالعزيز بواسطة الشريف الذي ابقى الهدية عنده وأذن الرسول بالسفر الى نجد.

---

(١) ان المؤلف المرحوم، يعرّف اسم جمال استهزاءً به لانه كان طاغية ظالماً سفاك دماء، ميت الضمير

وكان ذاك الرسول يحمل كتاباً من غالب باشا هذا معناه :

« انك تعلم باعمال الشريف وانا الآن ازيدك علماً . انـــه يفاوض الانكليز وهو على وشك ان يخون الدولة ويفتح لاعدائها الحرمين . فاذا قدمت الى الحجاز اسلمك الحرم واساعدك بكل ما لدي من قوة ».

فارسل ابن سعود اليه هدية وقال في جوابه انه والحسين يدٌ واحدة. ولكن الهدية وصلت الى مكة بعد ان أُعلنت الثورة فاستلمها الشريف حسين وابقاها عنده — « اكل الشريف الهديتين » كما قال عبد العزيز ، ونهض وانجاله على الترك طمعاً بالهدية الكبرى التي وعده بها الانكليز .

وأعلنت الثورة وطفقت تتوارد الى جده من بور سودان الامدادات الحربية والمالية . جاء الذهب بالصناديق ليستخدمه الشريف في تجنيد العرب وفي استمالة امرائهم ورؤسائهم الى النهضة . فارسل الى ابن سعود صرة في آخر هذاالعام واتبعها في العام التالي بثلاث صرر مقدار الواحدة نحو خمسة آلاف ليرة . ولـكنه لم يكتب اليه كلمة بخصوصها . « كان يجيء الرسول بهذا المال فيقول — من جلالة الملك . ليس الا » .

٥١٣٣٤ هـ
١٩١٦و١١م

ولكن عبد العزيز ، عندما تكررت تلك الهدايا المالية ، عقد مجلساً عالياً حضره والده الامام عبد الرحمن ورئيس قضاة نجد الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف فأطلعهم على الامر وقال : « اذا كان القصد من ارسال هذا الذهب المساعدة في الحرب فالقصد محقق ، لاني امرت اهل نجد خصوصاً اهل القصيم وعتيبة وحرب بمساعدة الشريف ، وامرتهم كذلك بالا يتعدى احدٌ منهم على من اراد ان ينضم الى جيش الحجاز » . فقال الامام عبد الرحمن : « لو كان الشريف يبغي المساعدة فقط لكتب الينا بذلك . ولست ارى في قصده غير الخوف من ان نغتنم فرصة قيامه على الترك فنحمل عليه ، فاراد في ارسال الذهب تسكيننا».

وقد كان رئيس القضاة من هذا الرأي ، فقال عبد العزيز : « يمكن ذلك . ولكني سأكتب اليه فاتحقق الامر : فاذا كان يبغي المساعدة ، وهو صادق في عمله وقوله ، ساعدناه باكثر مما تقدم . واذا كان له قصد آخر انتبهنا اليه » . وهاك خلاصة الكتاب كتابه :

يا حضرة والدي ، اننا واياك في هذه الحرب ، وثمرتها لنا ولك . فقد مشت عرباننا وعشائرنا ، عملاً باوامرنا ، الى مساعدتكم . ولكني ابغي اكثر من ذلك . واني مستعد ان ارسل اليك احد اخوتي او اولادي ليحارب مع اولادكم . وفي ذلك الفوز الاكبر ان شاء الله .. قد يكون حدث بيننا وبينكم سوء تفاهم في الماضي . فلا ُبدّ اذن من التفاهم والتأمينات . وذلك بان تحدد الحدود بيننا وبينكم فتزول الشكوك وتتضاعف من اهل نجد المساعدات .

وعندما وصل هذا الكتاب الى صاحب الجلالة زمجر في جريدة القبلة ، وفي الديوان الهاشمي ، فسمع صوته في نجد . قال عظمة السلطان : « لا اذكر من جوابه غير هذه الكلمات : اما انك سكران يا ابن سعود ، واما انك مجنون . افلا تعلم لاي امر قمنا واي غرض نبغي » ؟

كتب عبد العزيز الى الوكيل البريطاني في البصرة يطلب الاجتماع به في القريب العاجل ، فاجتمعا في العقير . وبعد ان اطلع السر برسي كوكس على كتاب الحسين قال : « لا تكترث به . نحن ضامنون استقلالك وتتعهد بان لا يتعدى عليك الشريف او غيره . وانت تعلم ان اية حركة على الشريف اليوم هي علينا ومساعدة لاعدائنا واعدائك » .

وقد الح عليه في هذا الاجتماع ان يعطيه جواباً قاطعاً ان لا يكون بينه وبين الشريف محاربة ، فوعده بذلك على شرطين ، اولهما ان لا يتدخل الشريف في شؤون نجد ، والثاني ان لا يتكلم باسم العرب ويدعو نفسه ملك العرب . تعهد السر برسي بذلك ، ثم دعا عبد العزيز لزيارة البصرة ، فلبى الدعوة ، وعرّج في طريقه على الكويت ليعزي آل صباح بوفاة كبيرهم الشيخ مبارك .

الفصل السادس والعشرون

وفود الانكليز والعرب

في سنتي الحرب الاخيرتين بُلي الانكليز في البلاد العربية بأمرين خطيرين الاول سياسي في الحجاز ، والثاني حربي في العراق ، فسعوا في معالجتها واذلالهما ما استطاعوا سياسياً ومالياً .

وقد كانت مقاصدهم الحربية ثلاثة : اولاً ، ان يعقدوا حبل الولاء بين الامراء احلافهم . ثانياً ، ان يحكموا نطاق الحصار ويشددوه على العدو من الجهات العربية كلها . ثالثاً ان يستخدموا ما عند كل امير من قوى القتال ، ويضيفوا ما امكنهم اليها ، في سبيل النصر .

وقد امدوا الملك حسين بالاسلحة والذخائر والمال تحقيقاً للقصد الاخير ، ولكنهم في اتكالهم عليه كل الاتكال ايقظوا فيه روح الاثرة وشجعوها ، فنجم عنها العداء لامراء العرب كلهم خصوصاً لابن سعود . وبكلمة اخرى ان الانكليز في تعزيزهم القصد الثالث افسدوا على انفسهم القصد الاول ، فاصبحوا عاجزين عن تحقيق القصد الثاني .

ولم يكن الملك حسين ليساعدهم في التغلب على الصعوبات ، ولا اذن بتنفيذ تلك الخطة التي اتخذوها الى غرضهم الاكبر . فعندما جاء المستر ستورس ورفيقه المستر هوغرث[١] الى جده ، ليسافرا من قبل المعتمد البريطاني في القاهرة الى الرياض عن طريق الحجاز ، لم يأذن الملك بذلك لان الامن كما ادعى كان مفقوداً .

والحقيقة هي انه كان يخشى ان ترجح كفة النفوذ في الرياض ، بل

(١) Ronald Storrs وقد عين بعدئذ حاكم القدس العسكري
D. G, Hogarth مؤلف كتاب « التغلغل في البلاد العربية »

كان يخشى ان يكون اتفــاق الانكليز وابن سعود مضراً بمصالحه ، او مجحفاً باتفاقه واياهم . لذلك لم يرضَ باي اتفاق بينهم وبين غيره من امراء العرب الا اذا تم ذاك الاتفاق بواسطته .

— « اتركوا لي ابن سعود — انا اعالجه — اقول — انا اعالجه لخيركم وخير العرب » . . .

وقد كان ابن سعود مثل الحسين من هذا القبيل ، اي انه حافظ على عهوده مع بريطانية العظمى ، ولكنه كان يظن ان بينها وبين خصمه اتفاقاً سرياً ، ملحقاً للمعاهدة ، يضرُّ به وبمصالحه . ولا نستغرب هذه الظنون عندما نذكر مــا تقدم في الفصل الخامس والعشرين . فهل يصلح رسل التوفيق ما افسده عاقدو المعاهدات ؟

وعندما اقفلت في وجه وفد القاهرة ابواب الحجاز جاء الى الرياض في طليعة هذا العام الهجري (نوفمبر ١٩١٧) وفد من الكويت ومن البحرين ، مؤلف من الوكيل السياسي الكولونل هاملتن والمستر فلبي والكولونل أوِن[١] ليفاوضوا ابن سعود في الامرين السياسي والحربي اللذين تقدم ذكرهمــا ، اي ليوفقوا بينه وبين الحسين ، وليستنهضوه على ابن الرشيد وعلى احلافه من عشائر العراق .

١٣٣٦ هـ
١٩١٧ م

وكان عبد العزيز قد علم بتوقيف وفــد القاهرة في جدّه ، فطلب المستر فلبي ان يتوسط في الامر وتعهد اذا أذن له بالسفر الى الحجاز ان يعود عاجلاً ومعه المعتمد البريطاني ، اذن له عبد العزيز بالسفر ، وارفقه برهط من رجاله .

وقد كان للمستر فلبي قصد آخر في رحلته هذه ، وهو يلمح اليه في كتابه . فلا بأس اذن ، خصوصاً ان تلك الحوادث اصبحت في ذمــة

(١) Col. R. E. A. Hamilton يومئذ الوكيل السياسي في الكويت
H St. John Philby مؤلف كتاب « قلب البلاد العربية »
Col. Cunliffe Owen

التاريخ ، بالافصاح عنه في كتابنا . من المعلوم ان الطريق الى نجد براً من الحجاز هي اقصر جداً من الطريق البحرية الهندية ، وقد كانت رغم ادعاء الملك حسين آمن منها في تلك الايام . ومما لا يعلمه الناس ان المال الذي كان يُبذل في شبه الجزيرة كما يجيء عن طريق مصر ، وان الحكومة الانكليزية في الخليج الفارسي كانت في حاجة الى قسم كبير ليصرف في اطراف العراق ونجد .

وعاد الكولونل هاملتن والكولونل أون الى الكويت ، وسافر المستر فلبي في الشهر الاول من عام ١٩١٨ الى الحجاز ، وهو متأكد انه سيعود في الطريق نفسها ومعه في الاقل المال الذي كان متوقفاً في جده . قد ارسل معه ابن سعود كتاباً الى الملك حسين مدبجاً بيراع اللطف والولاء . ولكن الحسين ، وهو المشهور بتصلبه ، تغلب على اللطف فيه وحتى كل المواربة ، فتجهم المستر فلبي ، ولم يلبس غيظه شيئاً من زخرف الكلام او الابتسام — « الرجوع الى نجد يا حضرة النجيب هو غير ممكن الان — غير ممكن » .

اما رجال ابن سعود فأذن لهم بالرجوع الى بلادهم ، ولم يزودهم بكلمة لطف او عنف لعبد العزيز . « لا لزوم يا اولادي للكتابة . نحن نحل مشاكلنا بيدنا » كذلك عولج المشكل السياسي خلال الحرب ، فظل مشكلاً بعدها .

اما المشكل الحربي فقد كان حله يختص بمصادرة المؤن والذخائر التي كانت تصل الى الاتراك في بغداد وفي الشام عن طريق الكويت والبادية .

وكانت الكويت الباب الاكبر للتهريب تجيئها المؤن ، الشاي مثلاً والارز والسكر ، من الهند والعجم فتباع باسعار باهظة ، وتتسرب الى وكلاء الدولة او بالحري الى رؤساء العشائر ، فيهربونها الى الاتراك

والالمان في سورية وفلسطين .

ومن اولئك الرؤساء ماجد بن عجيل شيخ العَبده ، اكبر قبائل شمّر ، وضاري بن طواله شيخ شمّر العراق ، وعجيمي السعدون رئيس المنتفق . فقد كان العدو في الشام وفي بغداد يحصل بواسطتهم ، مهما كانت الاسعار باهظة ، على كثير من الارزاق والذخائر التي كانت تجيء الى الكويت للانكليز في جنوب العراق .

فعلى الانكليز اذن ان يصادروا المهرّبين ويحكموا نطاق الحصار لمنع التهريب او تخفيفه ، فحاولو لذلك حراسة خط يمتد من الكويت الى البصرة فالناصرية .

ولكن الكويت نفسها كانت اضعف حلقة في سلسلة الحصار ، وكان حاكم الكويت الشيخ سالم الصباح من كبار المستثمرين تجارة بلاده ، وبالتالي المستغلّين عملية التهريب . ومع ان الكويت في حوزة الانكليز فلم يتمكنوا من إحكام النطاق الحربي عليها ، فاضطروا في النهاية ان يحددوا وارداتها فلا تتجاوز الكمية المعروفة قبل الحرب .

ومع ذلك فقد كان يتسرب الى العدو قسم كبير منها ، فبذلوا المال في العشائر للمصادرة ، واشتروا كبار المهرّبين مثل ماجد بن عجيل وضاري بن طواله

وانك لترى أن البحث يجرنا الى مهمة المستر فلبي الثانية . فقد عاد عن طريق الهند والبصرة في ربيع ١٩١٨ ، وخرج الى البادية ينشد المصادرين ، وفي قافلته جمال تحمل اكياساً من الفضة . وكان ضاري بن طواله قد انخرط في السلك الانكليزي لقاء مشاهرات معلومة ، ووظيفته مصادرة البضائع التي كانت تصل الى الشام بواسطة ابن الرشيد في حائل . ولكن ضاري شيخ من مشايخ شمّر وشمّر هي ظهر ابن الرشيد . فهل يلام اذا صادر اعداءه فقط ؟

جاءه فلبي وهو في الحفر – جاءه يحمل النقود ، عاقدة العهود والناقضة لها . فشكا ضاري اليه ضيق الحال ، وفقر الرجال – والحاجة يا فلبي شديدة الى المال . أناخ فلبي جماله ، جمّل الله حاله ، فابتسم الضاري وقال : « والله يا فلبي نحنا رجالك » فقال فلبي « قوموا اذن وارحلوا معي الى ابن سعود » . فامتثل ضاري الامر ، وشد الرحال ، فركب في موكبه ستون من رجاله . جاؤوا والمستر فلبي يتوددون الى ابن سعود ويقطعون له العهود . فاجتمعوا به على غدير يدعى الشوكي ، واتفقوا ان تكون المصادرة عامة بدون تمييز . واقسم ضاري يميناً مغلظة ان شمّر العراق تكون دائماً ابداً مخلصة للانكليز ولابن السعود . ثم ارسل ماجد بن عجيل شيخ العَبْده رسوله الى عبد العزيز يطلب الصلح فقال له : « اني انذركم يا اهل شمّر . فاذا كنتم مخلصين لنا تعالوا اقيموا في كبدي . واما اذا كنتم تفاوضون الانكليز وتساعدون الترك فانا عدوكم والله وقاهركم ان شاء الله » . . . .

-- « اما حائل يا مستر فلبي فاذ تركتم امرها لي فانا اعالجه بالسياسة . واذا الحجتم فعليكم بالمدد » .

لم يكن المدد المقصود المال ، بل الاسلحة والذخيرة ، وهي يومئذ قليلة عزيزة : ثم قال عبد العزيز : « حائل في فكرنا دائماً . ولكن حائل جدار ونار . ترى الصحيح . ان ابن الرشيد محصن فيها وراء الجدران والمدافع » .

عاد المستر فلبي مع ابن سعود الى الرياض ، وكانت المفاوضات والمباحثات متواصلة . قال عبد العزيز : « اني قادر ان امنع ابن الرشيد عن محاربة الشريف وهذا جل ما تبغونه الآن . ولكن العهد الذي بيني وبين شمّر يوجب التربص . فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم . فاذا رجع ابن الرشيد وكان حليفاً لنا ، فذلك خير . تتحقق المقاصد بدون قتال .

والا فنحاربه » .

اما العهد الذي اشار اليه فهو ان عبد العزيز ، بعد سفر فلبي الى الحجاز ، شد على ابن الرشيد الذي كان يومئذٍ على الحجر عند الترك . ولكن مشائخ قبائله جاؤوا ابن سعود يعاهدونه على الطاعة والولاء . ودليل صدقهم كما قالوا هو ان ابن الرشيد طلب منهم ان يحاربوا مع الترك الشريف فأبوا. وقد تعاهدوا وابن سعود انهم ينذرون ابن الرشيد ، - « فاذا قدم من الحجر وكان معك يداً واحدة فنحن عشائره وعشائرك ، واذا رفض الرجوع فنحن معك عليه » .

ولبث عبد العزيز ينتظر الجواب من مشايخ شمَّر . ولم يرَ ان يبقى المستر فلبي اثناء ذلك عنده في الرياض ، فصارحه في الامر ، فرغب فلبي في رحلةٍ علمية الى وادي الدواسر . أذن عبد العزيز بذلك ، ورحله مصحوباً برهط من المحافظة في شهر رمضان ، فعاد الى الرياض في الشهر التالي (صيف ١٩١٨) .

وكان قد جاء الجواب من ابن الرشيد برفض مطالب رؤساء شمَّر ، فشد عبد العزيز يريد الزحف الى حائل ، وكان المستر فلبي مرافقاً للجيش. ولكنه لم يكن مثل مواطنه المأسوف عليه شيكسبير الذي حضر معركة جراب وشارك في القتال – وفي الضحية .

وتخلف فلبي في القصيم ،وتقدم عبد العزيز بجيشه الى حائل . بيد انه لم يكن القصد يومئذٍ غير ان يشغل ابن الرشيد فيمنعه عن مناوشات العرب الذين كانوا يحاربون مع الاحلاف في شرقي الاردن . فلما وصل الى ماء ياطب في اطراف حائل ، رأى جموعاً كبيرة من العربان وقد حالوا دون امنيته . ولكنه هاجمهم ، فاصاب منهم مغنماً ، وعاد فنزل على ماء آخر قريب من المدينة ، فخرج ابن الرشيد في آخر النهار يريد الهجوم عليه ليلاً . ثم عدل عن قصده وقفل راجعاً بدون قتال .

وكان الجنرال آلنبي قد بدأ في الهجوم العام على الترك في فلسطين وشرقي الاردن ، وكان الترك يستنجدون ابن الرشيد ، فعدل عن محاربة ابن سعود . من المألوف في مثل هذا الحال ان ينهض الجيش المهاجم فيتأثر الجيش المتقهقر ويجتز ساقته . ولكن ابن سعود لم يفعل ذلك . بل عاد في اليوم التالي الى القصيم وقصده ان يجمع قوة اكبر من تلك التي كانت معه فيقسمها الى قسمين ، قسم لمنازلة عربان شمّر وقسم لمهاجمة حائل . ولكنه مثل خصمه عدل ايضاً عن قصده . والسبب في الحالين هو ما أحرزه جيوش الاحلاف والعرب في هذا الشهر (ذي القعدة — ايلول) من النصر في فلسطين وسورية ، فوصل الخبر كالبرق الى البلاد العربية .

ودخل العرب الشام ظافرين ! وفرّ الترك منهزمين ! فاز الاحلاف الفوز المبين سلّم الالمان — عقد الصلح ! وما بال العرب لا يتعظون ويتصالحون !

اتعظ العرب . فقد توقف في ذاك الحين ابن الرشيد وابن سعود عن القتال وعقدا فوق ذلك — مثل الاحلاف والالمان في فرساي — صلحاً صغيراً .

الفصل السابع والعشرون

وقعة تربة ومقدماتها

بعد ان سلمت المدينة [١] كتب الامير عبد الله ابن الملك حسين الى امراء العرب يخبرهم بذلك وارسل الى ابن سعود الكتاب الآتي :

« الى حضرة المحترم المكرم الامير عبد العزيز بن سعود الفيصل .

وبعد فأني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو . واصلي واسلم على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين . ثم اخبرك بان الله فتح لنا ابواب مدينة خير البرية ، وان حاميتها قد أسرت ، واستولينا على جميع ما فيها من السلاح الثقيل والخفيف ، وجميع الاملاك والالات والادوات العائدة للحكومة الغابرة . كما ان فخري باشا [٢] قد اعتقل في بئر درويش . واما العساكر فبادرنا بنقلهم الى بلادهم . ولا يخفى على مداركم بانه لم يبق والحالة هذه شاغل ما يشغل حكومة صاحب الجلالة ، ادامه الله وايده ، عن الالتفات لاصلاح داخليتها وشؤونها والتنكيل بمن يسعى للافساد والتخريب من العشائر التابعة لها . والسلام عليكم ورحمة الله » .

في ١٣ ربيع الآخر ١٣٣٧ قائد الجيوش الشرقية

الختم الامير

قال اني

عبد الله

---

(١) استمر حصار المدينة ثلاث سنوات ولم يسلم فخري باشا الا بعد اعلان الهدنة بشهرين اي في ١١ ربيع الثاني ١٣٣٧ (١٥ يناير ١٩١٩)

(٢) عينته بعدئذ الجمهورية التركية سفيراً لها في افغانستان

وقد كتب ابن سعود اليه كتاب تهنئة دعاه فيه للتفاهم بخصوص العشائر وأكد له انه لا يبغي غير السلم اذا كان هو من المسالمين . فجاءه الجواب الآتي :

« الى جناب سامي الرحاب الشهم الاوحد والهمام الامجد ، الامير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود سلمه الله » .

وبعد الديباجة المفعمة بالتودد والتبجيل يقول :

« اني منكف (راجع) ان شاء الله تعالى الى الوطن في الاسبوع القادم لاكون بخدمة صاحب الجلالة الهاشمية ادام الله نصره . واني ارجوكم ان تبلغوا سلامي الى معالي والدكم الجليل والانجال والاخوان الكرام . ومن لدينا حضرة صاحب السمو الملكي سيدي الامير علي نصره الله يهديكم جزيل السلام » .

في ٣ جمادى الثانية ١٣٣٧ قائد الجيش الشرقي الهاشمي

الختم الامير

ومع هذا الكتاب كتاب مثله لهجةً من جلالة الحسين ، و « ملحق خير » من سمو الامير فيه ما يأتي :

« اني اخوكم الصادق ومستعد لمساعدتكم بما تأمرون . ولا يجوز ان يفرق بينكم وبين والدي امور البادية التي لا اهمية لها . . . وكيف يمكن ان يحدث خلاف بين رجلين كبيرين بخصوص تَرَبة والخرمة والبادية ؟ ها انا متوجه الى مكة فارجوكم ان ترسلوا احد رجالكم وان ارتأيتم ان يكون احد انجالكم فذلك اولى ، وانا كفيل النجاح بحسم الخلاف والاتفاق مع سيدي الوالد » .

ولكن احد العقيلات [1] الذين كانوا في الحجاز جاء يخبر عبد العزيز

---

(١) العقيلات (راجع الشرح في صفحة ١٤٠) تجار من القصيم وقد كان منهم عدد في جيش الامير عبد الله

إن الامير عبد الله يتأهب للزحف الى تربة . ثم جاءه آخر يقول ان الامير خرج من المدينة ووجهته تربة . فكتب عبد العزيز الى حكومة بريطانية العظمى بواسطة مندوبها في العراق يخبرها بمقاصد الملك حسين وقائد جيشه ابنه عبد الله . فجاءه الجواب ان ذلك من الاشاعات التي لا صحة لها .

وكتب ابن سعود ثانياً يقول ما معناه : اني متحقق ما اخبرتكم به وما اخبرتكم خوفاً او شكايةً بل لتكونوا عالمين بالحوادث وبما قد يعقبها . وكتب ثالثاً يخبر المندوب السامي ان الامير عبد الله مشى بجيشه من المدينة ووجهته تربة . فلم يجئه جواب الكتاب الاخير .

وكان قد جهز سريّة مؤلفة من الف ومئتي هجان بقيادة سلطان بن بجاد امير الغطغط فامرها اذ ذاك بالسير الى الخرمة وتربة للمحافظة على اهالي تلك الناحية ،وامر ابن بجاد والعالم المرافق السرية بان تكون خطتها الدفاع لا غير .

ثم ارسل بعض العقيلات متجسسين ، وامرهم بان يخبروه خصوصاً بما يفعله الامير عندما يصل الى عشيرة . فاذا ترك عسكره هناك ودخل مكة كان في ما كتب صادقاً ، واذا استمر سائراً كان جوابه خدعة .

زحف الامير عبدالله بجيشه من المدينة جنوباً الى عشيرة[1] فوافاه اليها جلالة الملك والده . وبعد المفاوضة عاد الحسين الى مكة واستأنف عبدالله السير جنوباً ، فخيم في شعب يدعى البدَيّع في جبل حضَن .

وحدثني سمو الامير قال : « لم يكن من رأيي مهاجمة تربة . وقد حاولت ان اقنع جلالة الوالد بالعدول عن عزمه ، ولكني كقائد للجيش الهاشمي مطيع لاوامر مولاي . حتى اني كتبت اليه بعدان تذاكرنا في عشيرة. ولبثت في البديّع انتظر جوابه فلم يكن غير الامر بالزحف ».

(١) هي على مسافة نحو مئتي ميل جنوبي المدينة وخمسة وسبعين ميلاً شرقي مكة

وكان قد كتب الامير عبدالله في اوائل شهر رجب الى ابن عمه الامير عبدالله بن محمد وهو يومئذٍ في الخرمة او في جوارها الكتاب الآتي :

« بعد السلام ورحمة الله وبركاته كتابكم رفق عائض بن جويّن وصل وعلم مضمونه وعيال مهزي الصغار نوّخوا البارح على صاحب الجلالة واخبرونا بالكون (الاغارة) عليهم وبكسرة الوهابية . ولا شك ان العرب اذا صدقوا اللقاء كسروا المغير عليهم . هذا امر ثابت . وحسب الرغبة امر صاحب الجلالة بانقاذ ابن مهزي فاخترنا مئتين من الجعدة مع غالب بن عنيز يمشون غداً او بعده ان شاء الله . . . (كلمة مبهمة) امير الخرمة السيد غازي الحارث من السطوة في البلاد الآن . فبعد وصولي بالقوة الكافية اليكم نردها بما تستحقه والتوفيق بيد الله . هذا ما لزم ودمتم ونحن على نمشي في هذين اليومين ».

الامير القائد
عبدالله

في ٣ رجب ١٣٣٧

مشى بعد كتابة هذا الكتاب من عشَيرة الى جبل حضَن فخيم في البدّيع . وجاء ابن سعود في اواخر هذا الشهر او في اوائل شعبان احد عقيلاته يخبره بذلك فكتب الى الامير كتاباً في ١٠ شعبان قال فيه :

« قد تحقق عندي خلاف ما اخبرتني به سابقاً اي انك عائد الى مكة المكرمة ، والظاهر انك مهاجم تربة والخرمة . وذلك مخالف لما ابديتموه للعالم الاسلامي عموماً ، والعربي خصوصاً . واعلم رعاك الله ان اهل نجد لا يخذلون اخوانهم وان الحياة في سبيل الدفاع عنهم ليست بشيء . نعم وان عاقبة البغي وخيمة . خير لك اذن ان تعود الى عشيرة . وانا ارسل اليك احد اولادي او اخوتي للمفاوضة فتتم الامور على ما يرغب به الفريقان ان شاء الله » .

الكتاب طويل تدرك مباحثه من جواب الامير الذي فيه كل الخبر

وهو في عنوانه يعود الى لهجة الكتاب الاول الرسمية .

« من عبدالله ابن امير المؤمنين الحسين بن علي الى حضرة امير نجد ورئيس عشائرها عبد العزيز سعود دامت كرامته .

وصلني خط الجناب الموقر المؤرخ ١٠ شعبان فتلوته وفهمته ، فلم اجد فيه ما استغربته واستعذبته . تقول اني بينما اكتب اليك مسالماً اجر الاطواب على المسلمين ، وان مظهري هذا اثار ثائر الناس علينا . وانك، دامت مدتك ، خرجت فزعاً الى ان يأتيك مني الجواب . واليك بـــه وهو ينطق بلسان صاحب الشوكة والدي وحكومته .

اولاً – اظن ان صاحب الشوكة سيد الجميع يرحب بكل من يطلب كتاب الله وسنة رسوله (ص) ويحيي ما احيا الكتاب والسنة ويميت ما اماته الكتاب والسنة لان هذا دأبه ودأب اجداده منه الى صفوة الخلق عليهم سلام الله .

ثانياً – لا اذكر ان احداً منا وقع على كتاب ذُكر فيـه انك او احد آل مقرن من الخوارج . او انكم لستم من ملة الرسول.

ثالثاً – كل من شق عصا الطاعة من رعايا صاحب الشوكة وعاث في الارض فساداً يستحق التأديب شرعاً،شخصاً واحداً كان اوالف شخص.

رابعاً – اعلم وتيقن ان نيتنا نحوك ونحو اهل نجد نية خير وسلام .

خامساً – اما قولك ان الناس نفروا جميعاً لحربنا انائهم قبل رجالهم فاذكرك بقول الله تعالى ... فـان جاؤونا (اي عرب برقـة والروقة الذين انذرهم) بنية حسنة فنحن لهم وهم لنا يا عبـد العزيز قبل ان ينزل اجدادك بنجد . وان بقوا فلكل باغ مصرع وان الله مع الصابرين .

سادساً – تأمرني بالرجوع الى ديرتي من ارض هي لابي وجدي. ومتى كنت تمنع الناس عن ديرتهم ؟ جزيت خيراً . ولكن هل تذكر ان رجلاً من قريش، ثم من بني عبد مناف، ثم من بني هاشم، جده الرسول

وعلي ابن ابي طالب ، يقعع له بالشنان [١] ويروّع بمثل هذه الاقاويل ؟

سابعاً – تقول اني لو التمس رجلاً في نجد يرجح الحياة على الموت في سبيل الله لما اجده . فكان الاوفق لهم اذن ان يأتوا ويجاهدوا الاتراك معنا عن بيت الله ومسجد رسوله حتى ينال الشهادة منهم من كتب له . ثم بعد ذلك تردون يمناً النظر .

ثامناً – اخبرتك في كتابي بفتح المدينة المنورة بانني متوجه الى الوطن لتأديب العصاة ، وسألتك هل انت على عهدي بك ام تغيرت نياتك فجاءتني نجاجيبك بجواب منك فيه الميل الى التقرب والمسالمة فرجوت خيراً وعززته بالجواب الثاني . فجاء ثاني كتبك لي ومثله لوالدي ولاخي ملؤها المودة المؤكدة باليمين وكل ذلك محفوظ . فما حملك الآن على تغيير لهجتك ؟ أمن اجل اننا نؤدب رعايانا ونصلح ما فسد في قبائلنا ؟

تاسعاً – ان كنت تنوي الخير للمسلمين كما زعمت فاردد الذين امرتهم ببيع مواشيهم ، وبنيت لهم الدور (يريد الهجر) واخلُ انت مكانك الذي وصلت اليه وانحر (عد الى) ديرتك ولـك علي ألا امس احداً من اهل نجد بسوء .

اني مرسل اليك كتابي هذا مع احد نجاجيبك وهو القسهاني وابقيت الآخر ليأتيك بخطاب صاحب الشوكة والدي والسلام » .

في ٢٣ شعبان ١٣٣٧ القائد العام للجيوش الشرقية الهاشمية

الامير الختم

تربة والخُرمة ! لا بد عند هذا الحد من كلمة في هاتين البلدتين وقد اثارتا الحرب بين نجد والحجاز . الخرمة هي على مسافه خمسين ميلاً من حَضَن الى الشرق ، وتربة هي على مسافة خمسة وسبعين ميلاً منه الى

(١) اي بالسنان وهو يضرب لمن لا يتضع لحوادث الدهر

الجنوب . وجبل حَضَن هذا هو في التقاليد الحد الفاصل بين نجد والحجاز . فقد جاء في الحديث : من رأى حضنا فقد أنجد .

من هذه الوجهة اذن تكون البلدتان في نجد. ولكن اصحاب السيادة فيهما من اشراف الحجاز ، فادعى الملك حسين رعايتهم . ومن الوجهة الاخرى ان الاهالي من بدو وحضر وفيهم الاشراف تمذهبوا في الزمن الغابر بالمذهب الوهابي ، فلهذا السبب ايضاً يدعى ابن سعود انهم من رعاياه . وكلهم بدو وحضر لا يتجاوزون الخمسة والعشرين الف نفس .

تعلو الخرمة الكائنة في وادي سبيع ثلاثة الاف وخمسمئة قدم عن البحر وعدد سكانها خمسة الاف ، ثلثاهم من العبيد المعتوقين ، والثلث الآخر من عرب سبيع [١] اما الاشراف فلا يتجاوزون الثلاثمئة نفس . ولكن اهميتها لا تقاس بعدد سكانها لانها كائنة في طريق التجارة بين نجد والحجاز ، بل هي محطة تجارية لتجار الوشم والقصيم .

اما امير الخرمة الشريف خالد بن منصور فهو من بني لؤي اي من اقارب الملك حسين . ولكنه من المتصلبين في الوهابية . لذلك لم تصفُ الصلات بين الشريفين . بل اثمرت لخالد ثارين ، فقد حدث خلاف بينهما في سنة ١٣٣٦ حمل جلالة الملك على حبس خالد ، فاشتعل في صدره الثأر الاول . ولكنه غطاه لحين برماد النسيان ، وراح يساعد الامير عبد الله في حصار المدينة .

وهناك حدث خلاف بينه وبين الامير ، وتكررت الاساءة التي لا مجال لذكرها ، فتكلم خالد منذراً ، فغضب الامير وصفعه بيده ، فسُفي الرماد عن الثأر الاول والتهب مقروناً بالثأر الثاني .

---

(١) كانت سبيع تقطن جهات الحجاز فطردتها عتيبة ، فنزحت الا بقية منهم سكان الخرمة ورنية الى جنوبي نجد واقامت وحلفاؤها السهول في حائر التي تدعى هناك حائر سبيع .

جاء خالد الى الرياض في آخر سنة ١٣٣٦ يحذر ابن سعود من مساعي الحسين ونجله عبد الله ويستنجد عليها . وقد حدث في السنة التالية (١٩١٨ م) ما حقق قوله لان الامير ارسل اربع حملات على الخرمة بقيادة الشريف شاكر وكان نصيبها كلها الفشل .

اما تربة فسكانها من عرب البُقوم ، وفيها مثل الخرمة عدد من الاشراف يملكون اكثر ارضها ، وكلهم بدو وحضر وعبيد من اتباع ابن سعود منذ ايام سعود الاول . بيدَ ان قسماً منهم انضموا الى جيش الحجاز في الحرب العظمى ، ثم انقلبوا على الحسين لاسباب دينية ومالية فآلى على نفسه تأديبهم ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان انتهت الحرب.

ومع ان تربة قرية لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثة الاف فهي ذات اهمية لانها في الطريق الى الطائف .هي باب الطائف من الوجهة النجدية، وحصن الطائف من الوجهة الحجازية . ويتبع تربة « سهل شرقي » الى الشمال الشرقي من مستنقعات البقوم وعدد سكانها ثلاثة الاف من البادية وحول هاتين القبيلتين السبيع والبقوم وقراهما تسرح وتمرح قبيلة عتيبة الكبيرة .

ونعود الآن الى الجيش الزاحف الى تربة ، فقد بالغ الرواة في تقديره فقال بعضهم انه كان مؤلفاً من سبعة الاف من النظام وثمانية الاف من البدو . اما الحقيقة فهي انه لم يتجاوز كله السبعة الاف ، منهم الفان من النظام والباقي من البدو .

ولكنه كان كافياً لغرض الامير . فقد دخل تربة بدون قتال يذكر ، دخلها في ٢٤ شعبان اي بعد يوم واحد من الكتابة الى ابن سعود . والذي مكنه من ذلك هو انه كان قد استخدم بعض عربان البقوم في جبل حضن ليدخلوا البلدة مدعين انهم جاؤوا يحذرون اهلها من الامير ويستنهضونهم على محاربته . بل قالوا

١٣٣٧ هـ
١٩١٩ م

للمدافعين انهم جاؤوا يحاربون معهم ، فانزلوهم في الحصون مع من تحصنوا فيها ، فما لبثوا ان انقلبوا عليهم فاستولوا على اسباب الدفاع وصاحوا بالناس : الملك للشريف !

وفي تلك الساعة في صباح الرابع والعشرين من شعبان (٢٤ مايو ١٩١٩) دخل الامير بجيشه فصادف لاول الامر بعض المقاومة ، فأمر باطلاق المدافع والرشاشات على المقاومين فتشتتوا ثم فروا هاربين الى الحرّة جنوبي البلد .

دخل الامير ظافراً فوزع جيشه في جوار تربة وحولها ، وكانت ساعة" لرجاله إباحية فنهبوا البلدة وافسدوا فيها ما شاءت الشهوات والاهواء . وقد امر في ذاك اليوم بقتل بعض المشايخ واثنين من التجار النجديين وبمصادرة اموالهم . ثم كتب من مخيمه في الجهة الغربية الى رؤساء البادية في تلك النواحي خصوصاً في رنية ، يخبرهم بما حل بتربة ، ويهددهم بمثل ذلك اذا كانوا لا يجيئونه طائعين صاغرين . ومن هذه الكتب الكتاب التالي :

« قيادة الجيوش العربية
الشرقية

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله ابن امير المؤمنين الحسين بن عون الى المكرم فيحان بن صامل

اما بعد فاني احمد الله اليكم . . . . . . ثم اخبرك بانا وفقنا الباري سبحانه وتعالى فأطفأنا نار الخارجة التي في تربة ومزقناها كل ممزق وضربنا اعناق ارباب الزيغ والنفاق ومن جملتهم الطعامة وابن مسيّب نزيل قريتكم . وان هذه الفتنة التي اثارها خالد بن منصور بلا لازم ينعاه ، او حق يطلبه ، وادخلكم فيها ، نأمركم بتركها والاسراع

بالركوب الينا وكف كافة سبيع اهل رنيه بدو وحضر عن الاستمرار فيها . ونأمركم بجلب شيوخ الزكور (قبيلة من القبائل) معكم الينا في ست ليال للاستئمان من سطوتنا . وان لم تفعلوا فسأميل ميمنة البيرق المنصور عليكم مستعيناً بالله تعالى مستنجداً عظيم قدرته . ولا تكتم انذاري هذا عن كل صغير وكبير لاني سأسألك عنه حين لا تنفعك الندامة والسلام على من اتبع الهدى » .

في ٢٤ شعبان ١٣٣٧ القائد العام للجيوش الشرقية الهاشمية

الختم

وفي كتاب الى ماضي بن قاعد ومحمد ابرق نقيش يقول :

« ما خفي عليكم ما حل بتربة من ذبح الرجال ، وتدمير المال ، بعد ان طغى اهلها وبغوا . وانتم يا اهل رَنية بدو وحضر ان ما كفيتم طوارقكم وركبتم الي في ست ليال مع شريفكم والا حزمتكم حزم السلم وطردتكم طرد غرائب البل (إبل) وعاقلكم يعلم جاهلكم . ولولا مشاري بن ناصر وغازي بن محمد لكان صباحي يسبق كتابي اليكم . والسلام على من اتبع الهدى » .

واستقر الامير ذلك النهار في المخيم المنصور ،وبعد ارساله كتب التهديد الى رؤساء القبائل اذن لنجاب ابن سعود ان يعود بالجواب الذي ذكر . وكان قد علم بان السرية التي جاءت الى الخرمة اي جيش ابن بجاد وخالد — قد مشت منها الى مكان يدعى القرنين ، وهو على مسير اربع ساعات من تربة ، فزوّد النجاب برسالة شفاهية ايضاً .

— « اخبر الخوارج ومن التف حولهم في القرنين بما جرى . قل لهم اننا سنكفيهم مؤنة القدوم الى تربة — قل لهم ما جئنا تربة من اجل تربة والخرمة فقط . . سنصوم في الخرمة ان شاء الله وسنعيد عيد الاضحى في الحساء » .

وركب النجاب الظهر ، فوصل الى القرنين بعد صلاة العصر ، فاحاط به الاخوان مستخبرين . شق النجاب جيبه واخبرهم بما جرى ، وبما فاه به الشريف ، فما كاد يتم كلامه حتى صاحوا صيحة واحدة : اياك نعبد واياك نستعين ! وهم يريدون الهجوم . فسكّن العالم والقائد روعهم . قال ابن بجاد : « كيف نتجاوز امر صاحب الامر ، فهو لم يأمرنا بغير الدفاع » .

ولكنه كان قد نسي كتاباً جاء من ابن سعود وفيه ما معناه : اذا جاءكم الخبر بسير الشريف الى مكة فالزموا مساكنكم الى ان يأتيكم مني امر آخر . واذا علمتم بانه تجاوز حدود تربة فاني آذنكم ان تفضوا كتابه وتقرأونه فترون فيه رأيكم .

ما كانوا في حاجة الى استماع كتاب الامير وقد سمعوا كلماته من فم النجاب . ولكن العالم عمل بالامر العالي ، فصاحوا ، وهو يتلو الكتاب عليهم ، اياك نعبد واياك نستعين ! وشدوا في تلك الساعة الرحال .

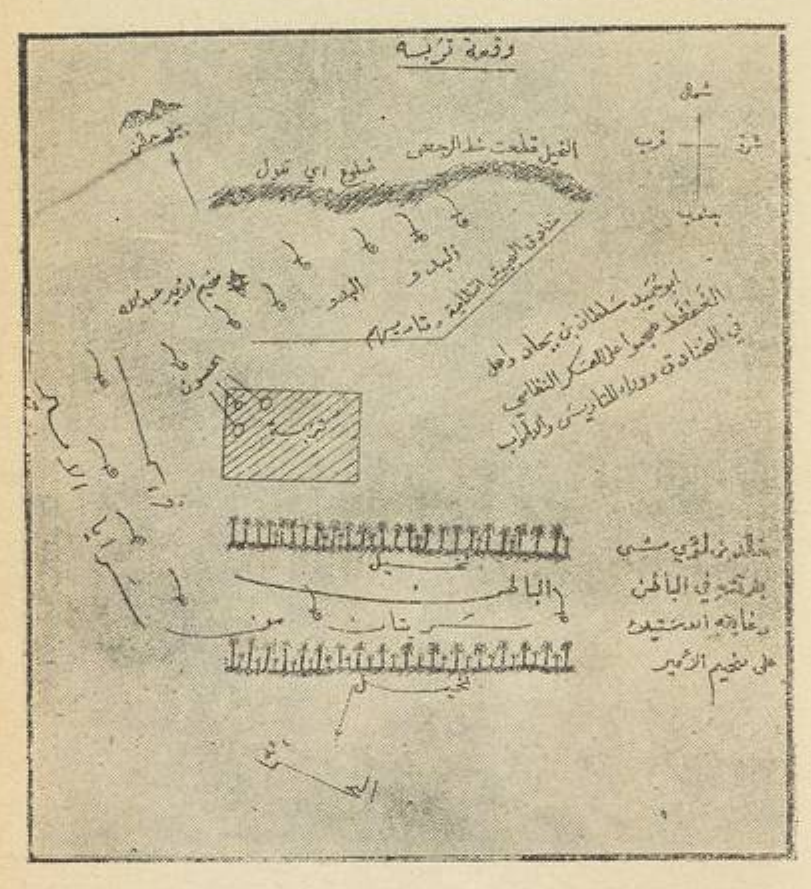
« هبت هبوب الجنة ! اين انت يا باغيها ! »

مشوا قبل صلاة المغرب بساعة وهم مع من انضم اليهم الف وخمسمئة مقاتل .

قال الراوي وهو من اهل الحجاز : « جاء الامير عبدالله في ذاك اليوم رجل من البادية يقول : تحذر يا شريف . المتدينة في الخرمة هاجمون عليكم . فغضب الامير وامر بقطع عنقه » . وفي رواية اخرى انه امر دخناً كبير عبيده بضربه ، فضربه حتى الموت .

في كلا الحالين نام الامير تلك الليلة خالي البال مطمئناً . وكان الاخوان قد علموا من رسول ابن سعود كيفية توزيع جيش الامير ، فانقسموا الى ثلاث فرق قبل ان يصلوا الى نخيل تربة ، اي فرقة الخيالة ، وفرقة خالد ، وفرقة ابن بجاد . وعندما وصلوا البلد في منتصف ليلة ٢٥ شعبان (٢٥ مايو) هجموا هجمة كبرى واحدة ساكتين مستشهدين .

تقدم خالد ورجاله ، وفيهم من شردوا من تربة ، فدخلوا البـاطن وقصدهم الاستيلاء على مخيم الامير . مشوا وسلاحهم الابيض يلوح في ظلام شفّاف فاصطدموا بالسرية الاولى من الجيش الحجـازي وذبحوا رجالها كلهم . وكذلك الثـانية . ثم هجموا على السرايا المقيمة عند مخيم الامير ففتكوا بها فتكا ذريعاً .



وهجم ابن بجاد برجاله، وكلهم من اهل الغطغط ، على الجنود النظامية وراء المتاريس والاطواب فكانت السيوف تشتغل كالمقاصل ، وكان ابن

الغطط يثب على المدفع فيذبح الضابط المقيد وراءه بالحديد . ولكن هول الفوضى والظلام كان افظع من التذبيح ، فبطش الجنود بعضهم ببعض ويظنون انهم يبطشون بالاخوان .

اما فرقة الخيل فقد قطعت خط الرجعى خصوصاً على حرس الامير فلم ينجُ منهم غير الامير نفسه وبعض الضباط ، ونجاب ابن سعود الثاني. فر الامير عبدالله قبل ان يصل خالد ورجـــاله الى سرايا المخيم ، فثبت بعضهم في النضال ليردوا العدوا عن تعقبه ، وسقط من حـاول الفرار صريعاً بين سنابك الخيل .

واما الذين نجوا من الذبح تلك الليلة ولم يستطيعوا الفرار فقد التجأوا الى حصن من حصون البلد ، فهجم الاخوان عليهم في اليوم التـالي ، وجعلوا خاتمة المذبحة كاولها ، فتراكمت الجثث بعضها فوق بعض . وكان من اللاجئين الى ذلك الحصن الشريف شاكر فكُتب له النجاة ، ونجا معه شاب من الاشراف اسمه عون بن هاشم اجتمعتُ به في جده ، في رحلتي الثالثة اليها ، وهو يومذاك في العشرين من سنه . فقد كان عمره يوم شهد تربة خمس عشرة سنة . قال الشريف عون بن هاشم يحدثني عن هول ذاك اليوم : « رأيت الدم في تربة يجري كالنهر بين النخيل ، وبقيت سنتين عندما ارى الماء الجـارية اظنها والله حمراء . ورأيت القتلى في الحصن متراكمة قبل ان طحت من الشباك. ومن اعجب ما رأيت يا استاذ رأيت الاخوان اثناء المعركة يدخلون الجامع ليصلوا ثم يعودون الى القتال » .

لم ينج من جيش الامير النظامي غير ستة ضباط واثني عشر جندياً. ولم ينجُ من البدو غير من سلّموا او انضموا الى جنود خالد ، واكثرهم من عتيبة ، وعددهم لا يتجاوز الالف . فيكون الموت قد تقاضى خمسة الاف نفس بشرية جزاء جهل الانسان وغروره . بل خمسة الاف وخمسمئة، لان الاخوان دفعوا قسما من الضريبة ، فقد خسروا اربعمئة

من رجال الغطغط ومئة من اهل تربة والخرمة .

قال الامير عبدالله في كتـــابه الاول الى ابن سعود يُنبئه بتسليم المدينة : « واستولينا على جميع ما فيها من السلاح الثقيل والخفيف وجميع الاملاك والآلات والادوات العائدة للحكومة الغابرة » — استولى عليها في ربيع الثاني ، ثم خسرها بعد اربعة اشهر فاستولى عليها ابن سعود !

ولكن ابن سعود لم يعلم بذلك الا بعد الوقعة بخمسة ايام . فقد كان قادماً من نجد بجيش عدده أثنا عشر الف مقاتل ، فالتقى وهو في الطريق بين ماء القنصلية والخرمة بالنجاب الشارد فقص عليه الخبر .

واستمر عبد العزيز سائراً الى الخرمة ومنها الى تربة ، فبكى عندما شاهد فيها حصاد الموت . وعندما صاح جنود خالد وابن بجـــاد : الى الطائف ! رخّص لنا بالطائف . منعهم قائلًا : « كفى الباغي جزاء بغيه » .

اقام عبد العزيز خمسة عشر يوماً في تربة . وقد جاءه في اليوم العاشر برقية من الحكومة البريطانية في لندن بواسطة وكيلها السياسي بجدة تسأله فيها ألا يتقدم الى الطائف . فعلت ذلك اكراماً للملك حسين واجابة لطلبه ، وكان ابن سعود في نظرها كريماً .

الفصل الثامن والعشرون

البدو والهجر

قد شاهدنا للمرة الاولى ، في وقعة تربة ، روحاً جديدة في القتال ، روحاً نجدية دينية مجسمة في الاخوان ، روحاً قهّارة ، هي بنت الهول والاستشهاد ، قلما تُغلَب او ترد . وفي كلمة كتبها الامير عبدالله الى ابن سعود سر هذه القوة . قال الامير : « فاردد الذين امرتهم ببيع مواشيهم وبنيت لهم الدور » .

هي اول اشارة في هذا التاريخ الى الهُجَر . والهجر مهد الاخوان ، والاخوان جيش ابن سعود الديني القومي ، جيش التوحيد .

وما هي الهجر ، وكيف أسست ، وما الذي دعا لتأسيسها ؟ ومن هم البدو ومن هم الاخوان ؟ سنبدأ مجيبين على هذه الاسئلة بكلمة على البدو ، فنتطرق الى الهجر واهلها . البدو منذ القدم غزاة ، عصاة ، عتاة ولهم غريزة دينية غذتها الخرافات ، ومطامع تكاد تنحصر بالاقوات . فهم يسارعون الى القتال في سبيل الله كلما نفر النافر وضاق بهم العيش .

ولكنهم في طاعتهم واخلاصهم ، وفي جهادهم وولائهم ، لا يحتملون فوق طاقتهم ، وقلما يفادون بشيء من اشيائهم . يحاربون ، ويشردون ، ويخونون . وهم وان غالوا في دينهم ، لا يثبتون ، بل انهم في الردة سريعون .

وقد رأى الرؤساء منذ القدم ، نظراً لغريزتهم الدينية وان تلونت ، ان يستلوا عليهم سيف الالوهية قبل السيف الذي يُرى . دعاهم مسيلمة فلبوه ، ثم دعاهم الشيخ طاهر القرمطي فحاربوا معه كالبنيان المرصوص . ثم تشتتوا بعد كسرة القرامطة ، فجاءتهم من البصرة والنجف عقائد في

الدين جددت في جمع شملهم وتعزيز املهم ، فبنوا القباب فوق القبور ، وعلقوا الرقاع على الاشجار — سبحان من هو صديقٌ للواحد القهّار .

ثم جاء ابن عبد الوهاب يعلمهم ان التسبيح لا يجوز لغير الله الواحد القهار ، جاء يعلمهم التوحيد واستعان على ذلك بسيف ابن سعود ، فقاموا يحاربونه مع ابن الدوّاس ، وابن العُريعر ، وكانوا مدحورين . جمعهم ابن سعود تحت علم التوحيد ، فوحدوا الله واقسموا ان لا شريك له. ولكنهم في كل اطوارهم بدو ، والبدو مثل ذي الاجنحة طيارون . او ان لهم مزية الزئبق ، فيجتمعون ويفترقون ، وانت تتلو الفاتحة . لا يحملون شيئاً في جيوبهم ، ولا في قلوبهم ، بل لا جيوب لهم ولا قلوب ، رفاقك في الطريق اليوم ، واعداؤك غداً . ولا اظنهم لولا الجنة والحور ، يخضعون لرب الكائنات . قد اكون مخطئاً بهذا وهم يكثرون من ذكر الله في كل حالاتهم .

ولكن النبي نفسه أنبهم ولم ينفعهم التأنيب . فقد جاء في القرآن : قالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا .

اما الدين عندهم فكالرداء يلبسونه ردحاً من الزمن ، فيغسلونه مرة او مرتين ثم يلبسونه مقلوباً ، ثم ينبذونه وقد تمزق نبذ النواة — كيف نتوضأ ونحن نبغي الماء للشرب ؟ ولم الصوم والسنة كلها عندنا رمضان ؟ ولم الصلاة وليس لله وقت ليسمعنا ؟

وكذلك كانوا في ولائهم لهذا الامير او ذاك فما الفرق وربك بين ابن مقرن مثلاً وابن هاشم ، او بين ابن الصباح او ابن الرشيد ؟ هم كلهم عرب ، يقيمون في بلاد العرب ، ويغزون غزو العرب ، ونحن ان حاربنا مع هذا او ذاك عرب .

ما تغير البدو منذ ايام الرسول ، ومنذ ايام مسيلمة وابي طاهر . دينهم حاجات ، لتلك الردات . وولاؤهم غايات ، لتلك الخيانات .

وقد تبين لقارىء هذا التاريخ في ما سردناه من حوادثهم ، وسجلناه من حروبهم ، انهم لم يتغيروا حتى بداءة القرن العشرين . فقد طالما ارتدّوا ، وخانوا ، وعادوا تائبين ، منذ ايام عبد العزيز الاول الى ايام عبد العزيز الثاني . وهم كما وصفناهم لا يوالون طويلاً ، ولا يعادون طويلاً . لا يثبتون ، ولا يسكنون ، ولا يستقيمون في مسراهم او في مغزاهم .

البدو سيفٌ في يد الامير اليوم ، وخنجرٌ في ظهره غداً . مجاهدون اذا قيل غنائم ، متمارضون اذا قيل الجهاد . وكذلك كانوا عند ظهور عبد العزيز الثاني وفي حروبه الاولى وغزواته . كانوا يحاربون ما زالوا آمنين على اموالهم وانفسهم ، ويفرون شاردين عند اول خطر يلوح . لذلك كان ابن سعود يقدمهم في القتال ويدعمهم بالحضر ، يحمي ظهرهم ليؤمن انقلابهم وتقهقرهم . فهم اذ ذاك اشداء ثابتون في النضال . وبكلمة اخرى هم شجعان اذا كان لهم ظهر . والا فالفالتة لنا والفرار علينا . جاء في امثال العرب : البدوي اذا رأى الخير تدلى واذا رأى الشر تعلّى . ولكن البدوي وحده يدافع عن نفسه وبعيره حتى الموت وان كان خصمه قبيلة باسرها . اما البدوي في الجيش فقد كان مشكل ابن سعود الاكبر .

وقد حل عبد العزيز هذا المشكل بطريقة جديدة لم يسبقه اليها احد من ملوك العرب قديماً او حديثاً . فهو من هذا القبيل المصلح الاكبر في العرب .

اجل قد حارب البدو وغلبهم كما فعل اجداده ، وادخلهم في دين التوحيد كما فعل اجداده ، ولكنه لم يقف مثلهم عند هذا الحد . قال : امسكوا الحونة ، فقالوا : الفلا مَنجى . وهاهنا نجوة التجلّي . فقد تجلت لعبد العزيز الحقيقة التي خفيت على سواه . وهذه الحقيقة هي ان البدو لا يثبتون ، ولا يطيعون ، ولا يخلصون — البدو هم بدو — لانهم لا

يملكون شيئاً من الارض ، ولا يسكنون بيوتا ثابتة . اذن، سنعطيهم ارضاً ونساعدهم في بناء البيوت. سننقلهم من البادية الى المدينة . سنقيدهم بالارض ، ونكبلهم بسلاسل التملك فننفعهم ، واذا اذنبوا نستطيع تأديبهم .

ان هناك كذلك الفكرة الدينية ، الفكرة الاولى في الهُجر — والهُجر جمع هُجرة — والهجرة في القاموس ترك الوطن الذي بين الكفار والانتقال الى دار الاسلام . اما وطن البدو فالبادية ، والبادية مهد الشرك ، فالهجرة منها اذن هي الهجرة الى الله والتوحيد . وهي كذلك هجرة مدنية . فمن بيوت الشعر الى بيوت من لبن وحجر ، ومن الفقر والغزو الى ارض لا تخون صاحبها اذا اعمل بها المحراث ، ومن الخوف والتحذر الى طمأنينة لا تهجره ما زال عاملاً مفيداً لنفسه وبلاده .

الداعي الى الهجرة اذن ثلاثة امور ، اي تعليم البدو الدين ، ونفعهم بارض يحرثونها ، والاستيلاء عليهم . ليس من السهل ان يألف البدوي الزراعة وقد كان دائماً يأنفها . كان سكان البادية يقسمون في الماضي الى قسمين البدو والعرب . فالبدو غزاة ، والعربُ رعاة ، ولا اكار بينهم ولا من يتنازل للعمل في الارض .

باشر ابن سعود اصلاحه الكبير بالواسطة الدينية ، فكان يرسل المطاوعة الى البادية ليعلموا اهلها دين التوحيد والفرائض ، ويزينوا لهم هجر ما هم فيه الى ايمان يستشعرون ، وبيت يأوون ، وارض يحرثون.

وقد استخدم في التحضير القوة المدنية ايضاً ، فكان السيف يتقدم المطوّع في بعض الاحايين او يتبعه كما تقتضي الاحوال . تجاوز التطور في البدو حده الديني ، فصاروا يهجرون ما هم فيه ليس الا الله والتوحيد فقط ، بل الى الشريعة والنظام ، وطاعة الحكام ، واحترام حياة الانام.

وكان ابن سعود يعين بقعة من الارض فيها ماء لقبيلة أو لفخذ منها فتنزح اليها وتباشر بناية البيوت فيها . بيد ان الصعوبة الاولى التي تغلّب دعاة الهُجرة عليها هي الجمال . ومعلوم ان رزق البدوي اباعره ، فما زالت عنده ما زالت البادية تستغويه ، فيروح في ساعات الضجر طالباً الرزق حلالاً او غزواً حيث كان . لذلك جُبر البدو على بيع جمالهم ، كان ابن سعود يساعد مالياً في بناء البيوت الجديدة . وقد أُسست في سنة ١٣٣٠ اول هجرة لعرب مطير اي الارطاوية شرقي بريدة وقرب الدهناء . اما تسميتها بالارطاوية فهو لان الأرطى ، مرعى الابل المعروف ، يكثر في جوارها . ان هذه الهُجرة لاكبر الهجر اليوم واهمها . وقد تبعها كل سنة هجرٌ عدة لقبائل حرب وعتيبة وقحطان وغيرها ، حتى اصبح عددها سبعين هجرة ويزيد[1] .

على ان هذه الهجر في بداءة امرها أورثت ابن سعود مشكلاً آخر ، وهو ان البدو بعد ان باعوا جمالهم وصاروا اخواناً يتعصبون بالعصابة البيضاء التي تميزهم عن الناس ، اقاموا في الهجر لا يعملون شيئاً في ايام السلم غير الصلاة . غدت بيوتهم مناسك ، وقد نزلوها ابتغاء وجه الله . هجروا البادية حقيقةً الى الله والتوحيد فاصبحوا عالةً على صاحب البلاد.

ولكن المصلح الكبير لا يعدم طريقة تنقذ اصلاحه من الخطر . فشحذ ذهنه واستعان على تلك الحالة بالعلماء ، فجاء العلماء بالتاريخ ، وباخبار السلف ، فسلحوا بها المطاوعة ، فراح هؤلاء يحاربون بها البطالة والكسل . راحوا يعلمون المتحضرين ان الزراعة والتجارة والصناعة لا تنافي الدين ، وان المؤمن الغني خير من المؤمن الفقير . — وهذا ابو بكر ، كرم الله وجهه ، كان يملك ثمانية الاف رأس من الابل والخيل.

---

(١) في الملحق لهذا التاريخ — في آخره — لائحة الهجر كلها واسماؤها واسماء عشائرها ، وعدد سكانها ، وعدد المقاتلة فيها .

فهل تزدرون، ايها الاخوان، ما كان يرغب فيه ابو بكر ؟ وهل تشكّون في ان الله سبحانه وتعالى يفتح لكم، اذا انتم زرعتم وتاجرتم، ابواب الثروة والجاه ؟

قد افلح المطاوعة في تحبيب العمل والمال الى الاخوان، فشرعوا يزرعون الارض حول الهجر ويتاجرون. وقد نشأت بعض هذه القرى نشوءاً سريعاً فصارت تباري جاراتها القديمة بالزراعة والتجارة. على ان الزراعة والتجارة لم تضعف في ابناء هذه الهجر، في الاخوان، روح القتال. بل علمتهم فوق شجاعتهم شجاعة جديدة لا تعرف الخوف، ولا تهاب الموت. وما الشجاعة هذه غير بنت الايمان الجديد الحي القوي. فان اخوان مطير في الارطاوية مثلاً، واخوان حرب في دُخنة، واخوان عتيبة في الغطغط، لاشد جيوش ابن سعود بأساً، وابسلهم نضالاً، واسبقهم الى الاستشهاد. كيف لا وقد قُلدوا في تحضيرهم سيفين، سيف الدين، وسيف الثبات. انهم اليوم لغيرهم بالامس فلا يشردون ولا يتراجعون، وقلما ينهزمون. انهم يحاربون حباً بالاستشهاد والجنة، وحباً بالمحافظة على ما يملكون. صاروا يخافون النار، ويخشون عاقبة الفرار.

لا. لم تقتل الهجر في اهلها غريزة الغزو، ولا اضعفتها. بل شحذتها في سبيل الله، وقيدتها بشروط تختص بتقسيم الغنائم. على ان توحيد السيادة العربية، السائرة البلاد نحوها، تضيّق من طبعها مجال الغزو وتزيله في النهاية تماماً. فلا تجد اذ ذاك العرب اعداء من العرب او عرباً مشركين للغزو والجهاد.

قلت مرة لعظمة السلطان: « وستكون الهجرة الثانية من الجهل الى العلم ان شاء الله، فتؤسس المدارس ويتعلم الاخوان شيئاً من العلوم التي من شأنها ان تحسن الصناعة والتجارة والزراعة في البلاد » فاجاب

عظمته : « كل شيء يجيء في وقته » .

اما سكان الهجر الآن ، وهم الطبقة الاكثر عدداً ، فقد الفوا الزراعة واستعذبوا ثمارها . وهناك الطبقتان الاخريان اي التجار والمطاوعة . اما من الوجهة الحربية فالهجرة تقسم الى ثلاثة اقسام اخر لتلبية دعوات الحرب الثلاث ، اي الجهاد ، والجهاد مثنى ، والنفير . فالذين يلبون الدعوة للجهاد هم دائماً مسلحون وعندهم مطـــايا وشيء من الذخيرة . والجهاد مثنى هو ضعفا الجهاد ، فيجيء كل مجاهد بآخر يردفه ذلوله . هم الذين يلبون الدعوة الثانية والاحرى ان يسموا الرديف . اما القسم الثالث من الذكور فهم الذين يبقون في ايام الحرب في الهجر ليداوموا اعمال التجارة والزراعة ، ولا يُدعون للحرب الا اذا اضطر صاحب البلاد الى الاستنفار العام . من حقوق الامام وحده ان يدعو الى الجهاد والجهاد مثنى . اما الاستنفار العـام الذي لا يكون الا للدفـــاع عن الوطن ، فهو حق العلماء . ولكن السلطان يكتب اليهم معلناً حاجة البلاد الى الدفاع ، فيبادرون الى استنفار الناس اجمعين ، البدو والحضر والمهاجرين .

قال عظمة السلطان محدثاً عن الاخوان : « يجيؤننا في السلم فنعطيهم كل ما يحتاجون اليه من كسوة ورزق ومال . ولكنهم في ايام الحرب لا يطلبون شيئاً منا . في ايام الحرب يتزنر الواحد منهم ببيت الخرطوش ، ويبادر الى البندق ، ثم يركب الذلول الى الحرب ومعه شيء من المال والتمر ، . . . القليل عندنا يقوم مقام الكثير عند غيرنا . . . كنـــا نمشي ثلاثة ايام بدون اكل . يأخذ الواحد منا تمرة من حين الى حين يرطب بها فمه . . . نعم كانت الحاضرة اثبت قدماً واشد بأســـاً من البادية . اما الآن فالبادية المتحضرون ، اهل الهجر هم في القتال اثبت من الحاضرة واسبقهم الى الاستشهاد » .

ولكنهم في ما ظهر من بسالتهم ، وبطشهم ، وهول استشهادهم ، اورثوا عبد العزيز مشكلاً آخر كاد يفسد مشروعه الاصلاحي العظيم . فقد طغى الاخوان وتجبروا فضج الناس . راح الاخوان يحاربون من لم يتحضر من البدو فيكفرون ، وينهبون ، ويقتلون .

« انت يا بدوي مشرك – والمشرك حلال الدم والمال . انت يا ابا العقال من الكفار – انا اخو من طاع الله ، وانت اخو من طاع الشيطان » .

كذلك كان يسطو كل متعصب بالعصابة البيضاء على سواه من العرب ، فيعيّر ، ويسب ، ويسفك الدماء . وقد انتشرت من جراء ذلك الفوضى في البلاد ، وكاد ينقطع حبل الامن والسلام ، فعقد الامام في سنة ١٣٣٧ [١] مؤتمراً في الرياض للنظر في هذه الامور ، حضره كبار الرؤساء والعلماء ، وقرروا بعد البحث ما يأتي :

١ً – الكفر لا يطلق على بادية المسلمين الثابتين على دينهم .

٢ً – لا تفاوت بين لابس العقال ولابس العمامة اذا كان معتقدهما واحداً

٣ً – لا فرق بين الحضر الاولين والمهاجرين الاخيرين .

٤ً – لا فرق بين ذبيحة البدوي الذي في ولاية المسلمين ودربه دربهم ، ومعتقده معتقدهم ، وبين ذبيحة الحضر الاولين والمهاجرين .

٥ً – لا حق للمهاجرين ان يعتدوا على الناس الذين لم يهاجروا كأن يضربوهم ، او يتهددوهم ، او يلزموهم الهجرة

٦ً – لا حق لاحد ان يهجر احداً بدوياً كان او حضرياً بغير امر واضح ، وكفر صريح ، وبدون اذن من ولي الامر او الحاكم الشرعي .

---

(١) تدعى هذه السنة في نجد سنة الرحمة لان الوافدة الاسبنيولية التي غزت العالم بعد الحرب لم تستثن حتى البادية . فقد مات في قلب البلاد العربية الوف من الناس وفيهم ابن السلطان البكر تركي واثنان آخران من اولاده .

وقد ضمنت هذه القرارات منشوراً [١] من الامام والعلماء جاء فيه ما يأتي :

« ان معتقد المسلمين بدو وحضر واحد ، واصل المعتقد كتاب الله وسنة رسوله ، وما كان عليه الصحابة ثم السلف الصالح ثم ائمة المسلمين الاربعة ، الامام مالك ، والامام الشافعي ، والامام احمد بن حنبل ، والامام ابو حنيفه ، فهؤلاء اعتقادهم واحد في الاصل . . . . . قد يكون بينهم اختلاف في الفروع ، ولكنهم كلهم على حق ان شاء الله . »

وهذا الاصلاح العظيم ، اي تحضير البدو فيسلكون عاجلاً او آجلا المسلك الاوسع الذي فيه المدارس والتمدين ، لم يسبق له مثيل في شبه الجزيرة منذ ايام النبي .

(١) في الملحق نسخة من هذا المنشور كاملة .

الفصل التاسع والعشرون

صلح صغير

بعد ان نُكب الملك حسين في تربة، فخسر جيشه باجمعه ، فتح لابن الرشيد الشاب قلبه وخزنته ، ومستودع الذخيرة والسلاح في المدينة . فعززت جريدة القبلة اقوال الديوان الهاشمي : — عدوك عدونا يا ابني ، بل عدو العرب والاسلام . وهذا السلاح منا للحرب ، وهذا المال . اما الرجال ، فعندك شمر وفيها الاشبال .

وكان سعود بن عبد العزيز الرشيد قد عقد وعبد العزيز بن سعود ، بعد المناوشات الاخيرة قرب حائل في الشهر السابق لهدنة الحرب العظمى ، صلحاً سمياه صغيراً . والامير سعود هذا هو الذي فرّ به خاله ابن السبهان الى المدينة عند ما قتل اولادُ عبيد اخوته الثلاثة . الحجاز آواه صغيراً ، والحجاز يمده كبيراً بالسلاح والمال لمحاربة صاحب نجد .

وقد كان سعود بن عبد العزيز مثل اسمه عكس خصمه عبد العزيز سعود — عكسه في اصالة الرأي وبعد النظر . فلما جاءه من جلالة الحسين السلاح والمال ، وجميل الاقوال ، قبل في الحال .

اما ابن سعود عبد العزيز فكان قد ادخل خلال الحرب العظمى اسفين التوحيد في شمّر فشقها قسمين . وعند ما باشره ابن الرشيد العداء كتب الى رؤساء تلك القبيلة كلهم ، الاصدقاء والمتذبذبين والاعداء ، ينذرهم ويقول : « من كان معنا فليقدم الينا، ومن كان مع ابن الرشيد فليرحل اليه » . فكان الجواب من اكثر المقدّمين انهم مقيمون على ولائه ولَن يلبُّوا دعوة ابن الرشيد .

فلما ادرك الامير سعود ان قبائل شمر ليست معه يداً واحدة ارسل

الى عبد العزيز وفداً يقول انه قد تسرع، وانه آسف على مابدامنه. بل انه راغب في تجديد الولاء. فجُدد عهد الصلح، بالرغم من اعتراض اهل نجد، ولكنه لم يدم منذ ذاك الحين عاماً كاملاً، ولم يكن ابن سعود المعجل في نقضه كما تدل على ذلك حوادث هذا العام. فقد كانت السيادة في الجوف يومئذ للاميرنوري الشعلان، فاثارت بعض اعماله الاهالي عليه فحاربوه وارسلوا يستنجدون ابن الرشيد.

١٣٣٨ ه
١٩١٩و٢٠ م

انجدهم ابن الرشيد حباً وكرامة، وهو مسرور بعذر يقدمه للملك الحسين – كأنه يقول: «اضطرتنا فتنة الجوف الى تأجيل الحملة على ابن سعود» – ومسرور بفرصة سانحة للاستيلاء على تلك الناحية.

مشى سعود برجاله الى الجوف، فاصطدم هناك بقوات لنوري يقودها ابنه نواف وعودي ابو تايه فنازلوه وغلبوه، فارسل يستنجد شمر فلم يلبه في بادىء الامر رؤساؤها خوفَ بعضهم من ابن سعود، ومحافظةً من الاخرين على عهد الولاء واياه. على انهم ارسلوا اليه يستشيرونه في الامر فاجابهم: «اني على صلح وابن الرشيد فلا امانع من ارادوا ان ينجدوه».

وكان ابن الشعلان الشيخ نوري قد ارسل الى ابن سعود، عندما علم بما فعل اهل الجوف، يستنجده على ابن الرشيد، فكتب عبد العزيز اليه يقول: «اني صديق لك ولابن الرشيد، فلست اذن مشاركاً في هذه الحرب. ولكني انصح لك ان تتحصن في حصون الجوف، وتتخذ خطة الدفاع، فلا تهاجم ابن الرشيد ولا تحاربه في الخارج. لان جنوده مدربون على القتال وهم قديمو العهد في الحروب، وجنودك من البادية، من اهل البل (اِبِل) فلا يُركن اليهم، ولا هم في القتال اقران شمر».

لم يعمل نوري بنصيحة عبد العزيز، فكان من الخاسرين. اذ انه عند وصول نجدات شمر هجم عليهم كسروه شرّ كسرة، واستولوا على الجوف.

ولكن سعود بن الرشيد ، الذي كان يومئذ في الحادي والعشرين من سنه ، لم يعش بعد انتصاره على ابن الشعلان شهراً كاملاً . فقد ُقتل بعد ان عاد الى حائل. قتله ابن عمه عبدالله بن طلال ، الذي ُذبح كذلك في اليوم نفسه (في الفصل الثاني والثلاثون خبر هذه الفاجعة مفصلاً)وتولى الامارة بعده عبدالله بن متعب بن عبد العزيز بن الرشيد ، فاركب الى ابن سعود رسل السلام وهو يريد تجديد عهد الصلح والولاء .

وكان اهل نجد يعارضون في اجابة طلب ابن الرشيد المرة السابقة، فجاء عبد العزيز هذه المرة يشدد في شروطه ويجدد فيها. قال لرسل حائل : « اني مجيبكم في كل ما تطلبون ، ولكني الفت نظركم الى ما بدا من امرائكم السابقين ، وهذي هي كتبهم الى الشريف ينكثون عهوداً بيننا وبينهم ويرموننا باشنع التهم . يقولون اننا خوارج ، واننا ..واننا .. انا الان على هذا : اما شؤون شمر الداخلية فلا اتدخل فيها ، واما الخارجية فيهمني امرها . فقد طالما اضرت سياستها بنجد ومصالحه . لا بد اذن من تنازلكم عن ادارة الشؤون الخارجية في شمر واعترافكم لي بذلك. وينبغي انيكون الاعتراف خطاً لينشرفيعرفه جميع الناس».

وعاد الوفد الى حائل يحمل شروط ابن سعود الى اهلها والى اولي الامر فيها . اما اهلهـا واكثر المقدمين في شمر فاجمعوا على القبول . واما اولو الامر من آل السبهان والرشيد ، وبعض الزعماء مثل عقال بن عجيل وضاري بن طواله ، ناهيك بعبيد القصر والسيدة فاطمة السبهان جدة سعود – « ستي » فاطمة الحاكمة من وراء الستار – فأبوا كلهم ان يذعنوا لابن سعود وقالوا : الحرب ! فأعلنت الحرب .

الفصل الثلاثون

الاخوان في الكويت

بعد محق الجيش الحجازي في ترَبة لان عود العجمان في الاحساء ، فجاء مشايخ القبيلة الى امير تلك الناحية عبدالله بن جلوي يطلبون منه التوسط بالصلح بينهم وبين ابن سعود . وقد كتبوا كذلك الى الامام عبد الرحمن ، فطلب من ابنه عبد العزيز ، بعد ان تحقق اخلاصهم ، ان يعفو عنهم ففعل . وهم منذ ذاك الحين مقيمون على الطاعة والولاء .

اما الحرب في جبل شمّر فلم تحتدم نارها الا بعد سنة من اعلانها . كان قد جهّز عبد العزيز ابنه سعوداً بحملة على الجبل في صيف هذا العام ، فوصل بها الى وادي الشعَيبة جنوبي جبل اجا واغار على عربان لابن الرشيد كانوا هناك فاصاب منهم مغنماً . ولكنه لقلة مرعى الركائب في الصيف في تلك النواحي ولقلة ارزاق الجيش لم يتقدم الى حائل .

١٣٣٧ ﻫ
١٩١٨ م

وقد حدث في ذاك الحين حادث في نواحي الكويت شغل ابن سعود عن ابن الرشيد فاكتفى بارسال سريات عليه للغزو والمناوشات . اما حادث الكويت فله اسباب سابقة لا بد من الاحاطة بها في الرجوع الى تاريخ آل صباح .

بعد وفاة الشيخ مبارك تولى الامارة ابنه جابر ، فكان حصيفاً حكيماً . ولكنه توفي في السنة الثانية من حكمه ، فخلفه اخوه سالم نقيضه في السياسة والاخلاق . وقد جاء ذكره في كلامنا على النطاق الحربي في الكويت يوم كان يخادع الانكليز لا حباً بالترك ، بل طمعاً بالكسب من تجارة التهريب ثم عادى ابن سعود لظنه انه الناصح للانكليز بتحديد كمية الوارد الى

الكويت من البضائع فطرد التجار النجديين من بلاده سنة ١٣٣٦ ه . وكان قد أغضب عبد العزيز سابقاً في مساعدته للعجمان . أضف الى ذلك ان سالماً كان شديد التعصب على الوهابين .

بعد هذا التمهيد ندوّن الحادث الذي ادّى الى وقعة الجهرى بين الكويتيين واهل نجد .

ركب الشيخ سالم يخته ذات يوم وابحر الى مكان على الخليج بين جبيل والكويت يدعى بلبول ، فيه مغاص للؤلوء وميناء طبيعي حصين للسفن الشراعية . وقد كان في نيته ان يبني قصراً هناك وبلدة ايضاً تنافس جبيل بالتجارة والغوص. فلما علم ابن سعود بذلك كتب الى سالم ليمتنع عن العمل فابى . ثم كتب الى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت يخبره ان الشيخ سالماً في ما يقصد متجاوزٌ حدوده وحقوقه لان ذاك المكان من اراضي القطيف التابعة لنجد، وقد طلب منه ان يحول دون هذا التعدي . اما الشيخ سالم فكان يدعي ان بلبول ضمن حدود الكويت . ولكنه اذعن على ما يظهر للوكيل البريطاني فعدل عن قصده .

على ان المسألة تجاوزت هذا الحد . ان في تلك الناحية شمالاً بغرب من بلبول ماء يدعى قَرْية هو ملك قديم لعرب مطير . فنزح اليه بعض المهاجرين ــ الاخوان ــ من هذه القبيلة واسسوا هنالك هجرة لهم ، فاحتج ابن الصباح على هذا العمل ، وارسل اليهم فرقة صغيرة ، مئتي راجل ومئة خيال ، اكثرهم من عُرَيبدار[1] ، بقيادة احد ابناء الصباح اسمه دُعيج . وكان للكويت في المراعي القريبة من تلك الناحية بضعة الاف رأس من الجمال والغنم ، وليس هناك من يستطيع حمايتها اذا اُعتدي عليها .

---

(١) خليط من العربان لا ينتسبون الى قبيلة من القبائل .

سار دُعيج برجاله ، فنزل في حمَض قريباً من قرْية ، وارسل الى الاخوان يأمرهم بان يخلوا ذاك المكان والا — « نصبحكم وندبحكم » .

وكان الاخوان ، عندما علموا بقدوم عساكر الكويت ، قد ارسلوا الى فيصل الدويش امير الارطاوية يستنجدونه ، فبادر فيصل الى نجدتهم بالفين من رجاله ، وظل سائراً حتى وصل الى حمَض ، فصبح الكويتيين هناك ولكنه لم يذبحهم كلهم . فرّ دُعيج واكثر جنوده هاربين ، وقد تركوا وراءهم ذلك القطيع الكبير من الاباعر والغنم فكان للاخوان غنيمة باردة . كل ذلك وابن سعود في الرياض جاهل ما حدث ، فغضب عندما بلغه الخبر وكتب الى الدويش يؤنبه ويقول : « قد تجاوزتم اوامري التي تنحصر في الدفاع » . فاجابه ان الكويتيين جاؤا اخوانه صائلين وقد وصلوا الى مكان يبعد عنهم اربع ساعات فقط .

ثم امر ابن سعود ان تُجمع الاموال التي استولوا عليها، الابل والغنم والسلاح حتى والمواعين ، وتودع عند امير الارطاوية الى ان يجيئهم امر آخر بخصوصهم. فعمل الاخوان بالامر بعد ان ارسلوا اليه خمس الغنائم.

وكان الشيخ سالم قد عرض المسئلة على الوكيل البريطاني فاشار عليه بالتسوية السلمية، فارسل الى ابن سعود رسولين هما عبدالله السميط وعبد العزيز الحسن ، فاعتذر عبد العزيز عما حدث بدون امر منه . ثم قدم اليهما خمس الغنائم الذي كان عنده ، قـائلاً « هذا اول الاداء . واذا اركبتم رجالاً من قبلكم الى الارطاوية فآخره يُسلم اليهم هناك ».

ثم كتب الى الشيخ سالم كتاباً قال فيه: « السبب في هذا الحادث تدخلكم في ما لا يعنيكم . اعلموا ان لا حق لكم في بلبول او في قرية واني ارى ان يقرر ذلك في عهد يعقد بيننا وبينكم فنرعاه . اما ما كان لآبائك واجدادك حقاً على آبائي واجدادي فاني معترف به » .

لم يرُق هذا الكتاب سالماً ولا قبل بان تُرد الغنائم اليه . بل غضب

غضبة يقتضي لتعزيزها عند العرب جيش كبير ، لم يكن عنده غير اليسير منه . وفي ذلك الحين كانت المناوشات بين ابن الرشيد وابن سعود ، فكتب الشيخ سالم الى صاحب شمر يستنجده على « خصم الجميع » فلباه بان ارسل اليه ضاري بن طواله ، الذي كان يومئذ مخيماً في اطراف العراق . جاء ضاري مسرعاً بقوة من شمر ونزل الجهرى ، حيث كان دعيج ورجاله ، فامرهما سالم بالهجوم ثانية على قرية .

وكان ابن سعود قد جاء الحساء فبلغه خبر مغزى ضاري ودعيج فارسل الى الدويش يأمره بانجاد اهل قرية ، فتوكل الدويش على الله ، وكان مسراه في ذي الحجة عام ١٣٣٨ هـ (سبتمبر ١٩٢٠) ولكن الدعيج والضاري اختلفا في الطريق على القيادة فلم يهاجما احداً ، بل عادا الى الجهرى فتعقبهما الدويش ونزل الصبيحية .

وعلم الشيخ سالم بذلك فسارع بنفسه الى الجهرى ومعه خمسمئة مقاتل من اهل الكويت .

مشى الدويش باخوانه من الصبيحية وعددهم اربعة الاف ، فيهم خمسمئة خيال — « خيال التوحيد أخو من طاع الله » .

وكان سالم قد وزع قواته كلها ، نحو ثلاثة آلاف من الرّجالة والخيالة ، في حصون الجهرى وبساتينها .

وجاء الاخوان من الجنوب الشرقي فاشرفوا على الجهرى في ٢٦ محرم (١١ اكتوبر) من رأس منحدر لا صخرة فيه ولا شجرة. جاؤوا على عادتهم في الصباح وانحدروا كالسيل الى البساتين تحت وابل من الرصاص ، فكانت بنادق المدافعين المحصنين تحصدهم بالعشرات والمئات وهم يتقدمون مستبسلين مستشهدين .

١٣٣٩ هـ
١٩٢٠ م

ساعة من هذا الهجوم تلتها ملحمة كانت على جيوش ابن الصباح موتا احمر ففر من نجا ، ودخل الاخوان الجهرى فاستولوا عليها وعلى حصونها .

اما الشيخ سالم فكان قد تقهقر بقوة من جيشه الى قصر خارج البلد شرقاً منها، فتعقبه الدويش وحاصره فيه يومين كانا شبه هدنة للمفاوضات[١]. وكان سالم في ذاك الموقف الثعلب والدويش الذئب.

قال الذئب: « تعالَ كن معنا ومنا – كن موحداً – ونظف بيتك من الشرك والمنكرات. فلك اذ ذاك ما لنا وعليك ما علينا ».

فقال الثعلب: « وهل يرفض مثل هذه النعمة الا الاحمق. اني والله منكم – خيال التوحيد اخو من طاع الله. ولكن في بيتي ما يقتضي رجوعي اليه قبل ان اجيئكم. انتظروني في الصبيحية ».

صدّق الدويش وقفل راجعاً الى الصبيحية بعد ان قُتل في تلك الوقعة نحو خمسمئة من رجاله وثلاثمئة من رجال الكويت. وما ذلك بشيء في نظره اذا « ديّنت » الكويت وصاحبها.

ولكن سالماً عند وصوله الى الكويت طلب من الانكليز ان يحموا بلاده والا فهو يقبل شروط الاخوان. فبدأت المفاوضات البرقية بين الكويت وابي شهر، ثم بين حكومة الهند ولندن، واستمرت ثلاثة ايام. جزع خلالها الدويش وهو ينتظر في الصبيحية، فارسل وفداً من قبله الى « الاخ » سالم فتمارض ولم يقابله.

ثم جاء الجواب من الحكومة البريطانية ومعه ثلاثة مراكب حربية رست في مياه الكويت وشرعت ترسل في الليل الاسهم النارية تهويلاً وترويعاً. وفي اليوم التالي وصلت طيارتان من العراق.

---

(١) جاء في « تاريخ الكويت » لعبد العزيز بن الرشيد الذي حارب في وقعة الجهرى ما يلي: « ثم قال (الشيخ سالم) مخاطباً لابن سليمان (رسول الدويش) لماذا هذا القتال بيننا وكلنا مسلمون موحدون، وامامنا عدو لدود يريد القضاء علينا جميعاً. هيا بنا لنرمي الضغائن والاحقاد ونكون يداً واحدة عليه » .... ثم قال المؤلف: « وقد اكثر سالم القول هناك بما لا احب ذكره الان » (تاريخ الكويت الجزء الثاني صفحة ١٨٤).

شُفي اذ ذاك « الاخ » سالم من مرضه فقابل وفد « اخيه » الدويش في مجلس رسمي حضره الوكيل البريطاني الماجر مور ، الذي همّ بمخاطبة الاخوان فسمع جواباً اقنعه في الحال ان السكوت من ذهب .

قال حضرة الوكيل: «الشيخ سالم صديق لدولة بريطانية البهية وانتم جئتم تحاربونه بدون امر من ابن سعود ».

فقال رئيس الوفد : « ما جئنا الا بأمره . وهو ايضاً صديقكم » .

سكت اذ ذاك الوكيل واعتاض عن الكلام بكتاب ارسله الى الدويش وفيه ان حكومة بريطانية العظمى باسطة على الكويت حمايتها، وان من يحاولون الهجوم عليها يعرضون انفسهم لضرب الطيارات والمراكب الحربية .

ثمّ عاد الوفد الى الصبيحية يحمل كتاب الوكيل . وفي اليوم التالي طارت طيارة فوق ذاك المكان والقت بين الاخوان كتاباً آخر بمعنى الكتاب الاول .

وامر الدويش اذ ذاك بشد الرحال. ولكنه لم يشأ ان تكون الكلمة الاخيرة « للثعلب » فكتب اليه الكتاب التالي :

« من فيصل بن سلطان الدويش الى سالم الصباح سلمنا الله واياه من الكذب والبهتان ، واجار المسلمين يوم الفزع الاكبر من الخزي والخذلان .

اما بعد فمن يوم جاءنا ابن سليمان [1] يقول انك عاهدته على الاسلام والمتابعة، لا بمجرد الدعوى والانتساب، كففنا عن قصرك بعد ما خُرّب، وامرنا برد جيش ابن سعود، على امل ان ندرك منك المقصود. فلما علمنا انك خدعتنا آمنا بالله وتوكلنا عليه . يروى عن عمر انه قال : « من خدعنا بالله انخدعنا له . فنحن ، بيض وجوهنا ، نرجو الله ان يهديك،

(١) رسول الدويش الى سالم يوم كان محاصراً في القصر .

والا يسلطنا عليك . اياه نعبد واياه نستعين » .

مسكين سالم. لم يعش بعد ذلك طويلا. فبينما كان الشيخ احمد الجابر ابن اخيه والشيخ كاسب ابن الشيخ خزعل يومئذ امير المحمرة في « حفر العج » يفاوضان ابن سعود بالصلح — اي بعد بضعة اشهر من الحين الذي نُكب سالم فيه و«ديّن» واحتمى بالانكليز — جاء الناعي من الكويت ينعيه رحمه الله. وبعد وفاته في ١٧ جمادى الثانية ١٣٣٩ (٢٧ فبراير سنة ١٩٢١) انتُخب خلفاً له الشيخ احمد ابن اخيه جابر[١] انتخب وهو لا يزال في الحفر فكان في غنى عن وفد يصالحه وابن سعود .

---

(١) في الجزء الثاني من « ملوك العرب » القسم السادس . فصل في الشيخ احمد الصباح وسياسته

الفصل الحادي والثلاثون

فتح حائل

في صيف هذا العام (١٣٣٩ ه‍ - ١٩٢١ م) بعد ان عُقد مؤتمر القاهرة البريطاني ، برئاسة وزير الخارجية يومئذٍ المستر تشرشل الذي كان سائحاً في الشرق الادنى ، وتقرر ان يكون الامير فيصل ابن الملك حسين ملكاً على العراق ، عقد مؤتمر في الرياض ، حضره العلماء والرؤساء فقرروا ان يتخذ حاكم نجد الامير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ومن يخلفه بعده لقب سلطان . فكتب عبد العزيز كتاباً الى المفوض السامي لدولة بريطانية العظمى في العراق يخبره بما تقرر ويرجو ان يكون ذلك مستحسناً لدى الحكومة البريطانية البهية . وبينما هذا الكتاب في الطريق كان قادماً من حضرة المندوب في بغداد كتاب الى ابن سعود يخبره فيه ان قد تقرر انتخاب الامير فيصل ملكاً على العراق ويرجو ان يكون ذلك مستحسناً لديه . فاجاب عبد العزيز انه يكون مسروراً بما يريده العراق والدولة البريطانية للامير فيصل بشرط الا يكون ذلك مجحفاً بحقوق نجد او مضراً بمصالحه . ثم اعترفت الحكومة البريطانية في ٢٢ اغسطس (٢٧ ذي الحجة) لابن سعود ولمن يخلفه من ذريته بلقب سلطان .

وفي هذا الشهر عاد سعود بن عبد العزيز من حصار حائل ومعه اميرها الشاب عبدالله بن متعب آل رشيد ، فبسمت الرياض لطلائع النصر في الحرب ، ولبشائر الفوز في السياسة . ولكن الاعتراف بملك او بسلطان هو اسهل من تحطيم التيجان . وتقارض الولاء السياسي أسلس سبيلاً من حصار المدن . فلا يتبادر للذهن اذن ان في رجوع

سعود ومعه امير حائل الفوز المبين . ان فيه طلائع الفوز فقط . اما الامنية القصوى فدونها شهران من القتال لا يزدريها التاريخ .

لنعد اذن الى الحوادث التي تقدمت الحصار . فبعد المصالحة وابن الصباح استنفر ابن سعود اهل نجد ومشى الى الجبل بعشرة آلاف مقاتل يقود قسماً منهم اخوه محمد والقسم الآخر ابنه سعود ، وقد عهد الى الاول في محاصرة حائل والى الثاني في مهاجمة شمر . اما هو فتخلف في القصيم .

عندما وصل محمد الى اطراف المدينة قام اهلها يستأذنونه بارسال وفد من قبلهم الى عبد العزيز ، فأذن بذلك .

وقد جاء هذا الوفد يقبل بما رُفض منذ سنة من الشروط التي اشترطها عبد العزيز بخصوص شؤون شمر الخارجية . على ان الحوادث خلال سنة تقوم بالممالك وتقعدها . وخلال سنة يطرأ على السياسة ما يجعل امسها متنكراً ليومها .

لم يقبل عبد العزيز بما كان قابلاً به في السنة الماضية . وقد قال للوفد: « اعلموا ان الرئاسة القائمة بين عبد وامرأة[١] لا تدوم . واعلموا ان اموركم لا تستقيم ما زلتم تحت تلك الرئاسة . وما زالت اموركم كذلك ما زال الشقاق وما زالت الفتن . وهذا مضر بكم وبنا مضر بنجد وباهل نجد وشمّر . عليكم اذن ان تدخلوا في ما دخل فيه اهالي نجد لتنجوا من سيادة العبيد والمرأة ، وتريحونا وتريحوا انفسكم من ويلات الحروب . شروطي الآن اذن هي ان تسلموا الى شوكة الحرب وعائلة الرشيد . فيكون لكم اذ ذاك ما لنا وعليكم ما علينا . واذا رفضتم ذلك فاعلموا اني زاحف اليكم بنفسي بعد ثلاثة اشهر » .

اجاب الوفد : « سنعرض الامر على صاحب الامر ، فاذا قبل كان

(١) يشير الى نفوذ العبيد وفاطمة السبهان في الامارة .

خيراً والا فانت بريء الذمة » . وبعد ان عاد الوفـــد ورُفضت تلك الشروط خرج ابن طواله غازياً بعض قبائل ابن سعود في مكان قريب من حائل على مسير خمس ساعات منها ، ولكنه لم يعد من تلك الغزوة سالماً . فقد وافاه فيها الموت .

على ان موت هذا الزعيم الشمّري لم يؤثر بشجاعة المحاصرين والمرابطين خارج المدينة . فقـــد حدث بينهم وبين جنود ابن سعود مناوشات ومصادمات كانت يوماً لهم ويوماً عليهم ، فاستدعى عبد العزيز اخاه محمداً وامر ابنه سعوداً في محاصرة المدينة ، فحاصرها شهرين ، ولم يكن في نجاحه فوق من تقدمه لولا مجيء محمد بن طلال من الجوف وفرار الامير عبد الله بن متعب .

اما ابن طلال هذا فهو اخو عبدالله الذي قتل سعود بن عبد العزيز ، واما عبدالله بن متعب فهو ابن اخي سعود . فلا عجب اذا خامره شيء من الريب في ما ادعاه ، اي انه جاء من الجوف ليساعد في الدفاع عن حائل . نعم جاء يساعد في الدفاع بعد ان يقتفي اثر اخيه ، فيستولي على الامارة . هذا الذي كان يخشاه ابن متعب . وبما ان الحياة لديه وهو يومذاك لا يتجاوز العشرين سناً كانت اعز من الامـــارة فقد فر الى سعود بن عبد العزيز ، فرحب به واخذه الى الرياض كما تقدم غنيمة باردة . وكان عبد العزيز قد عاد الى العاصمة وامر سعوداً بالرجوع من الجبل لانه فقد هناك ، بسبب القيظ وقلة المرعى ، عدداً كبيراً من رواحله .

وبعد فرار ابن متعب والتجائه الى ابن سعود ، تولى الامارة محمد بن طلال آل رشيد ، وهو شاب شجاع مستهتر ، قد باشر القتال في حملة على قرى حائل وكان اهلها موالين لابن سعود ، حملات شعواء ، فهدمهـــا بعد ان قتل صبراً اغلب رجالها .

وكان ابن سعود قد امر فيصـــل الدويش بالزحف الى حـــائل

وبمحاصرتها الى ان يجيئه هو بنفسه . فمشى رئيس مطير بالفين من رجاله ونزل على ماء ياطب القريب من حائل ، فبلغه في اليوم الرابع من وصوله ان ابن طلال خارج بقواته الى الجثامية ، وهي على مسير ثلاث ساعات من المدينة ، فشد مسرعاً ومشى اليها فاحتلها قبل ان يصل ابن طلال الى النيصية القرية المجاورة لها ، ومعه الف وخمسمئة مقاتل من الحضر وسبعمئة من البدو ومدفعان .

عسكر ابن طلال في النيصية المحصّنة بتلال هي متاريس طبيعية ، يصعب التغلب عليها الا بقوة من الجيش كبيرة . اما الجثامية فهي في منبسط من الارض تقل فيه المكامن . ولم يتمكن الدويش من احتلال حصنها لان ابن طلال كان يضربه بمدفعيته ضرباً متواصلاً .

ومشى السلطان عبد العزيز بعد عيد الاضحى بيومين (١٦ اغسطس) بعشرة الاف مقاتل ومعهم بضعة مدافع . فلما اجتاز ام جريف الواقعة بين قِبَه وجراب ، بلغه خبر الدويش في الجثامية وانه وابن طلال في احتراب . فترك في الحال حملة الجيش وراءه وخف مسرعاً . وكان مسراه من ذاك الماء قبل دخول محرم بيوم واحد ، فوصل في اليوم الرابع منه (٨ سبتمبر) الى بقعة ، قرية من قرى حائل ، فالتقى هنالك

١٣٤٠ هـ
١٩٢١-٠٢٢

برسول من الدويش يحمل كتاباً ضمنه كتاب من ابن طلال اليه يقول فيه : « اننا جميعاً مسلمون وبيننا كتاب الله وسنة رسوله » . فقبل الدويش السريع التصديق ، وما كاد ينسى خدعة سالم الصباح ، وكتب الى ابن طلال يلبي الدعوة للتحكيم ويسأله ان يرسل وفده لهذه الغاية . وقد دفعت به الثقة الطائشة الى اهمال الجانب الشمالي من معسكره فلم يستحرسه ، فاغتنم امير حائل الفرصة وارسل ثلة من جنوده في الليل فاحتلوا ذاك المكان ، فاشرفوا على معسكر الدويش ، وشرعوا عند انبلاج الفجر يرمون الاخوان بالرصاص .

اركب الدويش نجاباً آخر الى السلطان يخبره بانه وابن طلال مشتبكان في القتال ، وانه خسر عشرة من رجاله وجرح عشرون .

وصل النجاب العصر الى مخيم السلطان فغضب لما حدث وامر ابنه سعوداً ان يركب بالخيل ويتقدمه مسرعاً . ثم وصل نجاب ثالث يخبر ان الاخوان كسروا جيش ابن طلال ، فارسل يأمر الدويش بان يلزم مكانه وألا يأتي بحركة اخرى الى ان يصل اليه .

ومشى السلطان وهو يقصد الهجوم على ابن طلال تلك الليلة . ولكنه اضطر ان ينتظر الحملة والمدافع ، فابطأ في السير . ولم يكن من المستطاع الهجوم في النهار لان ابن طلال ورجاله كانوا في حصون حصينة ، ولأن بين الحصون والمهاجمين سهلاً لا يحميهم شيء فيه ، ولأن جبل أجا ، وهو حصن طبيعي ، قريب منهم يلوذون به ساعة الهزيمة .

تقدم جيش السلطان عبد العزيز تدريجاً الى مركز الدويش ، فلم ينتبه ابن طلال الى ذلك ، ولم يكن عالماً بقدومه ناهيك بقربه منه . وعند العصر في اليوم التالي جمع السلطان قواده وتشاوروا في الامر فقرروا ان يكون الهجوم في الهزيع الثاني من الليل .

ومشى في ذاك الوقت نصف الجيش فقط ، فراح قسم منه يلف بابن طلال من جهة حائل ليقطعوا عليه خط الرجعى ، وتقدم القسم الآخر الى المكان المعد للهجوم فانتظروا هناك طلق المدافع التي بدأت ترسل قنابلها بعد صلاة الفجر قبل ان ينجلي الليل .

ثمَّ هجم الاخوان هجمة واحدة ، والقنابل تؤز فوق رؤوسهم ، فقتلوا عدداً من العدو وشتتوا صفوفه ، ففر ابن طلال واكثر رجاله الى جبل أجا ثم الى حائل ، ولاذ الاخرون بحصون النيصية . صوّبت المدافع على الحصون فقتلت اكثر من لاذوا بها وسلم الباقون .

فقال احد الذين سلموا يخاطب السلطان : «طبجيتكم ماهرون يا مولانا»

فقال عظمته : « لا . لا . كنا نضرب على النيّة في الظلام ، ولكنه توفيق من الله » .

بعد تقهقر ابن طلال الى حائل ارسل السلطان الى اهالي المدينة يقول: سلّموا تسلموا . فجاء الجواب بالتسليم على شرط ان يؤمّر عليهم ابن طلال والكتاب موحى به منه ، لانه كان لا يزال سائداً بمن ثبت معه من الجند وحزب بيت الرشيد . ولم يكن لاهل حائل زعيم يوحد كلمتهم ويعززها ، فانفذ ابن طلال فيهم سهام ارادته . على ان المغلوب لا يشترط الشروط . الى الحصار !

ان مدينة حائل كائنة بين جبلَي أجا وسلمى ، لها سهل يتسع الى الغرب ويضيق الى الشمال ، فيفتح من الجهة الشمالية الشرقية طريقاً الى النجف ، ويتقلص في الجهة الشرقية وفي شطر من الجنوبية . هي اذن محاطة من جهاتها الثلاث بالجبال ، ولا يمكن الاستيلاء عليها من غير الجهة الغربية والشطر الجنوبي الغربي الذي تمتد منه الطريق الى نجد .

في هذا الطريق جاء السلطان عبد العزيز فنقل من الجثّامية ، بعد ان تقهقر ابن طلال الى المدينة ، ونزل بينها وبين النيصيّة ، فقسم هناك جيشه الى فرقتين ، فرقة بقيت معه ، والاخرى تقدمت الى جبل أجا فملكت مركزاً منه حصيناً . وهناك مركز آخر يدعى عَقدة غرب البلد يحسبه اهل حائل أحصن حصونهم الطبيعية . تقدم الجنود ، وهم يضربون العربان النازلين الجبل في طريقهم ، فيقتلون ويشتتون ويغنمون الغنائم ، فاستولوا في اليوم السابع على عَقدة ، واستمروا زاحفين الى حائل ، وهم يتمترسون وراء اكياس من الرمل ، حتى وصلوا الى مكان بينها وبين جبل أجا فاتخذوه خطاً اولاً للدفاع . وكان الهاجمون وراءهم قد احاطوا بالمدينة من جهتيها الغربية والغربية الجنوبية .

قلت ان اهل حائل قبلوا بالتسليم على شرط ان يكون ابن طلال

اميرهم . ولكن الاكثرية فيهم نفروا من ابن طلال لظلمه وطغيانه وكانوا يئنون من الحصار . فقد ارسلوا الى السلطان عبد العزيز غير مرة يقولون : لا تتركنا فريسة لابن طلال . وفي الوقت نفسه كانوا يرجونه الا يضرب بالمدافع المدينة . وعندما ادرك ابن طلال ان الامارة لا تجيئه بواسطتهم كتب الى المفوض السامي لبريطانية العظمى في العراق يسأله التوسط بينه وبين ابن سعود . قال السر برسي كوكس في تقريره الى حكومة جلالة الملك : « بعد ان سلم الامير عبدالله (بن متعب) بن الرشيد تولى ابن عمه محمد بن طلال الدفاع عن حائل . وارسل الي مراراً يرجوني ان اتوسط بينه وبين ابن سعود . ولكن ابن سعود لم يقبل بذلك » .

دنت مدة الحصار من الشهر الثالث فكتب السلطان عبد العزيز الى اصدقائه في حائل يقول : « قد طال الحصار ، واقبل الشتاء ، فليعذرنا الاهالي اذا انذرناهم . لهم ثلاثة ايام ليسلموا المدينة وعائلة الرشيد ، والا فنحن الى غرضنا مسرعون بالرصاص والنار » .

فجاء الجواب وفيه ان الاهالي ينفضون ايديهم من ابن طلال وبيت الرشيد ، ويسلمون الحصون المحوطة بالمدينة اذا جاءتهم سرايا من الجيش .

ارسل السلطان الفين من رجاله ففُتحت لهم الحصون الخارجية المشرفة على حائل . ثم امّن الناس على ارواحهم واموالهم فخرجوا اليه افواجاً وهم يشكرون الله .

اما ابن طلال ، الذي شهد له حتى الاخوان بالبسالة والاقدام ، فعندما ادرك ان الأمر تفلت من يده تحصن وحاشيته في القصر ، فارسل السلطان عبد العزيز يؤمنه على حياته اذا هو استسلم ، ففعل .

استمر هذا الحصار خمسة وخمسين يوماً ، اي منذ وصول السلطان في ٤ محرم الى ٢٩ صفر ١٣٤٠ (٢ نوفمبر ١٩٢١) يوم سلم ابن طلال .

ولكن حائل كانت في حال الحرب اكثر من سنة قبل ذلك وكانت القوافل من الكويت والعراق منقطعة عنها ، فشمل اهلها الضيق . وكان السلطان عالماً بشدة حالهم فجاءهم متأهباً لتخفيفها — جاء بالمؤن ، وجاء بالثياب وبالمال — فاجزل للناس العطاء ، ووزع الوفاً من اكياس الارز والوفاً من الكسوات. قال لي احد الذين سلموا : كنا ليلة الحصار الاخيرة علـى آخر رمق نرى شبح المجاعة والموت فامسينا ليلة التسليم الاولى وكلنا شبعانون ، مكسيون مطمئنون » .

بعد ذلك شاورهم الفاتح في امر اميرهم : « ومن تريدون ان نؤمّر عليكم ؟ » فاجابوا قائلين : « واحداً من آل سعود اومن كبار رجالك» فقال عبد العزيز : « لست من رأيكم فقد كنا واياكم « قوم » (اعداء) مدة طويلة فلا يجوز ان نحكمكم الان مباشرة. وانا اعرفكم يا اهل حائل. انكم اهل قيل وقال . اصحاب فتن . ولكني لا اخشى ان اؤمّر عليكم واحداً منكم . واني اريد ان احافظ على كرامتكم. هـذا ابراهيم السبهان فهو منكم ، وهو رجل عاقل . هو اميركم . واني واثق بالله ، وعادته معي جميلة ، فهو سبحانه وتعالى ينصفني ممن يغدر او يخون » . اما ابراهيم السبهان فهو الذي مهّد السبيل لتسليم الحصون واتفق وابن سعود على ذلك فامّره بعدئذ على حائل .

الفصل الثاني والثلاثون

ماساة بيت الرشيد

لا بد لكل مأساة من حالق تهوي منه . لا بد من ذروة تملكها الحياة' المجيدة او السعيدة ، ثم تفقدها فتهبط منها الى الدرك الاقصى .

ينبغي اذن ان نصل والقارىء الى ذروة بيت الرشيد قبل ان نبدأ بالمأساة فيه . ولا بد قبل التصعيد من الوقوف عند سفح الجبل . — عند الاساس — فنتعرف الى المؤسس الكبير والى المشيّد الاكبر .

آل رشيد من آل خليل ، وآل خليل من آل جعفر ، وهؤلاء فخذ من عَبدهِ اكبر قبائل شمّر . وفي الفتوحات السعودية الاولى كان امير الجبل واحداً من هذه القبيلة يدعى الجربا ، حارب آل سعود فغُلب ، وأجلي َوعشيرته الى العراق . ثم امّر سعود الكبير واحداً من آل علي في حائل ، وقرّب منه رجال َهذا البيت ، فكان جبر اخو رشيد ، جد عبد الله ، كاتباً في ديوانه بالدرعية .

ولكنه لم يظهر في آل رشيد ، على ما نعلم ، اكبر من عبدالله الذي اختلف والاسرة الحاكمة يومئذٍ ، فرحل الى الرياض ، وانضم الى جيش فيصل ابن الامام تركي . وعند ما قتل تركي جاء فيصل بجيشه من الحساء ليثأر لابيه ، وكان عبد الله في ذاك الجيش ، بل في مقدمة من هجموا على القصر ، وقتلوا قاتل الامام ، فجازاه فيصل ، بعد ان تولى الامارة ، بأن جعله اميراً على حائل[١] .

وعبد الله بن علي بن رشيد ، مؤسس هذا البيت ، هو من اولئك

---

(١) راجع النبذة الثالثة صفحة ٩٣

الافراد المتقدمين بفضلهم في الناس ، اولئك الذين يسودون الناس بما يزين اعمالهم من الشجاعة ، والعدل ، والاحسان .

كان اميراً في حائل يوم جاءها المستشرق الاسوجي جورج والن[١] سنة ١٨٤٥ ، اي بعد عودة الامام فيصل بثلاث سنوات . وقد كان محمد علي باشا غير راض عن حكم فيصل فارسل هذا المستشرق الى حائل ليسبر غور بيت الرشيد عله يجد فيهم من يصلح لمناصبة آل سعود . ولكن الامير عبدالله كان يسعى في سبيل استقلال الجبل ، في استقلاله عن الرياض وعن مصر ، وما راقه قط ان يكون سيفاً بيد محمد علي يستلّهُ على ابن سعود . عاد جورج والن الى مصر . ثم جاء حائل بعد سنتين للمرة الثانية ، فكانت النتيجة شبيهة بالتي تقدمتها . فلم يفلح العالم الاسوجي بمهمته السياسية . ولكنه كان معجباً بالامير عبدالله ، وقد قال فيه كلمة نقلها هوَغرث لا ارى احسن منها ، وهي من اجنبي ، في تقدير هذا الامير العربي . قال والن :

« لم يكن نفوذ عبدالله ناشئاً عما كان له من الثروة والسيادة فقط . بل عما امتاز به ايضاً من السجايا الشريفة كالشجاعة والعدل ، وكرم الاخلاق والوفاء ، وحب الفقراء . فقد كان في احسانه مثله في عدله كبيراً ، ولم يُسمع عنه انه اخلف مرة بوعده . . . هذه الفضائل هي مصدر تلك القوة قوة عبدالله ، وذاك النفوذ نفوذه » .

وكان لعبدالله اخ اسمه عُبيد امتاز عنه بثلاثة امور ، بغلوّه في المذهب الوهابي ، وبخشونة طبعه ، وبنزعةٍ فيه شديدة الى القتال في سبيل الله والتوحيد . كان عبيد رسول الوهابية الاكبر في الجبل ، وكان بيته محط رحال الوهابيين في حائل ، ومرجعهم الاعلى ، والصلة بينهم وبين الرياض .

---

(١) George Augustus Wallin

لم يكن في اولاد عبدالله اكرم من طلال . ولكنه نكب في عقله وكان منتحراً . اما متعب اخوه فقــد كان من الوسط في الناس عقلاً وخلقاً وسياسة ، ولم يحكم غير سنتين لأن بندراً وبدراً ، ابني اخيه طلال ، طمعا بالامارة وانتزعاها منه بالسيف. قتل بندرُ وبدرُ متعباً، وتولى الحكم بعده احدهما بندر . وكان محمد بن عبدالله يومئذٍ عندالامام عبدالله بن سعود الذي وفق بعد سنة ، كما اسلفت القول ، بينه وبين ابن اخيه الامير الجديد .

عاد محمــد الى حائل فتولى امارة الحاج العراقي ، ثم في السنة التالية قتل بندراً بيده دفاعاً عن نفسه كما قال . وقــد امر بقتل ابناء طلال الاخرين فذبحوا في القصر كلهم الا واحداً هو بدر الذي فر الى البادية ، فتأثره العبيد وقتلوه ، فغضب الامير محمد لانه امرهم بالقبض عليه فقط، وقتل بسيفه العبد الذي قتل بدراً .

سيف الامير محمد ! قد رُوي عن صاحبه انه قال : « لا يُغمد سيف ابن الرشيد حتى يقتل اهل هذا البيت اجمعين » . وما كان في ما قــال واهماً . فقد مشى هو نفسه الى عرش الامارة على خمسة ارواح من بيت ابيه . وكان ذاك العرش لا يزال مقيداً بشيء من ارادة آل سعود — مقيداً بخيط رفيع قطعه الامير محمد بسيفه . وظل هذا السيف مستلاً في سني امارته كلها ، فـكان صاحبه فاتحاً ، وكان مستبداً ، وكان عادلاً . لكن نفسية الامير لم تخلُ من أثرٍ لغدر الزمان ، ظل بادياً في خلقــه حتى في ايام النصر والمجد ، فكان هذا المستبد العـادل مقتدياً في بعض اعماله بالزمان . كان اذا اراد محاربة البدو مثلاً يهجم عليهم في الصيف ، وهم على المياه في المضارب[1] . ان في ذلك شيئاً من الغدر ، ترفـع عنه

(١) البدو يصلحون مواشيهم في الربيع ، من شباط الى آخر ايار ، فيسرحون طالبين الحيا (المرعى) ثم في اشهر القيظ يردون المياه ويقيمون حولها مـالمين . ثم يظعنون في الخريف وعندما تخضر الحقول في آخر الشتاء . وهذه الاشهر في الخريف والشتاء هي غالباً اشهر الغزو والحرب عندهم .

من خلفه مثلاً من بيت ابيه اي عبد العزيز بن متعب .

اما انه كان سر ابيه في المرونة النفسيـة التي تلتوي ولا تنفصم فمما لا ريب فيه. أنَّ كل من قابله من السياح والمستشرقين الذين أمّوا حائل والقصيم في عهده الذي هو عهد شمّر الذهبي قد أُعجبوا به. اجل، قد حاز الامير محمد من السيادة في نجد ما حازه ابن سعود الكبير ، فرفع بيت الرشيد الى الذروة التي طاح منها مجد بيت الرشيد. هي الذروة التي تبدأ عندها المأساة موضوعنا الان . وهذه المأساة هي ذات اربعـة فصول ، وفاتحة وخاتمة .

الفاتحة : – شمّر تندب الامير محمداً وتقلد سيفه عبد العزيز ابن اخيه متعب فيخرج الى الحرب وشمّر تحدو امامه ووراءه . وفي الوقت نفسه يخرج سمي ابن الرشيد عبد العزيز بن سعود من الكويت غازياً فيلتقي العزيزان ويحتربان سبع سنوات فيخسر العزيز الرشيدي نصف الملك الذي كان لعمه محمد . وبالرغم عن مساعدة الاتراك لامير شمّر قبل الحرب العظمى ، ومساعدة الاتراك والالمان اثنـاء تلك الحرب ، ومساعدة الملك حسين بعدها،زلّت شمّر وهي على قمة الجبل ، فطاحت واستمرت طائحة .

الفصل الاول : يبدأ بقتل عبد العزيز في روضة مهنّا وينتهي بذبح اولاده الثلاثة .

المشهد الاول : سوق في بريدة يدخله جنود ابن سعود وهم يعلنون موت عبد العزيز الرشيد وينشدون : حِنّا اهل العوجا مروّية السنين ! (اسنة الرماح)

المشهد الثاني: في القصر بحائل ،وقد عقد مجلس حضره اولاد عبدالعزيز متعب ومشعل ومحمد فولّـي متعب الامارة .

المشهد الثالث : في قصر آخر بحائل ، قصر آل عُبيد . ابنـاء حمود

الثلاثة وهم فيصل وسعود وسلطان يتآمرون .

قد ذهب يوم عبدالله وجاء يوم عُبيد . هؤلاء الصبيان اولاد عبد العزيز لا يستحقون الامارة وسيتنازعونها ، فيذلونها ، ويفقدونها . علينا اذن ان ننقذها فتظل في بيت الرشيد ، علينا ان نريح الصبيان منها ونريحها منهم .

المشهد الرابع : في العراء خارج المدينة . فيصل وسعود وسلطان آل عبيد ورجاجيلهم وعبيدهم ومعهم متعب ومشعل ومحمد ابناء عبدالعزيز ، وقد دعوا ليوم صيدٍ فلبوا الدعوة .

كوكبة من الخيل خرجت من حائل ، وكل خيال يبغي الصيد ، ينشد الطريدة في الافاق ووراءها . الا ان طريدة آل عبيد كانت قريبة ، غافلة ، غير شاردة ٠ طريدتهم ؟ ها كها على الخيل امامهم .

فبعد ان خفيت اسوار المدينة ، عندمـــا غدوا في الفلاة ، لمز كلٌ من الاخوان ابناء حمود حصانه وساقه على واحد من ابنـــاء عبد العزيز ، فتناوله من السرج بقرونه (شعره) وغمد خنجراً في صـدره . طاح الثلاثة الاخوان الى الارض مضرجين بالدماء ، ولم يحرك احد من الحاشية يده دفاعاً عنهم . وما دخل العبيد ؟ رشيدي قتل رشيدي . ولكنهم وهم عبيد آل عُبيد هتفوا قائلين : والحمدالله هذه آخرة آل عبدالله .

الفصل الثاني : مشهد كلي . يرفع الستار وسلطان بن حمود بن عبيد متصدر في مجلس الامارة ، والى جانبه اخوه فيصل البسّام صـــاحب البسمة الابليسية الناعمة ، وفي مخدعٍ وراء المجلس الاخ الثـالث سعود يشحذ سيفه .

لم يكن سعود العبَيد على شيء عظيم من الصبر . فقد حنّ الى الامارة حنين الحبيب الى الحبيب ، ولم يأذن لاخيه سلطان بغير سبعة اشهر منها . وعندئذٍ — جاءت الساعة ولم يكن سعود متأهبـاً ، او انه شحذ

سيفه حتى انقصم ،فبادر الى حبل خنق به سلطاناً، ودفنه في حفرة بالقصر.

مشهد جزئي لينصب عمالُ المسرح عرشاً جديداً وراء الستار. ونحن اثناء ذلك نخبر عن ابن العزيز الرابع – الصغير – الذي فر به خاله ابن السبهان من القصر يوم الصيد المفجع. ان هذا المشهد في سوق من اسواق المدينة المنورة ، وفيه يسير ابن السبهان وابن اخته سعود بن عبد العزيز وحاشيتهما مسرعين ، وقد اتصل بهم خبر قتل سلطان ابن حمود .

– « وغداً يا ولَيد (ابن السبهان يخاطب ولي العهد الشرعي لعرش حائل) دور سعود ، ثم دور فيصل . سنرجع الى حائل ، الى حائل يا ولَيد – والامارة لآل عبدالله ان شاء الله » .

المشهد الثالث في حائل: ابن السبهان يدخل المدينة بجيش من العربان فيضرمون فيها نيران الثورة . ثم يهجمون على القصر فيقبضون على سعود بن حمود بن عبَيْد ويقتلونه في الغرفة التي قتل فيها اخاه سلطانا . فتصفق حائل استحسانا: مرحى مرحى! وتقلد سعود بن عبدالعزيز سيف الامارة.

مشهد جزئي نختم به هذا الفصل (وقد يعترض ارباب الفن على ختم فصل من فصول المأساة بمشهد جزئي ، ولكنهم يتغاضون لاهميته عن اخلالنا باحدى قواعد الدراما) .

المشهد الجزئي الذي ابغيه هو لفيصل المِبسام ، ثالث الاخوان ، الذي اجتمعت به في الرياض . ذاك الذي كان يبسم ، ويذنب ، ولا يغيظ . فقد اختلف واخاه سلطاناً ، فامّره على الجوف ليبعده عن العرش وكان ذلك رحمة منه . وكان فيصل مسروراً بذي الامارة الصغيرة وذاك البعد ، خصوصاً عندما علم بقتل اخيه الاول ، ثم بقتل اخيه الثاني .

ولكنه عندما علم برجوع آل عبدالله الى عرش الامارة لم يرَ السلامة

حتى في الجوف ، فهجر عرشه هناك ورحل شرقاً ، ثم جنوباً . رحل مسرعاً ، ولم يقف في ترحاله حتى وصل الى الرياض ، ورمى بنفسه بين يدي عبد العزيز بن سعود ، فرحب به ، واكرمه ، واتخذه لحقة في روحه خدناً ونديماً . وقد حزن عبد العزيز جداً عندما وافى الموت فيصلاً في الرياض سنة ١٣٤٢ ه

الفصل الثالث من مأساة بيت الرشيد يبدأ بالولد سعود بن عبد العزيز على عرش الامارة . ووراء ذاك العرش امرأة هي فاطمة السبهان جدة الامير ، وحول ذاك العرش عبيد القصر الطامعين بالسيادة . قد يكون هذا التوازن بين المرأة والعبيد السبب في دوام العرش سنوات عدة بالرغم عن العواصف التي كانت تعصف عليه من الجنوب — عواصف الاخوان .

مشهد جزئي : مجلس « ستي » فاطمة : صوت من وراء الحجاب فيه نبرات وغنات ، وارادة ماضية تحرك العرش ، وتحرك الجيش ، وتحرك يد العبد سعيد صاحب الخزنة . « ستي » فاطمة تستقبل الناس وتفاوض الوفود ، وتشير على الامير بالخطة السياسية التي ينبغي اتباعها .

كانت فاطمة السبهان فصيحة اللسان ، شديدة الشكيمة ، قصيرة النظر . تكره اهل نجد وآل سعود . وكانت سياسة الامارة بيدها ، وكذلك المالية بعد قتل سعود لان العبد سعيد كان قد عُزل .

ومن هو العبد سعيد ؟ في ايام سعود بعد ان بلغ سن الرشد كان لبعض العبيد مقام رفيع في الديوان الرشيدي . وكان الامير خوفاً من آل سبهان يقرب منه هؤلاء العبيد المماليك ويبالغ في اكرامهم ، ومنهم خصوصاً اثنان ، سعيد المحمد ، مملوك سوداني خصي ، حمل مفتاح الخزنة منذ ايام عبد العزيز بن متعب ، وسليمان العنبر الذي كان يحمل سيف الحجابة الاول ، ويدخل على الامير برأي حتى في السياسة مسموع .

كان الطواشي سعيد وزيراً للمالية اميناً ولا شك ، وكان سليمان العنبر مستشاراً مخلصاً . ولكن نظر الاثنين في شؤون الامارة نظرُ العبيد لا يتجاوز دائرة معقولهم الصغيرة .

اما « ستي » فاطمة ، تلك القوة وراء الستار ، وراء الحجاب ، فلا يخلو ما قيل فيها من مجال للنقد . ويكفي ما كان من نتيجة حكمها وهو اكبر حجةٍ على سؤ الادارة فيه .

بين هاتين القوتين مشى سعود بن عبد العزيز الى عرشه ، وبين هاتين القوتين قضى ما كُتب له من سني الحكم . ثم أخنى عليه الذي أخنى على اخوته . ولكنه لم يمت مثلهم في « الصيد » . مات سعود غدراً ، وكان الغادر اجبن الغادرين .

مشهد كلي في الفلاة : يجيء الامير للنزهة ومعه حاشيته وعبيده . الرجاجيل يعتنون بالخيل ، والعبيد يجمعون الحطب ، ويشبون النار للقهوة ، والامير يتبارى وعبدالله بن طلال الرشيد برمي الرصاص ، او كما يقول العرب بضرب النيشان (الهدف) ولم يلازمهما غير عبد واحد من العبيد .

وقد كان هناك رابع هو القدر جاء يسدّد الرصاصتين ، رصاصة الامير ورصاصة ابن طلال ، ويلحق العبد بالذهول .

اما هدف ابن طلال آل عبيد فلم يكن الهدف المنصوب . رفع الامير سعود بندقيته ، وابن طلال وراءه والبندقية بيده مصوبة في الظاهر علـــى « النيشان » فأطلقت الاثنتان في وقت واحد ، فاصابت رصاصة الامير كبد الهدف ، واخترقت رصاصة ابن طلال رأس الامير .

وكان العبد يحدّق الى الهدف معجباً برمي سيده ، فلم ينتبه الى ما حدث الا عندما خر للارض صريعاً . ولكنه وقد فتح فـــاه وعينيه هوى هو ايضاً في الحال . ولم يعطه القاتل فرصة للفرار او للصياح اذ

جاءت الرصاصة الثانية تبعثر دماغه فطاح كالخشبة الى جانب الامير .

رأى احد العبيد الاخرين ما جرى فصاح باخوته وهجموا على ابن طلال . ثم جاء الرجاجيل ومعهم عبد الله بن متعب بن عبد العزيز ، ابن اخ الامير المقتول . وهذا عثرة في سبيل العرش ، وابن طلال لا يبغي الان غير العرش . عليه اذن ان يزيل ابن متعب ايضاً من طريقه . قد أسلفنا من مهارته بالرمي مثلين — وهذا الثالث ؟

شرع ابن طلال يرمي عبدالله بالرصاص ، وكان العبيد يحولون دون مرماها ويطلقون كذلك بنادقهم ، فقتل واحد منهم ، واصيب ابن طلال برصاصة ابعدته عن العرش بل عن حطام الدنيا كلها .

الفصل الرابع : في القصر بحائل : عبدالله بن متعب جالس على عرش جده عبد العزيز — جالس على العرش ويده على رقبته خشية ان تجيئه الضربة غدراً - جالس على العرش وقلبه يخفق جزعاً ورعباً — جالس على العرش وعيناه الفتيتان محمرتان ، دامعتـان ، من الدم المراق على جوانبه . عرش نخر السوس في اركانه ، فتزعزع ، فهوى ، فامسى مسنداً وحصيراً في فناء الاضمحلال .

وماذا عساها تعمل « ستي » فاطمة — فاطمة شمر العظيمة — لانقاذه ؟ وماذا عسى يعمل العبيد ، ووفاء العبيد ، وشجاعة العبيد ؟ هبت هبوب الجنة ! هبت من الجنوب ، من نجد ، من العارض — ولا نجاة لهذا الامير الصغير ، لهذه البذرة الاخيرة من شجرة شمّر التي كانت تباري رواسي الجبال — هذه البذرة السوداء البيضاء التي تدعى عبدالله بن متعب — لا نجاة لها بغير التسليم ، والتسليم في الحال .

وهوذا ابن طلال الثاني محمد اخو عبدالله القاتل المقتول ، وقد جاء من الجوف ليدافع عن حائل . — عن حائل ؟ لا حاجة ولا سبيل الى اقناع عبدالله بن متعب . فقد فر ويده على رقبته ، ولاذ بابن سعود .

وهو اليوم ضيف مكرم في الرياض – آخر آل عبدالله الرشيد !

جاء ابن طلال الثاني وفي نفسه امل بانقاذ حائل وباعادة شيء من المجد الى شمّر . فوقف خارج المدينة ، وفي حصونها ، وعلى اسوارها ، يدافع عنها دفاع الابطال . ولكنها وهي تابعة لعرشٍ هوى ، لمجد تقلص ظله ، رأت خلاصها في انفصالها عن هذا المجد وذاك العرش ، وفي التسليم الى ابن سعود . فكان الفتح خاتمة المأساة ، مأساة شمّر وبيت الرشيد . بل كانت الخاتمة حصاراً ، ورصاصاً وناراً .

وكان محمد بن طلال بن نايف بن طلال من الذين سلموا : بل آخر الذين سلموا ، وهو الآن ضيف مكرم في الرياض .

خاتمة المأساة : المشهد الاول : بيت في الرياض يخرج منه ابن طلال في الليل وهو متخفٍ في ثوب امرأة ، فيقبض احد الرجال عليه ويجيء به الى السلطان عبد العزيز ، فيأمر بنقله الى القصر . وقد كان في القصر اسيراً يوم كان المسجل لهذه المأساة في الرياض . ثم أُطلق سراحه وهو اي المسجل لا يزال هناك .

المشهد الثاني : المجلس العالي بالقصر . السلطان عبد العزيز جالس على الديوان وعصا الشوحط بيده ، والى يمينه ويساره رجال بيت الرشيد . وعلى الدواوين والكراسي خمسون ونيف من وجهاء الرياض وعلمائها .

يدخل العبيد ومعهم ابن طلال ، فيجلسه السلطان الى يمينه ثم يقول : «اعلموا يا اهل الرشيد انكم عندي مثل اولادي . وانتم في الرياض تعيشون كما اعيش انا واولادي ، لا ازيَن ولا اشيَن . ثيابكم مثل ثيابنا ، واكلكم مثل اكلنا ، وخيلكم مثل خيلنا وازين . ترى الصحيح – وليس في القصر ، او في البلاد تحت يدي ما تبغونه ولا يجيئكم . ترى الصحيح . وهل منكم من يشك في ذلك . تكلموا» .

لم يفه واحد منهم بكلمة

« وانت يا محمد ، ما جرّ عليك الاسر غير نفسك ، غير عملك المشين . كن عاقلاً حكيماً . ولا تعر اذنك النساء . اني عالم بما تعمل وبما تقول . فاعقل لصالح نفسك . تجنّب الطرق التي فيها القال والقيل ، والتي تؤدي الى الفتن . كن صادقاً مخلصاً ، تُكرم كل الاكرام – تكرم مثل اهلك هؤلاء كلهم . والله بالله ان الضرر الذي يمسكم يا اهل الرشيد يحرك قلبي قبل لساني الى مساعدتكم . انت يا محمد واحد من بيتي الآن . . . وكل ما عندي للدفاع عن بيتي – عن العيال والحريم اقدمه اذا اقتضى الامر في الدفاع عنك – في الدفاع عنكم كلكم يا اهل الرشيد » .

ها هنا وقف السلطان ، فوقف من في المجلس ، واعطى يده الى ابن طلال قائلاً : « اعطيك عهد الله ما زلت مخلصاً لنا » . فصافحه ابن طلال وهو يقول : « اذا حدت عن الطريق الذي امرت به اقطع رأسي »

ثم قبّل عظمته في انفه وفي جبينه .

ثم صوت يهتف بالدعاء : « ادامك الله ووطد اركان ملكك » .

هو صوت كبير بيت الرشيد يومئذٍ ، ثالث ابناء حمود ، اخوان « الصيد » الثلاثة ، صوت فيصل المبسام غفر الله ذنوبه ، وذنوب اهل هذا البيت اجمعين .

امراء حائل الرشيديون

١ – عبدالله بن علي بن رشيد. مات موتاً طبيعياً سنة١٢٦٥ﻫ(١٨٤٨م.)

٢ – طلال بن عبد الله . انتحر في سنة ١٢٨٣ ﻫ (١٨٦٦ م .)

٣ – متعب اخو طلال. قتله ابناء اخيه بندر وبدر سنة١٢٨٥ﻫ(١٨٦٨م.)

٤ – بندر بن طلال بن عبدالله. قتله عمه محمد سنة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١م.)

٥ – محمد بن عبد الله الذي يدعى الكبير كان عاقراً ومات موتاً طبيعياً. تولى الامارة سنة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١م) . وتوفي في ٣ رجب ١٣١٥ﻫ (١٨٩٧ م) .استولى على نجد كله حتى وادي الدواسر .

٦ – عبد العزيز بن متعب بن عبد الله .قُتل في المعركة في ١٨ صفر ١٣٢٤ﻫ (١٩٠٦ م)

٧ – متعب بن عبد العزيز حكم عشرة اشهر . قتله واخويه مشعلاً ومحمداً ابناءُ حمود بن عبيد في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ ﻫ (١٩٠٦ م)

٨ – سلطان بن حمود بن عُبيد حكم سبعة اشهر . قتله اخوه سعود

٩ – سعود بن حمود بن عُبيد حكم اربعة عشر شهراً . قُتل في القصر

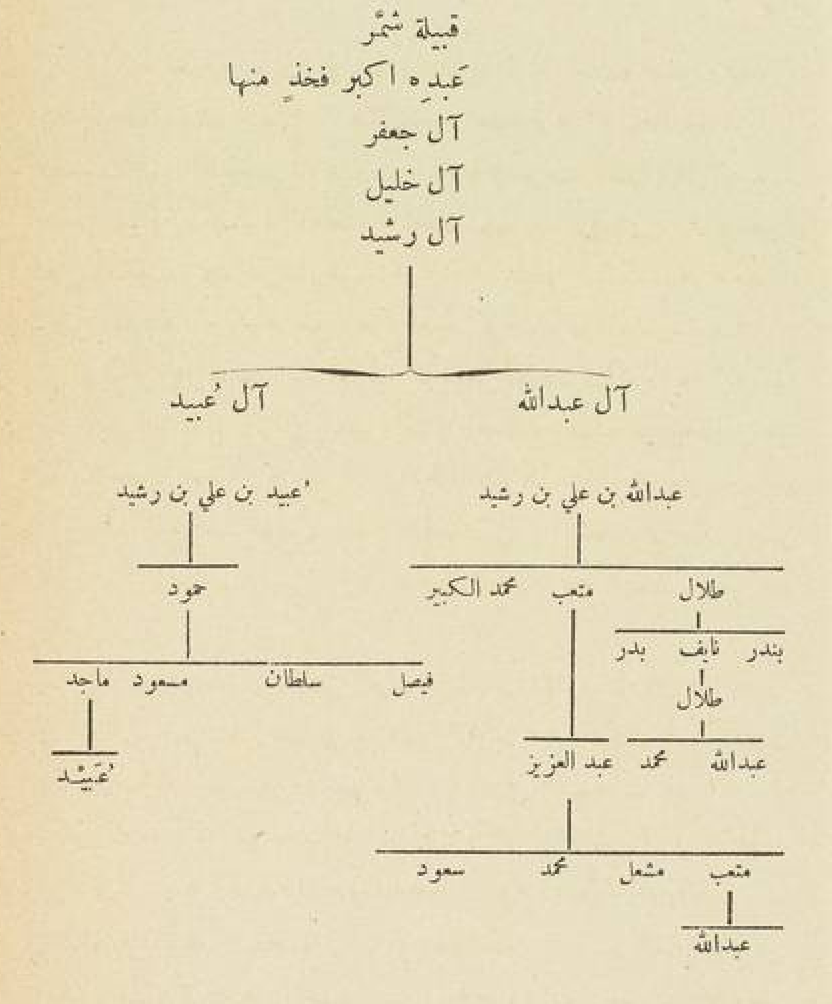
١٠ – سعود بن عبد العزيز بن متعب بن عبد الله . قتله عبد الله بن طلال سنة ١٣٣٨ ﻫ (١٩١٩ م)

١١ – عبد الله بن طلال لم يحكم . قتله عبد من عبيد سعود

١٢ – عبد الله بن متعب بن عبد العزيز بن متعب سلّم لابن سعود في ذي الحجة ١٣٣٩ ﻫ (١٩٢٠ م)

١٣ – محمد بن طلال بن نايف بن طلال . سلم لابن سعود في ٢٩ صفر ١٣٤٠ ﻫ (٢ نوفمبر ١٩٢١)

نسب بيت الرشيد



الفصل الثالث والثلاثون

آخرة آل عائض

في شبه الجزيرة جبالٌ غير أجا وسُلمى، وغير جبال اليمن وعمان، تستحق ان تُنعت بالزمردية. هناك جبال عسير وقد كساها الاخضرار، فضخمت فيها الاشجار، وغزرت المياه، وتنوعت الثمار. هي جبال عسير الممتازة بكنوزها الدفينة، ناهيك بهوائها، وهو في اعتداله مثل هواء الطائف، وبمناظرها وهي اروع من مناظر اليمن. وهي احصن الجبال للدفاع، ورجالها من صفوة العرب في البأس والبسالة.

ولكن اهل عسير اشد العرب نفرة من الاجانب، وابعد العرب اليوم عن المدنية. كانوا في الماضي قبائل مستقلة بعضها عن بعض، بل معادية بعضها لبعض. ولا يزال في الجهة الشرقية الجنوبية من اولئك الاعراب الذين يسلكون مسلك الاقدمين في الاستقلال والقتال، فهم لا يدينون لصاحب اليمن، ولا لصاحب عسير، ولا لصاحب نجد والحجاز.

اما اهل الناحية التي أطلق الترك عليها اسم متصرفية عسير فقد اقبلوا في ايام آل سعود الاولين على مذهب محمد بن عبد الوهاب، فترى مساجدهم وقد خلت من الزخرف، وقبورهم ولا قباب فوقها. هم يوحدون الله ولا يتوسلون الى سواه. وكانوا في تلك الايام يدفعون الزكوة للامام في الدرعية، مثلما يدفعونها اليوم للسلطان عبد العزيز.

اما قاعدة هذه المقاطعة أبها، التي تعلو سبعة الاف وثلاثمئة قدم عن البحر، فهي قائمة على رأسي وادي ضلاع ووادي شهران، في جبل سراة بين اكام وقمم تنتصب كالحراس حولها. وهي مؤلفة من ثلاثة قرى

او احياء منفصلة بعضها عن بعض ، ولا اسوار لها . انما تحوط بها ثماني قلاع صغيرة – مفاتيل – تسع الواحدة عشرة من الجنود .

وحول أبها القبائل التي كانت في الماضي تحارب بعضها بعضاً ، وتحارب الترك ، وتحارب نجداً والحجاز . ولكنها اليوم موثقة بعرى السيادة السعودية ، متآخية في التوحيد الديني والسياسي . حول ابها بنو مغَيط ، وبنو دُليم ، وبنو مالك ، وبنو زيد . وشمالاً منها بَالأسمر وبَالأحمر وبنو شهر ، وشرقاً خميس مشيط [١] قاعدة زهران .

وفي هذه الناحية وادي شعاف الذي يقطنه آل يزيد ، ومنهم آل عائض الذين يدعون انهم من سلالة معاوية بن ابي سيفان ، وانهم نزحوا الى عسير بعد سقوط الدولة الاموية في الشام . ولكنهم لم يكونوا قبل الفتح السعودي امراء في عسير . وعندما امّر سعود الكبير في هذه الجبال رجلاً يدعى ابن مُجثل كان عائض جدُ الاسرة من الرعاة . ثم جاءت الجنود المصرية . وجاء محمد علي بنفسه يقود الحملة على اهل عسير ، فكان آل يزيد من المتقدمين المستبسلين في القتال ، وكان عائض بطل آل يزيد فامّره ابن مُجثّل مكانه ، وكتب الى ابن سعود يوصيه به فاثبته في الامارة . ثم خلفه بعد وفاته ابنه محمد – محمد الفاتح – الذي بسط سيادة آل عائض في ما دون السراة من البلدان ، فوصل شرقاً الى بيشة ، وشمالاً الى حدود الحجاز ، وجنوباً بغرب الى المخافي تهامة .

وكانت قد تزعزعت في عهده سيادة آل سعود ، وعادت الدولة العثمانية الى اليمن ، فجهزت على عسير حملة بقيادة المشير رديف باشا الذي قتل محمد بن عائض غدراً . ثم تأسست متصرفية عسير ، وظلت الدولة تحافظ على نفوذ آل عائض وتستعين به ، بل كانت تعين احد امراء هذه

---

(١) خميس مشيط هي على مسافة خمسة عشر ميلاً من ابها وهي في طريق الحاج اليماني الذي يجتمع فيها بحجاج عسير ويسيرون جميعاً الى مكة .

الاسرة معاوناً للمتصرف . وآخر من تولى هذه الوظيفة منهم هو حسن بن علي ، حفيد الامير محمد ، الذي عينه في سنة ١٩١٢ المتصرف سليمان شفيق كمالي باشا .

ثم شبت الحرب العظمى ، وجلا الترك عقب الحرب عن عسير ، فتولى حسن الامارة واستقل بها . بل كان مستبداً ظالماً ، فنفرت منه القبائل خصوصاً قحطان وزهران ، وارسلت وفودها شاكية الى ابن سعود . فبعث عبد العزيز اليهم بستة من علماء نجد وكتب الى الامير حسن والى رؤساء قحطان وزهران ينصحهم بالمسالمة ويدعوهم للرجوع الى ما كان عليه اجدادهم .

ولكن الامير حسناً استمر في سياسته ، فابى توسط العلماء ، وردهم مكابراً . — « اذا كان ابن سعود يتدخل في شؤون قبائل عسير فسنمشي الى بيشة النخل (قلعة بيشة) ونستولي عليها » .

عندئذٍ ارسل السلطان ابن عمه عبد العزيز بن مساعد بن جلوي (امير حائل والجوف اليوم) ومعه الفان من الجنود ، وامره بأن يدعو ابن عائض اولاً للسلم فيكون مع ابن سعود كما كان اجداده الاولون .

مشى ابن مساعد في شعبان سنة ١٣٣٨ (مايو ١٩٢٠) وعندما دنا من ابها في الشهر التالي كفاه ابن عائض مؤونة الدعوة للسلم فخرج اليه بجنوده وتصادموا في مكان يدعى حَجلة بين العاصمة وخميس مشيط ، فكانت الوقعة شديدة ، وكانت الهزيمة على اهل عسير .

ثم دخل جيش ابن مساعد أبها ، وواصل سيره غرباً بجنوب فاستولى على السراة وغيرها من النواحي التي تتصل بحدود السيد الادريسي . وكان الادريسي موالياً لابن سعود فأسر بعض آل العائض الفارين [1] ورجع حسن وابن عمه محمد الى ابن مساعد مستأمنين مستسلمين ، فأمنهما

---

(١) اخلى بعدئذ سبيلهم اجابة لطلب السلطان عبد العزيز .

وارسلها الى الرياض حيث اقاما شهراً بضيافة السلطان ، واتفقا واياه على ان يكونا معه كما كان اجدادهما مع اجداده .

قال عبد العزيز : « ما تخلينا ابداً عنكم يا اهل عائض . وعند ما سأل الترك الشريف عبدالله بن عون ان يهاجمكم وينكّل بكم ، ارسل الشريف يستنجد عمي الامام عبدالله فاجابه: ابن عائض رجل منا فكيف نساعدك عليه ؟ »

ثم عرض امارة عسير على حسن بالشروط التي تقيّد بها اجداده فرفضها قائلاً : « قد عادينا الناس ونخشى اذا امّرتنا ان يقوموا علينا . ولكننا نكون معاونين لمن تؤمرون أيدكم الله . ولا تقصروا عنا من جهة الدنيا » .

لم يقصر ابن سعود . فقد اعطاهما خمسة وستين الف ريال (٦٥٠٠ ليرة ذهباً) وخصها واهلهما بالمشاهرات المالية .

عاد الاميران الى بلادهما راضين مغبوطين ، فاقام محمد في أبها عند حاكمها وكانت سيرته حسنة . اما حسن فاستأذن بأن يسافر الى حرملة بلدته ليجيء بعائلته الى العاصمة فأذن له بذلك . ولكنه عندما وصلها تمنّع فيها وشرع يدس الدسائس على ابن سعود .

ثم مشى ، بعد فتنة اثارها ، بقوة من قومه على أبها ، فحاصر الامير فيها عشرة ايام ، واضطره الى التسليم ، فسلّم ، فأسر في خميس مشيط .

وكان قبل ذلك قد جازف هذا الامير بسيادة ابن سعود في بني شهر المقربين من الديوان الهاشمي بمكة . فقد كان لابن سعود عامل في تلك الناحية ارسل مرة مع احد رجاله مالاً الى امير ابها . فقتله بعض العربان وسلبوا المال ، فارسل الامير الى بعض الاخوان من قحطان يأمرهم بمهاجمة بني شهر . هجم الاخوان على ادنى اولئك العربان منهم ، فاشتبكوا واياهم في القتال وكانت الغلبة عليهم . وكان الملك حسين

يستنهض بني شهر ليكونوا وابن عائض يداً واحدة على ابن سعود ، ويمدهم بالذخائر وبالمال ، فتفاقم الامر ، واشتد الخطر على السيادة النجدية في عسير .

استمرت هذه الحال ما يقرب من شهرين . وبعد سقوط حائل ببضعة اشهر جهز السلطان عبد العزيز ابنه فيصلاً بحملة على عسير مؤلفة من ستة الاف من جنود نجد ، من الاخوان ، واربعة الاف من عرب قحطان وزهران انضموا اليهم عندما دخلوا تلك الجبال .

مشى فيصل في الشهر العاشر من عام ١٣٤٠ (يونيو ١٩٢٢) فلما وصل الى بيشة كان بنو شهر زاحفين اليها يريدون مهاجمتها ، فامر فيصل بابتداء القتال ، فهجمت عليهم كتيبة من الجيش فقتلت مئتين منهم وشتتت الباقين .

وكان محمد بن عائض مرابطاً بجيشه في خميس مشيط . فعندما علم بدنو فيصل تقهقر الى حَجلة ، فتقفته سرية من الفرسان ، فتراجع وجنوده الى ابها بدون قتال .

سألت الامير : « وهل كان في ابها عند ما دخلتموها » فقال : « ما وجدنا فيها غير الكلاب والحريم » . فر آل عائض وقومهم ، وفر معهم هارباً من استطاع . فارسل الامير فيصل يؤمن الناس بشرط ان يسلموا « شوكة الحرب » فسلم فريق من الذين كانوا ثائرين ، وظل فريق مع الامير حسن الذي لجأ الى بلدته حَرملة وتحصن فيها .

وحَرملة هذه هي في معقل من الجبال يستحيل ارتقاؤها الا من منافذ معلومة لا يعرفها غير اهلها . كان آل عائض في محاربتهم الاتراك يلجأون اليها ، وهي بلدتهم وحصنهم المنيع منذ القدم . اما الامير محمد فقد هرب الى القنفذة ومنها سافر الى الحجاز ليستنجد الملك حسيناً ، فانجده بحملة صغيرة يقودها الشريف عبدالله بن حمزة الفعر ومعها مئتان

من الجنود النظامية وبعض المدافع والرشاشات بقيادة الملازم حمدي بك[١].

جاءت الامير فيصل اخبار العائضين ، فارسل على حسن في معقله بحرملة سرايا من الجيش ، الواحدة تلو الاخرى ، وبعد تذليل العقبات ، ومعركة دامت ست ساعات ، استمر الاخوان في التصعيد حتى وصلوا حرملة فلم يجدوا حسناً فيها ، فهدموا قصورها وحصونها وعادوا الى ابها .

وكان الامير قد ارسل قوة من الجيش الى تهامة لمحاربة القادمين من الحجاز . ولكن تهامة كانت على الاخوان اشد في حرّها وحُمّياتها من صخور حرملة ، فلم يمعنوا فيها ، بل عادوا منهزمين - هزمتهم الحمى - الى الجبال ، فتقفى جيش الحجاز اثرهم .

اما القيادة في ذاك الجيش فقد كانت مقسومة غير متفق عليها . قال الشريف عبدالله بن حمزة بخطة في السير ، وقال حمدي بك قائد الجنود النظامية بخطة اخرى . ولكن الكلمة الاخيرة كانت للشريف فمشى بالجيش في الطريق التي حذره منها حمدي بك .

وكان ذلك من حظ الاخوان الناقمين على تهامة ، الطالبين الثأر من الجيش الذي جرهم اليها ، اذ ما عتّم ان وقع الشريف عبدالله في الشرك ، فاحاط به اهل نجد وكادوا يفنون جيشه بالرصاص وبالسيف . نجا القائدان بقسم من رجالهما ، البدو والنظام ، ولاذوا ببارق ، فتعقبهم الاخوان ، ففروا منها منحدرين الى تهامة ، متقهقرين الى القنفذة .

وبعد فرار العائضين حسن ومحمد[٢] وهزيمة الجيش الحجازي ، أمّر الامير فيصل في ابها ابنَ عفيصان[٣] واقام فيها حامية عددها خمسمئة جندي . ثم عاد بما بقي من جيشه الى الرياض ، فوصلها في ٢١ جمادى الاولى ١٣٤١ (٨ يناير ١٩٢٣) يوم كان مؤلف هذا التاريخ هناك .

(١) هو اليوم قائد الحامية في ينبع .

(٢) هما اليوم في الرياض

(٣) يظهر ان آل عفيصان عريقون في الولاء لآل سعود ، مقربون منذ القدم منهم . جاء في تاريخ البحرين ان عندما استنجد آل خليفة الامام عبد العزيز بالدرعية على اهل الزبارة بقطر انجدهم بجيش يقوده ابن عفيصان

الفصل الرابع والثلاثون

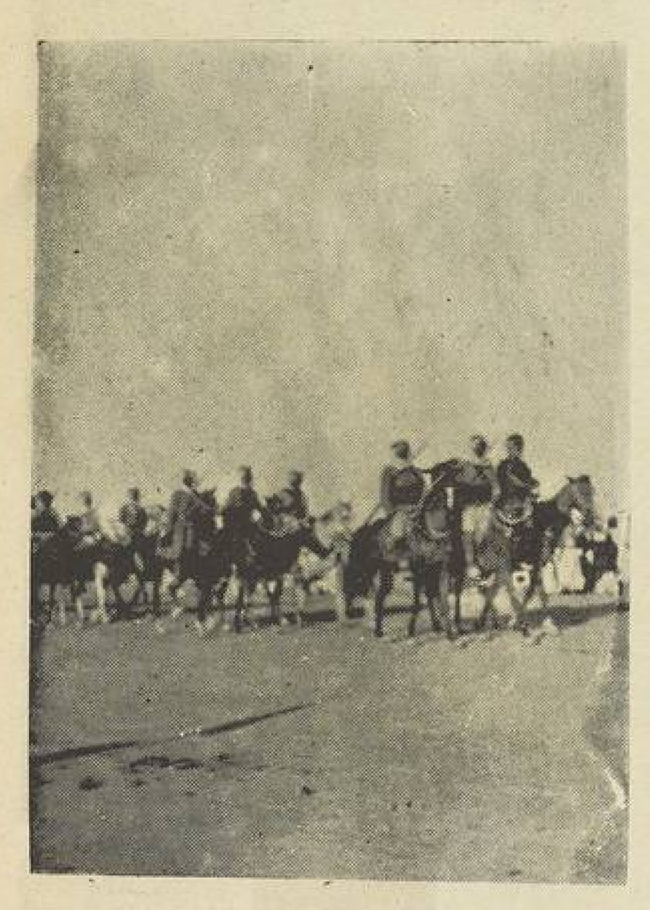
الاخوان في العراق

عندما وصل سعود الكبير سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) الى الجبل والجوف في فتوحاته ، دخلت شمر الا قليلاً منها في المذهب الوهابي لخلوه من الزيادات في العبادات ، واملاً بالتخلص من الحكم العثماني . على ان ابناء الجبل لا يشبهون في النزعة الدينية اهل العارض ، فلم يؤثر المذهب الجديد في عصبيتهم الشمرية . ولا أثر فيها النزوح الاول الى العراق ، عندما اجلى ابن سعود « الجربا » وعشيرته من الجبل ، في العقد الاخير من القرن الثامن عشر .

ظلت شمر من اكبر قبائل العرب عدداً ، وارسخهم في القومية ، وابسلهم في القتال . وقد كانت في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر ركن ملك ابن الرشيد ، ونار علمه ، وآية عزه ونصره .

اما الدعاوة المذهبية في الجبل ، في بداءة هذا القرن ، فقد اختلفت بامرين عما سبقها في بداءة القرن الماضي ، او انها تنزهت عن امر هو ديني وتخلصت من آخر هو سياسي . لم يكن في الجبل من يكرّه الناس بالمذهب الوهابي الحنبلي في حملاته الفظيعة على « المشركين » . ولم يكن للدولة العلية . في الرابع الذي ولى من هذا القرن ، ما كان لها من الشوكة في الممالك العثمانية ، ومن الهيبة والنفوذ في العالم الاسلامي . فلم تتمكن السياسة التركية الاسلامية من مقاومة الدعاوة الوهابية ، خصوصاً لان تلك الدعاوة كانت في الاجمال سلمية . فقد مشى المطاوعة الى الجبل قبل ان يزحف اليه الاخوان .

وعندما كثرت الهجرة الى العراق ، خصوصاً من قبيلة عبده



جيش الحجاز النظامي



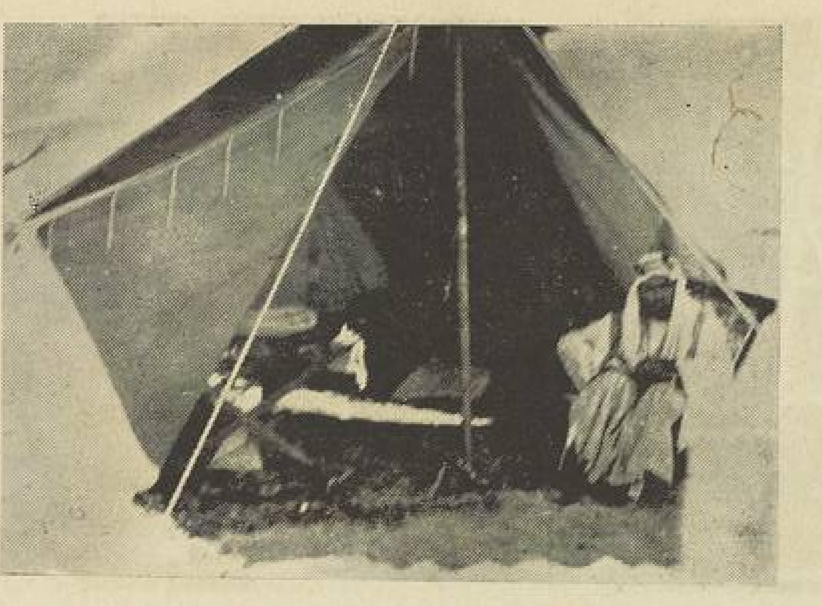
حسين العويني



احد مداخل الرياض عاصمة سلطان نجد



الملك عبد العزيز سعود في مؤتمر العقير



امين الريحاني في خيمته في مؤتمر العقير



الملك علي بن الحسين في « الورشة » بجدة امام احدى
المصفحات سنة ١٩٢٧



بيت الشيخ محمد ناصيف الذي كان ينزله الملك عبد العزيز
كلما جاء الى جدة



المحمل المصري

الشهيرة بسبب ما تكرر في بيت الرشيد من الجرائم السياسية الفظيعة ، تعددت عوامل التفكك في شمر ، فضعفت تلك العصبية التي كانت ركن الجبل وسيف ابن الرشيد ، ولم تحل محلها عصبية مذهبية لان اهل الجبل لا يغالون في الدين كما قلت مثل اهل العارض .

ولكن السياسة كانت تستثمر ما تبقى من العصبيتين . فالذين فروا من الجبل الى العراق ، قبل حصار حائل ، دخلوا هناك في العشائر المعادية لعشائر نجد واشتركوا في الاغارات التي تكررت عليها . والحق يقال ان الفوضى اثناء الحصار ضربت على حدود العراق اطنابها . فعجزت عن مكافحتها حكومة بغداد الجديدة الضعيفة ، وشُغلت حكومة نجد عنها في الحرب .

اجل ، قد تكررت الاغارات من العشائر بعضها على البعض الآخر . وكان عربان المنتفق والظفير يسطون خصوصاً على عشائر نجد ، فكتب السلطان عبد العزيز الى حكومة العراق يستدعي نظرها للامر ، ويطلب ان يُردع الاشقياء ، وترد المنهوبات التي نُهبت من عشائره .

اما هذه المنهوبات فكان اكثرها عند الظفير ، وشيخها نافر من تلك الحكومة الجديدة ، بل خارج عليها ، فلم تملك قياده ولا كان لها في عربانه الامر المطاع . وقد كان ابن صويط على عداء قديم وابن السعدون يوسف بك المنصور ، والاثنان عدوان لابن سعود ، فقامت حكومة العراق تنفّر في سياستها واحداً منهما اليه .

قال السر برسي كوكس[1] في تقريره الى الحكومة البريطانية : « لم تكن العلاقات حسنة بين حكومة العراق وشيخ الظفير حمود بن صويط ،

(١) Sir Percy Z. Cox عندما اعلنت الحرب العظمى انتدب السر برسي كوكس رئيساً للحكام السياسيين لفرقة D من الحملة الهندية لفتح العراق . ثم عين بعد ثورة ١٩٢٠ مندوباً ساميا لحكومة بريطانية العظمى في العراق راجع « ملوك العرب » الجزء الثاني صفحة ٣٣٥ وما يليها .

وقد امسكت عنه المشاهرات لانه لم يودع عشائره عن الغزو والاعتداء..
ومن سوء الحظ ان الملك فيصلاً عين في هذا الوقت يوسف بك السعدون
قائداً لفرقة الهجانة على الحدود ، وبينه وبين ابن صويط عداءٌ قديم ،
فاهاج ذلك خاطر شيخ الظفير الذي رحل الى الرياض . وقد كتبت الى
ابن سعود اسأله الا يستقبله لان حكومة العراق غير راضية عنه ».

ولم يكن ابن سعود راضياً عن حكومة العراق ، لان تعيين
يوسف بك السعدون قائداً لفرقة الهجانة لم يكن على ما يظهر للدفاع
فقط ، بل شملت مهمته النظر في شؤون البوادي التي تسرح وتمرح على
حدود البلدين نجد والعراق .

ولاسباب اخرى قد رحب السلطان عبد العزيز بشيخ الظفير ابن
صويط عندما جاءه مستغفراً ، واعطاه الامان على شرط ان ترد عربانه
كل ما نهبت من اهل نجد ، وان لا يشمل العفو غيرهم من المذنبين . ثم
اجزل له العطاء ، وارسل معه احد رجاله عبد الرحمن بن معمر للتأمين ،
ولجمع الزكوة من اهل الظفير المستلمين .

وفي جمادى الثانية من عام ١٣٤٠ (فبراير ١٩٢٢) نقل يوسف بك
السعدون بفرقة الهجانة الى ابي الغار ، على مسير يوم من سوق الشيوخ
غربي سكة الحديد بين البصرة والناصرية ، فزاره المتصرف هناك ، وامر
العربان بان لا يؤدوا الزكوة الى ابن سعود .

اما ابن سعود فعندما علم بمشى السعدون امر فيصل الدويش في
الارطاوية بان يمشي الى الحفر ويعسكر هناك للدفاع عن عشائر نجد .
وكان ابن صويط قد بدأ ينفذ في عربانه اوامر ابن سعود ، فعصاه
واحد من المتقدمين فيهم اسمه ابو ذراع ، وخرج الى آل طواله ، من
شمر العصاة ، وشرع يشن الغارات واياهم على عشائر نجد . علم الدويش
بذلك ، وهو على الحفر ، فشد على ابن طواله وابي ذراع .

وكان يوسف بك السعدون قد زحف بهجانته على ابن صويط ومن معه من رجال ابن سعود ، فنزل ليلة ذاك النهار في مكان قريب من مناخ ابي ذراع وابن طواله .

فهجم الدويش على هذين الزعيمين ورجالهما فغلبهم وغنم اموالهم ، فبادرت هجانة يوسف بك الى الدفاع عن المغلوبين ، فما عتموا ان صاروا مثلهم . ضربهم الدويش دفاعاً ، فانقلب الدفاع هجوماً ، لان الاخوان المنتصرين ظلوا ماشين الى ابي الغار ، فدخلوها في ١١ مارس ونهبوها . ثم تأثروا جيش السعدون فادركوه في شقره ، التي تبعد عشرين ميلاً من ابي الغار الى الجنوب ، فضربوه ضربة ذهبت باكثر اولئك الهجانة وشتتت الباقين . وقد خيم الاخوان في تلك الناحية بضعة ايام ، فضجت كربلا والنجف ، ضج العراق باجمعه .

على ان الحكومة الانكليزية فعلت بالدويش وجنوده ما فعلته سابقاً في الصبيحية بالكويت . ارسلت عليهم الطيارات ، ومن الطيارات القذائف المدمرة المبددة .

ثم تبادل المندوب السامي السر برسي كوكس والسلطان عبد العزيز رسائل الاسف . قال حضرة المندوب : « لا تؤاخذوا طياراتنا . ولكن لا مبرر لهجوم الاخوان على عشائر العراق » .

وقال عظمة السلطان : « لا تؤاخذوا الاخوان . ولكن التبعة على الحكومة التي لا تستطيع ان تكبح جماح العشائر ضمن حدودها . هذا جزاء الضعف والاهمال » .

وبعد هذا الحادث عقد مؤتمر المحمرة لتسوية الخلاف بين البلدين ، فحضره احمد ابن ثنيان من قبل السلطان عبد العزيز ومندوبان من قبل الحكومة والمفوضية في بغداد . ولكن السلطان لم يصدق على ما قُرر هناك ، فعُقد المؤتمر الثاني بعد بضعة اشهر في العقير .

الفصل الخامس والثلاثون

مؤتمر العقير

على كثيب يحدج الخليج بعينه العسلية ، الى جنوب القصر بالعقير ، لخمس خلون من ربيع الثاني عام واحد واربعين وثلاثمئة والف (٢٨ نوفمبر ١٩٢٢) نصبت الخيام للمؤتمر . فكان قسم منها ، وهي البيضاء المرمية المزركشة من الداخل بالآيات والرسوم ، الى الجانب الشرقي لوفد العراق وللانكليز ، والقسم الاكبر واكثره من بيوت الشعر الى الجانب الغربي لاهل نجد من المرافقين عظمة السلطان عبد العزيز . وكان سرادق عظمته مقابلاً لسرادق الاجتماع ، في المخيم الاوروبي ، وبينهما نحو مئتي متر من الرمل . وتحت سرادق الاجتماع سرادق الطعام ، ووراءه المطبخ ، والى جانبه قافلة من الجمال وقد اناخت باحمالها.

وكانت شمس العقير فاترة لا تجفف هواءَ العقير . وهواءُ العقير ، وهو رطبٌ كثيفٌ ثقيل ، لا يصلح مزاج من جاء ، ومزاجه معكر ، ليصلح مجاري السياسة بينه وبين جيرانه .

وكان السلطان عبد العزيز قد علم في الطريق من الحسا بقدوم فهد الهذّال شيخ العمارات مع المفوض السامي السر برسي كوكس ، فغاظه ذلك ، لانه لم يجيء العقير لحل مشاكل العشائر . وقد كان فوق ذلك ناقماً على الشيخ فهد ، لانه انزل عرب شمر الذين فروا من الجبل في اثناء الحصار لحائل .

فكتب اليه يذكره بأنهم من رعاياه ، وان عرب عنزى — والعمارات منها — هم ابناء عم ابن سعود ، وانهم لا يأوون اعداءه ، ولا يساعدونهم عليه . — « بل انت يا فهد وعشائرك من رعايانا ، ولك علينا حق الحماية ،

اللهم اذا كنت من المخلصين ». ولكن فهداً يفضل على ما يظهر الحماية الانكليزية ، وقد جاء محتمياً بالمندوب السامي ليسترضي السلطان عبد العزيز .

قال عظمته للمؤلف : « نحن دعونا السر برسي كوكس الى العقير للنظر واياه في امرين — الاول الشريف واولاده ، والثاني الاتراك الطامعون الان بالموصل. اما مسألة العمارات والظفير فحلها لا يستوجب مجيئنا الى هذا المكان » .

ولكن السر برسي اغتنم هذه الفرصة ليعيد البحث في اتفاق المحمرة ، ويحدد الحدود بين نجد والكويت ، وبين العراق ونجد ، فجاء ومعه فريق من السياسيين والاخصائيين وكتبة السر والخدم .

وصل اليخت الذي اقلهم من البحرين في مساء اليوم السابع من ربيع الثاني ، فامر السلطان بارسال الخيل الى الرصيف ، ونزل هو وحاشيته يلاقون الوفود . ثم عادوا بعد نصف ساعة الى المخيم ، فترجلوا امام سرادق الاجتماع الذي أنير بانوار « اللوكس » .

وبعد ان استقروا بالمجلس « اعتذر المندوب السامي لانه ابطأ في السفر ، فقبل السلطان العذر ، وشرع يفصح عما كان يتقد في صدره ، فجاءت الكلمة الاولى قنبلةً زعزعت المكان — « انا لا اخشى الا الرجل الذي لا شرف له ولا دين » . ثم قال : « لا ندري يا حضرة المندوب ما خفي من المقاصد ولكننا نرجو منها الخير . ومما نعلم علم اليقين ان العشائر ، خصوصاً عشائر العراق ، لا ترتاح الى حكومة قوية ، بل لا تبغيها . لان الحكومة اذا كانت قوية تضربهم وتؤدبهم . اما اذا كانت ضعيفة فتسترضيهم كما هي الحال اليوم . العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون الا بالسيف . فهم اذا عاملتهم بالحسنى يتحكمون بالحكومة. اشهروا السيف يرتدعوا ، يتأدبوا . اغمدوا السيف ينهبوا ، ويقتلوا ،

ويتقاضوكم فوق ذلك المشاهرات » .

فاه عظمته بهذه الكلمات وهو مدير ظهره لفهد الهذّال . ثم مال بوجهه اليه وقال مبتسما : « أليس كذلك يا فهد ؟ « حنا » نعرف بعضنا » فضحك كل من كان في المجلس، الا شيخ العمارات الذي كان يحدق نظره في السجادة ، ثم يرفعه خلسة الى المندوب السامي ، كأنه يقول : لا بارك الله ساعة جئت فيها معك » [١]

هذه اول جلسة ، وان كانت غير رسمية ، من مؤتمر العقير ، تبعها جلسات خصوصية بين السلطان والمندوب السامي ، وجلسات عمومية حضرها رئيس وفد العراق صبيح بك نشئت ، والوكيل السياسي الميجر مور في الكويت ، والشيخ فهد الهذّال . وكان الكتاب والمترجمون، والاخصائيون من العرب في معرفة الابار والطرق والمراعي، يؤمون خيمتي الصغيرة من حين الى حين .

اعود اذن الى مذكراتي في تلك الايام .

في ٨ ربيع الثاني ١٣٤١ (٢٨ نوفمبر ١٩٢٢)

اجتمع صباح اليوم السلطان والمندوب السامي ، فخرج المندوب وفي جيبه تقرير طويل باللغة العربية ، سألني عندما زرته بعد نصف ساعة في خيمته ان اترجمه له . هو تقرير يتعلق بقبيلتي العمارات والظفير كان قد اعدّه السلطان لمندوبه في مؤتمر المحمرة، وهو مكتوب في صورة السؤال والجواب - اذا سألوك كذا وكذا ، اجب كذا وكذا . واذا الح المندوب الانكليزي في امر من الامور ، اسأله اذا كان يتكلم بلسان حكومته او بلسان حكومة العراق . فاذا كان بلسان حكومة العراق فالجواب هو اننا لا نتساهل بحقوقنا . واذا كان بلسان حكومة

(١) منقول من « ملوك العرب » . ومن شاء الزيادة فليراجع الفصلين الثامن والتاسع من القسم الخامس . الجزء الثاني .

بريطانية فجاوب: اكراماً لحكومة بريطانية . هذا اذا كان من الامور الثانوية . اما اذا كان من الامور الجوهرية ، فالجواب هو اننا لا نسلم الا مكرهين . والحكومة البريطانية تفهم ان عاقبة الاكراه وخيمة ».

قرأت ما تقدم وترجمته كلمة كلمة ، فلم يظهر السر برسي شيئاً من الاكتراث . . . . ان للسلطان عبد العزيز مفاجآت مزعجة . . .

« اذا سألوك عن العمارات قل انها من عنزى ، وعنزى كلها من ابناء عم ابن سعود ومن رعاياه »

السر برسي : « عنزى العراق (اي العمارات) تفضل ان تكون من رعايا العراق . اما عنزى سوريه[1] فقد تفضل ان تكون من رعايا ابن سعود . وله ما يشاء فيها » .

اضحكتني هــــذه الكلمة من السر برسي . فكانه يقول : الذي عندنا هو لنا ، والذي عند غيرنا ، عند الفرنساويين ، هو لك يا عبد العزيز اذا استطعت ان تستولي عليه .

في ٩ ربيع الثاني (٢٩ نوفمبر) .

قد زلَّ اليوم المندوب السامي . فبعد جلسة طويلة وعظمة السلطان استدعى اليه عبد اللطيف باشا المنديل ، احد المستشارين يومئذٍ لعظمته ، ففاوضه مفاوضة استمرت نصف ساعة ، واعطاه صورة كتابين ، كتبا بقلم الرصاص وباللغة الانكليزية ، ليسلمها الى السلطان . فارسل عظمته يدعوني الى الفسطاط. ومما يؤسف له في مثل هذه الحال ان لا يكون للمندوب السامي ولا للسلطان ترجمان يحسن الترجمة . فانكليزية الدكتور عبدالله ، مثل عربية الميجر دكسون ، لا تصلح الامم .

ترجمت الكتابين . وكان السلطان اثناء الترجمة يتزحزح في مجلسه ويضرب السجادة بعصاه .

---

(١) اي الرَّوَله وهي تلفظ أرْوَله

١ ـ الكتاب الاول ، الذي يسأله المندوب كتابته ، هو الى الملك فيصل جواباً على كتاب من الملك يفترض وصوله . وفي هـذا الكتاب يقول : بناءً على تعهدات الحكومة البريطانية في معاهدتي واياها اقبل الاتفاق الذي عقد في مؤتمر المحمرة .

٢ ـ الكتاب الثاني يكتبه الى السر برسي كوكس ليخبره بالكتاب الذي كتبه الى الملك فيصل . ويزيده علماً بان واحدة من التعهدات المذكورة في ذلك الكتاب تتعلق بالمادة الثانية من المعاهدة [١] وفيها ان الكلمات « اية دولة اجنبية » يجب ان تشمل ايضاً حكومات الحجاز والشرق العربي والعراق . اي ان الحكومة البريطانية تتعهد ان تحمي بلاد نجد ، اذا ما تعدت عليها احدى هذه الحكومات الثلاث .

قال السلطان وهو يتميز غيظاً : « ومن قال للمندوب السامي ان ابن سعود يخاف الشريف واولاده ــ لا والله . « حنا » في غنى عن الحمايات ، اذا كان المعتدي علينا من العرب » .

وقد ساءه خصوصاً ان يقول له المندوب ، بقلم من الرصاص على قصاصة من الورق ، ماذا يجب ان يكتب الى الملك فيصل او الى الحكومة البريطانية .

دخل وانا اترجم الكتابين بعض رجال السلطان ، فأومأ اليهم ان اخرجوا ، فاستمروا ماشين في الفسطاط ، وخرجوا من الباب المقابل للباب الذي دخلوه ، فاستأنف عظمته الحديث . ثم هتف قائلاً : « لا نخاف الا الله » .

وكان المؤذن ساعتئذٍ يؤذن صلاة الظهر ، فنهض يلبي الدعوة وهو يقول : « سنصلي سنصلي » .

---

(١) المعاهدة المقصودة بهذا الكلام هي معاهدة دارين اي معاهدة ١٩١٥ التي الغيت بعدئذ غب دفع مئة وستين الف ليرة لابن سعود

في ٩ ربيع الثاني (مساءً) .

رفض السلطان بتاتاً ان يكتب الكتابين اللذين اشار بكتابتهما المندوب السامي .

في ١٢ ربيع الثاني (١ دسمبر) .

قد تم الاتفاق بين السلطان ومندوب العراق على الحدود النجدية العراقية ، وتقررت بقعة الحياد بين البلادين ، بقعة تدعى العونية فسميت هزءاً قطعة بقلاوة ، لانها في شكلها مربع شبيه بالمعين Rhomboid (راجع الخارطة) وفي هذا التحديد تقرر ايضاً مصير العمارات والظفير الداخلتين في ارض العراق ، المعدودتين الان من عشائره

يظهر ان السر برسي اقنع السلطان او انه ارضاه بما يقابل تنازله عن هاتين القبيلتين .... قطعة بقلاوة للجميع ! ومن يكبح جماح القوي اذا رد عنها الضعيف ؟ – بقعة خصبة للمرعى ، وفيها آبار عديدة ، لا هي لكم يا عرب العراق ولا هي لنا . ولكننا اذا ارتدناها مسلحين ، ولم يكن فيها ما يكفي غير مواشينا من الماء والكلاء ، فمن ذا الذي يردنا عنها ، ومن ذا الذي يستطيع ان يحرمنا ؟ .. انه لصلح صغير – مثل الذي كان يعقد في بعض الاحايين بين ابن سعود وابن الرشيد . وليت شعري هل في لوزان[1] اليوم يعقدون صلحاً صغيراً ام كبيراً ؟

في ١٣ ربيع الثاني (٢ دسمبر) .

وقد تم الاتفاق بين السلطان والمندوب السامي والوكيل السياسي في الكويت الميجر مور على بقعة حياد بين البلادين، لتقي عربان الكويت وعربان نجد شرّ التصادم . وهل يدري العربان بالمعاهدات ؟ وهل يحترمونها اذا ما اجدبت الارض وخرجوا كلهم « ينشدون الحيا » –

(١) مؤتمر لوزان ومؤتمر العقير عقدا في وقت واحد . ولكن الاول استمر بضعة اشهر والثاني انتهى في خمسة ايام .

يطلبون المرعى والماء؟ هو صلح آخر صغير. وقد يدوم مع ذلك اكثر من صلح العراق... علمت ان السلطان طلب توسيع حدود الجوف لقاء تنازله عن العمارات والطفير، وان السر برسي وعده بذلك.

في ١٣ ربيع الثاني (مساء).

من بشائر الخير في هذا المؤتمر للبلاد العربية كتاب كتبه الملك فيصل بخط يده الى السلطان عبد العزيز، الى «اخي العزيز» وارسله مع رسوله الخاص عبدالله بن مسفر جار فهد الهذال في المخيم الاوروبي. الكتاب مدبج بارق العبارات الولائية، وفيه ما يدل على ان جلالة الملك يرغب رغبة حقيقية في الصلح ليس بين العراق ونجد فقط بل بين نجد والحجاز. فهل ينبذ فيصل خطة والده؟ وهل يستطيع ان يوفق بينه وبين السلطان عبد العزيز؟ ها هنا اساس الصلح الكبير والسلم الثابت في البلاد العربية. ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً:

وجواب السلطان على كتاب الملك ينبىء بالخير... عسى ان يتوفقا الى اجتماع شخصي خاص... اني متيقن ان السلطان عبد العزيز راغب في ذلك. ولكنه في الوقت الحاضر منحرف المزاج، وقد طالت اقامته في الحساء. فهو يبغي الرجوع الى الرياض. ولا بأس اذا بحت بسر واحد من اسرار الملوك. ان هناك رغبة في الاجتماع بدون واسطة الحكومة البريطانية.

في ١٤ ربيع الثاني (٣ دسمبر).

آخر ما ترجمته لعظمة السلطان صورة برقية ارسلها السر برسي كوكس الى المستر تشرشل (يومئذ وزير الخارجية) يقول فيها ان ابن سعود طلب ان تكون قريات الملح في الجوف تابعة لتلك الناحية وبالتالي لنجد. وهو اي السر برسي يشير بالقبول، بل يقول: اكدت لعظمته ان ذلك

يكون مقبولاً لدى حكومة جلالة الملك[١].

* * *

نأخذ من ابن سعود لنعطي العراق، ونأخذ من شرقي الاردن لنعطي ابن سعود ، ونأخذ من الحجاز (العقبة) لنعطي شرقي الاردن - ومن نأخذ لنرضي الحجاز ؟

---

(١) بموجب اتفاقية حداء بين نجد والشرق العربي المثبتة في الملحق قد ضمت قريات الملح الى الجوف .

الفصل السادس والثلاثون

النكاس – والذي يوسوس في صدور الناس

بعد بضعة اشهر من مؤتمر العقير نكس مريض الجزيرة ، نكس السلم. والسبب في النكاس مكروب الغزو الذي ظن المتعاهدون انهم استأصلوه. ولكنهم بنجوه فقط . فافاق بعد اربعة اشهر ، ونشط الى العمل مباشراً في العراق ، او بالحري على حدود العراق ونجد .

قد يذكر القارىء ما قلناه في عرب شمر الذين لجأوا الى العراق بعد احتلال حائل . وقد يذكر ان في العراق من هذه القبيلة الكبيرة من نزحوا الى ذلك القطر قديماً ، وهم يعدون من اهله ، واكثرهم ينزلون ما بين النهرين قرب الموصل .

وهؤلاء العشائر ، وفي مقدمتهم آل عبده التابعون لشيخة عجيل الياور الذي تخصه الحكومة العراقية بالمشاهرات المالية ، كانوا يرحبون باخوانهم الفارين من نجد ويشاركونهم في شن الغارات على قبائل ابن سعود . قد تخلل هذه الغزوات فترة سكون عقد فيها مؤتمر العقير . ثم عادت تلك العشائر بعد اربعة اشهر ، اي في صيف عام ١٩٢٣ ، تفسد ما اصلحه المصلحون ، وتحاول في غزواتها المتتابعة ان تقضي على السلم في القطرين العراقي والنجدي. فكتب عظمة السلطان الى المفوض السامي والى جلالة الملك فيصل يلفت نظرهما الى هذا الامر ويحذرهما من عواقبه. بل طلب من الحكومة مراراً ان تردع المجرمين ، وترجع ما نهبوه من اهل نجد.

وقد نشر في الكتاب الاخضر النجدي اجوبة اولي الامر هناك ، وفيها ما يثبت دعوى حكومة نجد ، بل فيها الدليل على عجز حكومة العراق – عجزها يومئذ – عن تنفيذ ما رأته واجباً عليها .

قال جلالة الملك فيصل في جوابه : « تلقيت كتابكم المرسل مع خادمكم الامين عبد العزيز الرباعي فكان اعز واصل . . . . اما من خصوص التفاوض فقد اجرينا اللازم واخبرنا حامله شفاهاً بما يسهل الامور » .

وقال وزير الداخلية (يومئذٍ عبد المحسن بك السعدون) في كتاب ارسله الى المفوض السامي :

« قد اصدرت الاوامر الى متصرف الموصل لكي يرسل رؤساء شمر نجد وخصوصاً اولئك الذين اشتركوا في هذه الغارات . . . . وقد وعد الشيخ عجيل الياور باسترجاع الاموال المنهوبة ، وتعهد بقبول المسؤولية عن وقوع الغارات في المستقبل » .

ثم كتب معالي الوزير الى متصرف الموصل كتاباً شديد اللهجة جاء فيه : « ان التأثير الذي ينجم عن هذه الغزوات يغضب ابن سعود . فان لم تتخذ الاجراء المستعجل فأقل ما ينتظر هو حدوث غزوات جسيمة مقابلة لذلك [1] . . . . ومما لا يطاق احتماله اتخاذ شمر العراق مركزاً لحركاتهم الحربية على ابن سعود » . فالحكومة عازمة على اتخاذ التدابير لكبح جماحهم ولطردهم اذا اقتضى الامر .

وكان قد كتب عبد المحسن بك الى المفوض السامي يسأله اذا كان في وسعه « مساعدة الحكومة العراقية بالطيارات والسيارات المدرعة اذا كانت القوات الموجودة لديها غير كافية » .

ولكن عجز الحكومة العراقية لم يكن سوى مظهر من عجز حكومة الانتداب . وفي كتاب السر برسي كوكس ، المؤرخ في ٢٧ اغسطس ، الى عظمة السلطان ما يثبت ذلك . فقد جاء فيه انه اي المفوض السامي لم يقصر « في الاسراع الى لفت نظر الحكومة العراقية

(١) قد تحقق كلام الوزير ، بعد بضعة اشهر ، في غزوة الدويش

الى هذه الحركة السيئة من قبل رجال شمر نجد المقيمين داخل حدودها» وانه «سينظر مع الحكومة العراقية في امر امكان وضع دوريات منظمة في اطراف العراق لاجل منع حدوث مثل هذه الامور» . .
وانه «واثق من التمكن قبل مدة طويلة من القيام بضمانات وافية ترضي كلا الحكومتين، ومن اتخاذ تدابير من شأنها ان تمنع العشائر من تكرار هذه الاعمال»

ولكن «الدوريات» لم تنظم في هذه السنة ولا في السنة التالية . اما التدابير فقد عقد في سبيلها في الاشهر الاربعة الوسطى من هذا العام مؤتمر الكويت. وفي خلال هذه الاشهر، اي من جمادى الاولى الى شعبان ، ساد شيء من السكون في البادية ، وقامت مقام الغزوات حرب من الكلام في مدينة ابن الصباح .

١٣٤٢ هـ
١٩٢٣ - ٢٤ م

كانت الحكومة الداعية ، بواسطة وكيلها في ابي شهر الكولونل نوكس[1]، الى هذا المؤتمر، وكان الغرض منه :

١ً ـ البحث في المواد الباقية بين نجد والعراق ومن جملتها قبائل شمر الملتجئين الى هذا القطر .

٢ً ـ البحث في مسألة حدود نجد وشرق الاردن .

٣ً ـ البحث ـ اذا شاء ابن سعود ـ في حل المشاكل التي بين نجد والحجاز .

وقد قال الوكيل في كتابه الى عظمة السلطان «ان الحكومة البريطانية مستعدة ان تعرض الامر على الملك حسين» وان غرضها من عقد هذا المؤتمر «هو ازالة سوء التفاهم وحل جميع المشاكل التي بين الممالك المتجاورة» .

قبل السلطان الدعوة على شرط ان تكون المفاوضات بين الوفد

(١) Col. S. Y. Knox S. I. E. etc.

النجدي وكل وفد آخر من الوفود على حدة . اي ان وفد العراق لا يشترك في مباحث شرقي الاردن، ولا وفد شرقي الاردن في بحث امور العراق . قبل الوكيل هذا الشرط واعلم به الحكومات الاخرى فحاز قبولها . وقد عقدت جلسة المؤتمر الاولى في ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٤٢ (١٧ دسمبر ١٩٢٣) فتلتها اربع جلسات ، دار فيها البحث بين وفد نجد ووفد العراق ، فتم الاتفاق بينهم على بضع مواد تختص بمعاقبة الذين يشنون الغارات في اطراف البلادين ، وبكيفية المعاقبة ، وبطريقة المراسلة بين الحكومتين في ما يختص بالعشائر .

تم الاتفاق او كاد يتم . فان وفد العراق ، ساعة التوقيع ، طلب ان يضاف الى المعاهدة انها لا تكون نافذة ما لم يتم الاتفاق مع الحجاز ولكن الملك حسيناً رفض ان يرسل مندوباً من قبله الى المؤتمر ، وقد قال في بادىء الامر انه لا يشترك في المفاوضات ما زال ابن سعود محتلاً بلدة واحدة من بلدان الحجاز .

وقد رفض الوفد النجدي المادة الشرطية . وجاء في برقية رئيس المؤتمر الكولونل نوكس الى حكومته « انه لا يمكن البت في شأن من الشؤون ما لم يوفد الحجاز مندوبه » . ثم تأجل المؤتمر الى ٨ يناير ليتمكن الوفدان من الرجوع الى بلاديهما ليستشيروا حكومتيهما في المسائل المختلف عليها .

اما وفد شرقي الاردن فقد كان اشد لهجة واكثر صراحة من وفد العراق ، فظهرت في خطبه اليد التي كانت تحركه ، والروح – غير روح الامير عبدالله – التي كانت مسيطرة عليه .

ان ظاهر الخلاف بين نجد وحكومة عمان هو الجوف وقريات الملح[١]

---

(١) قريات الملح تتألف من قريتين كبيرتين احداهما كاف والثانية اثرى ويتبعها ثلاث مزارع .وفي اراضيها معادن ملح كبيرة يشحن اكثر منتوجها الى حوران وجبل الدروز

فبعد مؤتمر العقير ، عندما علم سمو الامير بما كان من الاتفاق بين حكومة بريطانية العظمى والسلطان عبد العزيز بخصوص الحدود النجدية العراقية ، ارسل قوةً احتلت القريات ، فهمَّ السلطان باخراج تلك القوة منها ، فلجأ الامير الى الحكومة البريطانية التي طلبت اذ ذاك من ابن سعود ان يتوقف في الزحف الى الجوف ، ووعدت بتسوية المسألة بالوسائط السلمية. اما حادث الجوف هذا فقد كان من الاسباب التي عجلت في عقد مؤتمر الكويت .

قلت ان وفد شرقي الاردن كان اكثر صراحة وجرأة من وفد العراق ، فقد استهل رئيس الوفد خطابه في اطراء صاحب الجلالة الهاشمية ، والنهضة العربية ، والحكومة البريطانية التي ساعدت في استقلال العرب . ثم قال : « ان شرقي الاردن هي من ثمار هذا الاستقلال . وان الجوف وسكاكه وما يتبعهما هي لازمة له ، هي ضرورية للمواصلات بين شرقي الاردن والعراق » فيجب اذن ان تكون تحت اشراف حكومة الامير .

وفي الجلسة الثانية كانت اللهجة اشد والصراحة اعجب . فقد قال المندوب الاردني ان الجوف وسكاكه وتوابعهما هي من الاراضي السورية ، التي تبدأ حدودها من مدائن صالح ، وتنتهي عند بو كمال على نهر الفرات ، وان حكومة شرقي الاردن هي من سورية ، فيجب ان يكون الجوف باجمعه تحت ادارتها .

المندوب النجدي : « ان الجوف وسكاكه ووادي سرحان باجمعه كانت تتبع التطورات في نجد ، بينما ان تشكيلات الاردن الادارية لم تكن سوى اقضية تابعة للكرك والقدس ، ولم يكن الجوف تابعاً لها ادارياً او سياسياً »

ثم قال رئيس الوفد : « لا نوافق مطلقاً على اتصال حكومة شرقي

الاردن بالعراق . ونطلب ان تكون حكومة نجد متصلة حدودها بسورية حتى تكون تجارتها آمنة . فحفظاً لكياننا الاقتصادي ، وحمايةً لروحنا التجارية ، نطلب ان يكون الاتصال بسورية اساساً للاتفاق بيننا وبين شرقي الاردن » .

قلنا ان ظاهر الخلاف بين القطرين هو الجوف . اما الخلاف الحقيقي الجوهري فهو العداء المتأصل بين آل سعود والبيت الهاشمي . وقد صرح رئيس الوفد ، بعد اطرائه جلالة الملك حسين ، بما يأتي :

« اسمحوا لي ان اصرح لحضراتكم بأنه اذا لم تتخل حكومة نجد عن الجوف ووادي سرحان باجمعه ، وعن الاراضي الحجازية التي احتلتها ، اي تُربة والخرمة وخيبر وغيرها ، وتجعل تحديد الحدود بين الحجاز ونجد على ان يكون الحد الفاصل هو الصحراء القاحلة ، فلا يمكن ان يحصل بيننا اتفاق » . عندئذٍ قال رئيس المؤتمر الكولونل نوكس : (لا يحق لوفد العراق او وفد شرقي الاردن ان يتكلم عن الحجاز . . . . لان سلطان نجد حينما قبل ان يشترك في المؤتمر اشترط شرطاً اساسياً قبلناه ، وهو ان لا يحق لحكومة من الحكومات ان تشترك في بحث ما يتعلق بالحكومات الاخرى » .

توقفت المفاوضات بين نجد وشرقي الاردن كما توقفت سابقاً بين نجد والعراق . والسبب الاول في ذلك كما تبين لنا هو الشرط الاخير الذي اشترطه وفد حكومة بغداد ، والكلام الاخير الذي فاه به وفد حكومة عمان . وقد فاز في الحالين الملك حسين .

الملك حسين ، هو يومئذٍ في اوج مجده ، أبى ان يشترك في المؤتمر ولكنه نفذ ارادته في ممثلي حكومتَي نجليه ، فحالت السياسة الهاشمية دون الاتفاق وسلطان نجد .

وما كانت جلسات المؤتمر الاخرى لتغير في هذه الحال او تلطفها

فقد عاد وفد العراق يحمل قرار حكومته ، وفيه ان لا نمكنها ان تسلم شمر نجد حالاً ، وانها غير مسؤولة عن المنهوبات التي سبق تاريخها تتويج الملك فيصل [١] وانها لا تقبل بمبدأ اخراج العشائر الملتجئين اليها لان ذلك « يولد ارتباكات في الحدود العراقية مع سورية وتركية وايران » .

ولكن مسألة العشائر هي في نظر حكومة نجد المسألة الجوهرية . فاذا كانت حكومة العراق لا تتخذ الوسائط الفعالة لتقضي على الحركات العدائية التي تقوم بها تلك العشائر المجرمة فالوفد لا يمضي ملحقاً او معاهدة.

وما غير وفد شرقي الاردن لهجته ، ولا تنازل عن شيء من مطالبه . وقد اقترح رئيس المؤتمر استفتاء الاهالي في القريات ، فقبل الوفد النجدي بذلك « على شرط ان يعمل بهذا المبدأ في الاماكن المتنازع عليها بين نجد والحجاز اي في تربة والحرمة »

ولم يقبل الوفد الاردني بذلك، بل طلب ان يكون الجوف ووادي سرحان منطقة حياد بين القطرين، فرفض الوفد النجدي وارفض المؤتمر ، او بالحري تأجل ، بعد اجتماعه الثاني، الى شهر شعبان (مارس ١٩٢٤) ليتمكن الرئيس من مفاوضة السلطان عبد العزيز . وقد كان يأمل ان يغير الملك حسين رأيه فيرسل من يمثله في المؤتمر .

قد غير الملك رأيه فعين نجله الامير زيداً ممثلاً للحجاز . ولكنه لم يحضر . وبينما كان وفد العراق ، الذي عاد للمرة الثانية يستشير حكومته، قادماً المرة الثالثة الى الكويت ، خرج فيصل الدويش ، وقد فرغ صبر عربانه ، غازياً في اطراف العراق ، فغضبت ولا غرو الحكومة ، وأمرت وفدها بالرجوع الى بغداد . فلم يعقد لذلك الاجتماع الثالث .

---

(١) قد قدمت حكومة نجد لائحة بالمنهوبات التي نهبت بعد توقيع معاهدة المقير ؛ وفيها اسماء المعتدين والمعتدى عليهم . فبلغ عدد من قتلوا من رعايا نجد سبعة وعشرين رجلاً ، وعدد ما نهب من الابل ٤٦٠ ، وقيمة ما سلب من المال خمسمئة ليرة واربعمئة ريال ، ما عدا ٣٥٠ حملاً من الدهن ومئة حمل من البن .

ليسمح القارىء ان يشير المؤلف ها هنا الى نفسه . قد كنت في هذه المدة على اتصال مراسلة بعظمة السلطان ، وكنت فيما كتبته الى عظمته ساعياً في سبيل الوفاق بين البلادين ، محبذاً عقد معاهدة نجدية عراقيه اوسع نطاقاً مما سبقها في العقير وفي المحمرة . وقد جاءني من عظمته كتاب اقتطف منه ما يلي :

(اما ما ذكرته عن الاتفاق مع حكومة العراق فقد كنت ارغب به من صميم قلبي . . . ولكن حكومة العراق لا تزال تعمل ضدنا في تأليف العصابات من مجرمي العشائر لمهاجمة رعايانا الآمنين ، وقطع الطرق على القوافل . . . يعلم الله ان جل مقصدي هو ان اعيش بسلام مع جيراني ، وان نتحد كلنا على ما فيه خير العرب . ولكن الاشراف لا يروقهم ذلك فحسبنا الله . . . »

وفي كتاب من القصيم مؤرخ في ١٤ رمضان يقول :

« قد جئنا القصيم لامور لا بد منها . ومنها الاستعداد للطوارىء . فقد عينا عبد العزيز بن مساعد آل جلوي اميراً في حائل ، وجعلنا المنطقة الشمالية ، بما فيه القصيم والجوف وخيبر ، تحت امرته ، وزودناه بالتعليمات الكاملة ، والقوة الكافية ، والصلاحية الواسعة . وبدلنا ايضاً امير الجوف فعينا محله عبد الله بن محمد بن عقيل ، واصحبناه بما يلزم من القوة » .

هذا جواب عظمة السلطان على مطالب سمو الامير عبد الله وجلالة والده . بل هذه هي نتيجة مؤتمر الكويت .

الفصل السابع والثلاثون

ذروة المجد والخطر

عندما كان السلطان عبد العزيز في الاحساء يراقب عن كثب مؤتمر الكويت ، وينتظر متيقظاً نتائجه ، كان الملك حسين في عمان ، وقد جاءها ليشرف ، كما قال ، على جميع البلاد المقدسة ، ويزور الاماكن التي فيها مراكز للحكومة ، ويوطد السيادة العربية في الشرق العربي .

ولكن مسألة الخلافة ، بعد ان طرد الترك الكماليون الخليفة والاسرة السلطانية من تركيه ، شغلت العالم الاسلامي ، وكانت يومئذ تشغل امراء العرب وخصوصاً الملك حسين . فجاء عمان ليقرب من الاقطار الحية الراقية في العالم العربي ، وليجس نبضها في هذه المسألة الاسلامية الكبرى .

١٣٤٣ هـ
١٩٢٣–٢٤م

وعندما وصل القطار الملكي الى العاصمة في ٨ جمادى الثانية من هذا العام (١٧ يناير سنة ١٩٢٤) شاهد جلالته في المحطة مشهداً فريداً مجيداً ، خفقت له قلوب السياسة ، ورفرفت فوقه امال الملك كلها . هناك كانت الوفود والجموع في انتظاره – وفود سورية وفلسطين ، ومشايخ العربان ، من نواحي الشرق العربي ، ورجال الحكومة من عرب وانكليز ، والصحافيون من مصر والقدس وبيروت والشام ، والجنود والجموع من بدو وحضر في الثياب العربية والافرنجية والجركسية . هناك عندما أطل جلالته من القطار رفع الناس اصواتهم هاتفين : ليحيَ ملك العرب ! ليحي المنقذ الاعظم ! وقد كان الاستقبال حاراً باهراً . اصطفت جنود الجيش العربي على الطريق من المحطة الى المدينة ، ورجال العربان من فرسان وهجانة ، وهم يهزجون الاهازيج البدوية ، ورفع تلاميذ المدارس اصواتهم بالهتاف

والاناشيد وشاركت في الترحيب الطيارات الانكليزية التي كانت تغمغم في الفضاء .

ثم صعد الخطباء والشعراء منصة البيان، وطفقوا يخطبون وينشدون، مهللين مكبرين، ومهددين الانكليز والفرنسيس، بل الاوروبيين اجمعين .

— ليحيَ ملك العرب ، المنقذ الاعظم ! لتحيَ النهضة العربية ! وليسقط كل من يسعى ضدها وضده ! ليسقط الاستعماريون والمستعبدون !

وكان جلالته يسمع الخطباء والشعراء من شرفة البيت الذي أُعدّ له ، البيت المقابل للاثر التاريخي الجليل — الملعب الروماني المتهدم . وللزمان في هزئه بلاغة تعجز دونها الشعراء والخطباء .

ثم قابل جلالته الوفود فقال تكراراً انه لا يتنازل عن مبدء واحد من المبادىء التي هي اركان النهضة : — « لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد . لا اقبل الا ان تكون فلسطين لاهلها العرب ، اقول لاهلها العرب . لا اقبل بالتجزئة ، ولا اقبل بالانتدابات . ولا اسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب . اذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي اطلبه فاني ارفض المعاهدة كلها، اقول المعاهدة كلها . لا اوقع المعاهدة قبل ان آخذ رأي الامة . اني عامل دائماً في سبيل الاتفاق وامراء العرب . اني عامل دائماً في سبيل الوحدة العربية، والاستقلال التام — اقول الاستقلال التام — للاقطار العربية كلها. ولا فرق عندي اذا كان مركز الحكومة العربية في الحجاز ، او في سورية ، او في العراق ، او في نجد ».

ولا عجب ، بعد هذه التصريحات المدهشة ، اذا تمت المبايعة بالخلافة. فبعد المآدب والاجتماعات العامة المتعددة ، وبعد الاجتماعات الخاصة ورؤساء الوفود ، وكبار موظفي الانكليز ، نودي بالملك حسين بن علي خليفة المسلمين ، وامير المؤمنين ، فبايعه السوريون والفلسطينيون الذين كانوا هناك ، ورؤساء عرب الاردن ، والحجازيون الذين كانوا مع

جلالته ، وفريق من العراقيين .

* * *

وفي غرة ذي القعدة من هذا العام ، بعد ان عاد جلالة الملك حسين الى مكة وقد اضاف الى لقبيه الكبيرين اللقب الثالث الاكبر ، اي خليفة المسلمين ، عقد في الرياض اجتماع عام برئاسة الامام عبد الرحمن حضره العلماء ، ورؤساء القبائل ، والسلطان عبد العزيز ، فافتتح حضرة الامام الجلسة قائلًا :

« قد جاءني كتب عديدة من الاخوان وهم يبغون الحج . وقد ارسلت هذه الكتب في حينها الى ولدنا عبد العزيز . وها هو امامكم فاسألوه عما يبدو لكم » .

السلطان عبد العزيز : « وصلني كل ما كتبتموه واحطت علماً بكل ما شكوتموه . ان لكل شيء نهاية فلا تيأسوا ، وان الامور مرهونة باوقاتها » .

سلطان بن بجاد : « يا لامام حنا نبغي الحج ، ولا نريد ان نصبر اكثر مما صبرنا على ترك ركن من اركان الاسلام مع قدرتنا عليه . ليست مكة ملكاً لاحد ، ولا يحق لاحد ان يمنع المسلمين او يصد المؤمنين عن اداء فريضة الحج . نريد ان نحج يا عبد العزيز ، فاذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة . واذا كنتم ترون ان من المصلحة تأجيل الحج في هذا العام فلا بد من غزو الحجاز لنخلص البيت الحرام من ايدي الظالمين والمفسدين » .

السلطان عبد العزيز : « ان مسألة الحج من المسائل التي يرجع الفصل فيها الى علمائنا . وها هم حاضرون ، فليتكلموا » .

الشيخ سعد بن عتيق : « ان الحج من اركان الاسلام ، ومسلمو نجد والحمد لله يستطيعون ان يؤدوا هذا الركن على الوجه الاتم بالرضى او

بالقوة . ولكن من اصول الشريعة النظر الى المصالح والمفاسد . فالامر الذي قد يؤدي الى ضرر او مفسدة يدفع (يؤجل من اجله الحج) فهل هناك من مفسدة او مضرة قد تنتج عن الترخيص لمسلمي نجد بالذهاب الى بيت الله ؟ ذلك ما نريد ان نقف عليه من الواقفين على السياسة » .

في الاعوام الخمسة الماضية كان السلطان يجيب عن هذا السؤال بالايجاب ، فيمنع اهل نجد عن الحج خوف ان يحدث ما لا تحمد عقباه. وقد كان يعالج مشاكل نجد والحجاز بالطرق السلمية السياسية . اما في هذا الاجتماع فقد قال عظمته مخاطباً العلماء والاخوان :

« نحن لا نود ان نحارب من يسالمنا ، ولا نمتنع عن موالاة من يوالينا . ولكن شريف مكة كان دائماً ، كما تعلمون ، يزرع بذور الشقاق بين عشائرنا . وهو الوارث من اسلافه بغضنا . ومع ذلك فقد بذلت كل ما في وسعي لحل المشاكل التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي احسن . وكنت كل ما دنوت من الحسين تباعد ، وكل ما لنت له تجافى . اي ورب الكعبة . ولست ارى في تطور الامور ما ينعش الامل . بل ارى الامور تزداد شدة وارتباكاً . ولا يحسن الاستمرار في خطة لا تعزز حقوقنا ومصالحنا » .

وقف السلطان عند هذه الكلمة ، فهتف الجميع : توكلنا على الله ! الى الحجاز ! الى الحجاز !

الفصل الثامن والثلاثون

الاخوان على ابواب عمان

١٣٤٣ هـ
١٩٢٤-٢٥م

في الشهر الاول من هذا العام (آب ٩٢٤ م) مشت جيوش نجد غرباً من الجنوب ومن الشمال . ولكن السلطان عبد العزيز لغرض حربي ، امر بغزو الشرق العربي قبل الزحف الى الحجاز . ولم تكن هذه الغزوة بدون اسباب تبررها .

قد اسلفنا البيان في ما كان بين حكومتي نجد وشرقي الاردن من النزاع بخصوص الجوف وقرايا الملح . ولكن جنود السلطان كانت قد احتلت تلك القرى . فما الداعي اذن الى تجاوزها الحدود – الى الغزو ؟

ان هنالك تعديات وتعويضات ذكرت في مطالب نجد في مؤتمر الكويت . فقد اغار وُلد سليمان بن حازي من شيوخ الحويطات على قافلة من تجار نجد في طريقهم الى الشام . فقتلوا ثمانية من رجالها ونهبوا ما يزيد على السبعمئة بعير .

وكانت قد تكررت الاغارات على اهل نجد من عربان الحويطات وبني صخر – اولئك الذين كان الامير عبدالله يقربهم منه ويجزل لهم العطاء – فبلغت المنهوبات ، بموجب اللائحة التي قدمت في المؤتمر ، الف جمل واربعين رأساً من الخيل ، ما عدا الاحمال التي تقدر بثمانين الف ليرة عثمانية . [١]

لذلك طلب السلطان عبد العزيز ان تغرّم قبيلة بني صخر بمئتي الف

(١) ادعى ابن سعود بتعويضات قيمتها (٨٠) الف ليرة ومن بعد احتلال الجوف تموز سنة ١٩٢١ ، ١٨٠ الف ليرة. وقد نظرت المحكمة في مسألة التعويضات في شتاء ١٩٢٧ بالقدس

ليرة ضمانة لسلامة التجارة والتجار بين نجد وسورية . وبما ان حكومة عمان لم تكترث لهذا الطلب عمد السلطان الى القوة . مشى الاخوان من اطراف وادي سرحان ، وعددهم يتراوح بين الالفين والثلاثة آلاف ، فالتقوا في طريقهم بثلة من جنود شرقي الاردن ، عددهم مع رجال الحملة خمسة وعشرون ، وهم سائرون الى قصر الازرق ، يحملون المون والذخيرة الى الحامية فيه ، فذبحوهم الا واحداً وغنموا الحملة كلها . ثم تقدموا غرباً فهجموا على الطنيب ، وام العمد ، والقسطل ويادودة ، وكادوا بعد ان اجتاز فريق منهم سكة الحديد ان يصلوا العاصمة .

كان الامير عبدالله يومئذ متغيباً ، فصدرت اوامر الحكومة بالدفاع ، فبادر العربان ، وفي مقدمتهم الصخور والحويطات ، الى محاربة اعدائهم ، فاشتبكوا واياهم في معركة دامية دامت بضع ساعات . وكان بيك باشا ، القائد الانكليزي للجند النظامي ، قد ارسل الطيارات والسيارات المدرعة على الاخوان ، فحلقت الطيارات فوق العربان المتلاحمين ، وشرعت ترميهم كلهم بالقذائف . كما ان السيارات اطلقت عليهم جزافاً مدافعها الرشاشة . كاني باولئك الانكليز يقولون : من اين لنا ان نعرف النجدي من الاردني ، والعرب في القيافة لا يفرقون بعضهم عن بعض . نعم ، كلهم عرب . اغمض عينيك يا ابن جان بول واضرب .

قبل مجيء الطيارات والسيارات كان قد وقع في ساحة القتال نحو مئة رجل من الفريقين . وعند تشتتهم كان عدد القتلى من الاخوان وعربان عمان قد تجاوز الاربعمئة .

وكان بعض الاسرى من المتدينة يحملون علباً من التنك انكليزية الصنع فيها لحم مقدد ، فقال اولئك الحكماء ، دهاقنة السياسة ، في الصحافة وفي الدواوين : وهل من ينكر بعد هذا ان الانكليز يساعدون ابن سعود ؟ هذا لحمهم المقدد يأكله الاخوان .

وما تلك العلب غير قسم من الحملة التي غنمها الاخوان ، تلك الحملة التي كانت معدة لحامية الشرق العربي في قصر الازرق . نعم ، هو لحم مقدد من بلاد الانكليز . ولكن السيارات والطيارات الانكليزية امطرت الاخوان وعرب عمان على السواء وابلاً من القذائف والرصاص.

لولا هذه القوة الهائلة ، التي كانت تديرها الايدي الانكليزية ، لاكتسح النجديون الشرق العربي، ورفعوا فوق ربى عمان علم ابن سعود.

اما سمو الامير عبدالله فعندما عاد الى عاصمته شكر الله ولا شك وشكر ربة الجنود التي لا تزال تكلأ بعينها الزرقاء البيت الهاشمي .

واما سيد هذا البيت الاكبر جلالة الملك حسين فقد كان في قصره بمكة متوسداً وسادة الخلافة ، مطمئن البال ، واثقا بما تضمره الايام ، وهو يدبج المقالات لجريدة القبلة .

— نحن نشكر كمالات حكومة بريطانية العظمى على ما اظهرته من الحمية في الشرق العربي . ولكننا مع ذلك لا نتنازل عن حق من حقوقنا .. ان سورية جزء من البلاد العربية وان فلسطين للعرب . ولا نوقع معاهدة فيها ما ينفي هذا القول بل هذا الحق ... ومَن اعرف منا بالبدو وبالمتدينة ؟ قنبلة من مدفع تبددهم ، وطيارة واحدة تشتت شملهم ، والبرهان في الشرق العربي ....

وكان جلالته يومئذٍ يفكر في تعزيز ملكه في الشرق الاوسط ايضاً فعين وزير خارجيته الشيخ فؤاد الخطيب سفيراً للحجاز في طهران .

الفصل التاسع والثلاثون

سقوط الطائف

يوم كان الملك حسين جالساً على فراش الملك والخلافة ، وهو يحلم بسيادة اعظم من السيادة العربية ، بسيادة اسلامية شاملة ، كان سلطان بن بجاد ، الملقب بسلطان الدين ، والشريف خالد بن منصور بن لؤي امير الخرمة ، زاحفين الى الطائف بجيش من الاخوان مؤلف من خمسة عشر لواء[1] من الوية الغطغط والخرمة وتربة ورنية وعتيبة وقحطان وبني تميم . على ان هذا الجيش ، مع من انضم اليه بعدئذٍ من عربان الحجاز واشرافه كالحرث وبني ثقيف ، لم يتجاوز الثلاثة الاف مقاتل .

ومشى الاخوان من مركز الاجتماع في تربة ، ولم يعلم بهم احد في مكة او في الطائف قبل ان اجتازوا الحدود . لم تعلم الحكومة بهجومهم قبل ان وصلت سرياتهم في اليوم الاول من صفر ١٣٤٣ (سبتمبر ١٩٢٤) الى قرية الحويّة التي تبعد بضعة اميال عن الطائف .

واستيقظت عندئذٍ الحكومة . فاصدر ناظر الحربية الهاشمية امير اللواء صبري باشا اوامره الى جنود النظام بالدفاع ، فخرجوا من الطائف ، وهم نحو اربعمئة ومعهم بعض المدافع الجبلية والرشاشة . خرجوا الى الحوية يصدون الاخوان ، فاستعرت بينهم وبين سرايا الجيش هناك معركة دامت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخوان .

تقهقر النظاميون الى جهة الطائف ، فانضم اليهم جند من البدو ورابطوا معهم في الهضاب الغربية من البلد الى الشمال والشمال الغربي منه . هناك وقفوا ثانية لسرايا الجيش الزاحف ، وشرعوا يطلقون عليهم

(١) اللواء او البيرق يتراوح عدده بين المئة والخمسمئة مقاتل .

المدافع ، فاستمروا في مناوشتهم ، دون ان يتمكنوا من ردهم ، ثلاثة ايام . اضف الى ذلك ان قسماً من البدو الذين كانوا في المراكز الامامية انضم الى الاخوان وسلم الباقون .

عندما وصلت اخبار الهزيمة الاولى الى مكة امر جلالة الملك ابنه علياً بانجاد الجيش المدافع ، فجاء الامير مسرعاً بسرية من الخيالة واخرى من الهجانة . اما النجدة التي مشت في طريق السيل فلم تصل الا بعد سقوط الطائف .

وصل الامير يوم الخميس في ٦ صفر فدخل الطائف ليلاً وخرج منها في عصر ذاك اليوم ليعسكر في الهدى (١)

وكان الجيش النجدي يزداد عدداً وقوة ، فاضطر الجنود النظاميون ان يتقهقروا الى المدينة في صباح يوم الجمعة . تقدم الاخوان . وصار رصاصهم ، قرب الظهر من ذاك النهار ، يقع داخل السور ، فاستحوذ الذعر والخوف على الاهالي ، وكان الاشراف في مقدمة الهاربين .

فقد خرج في اصيل يوم الجمعة امير الطائف الشريف شرف عدنان ، ووزير الحربية وجنوده النظاميون ، وسائر الامراء والموظفين . خرجوا من المدينة لانهم رأوا كما قيل انه خير لسلامتها ولسهولة استردادها ان يلحقوا بالامير علي .

وبعد خروج الاشراف والجيش بساعة او ساعتين ، في غسق ذاك اليوم ، اليوم السابع من صفر (٧ سبتمبر) دخل الاخوان الطائف كالسيل الجارف ، وهم يكبرون ويعتزون ، ويطلقون بنادقهم في الفضاء . ثم طفقوا يطلقونها في الاسواق ، وهم يطوفون في المدينة ، فقتلوا عدداً من الابرياء الذين لم يسارعوا مثل غيرهم من الاهالي الى بيوتهم مستأمنين .

وكان قد تخلف في المدينة جماعات من عرب الحجاز من الطويرق

---

(١) الهدى هي على اربع ساعات من الطائف .

والنمور والبقوم وغيرهم ، ناهيك بمن دخل مع الجيش من البدو « نسور الجنة » روادِ السلب والنهب . فاختلطت هذه الجموع في ظلمات الليل ، وكانت ساعة الهول والفجع . راح العربان والاخوان يطرقون الابواب ويكسرونها فيدخلون البيوت اما قهراً واما بعد ان يؤمنوا اصحابها ، ثم يعملون فيها ايدي السلب . وكانوا يقتلون في سبيل السلب . (١)

ولكنهم لم يقتلوا من النساء غير امرأة واحدة ، ولا كانوا يتعرضون لهن الا اذا أبين ان يدللنهم على الكنوز والسلاح . وهناك حقيقة اخرى يجب ان تسجل . كان بعض الاهالي يطلقون على الاخوان البنادق من شبابيك البيوت ونوافذها ، فيحملونهم على دخل تلك البيوت عنوةً ، وعلى الفتك جزافاً برجالها . كذلك كان قتلهم لمفتي الشافعية الشيخ الزواوي (٢) ولابناء الشيبي .

اما الشيخ عبد القادر الشيبي سادن الكعبة فقد نجا من الاخوان بحيلة ظريفة . بكى عندما وقع بين ايديهم ، فسأله احدهم وقد استل السيف فوق رأسه ، قائلاً : « وليش تبتسي يا تسافر ؟ » فاجابه الشيخ : « ابكي والله من شدة الفرح . ابكي يا اخوان لاني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر ، ولم يشأ الله ان اموت الا مؤمناً موحداً . الله اكبر ! لا اله الا الله » ! قد اثر هذا الكلام في الاخوان ، فبكوا لبكاء الشيخ ، ثم طفقوا يقبلونه ويهنئونه بالاسلام .

هذي هي الحقيقة كلها في فظائع ليلة الفتح . وفي صباح يوم السبت دخل سلطان بن بجاد ببقية الجيش فكف الجنود عن القتل . ولكنه امر

---

(١) كان لهذا الحادث ألم في نفس السلطان عبد العزيز ، فأمر بتأليف لجنة لتقرير الخسائر والتعويض على المنكوبين من الاهالي ومن الجنود الجاويين . وقد دُفع نحو عشرة الاف ليرة من التعويضات حتى الان ، ولا تزال اللجنة تواصل عملها .

(٢) وقيل ان الزواوي قتل بمدفع من مدافع الاشراف

بجمع السلاح وبتفتيش البيوت ، فاضطر لذلك ان يخرج الاهالي منها ، فسيقوا نساءً ورجالاً الى حديقة شبرا ، وحبسوا هناك ثلاثة ايام . ثم اطلق سراحهم وأذن لمن شاء منهم بالخروج من المدينة .

قلنا في مطلع هذا الفصل ان فريقاً من عرب الحجاز واشرافه انضم الى الجيش النجدي نفرة من الحسين وابتغاء سقوطه . وقد كان اشراف الحرّث في مقدمة الثائرين ، فتبعهم حتى من كان في الجيش الهاشمي من العربان . على ان ذلك لم يثبط من عزم الملك ولا حوله مقدار ذرة عن مقاصده . فعندما وصل الاشراف وغيرهم من الهاربين ، وعندما علم جلالته بوصول الامير علي الى عرفات ، غضب غضبة مضرية ، وشرع يعد العدة لاعادة الكرة على الاخوان ولاسترجاع الطائف . جمع شتات الجند ، وجمع من استطاع من البدو ، فكانت التجريدة الجديدة خمسمئة من النظام ، ونحو ستمئة من قبائل الحجاز الموالين ، اي من هذيل وقريش وبني سفيان ، ومئتين من اهل مكه . ثم امر الامير علياً بالرجوع الى ساحة الحرب .

مشى الامير علي على رأس هذا الجيش الى الهدى . وكان الاخوان قد علموا بذلك ، فحمل نحو الفين منهم على الحجازيين ، واشتبكوا واياهم في ٢٦ صفر (٢٦ سبتمبر) في معركة استمرت من نصف الليل الى الساعة العاشرة صباحاً .

كان الامير علي يدبر هذه المعركة من قصر يبعد الف وخمسمئة متر عن ساحة القتال . وفي هذا القصر هاتف يصله ، بواسطة مركز الارتباط في سفح جبل كرا ، بقصر جلالة والده .

— « هجم المتدينة علينا فرددناهم خاسرين » .

— « اعاد المتدينة الكرة فامطرتهم مدافعنا وابلاً من الرصاص فعادوا مدحورين » .

ولكنهم في الهجمة الثالثة ، وعلى رأسهم سلطان الدين نفسه ، ضربوا الجبهة ضربة ثلثها ، وكان في وسطها سرية من الفرسان من عرب عتيبة ، فتقهقروا ، فدخل الاخوان من تلك الثلة . واول من انهزم من بدو الحجاز هذيل وسفيان ، ثم اهل مكة ، ثم جنود النظام .

وفي هذه الساعة ، عند صلاة الفجر ، سكتت بنادق الاخوان ، فهتف موظف الهاتف يخاطب ضابط الارتباط في الكر بسفح جبل كرا ، وهذا يخاطب الديوان الهاشمي بمكة : — « انهزم المتدينة ! سكتت بنادقهم » !

ولكن السبب في سكوت تلك البنادق هو ان اصحابها توقفوا عن القتال ليصلوا صلاة الفجر ! ثم عادوا مستبسلين ، فتقهقر الامير علي بشرذمة من الجيش الى الكر . وعند وصوله الى سفح الجبل الساعة الثامنة صباحاً ، امره جلالة الملك بالهاتف ان يرجع الى الهدى . — « الطاعة ولو ذُبحت » . قال هذا وعاد ورجاله ادراجهم ، فما كادوا يصلون الى منتصف الطريق حتى انهال عليهم رصاص الاخوان كالمطر . وكان ضابط الارتباط في الكر قد الحقهم بنجاب يقول : « قد انقطع التلفون بيننا وبين الهدى » .

قفل الامير ورجاله راجعين ، وتوقف الاخوان بعد هذا النصر في الهدى ، فلم يتعقبوا فلول الجيش الهاشمي ، ولا هاجموا مكة يومذاك اجتناباً للقتال في ظلال الحرم .

الفصل الاربعون

يوم الانقلاب

في الاسبوع الذي تلا وقعة الهدى وتقدم اليوم الاخير – يوم الانقلاب – كان جلالة الحسين لا يزال يضرم في ديوانه ، وفي حكومته ، وفي حاشية قصره ، وفي بقية جيشه ، نار الشجاعة والامل . وكان لا يزال يظن انه يستطيع ان يخرج المتدينة وابن سعود من الطائف ، بل من الحجاز . وقد طالما قال ان ابن سعود من الدرجة الخامسة بين امراء العرب . غير ان احد رجال الديوان الهاشمي، وقد غشيته الشجاعة في الساعة الاخيرة ، قال مخاطباً مولاه : « ومعنى الدرجة الخامسة يامولانا هو ان ابن سعود صاعد الينا ، ولم يبق بينه وبيننا غير خمس درجات » .

خمس درجات ، او خمس ساعات ، او خمسة ايام – انما النتيجة واحدة . فقد جاء يوم الحجاز ، وهو المقدمة ليوم ابن سعود – جاء بعد اسبوع من وقعة الهدى ، وباسم الامة ، اذ اجتمع اعيانها في جدة ، ومنهم من فروا من الطائف ومكة ، من تجار وعلماء واشراف ، فارسلوا الى الحسين في اليوم الرابع من ربيع الاول (٣ اكتوبر) البرقية الآتية :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

صاحب الجلالة الملك المعظم بمكة .

بما ان الشعب الحجازي باجمعه الواقع الآن في الفوضى العامة ، بعد فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن صون الارواح والاموال ، وبما ان الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد مستهدفة لكارثة قريبة

ساحقة ، وبما ان الحجاز بلد مقدس يعنى امره جميع المسلمين ، لذلك قررت الامة نهائياً طلب تنازل الشريف حسين وتنصيب ابنه الامير علي[١] ملكاً على الحجاز فقط ، مقيداً بدستور وبمجلسين وطنيين الخ . والله الموفق لما فيه الصلاح » . قد وقع هذه البرقية التي ارسلت بعد الظهر مئة واربعون من الاعيان والعلماء والتجار الحجازيين ، فجاءهم الجواب التالي :

« ادارة برقيات الحكومة الهاشمية .

في ٤ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ بواسطة قائمقام جده .

الى الهيئة الموقرة .

مع الممنونية والشكر . وهذا اساس رغبتنا التي اصرح بها منذ النهضة والى تاريخه . وقد صرحت قبله ببضع دقائق اني مستعد لذلك بكل ارتياح اذا عينتم غير علي . واني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح .

الامضاء : حسين »

لم يرض المجلس بهذا الجواب ، فعمد الى الهاتف وأناب احد اعضائه ليكلم الملك ، فرفض جلالته الكلام . — « انت من رجال حكومتي فليكلمني غيرك » . ورفض كذلك ان يكلم الثاني . ثم تناول الشيخ طاهر الدباغ الهاتف فكان مسموعاً .

الدباغ : « مولاي ، بناءً على المركز الحرج الذي وصلت اليه البلاد ، قررت الامة طلب تنازل جلالتكم لسمو الامير علي » —

الملك (مقاطعاً) : « انا وابني واحد . واذا كنت انا قد صرت عندكم « بطال » فلا بأس . ولكني لا افهم ما القصد من هذا . لا يهمني امر الملك في اي شخص كان . ولكني لا اتنازل لولدي علي ابداً . لاني اذا كنت انا « بطال » فولدي « بطال » .

(١) كان الامير يومئذ في جدة .

الدباغ : « كلا يا مولاي . لا ننسب لجلالتكم شيئاً من ذلك . وانما نريد ان تسلك سياسة غير السياسة التي سرتم عليها ، عسى ان نتمكن من تخليص البلاد من مأزقها الحرج . والامة قد اجمعت على طلب ذلك من جلالتكم ، وترجو اجابة رغبتها » .

الملك : « يا ابني لكم ان تفعلوا ما تشاؤون . اما انا فلا اتنازل لولدي علي ابداً . عندكم الشريف علي امير مكة السابق ، واخي ناصر ، وعندكم خديوي مصر عباس حلمي ، وعندكم الاشراف كثيرون . اختاروا اي واحد تشاؤون ، وانا مستعد للتنازل له . اما ولدي فلا يمكن لاني انا وهو شيء واحد . خيره وشره عائدان لي » .

الدباغ : قد اجمعت الامة يا مولاي على اختيار الامير علي ولا ترغب »-

الملك : « لا يمكن ان اتنازل لولدي . اقول لا يمكن قطعياً » .

الدباغ : « سأخبر الهيئة ثم نعلم جلالتكم » .

مما هو جدير بالذكر ان هذه الهيئة الشرقية التي التأمت طيلة ذلك النهار والليل ، كانت في مناقشاتها واعمالها — واجماع رأيها غير شرقية . بل كانت في سرعة تقاريرها ، ومضاء عزمها ، من اعجب ما دُوِّنَ في تاريخ الشرق والشرقيين . حتى انها اقفلت ابواب المدينة اثناء هذه المفاوضات ليبقى الامير علي في جدة ويقبل البيعة .

بعد المحادثة بالهاتف ارسلت البرقية التالية وفيها البلاغ النهائي ، وفيها التهديد :

« صاحب الجلالة الملك المعظم بمكة .

الحالة حرجة جداً ، وليس الوقت وقت مفاوضات . فاذا كنتم لا تتنازلون للامير علي فنسترحم بلسان الانسانية ان تتنازلوا جلالتكم لتتمكن الامة من تشكيل حكومة موقتة . واذا تأخرتم عن اجابة هذا الطلب فدماء المسلمين ملقاة على عاتقكم » .

اعاد صاحب الجلالة النظر في الامر فتحول بعد حديث الهاتف ، او بعد وصول هذه البرقية ، عن فكرته الاولى .

« مكة في ٤ ربيع الاول الساعة الرابعة (١٠ ليلاً) .

لا بأس . قد قبلنا التنازل بكل ارتياح ، اذ ليس لنا رغبة الا في سكينة البلاد وراحتها وسعادتها . فالان عينوا لنا مأمورين هنا يستلمون البلاد بكل سرعة ، ونحن نتوجه في الحال . اذا تأخرتم ووقع حادث فانتم المسؤولون. والاشراف عندكم كثيرون [١] ارسلوا واحداً منهم او من سواهم . وعلاوة على هذا اذا قبل منكم علي الامر عينوه رأساً . الامضاء : حسين »

وفي اليوم التالي ارسل برقية اخرى الى « الهيئة الموقرة » بواسطة قائمقام جدة ، اشد لهجة من الاخيرة ، فيها يكرر انه مصمم على الاعتزال ، ويطلب تعيين من يستلم البلاد بكل سرعة . « فان الفوضى التي ذكرتموها وقعت بداعي اشهاركم رغبة تنازلي . واني لا اقبل اية مسؤولية تقع اذا لم تسرعوا اليوم في تعيين من يتولى الامر ، لأتوجه في الحال الى الجهة التي يختارها الباري عن طريق جدة . وهذا ليس هرباً من اي شيء تتصورونه بل دفعاً للظنون والشبهات » .

اما الهيئة فقد اسرعت في العمل كما يظهر من تاريخ الجواب وعنوانه .

« في ٥ ربيع الاول .

صاحب الشرف الاسمى الشريف حسين المعظم .

جواب برقيتكم رقم ١٧ — بحمد الله ومساعي مولاي قد تمت البيعة لجلالة نجلكم المعظم ، وقد فاوض جلالته من يلزم في استلام البلاد وادارة شؤونها . فالمنتظر من مولاي مبارحتها بكل احترام تهدئة للاحوال .

عن الرئيس

محمد طاهر الدباغ

---

(١) كانو قد رحلوا من مكة كما رحلوا سابقاً من الطائف .

وكانت الهيئة قد كتبت الى الامير علي تقول :

« بناءً على طلب الامة قد تنازل جلالة والدكم ، بموجب برقية رقم ١٩ المؤرخة في ٤ ربيع الاول ، وقررت الامة نهائياً البيعة لجلالتكم ملكاً دستورياً على الحجاز فقط ... وان يكون للبلاد مجلس نيابي وطني ، وقانون اساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جار في الامم المتمدنة. وبما ان الوقت يضيق الان دون تأسيس المجلس الوطني النيابي ، قد قررت الامة ان تشكل هيئة موقتة لمراقبة اعمال الحكومة ... وانا نبايعكم على ذلك وعلى كتاب الله وسنة رسوله » .

في اليوم التالي للبيعة رجع الملك علي الى مكة . وبعد اربعة ايام ، في ليلة اليوم العاشر من هذا الشهر (٩ اكتوبر) وصلت الى جدة القافلة الحاملة امتعة الحسين ، وفيها عشرون جملًا تحمل اربعين صفحة من صفائح البترول مملوءة ذهباً وقد قدَّر هذه الاحمال احد العاملين بالتخزين بمئة وستين الف ليرة .

اقام الحسين ستة ايام في جدة ، وكان يرفض ان يقابل احداً من الناس ، فاثمرت هذه العزلة بلاغاً ارسله الى « فخامة رئيس وكلاء الحكومة العربية الهاشمية » وفيه يحتج على الحكومة الدستورية ، ويعدد طغاوي ابن سعود ومطامع الامام يحيى بن حميد الدين .

قال الشريف : « اما الحكومة الدستورية ، سيما في الحرمين الشريفين ، فالعمل فيها ينبذ احكام كتاب الله وسنة رسوله . ان العمل في البلاد المقدسة بالقوانين البشرية لما تأباه شعائر الاسلام ، وفرائض الدين ، والاخلاق الشريفة مادةً ومعنى » .

وقد قال محتجاً على حصر سلطة الحجاز بالحجاز : « لو لم يكن في هذا التحديد الا تأملنا ما في مساعي الحضرة السعودية من الاستيلاء على حائل ، قاعدة امارة الرشيد ، والجوف مقر الشعلان ، وتثبته في ضبط

الكويت ، وتعرضه في عسير لامارة آل عائض ، بل تجاوزه على مكة المكرمة ، ومساعي امام صنعاء لضم بلاد حاشد ، وتهامة الشوافع ، وحضرة الادريسي على الحديده وما حولها » ... ها هنا قطع جواب الشرط على عادته ، ثم قال : « وعليـــه بلغوا الهيئة الموقرة احتجاجي القطعي اولاً على تحديد نفوذ الحجاز ، وثانيا على ما فية ابدال العمـل بكتاب الله . ولذا فاني احفظ حقوق اعتراضي وانكاري بالمادة والمعنى لكلما ذكر » . تحرر في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٤٣

وفي ليلة اليوم التالي نزل وحرمه وعبيده الى البحر ، يرافقه للوداع السيد احمد السقاف ، رئيس ديوانـه السابق ، وناظر الجمارك الشيخ محمد الطويل .

قال احد الذين اشتروا لحكومة الحجاز اليخت الذي اقل الشريف الى العقبة : « عندما وصلنـا الى جدة نزل جلالة الملك ليفحص اليخت (الذي سماه بعدئذ الرقمتين) فقال معجباً به : « سنسافر فيه يوماً من الايام سفرةً بعيدةً» .

سفرةً بعيدة ! اذا كان البعد في الاسفار يقاس بمدة الرجوع فهذه السفرة الاخيرة من الحجاز هي التي نظر اليها الشريف حسين بعين الغيب .

الفصل الحادي والاربعون

الشريف حسين

ان لسقوط الشريف حسين اسباباً سياسية وادارية وخلقية . اما السياسية فاهم ما فيها اغضابه الانكليز في رفضه المعاهدة الانكليزية الحجازية التي استمرت المفاوضات بشأنها ثلاث سنوات. ثم اغضابه امراء العرب ، وفي مقدمتهم ابن سعود . فقد كان في سياسته العربية يظهر غير ما يبطن ، فيقول مثلاً انه مستعد للتنازل عن عرشه ، ولتسليم زمام الامور الى من يستطيع ان ينهض بالعرب ، وهو في اعماله غيره في اقواله . بل لم يكن ليرى في امراء العرب الحاكمين غير من هو في الدرجة الثالثة او الرابعة . ولم يكن ليرى في كل البلاد منقذاً سواه . هذه هي الحقيقة الناصعة . وان في هذا التاريخ من الادلة عليها ما يقنع اشد الهاشميين نزعة واخلاصاً .

لنعد اذن الى تلك المعاهدة المشؤومة . ما تغاضى الانكليز عن الحسين بل عن الحجاز لغاية في النفس كما كان يظن بعض السياسيين في الشام وفي مصر والهند . وما اتخذت الحكومة البريطانية بعد مؤتمر الكويت موقف الحياد الا مضطرة، لان سياستها العربية خلال الحرب العظمى وبعدها كانت تستوجب ذلك ، بل كانت تحول دون كل عمل سوى الحياد .

ومع ذلك فقد قال بعض السياسيين هناك ، وقالت جريدة التيمس الرسمية ، ان الحكومة البريطانية احسنت صنعاً بالوقوف موقف المتفرج بعد ان رفض الحسين ان يوافق على اقتراحاتها . فلو فعل ذلك لكان في الامكان ايجاد الوسائل اللازمة لتجنب الحالة الحاضرة ، اي لانقاذ الحسين .

وقد فاتهم ان يوم الطائف هو غير يوم تربة ، وانه بعد مؤتمر العقير الذي تسدد فيه الحساب بين حكومة بريطانيـة العظمى وابن سعود ، وبعد مؤتمر الكويت الذي بدأ فيه عجزها عن التأليف بـين ابن سعود والحسين ، لم يعد لكلمتها في البلاط السعودي ذاك النفوذ المعروف . لم يعد في امكانها ان تقول لعاهل نجد : افعل هذا او امتنع عن هـــذا اكراماً لي . وليس في امكانها ، او في ارادتهـا ، ان ترسل الطيارات والسيارات المصفحة على الاخوان في الحجاز ، كما تفعل في العراق ، وكما فعلت في الشرق العربي . وهب انها امدت الحسين بالسلاح والذخـيرة فهو لا يجد في البلاد من يلبون دعوته للدفاع .

واليك بعد هذا وذاك بالبرهان القاطع . قد قبل الحسين في الساعة الاخيرة ، اي في الايام التي تخللت الاستيلاء على الطائف ووقعة الهدى ، ان يفاوض الحكومة البريطانية في تعديل مطالبه ، فجاء وفد من مكة الى دار الوكالة البريطانية بجدة يعرض ذلك على الوكيل ، وعاد خائب الامل يقول : سبق السيف العذل . هذه هي الحقيقة في موقف بريطانية العظمى تجاه الحسين وتجاه الحجاز بعده . فهي لو شاءت ان تنقذ « المنقذ الاكبر » بعد سقوط الطائف لما استطاعت . فاتخذت لذلك خطة الحياد تحفظ بها كرامتها في مدة الملك علي القصيرة

نجيء بعد هذا على ذكر اسباب السقوط الخلقية والادارية . كان الشريف حسين الكل في الكل ، حتى في تحرير جريدة القبلة . فقد كان يظن ان مقالاته الافتتاحية تترجم الى اللغات الاوروبية فيطالعها ويهتم بها الوزراء ، وان اراءه في سياسة العالم وسياسة الحياة ، من اصغر الجزئيات الى اكبر النظريات ، هي وحي منزل ، وان تفسيره لبعض آيات القرآن هو اصح من تفاسير الائمة الكبار ، وانه في الفصاحة والبيان ، مثله في العلم ، امير اقرانه ، وفريد زمانه ، وانه اذا استصرخ

العرب يجيئونه من اقصى الجزيرة سامعين لامعين ، وانه يستطيع ، وهو في « المخلوان » [١] ان ينقذ البلاد ويؤسس الدولة العربية . بل كان يظن ان العالم الاسلامي باجمعه يبتسم لابتسامـــه ، ويغضب لغضبه ، وان الذين يخدمونه يخدمون العرب والاسلام ، ولا يبغون اجراً غير رضاه.

على ان الذنب في كل ذلك لم يكن ذنبه وحده . كان الحسين صلب العود ، قوي الشكيمة . وقد ولد في ظل الكعبة ، وفي اصفى فروع السليلة النبوية . بيد ان غيره ممن سعدوا بهذه التلائد كانوا معها حكماء ، او انهم في حياتهم سعدوا كذلك بمن يخلص لهم النصيحة ، فـــكانوا يسمعون وينتفعون . اما الحسين فقد كان في عنجهيته فريداً ، لا يسمع غير صوت نفسه وصداها ، ولا يقرب منه الا من كان صدى لصداه ، وصورة شمسية لما يبغيه ولما يأباه .

ان التبعة والحال هذه في جزء كبير من غرور الحسين هي على اولئك الذين كانوا نظاراً وقضاة وكتاباً وضباطاً في حكومته ، اولئك الذين زانوا الديوان الهاشمي بصورهم البهية — الناطقة بالتسبيح — فكانوا لصاحب الجلالة اعداءً مدرعين ، مدرعـــين بالمداهنة والمداجاة ، يسبحون ويمجدون كلما فاه بكلمة ، مهما كانت تافهة ، وكلما جاء بعمل مهما كان سخيفاً . — اي نعم سيدي — من احسن ما يكون سيدي — وحيٌ منزل سيدي !

وكان كل مَن في الديوان و « المخلوان » يعرف الحقيقة ، الا جلالة الملك الذي كان يعرف ما فوق الحقيقة ، ولا يشاء ان يعرف سواها . ادرك الديوان حقيقة البدو مثلاً ، ولم يدرك مثل جلالته حقيقة السيادة المرتكزة على نسب نبوي . وما ضر هذه السيادة اذا نُكبت وقتاً في الحجاز ؟ .

---

(١) ديوان الملك الخاص .

قد اجتمعت في الحسين الاضداد ، فكان خيالياً ، وكان عملياً . بل كان روحياً وكان مالياً ، يتعشق تارة ما فوق الحقيقة ، يستوسل الى الاوهام ، وطوراً يتمسك تمسك البخيل بحطام الدنيا . اجل ، قد كان محباً للمال حريصاً جداً عليه ، فجاء الذهب يوازن ما تراكم من اوهامه ، وما اختل من احكامه ، وما اسود من ايامه ولا غرو ، فقد كان هذا العربي ، في صفته شريف مكة ، من اكبر التجار . وقد كان في صفته ملكاً من اكبر الظالمين . ظلم الرعية ، وظلم نفسه ، وظلم كل من في حكومته الا المنافقين ، المختلسين امواله واموال الامة .

في اللغة التركية مثل يقول : كل من له فم يأكل . وقد كان هذا المثل قاعدة الملك حسين في حكومته . ان الذي « يأكل » يشبع ، فيحسن عمله . والذي لا « يأكل » يظل جائعاً . والجائع لا يستطيع ان يفيد احداً من الناس . انها لقاعدة في الاحكام تدهش حتى « مكيافلي » امام المتفلسفين بالسياسة والرياء .

ان الرجل الصادق رجل مزعج ، فهو يقترح اقتراحات لا يرتاح اليها الملوك ، وهو لا يسهل الاعمال في كل حال ، ولا يقول دائماً : اي نعم سيدي . بعداً للصادقين ، فانهم للملوك دواء مر جداً . وهم فوق ذلك يورثون صاحب الجلالة الصداع .

اما الذين يتكتفون ، ويطأطئون الرؤوس ، ويقولون دائماً : اي نعم سيدي و « يأكلون » ثم « يأكلون » — على شرط ان يكون اكلهم من فضلات الاسد — فهؤلاء من خير الناس ، ومن اقدر الموظفين ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قد امتازت حكومة الحسين بعدد من هؤلاء « الاكولين » الذين خرجوا من جدة قبل خروجه وبعده وفي حقائبهم ، او في المصارف خارج الحجاز ، ما اعدوه من الابيض والاصفر للايام السود .

ومن هؤلاء عبقري في الاختلاس ارسله الحسين الى اوروبة ، عندما قرب المتدينة من مكة ، ومعه عشرة آلاف ليرة ليشتري بها طيارات ودبابات . فراح حضرته الى مصر واشترى بالقيمة عقارات لنفسه .

ومن هؤلاء حامل ختم الوكالة الحجازيـــة ، وتاجر الغنم ، وقيم المطوفين ، وسماسرة الجمال والشقاديف . كان تاجر الغنم رجلاً في مكة محترماً معززاً . ولكنه في البادية ملعوناً مذموماً . فقـد كان يرهق البدو ليغني السيد الاكبر . ويريش نفسه . يشتري من البدو اغنامهم بارخص الاثمان ويبيعها من الحجاج باغلاها . ـ الف رأس بثلاثة الاف مجيدي . بعناها اليوم يا مولانا بعشرة آلاف . هذه ثلاثة الاف لاصحاب المال ، وهذا يا مولانا الباقي .

ومن هذا الباقي يأخذ الاسد خمسة الاف او اكثر ، ويعطي الجقَل الفين او اقل . ان امر هذا الجقل لغريب عجيب . فقـد كان في رأس المقربين من الديوان الهاشمي ، لا لعبقريته بتجارة الغنم و « بالاكل » فقط ، بل لتفننه باخبار السوء عن نجد وابن سعود ، تلك الاخبـار التي كان يتحف الملك بها .

ـ « السنة سنة جدب في نجد . قد جفت الآبار ، وهلك الوف من البُل (الابل) » .

ـ « صحيح ! سبحان الله . انت يا بني اعلم الناس باحوال نجد » .

ـ « ابن سعود « مصخن » سيدي ، مضروب بالرئة . يقولون : السل . وهذا الداء لا يعيش صاحبه » .

ـ « صحيح ؟ ـ صحيح ؟ ـ سبحان الله ! لا يصدقني الخبر غيرك » .

ـ « وقد خرجت عليه قبائل الحسا ، وهم يقولون انهم لا يبغون غير الملك حسين » .

ـ « هذا الذي اقوله دائماً يا ابني . ستخرج عليه القبائل كلهـــا . وكلها تجيئنا ان شاء الله » .

ولم تكن تجارة الغنم بتجارة الشريف الوحيدة . فقد كان يتقاضى المطوفين والخبازين والجمالة قسماً من ارباحهم . ان هناك رسوماً للحكومة يدفعها الحجاج ، وفوق تلك الرسوم كان الحسين يتقاضى المطوفين نصف ليرة عن كل حاج . جاءه احد اولئك المطوفين ذات يوم يقول : « حجاجي كلهم فقراء لا يبذلون ... ما في فلوس » وقصد المطوف ان يُعفى من الضريبة الشريفية . فاجابه الشريف : « اي يا ابني كلهم اولادنا . والفقراء نساعدهم. لا تأخذ شيئاً منهم . ولا تطالبهم بشيء . كلهم اولادنا ويجب ان نساعدهم » .

عمل المطوف بامر مولاه فأعفى حجاجه من الزيادات . ولكنه بعدئذٍ أُمر بدفع الرسم نصف ليرة عن كل حاج ، فدفع المال من كيسه.

وهناك باب آخر من ابواب هذه التجارة العجيبة . قد كان الحجاج الذين يبغون الزيارة يدفعون خمس عشرة ليرة اجرة الجمل من مكة الى المدينة المنورة ، يدفعونها لعمال الملك ، فيدفع جلالته للجمال خمس او ست ليرات . اما ما تبقى فمعظمه للاسد ويسيره للاجقال.

كثيرة هي القصص التي تروى في الحجاز ، دليل حب الحسين للمال، ودليل حرصه الشديد عليه. سألت مرة احد عبيد القصر عن الاجرة التي يتناولها فقال « قلما نقبض شيئاً من المال . ونخشى ان نطلب لان جلالة الملك لا يجيب الطلب ، ويوبخنا . قد ردني مرة بلطف ونصحني الا احمل المال . هو يقول : المال يفسد الرجال .... الحسين ? هذا الحسين !! » .

افصح العبد عن فكره بقبضة يده ، ثم قال : ولكنه صاحب عقل والله . عقل كبير . هو يكتب في الجريدة اشياء عجيبة .. وكلها من رأسه والله . هو من الدواهي وصاحب فراسة . لا يمكنك ان تخفي شيئاً عنه . يلقي عليك نظرة ، فتعطيه سرك حالاً . واذا ما اخذ شيئاً

من لسانك ، يستنطق اهداب عينيك والله ، ولكنه » — اعاد العبد تلك الاشارة وهو يهز قبضة يده . « ومع ذلك هو يقول : المال يفسد الرجال » .

اني خاتم هذا الفصل بقصة اخرى قصها عليّ احد عماله الكبار . مما هو معروف ان الحكومة البريطانية كانت في الحرب العظمى تمد الحسين بالمال ، ويرجح العالمون بشؤون الحجاز والثورة العربية ان مجمل ما ارسلته اليه هو مليون ومئتا الف ليرة . على ان الدفعات الاولى ، التي كانت الواحدة منها تبلغ مئة وخمساً وعشرين الف ليرة ، لم تكن حسب ادعائه كافية للتجنيد . فاوفد احد وزرائه الى مصر ليقابل العميد البريطاني هناك ، يومئذ السر روجينلد ونغيت ، فيعلمه بالامر ويطلب ضعفي القيمة .

جاء الوزير ، وكان في طلبه بليغاً . فابرق العميد الى حكومته بلندن فسمعت الحكومة ، واجابت بعض الطلب ، فاضافت خمساً وسبعين الف ليرة الى القيمة التي كانت تُرسل الى جدة .

ابرق الوزير الى صاحب الجلالة الهاشمية ، وهو مسرور بهذا الفوز ، لانه كان يرجو منه زيادةً في راتبه القليل . وبعد ايام عاد الى جدة على ظهر مدرعة انكليزية . هي أبهة الحرب . يا لها من ابهة !

وعندما وصل الى جدة استقبلته الحكومة استقبالاً فخماً ، وسار في موكب عظيم الى مكة ، فوصلها قبل غروب الشمس ، فامره صاحب الجلالة ان يبقى خارج البلد ، لتتمكن الحكومة في صباح اليوم التالي من استقباله استقبالاً يليق بمقامه .

وكان صاحب الاقبال الوزير المحترم يفكر دائماً بما ستكون قسمته من الخمس وسبعين الف ليرة . واحد بالمئة فقط ؟ او زيادة قليلة في راتبه ؟ انه لراضٍ بذلك .

دخل مكة دخول الفاتحين . وبعد ان قابل مولاه ، واستراح من اتعاب السفر ، جاء الى زميله وزير المالية يسأله اذا كان جلالة الملك امر بشيء . فاجابه الوزير : « قد امر بان نخصم من حسابك راتب شهرين مدة غيابك .

الفصل الثاني والاربعون

الآباء يأكلون الحصرم

في الحديث الذي دار على الهاتف بين مكة وجـــدة يوم الانقلاب رفض الملك حسين بتاتاً ان يتنازل لابنه علي . ويذكر القاريء قوله : اذا كنت انا لا انفع فعلي لا ينفع . وقوله : خير ابني وشرّه عائدان لي . والاصح ان تعكس هذه الكلمة . فان خير الحسين وشره عائدان لابنائه ، وخصوصاً في هذا الموقف لعلي . الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون .

اما اذا كان قد اشفق الوالد على ولده من هذا الارث المهلك الذي يدعى الملك الهاشمي فكلمته ثمرة عرفان يكاد يكون وحياً ، واشفاقه زهرة احسان طيبة . انها في هذه الحال العزيزة الابوية التي قلما تخطأ في حسها .

اقام الملك علي اسبوعاً في مكة ، فادرك ان قوات الدفاع لديه لا تكفي لرد جيش نجد ناهيك بغلبته . بل رأى جنود مشتتين شاردين ، ولم يبق منهم غير مئتين كانوا في الدفاع مترددين .

١٣٤٣ هـ
١٩٢٤ – ٢٥م

وكان الاخوان قد وصلوا في ١٥ ربيع الاول (١٤ اكتوبر) الى قرية الزيمه التي تبعد ست ساعات عن مكة ، وهم مصممون على الحصار[١] فانسحب الملك علي ليلة ذاك اليوم بنحو مئتين من الجنود ومئتين من الشرطة ، ووصلوا في صباح اليوم

---

(١) قد استفتت القيادة علماء الرياض في ان يحرم الجنود ويدخلوا مكة منكسي البنادق . فان لاقوا من صدهم عن البيت قاتلوه ، وان لم يلقوا احداً دخلوا . ولكن العلماء منعوهم عن ذلك قائلين ان دخول الحرم بقصد القتال فيه لا يجوز .

التالي ، الاربعاء ، الى سهل جدة ، يوم كان الشريف حسين يتأهب للرحيل . ولكن علياً ظل خارج المدينة فلم يجتمع بوالده ، ولا كان من المودعين .

وفي ليلة اليوم الذي دخل فيه الى جدة ، اي في ١٧ ربيع الاول ، وصلت شراذم من الجيش النجدي الى مكة . ثم مشى في صباح اليوم التالي الشريف خالد يقود بقية الجنود ، فدخلوها محرمين ، وطافوا ، وسعوا ، واستولوا بعد فك الاحرام على البلد المقدس ، وهم ينادون فيه : الامان الامان !

لو استمرت يومئذٍ القيادة في الزحف غرباً لدخلت جدة بسرية واحدة صغيرة دون ان تلقى من الحكومة فيها او من الاهالي اقل مقاومة . ولكنها وقفت في مكة عملاً بالاوامر العالية التي كانت مجهولة في جدة . لذلك استحوذ على الناس وعلى الحكومة الذعر والخوف وكان الكثيرون حتى من الجنود ينتظرون الباخرة الاولى للفرار .

ولكن الباخرة الاولى التي وصلت في ١٩ ربيع الاول من العقبة كانت تحمل الى الملك علي نجدة من شرقي الاردن . جاءت « رضوى » تقل كتيبة من الجنود عددهم ثلاثمئة ، ومئة من عرب شمر النازحين الى الشرق العربي ، بقيادة امير اللواء تحسين باشا الفقير ، وقد جندهم الامير عبد الله بمساعدة بعض الانصار في فلسطين . انعشت هذه النجدة امال الملك علي ، وشدت ازر جنوده المهزومين . الا انها لم تغير في نفسية المدينة ، ولا اضرمت في الاهالي شيئاً من الحماس .

— الاخوان جايون ، والجنود منهزمون ، وعلي متأهب للرحيل . فما لنا اذن غير التسليم . وخير البر عاجله . تألف لذلك وفد ليذهب الى مكة فيفاوض القائدين سلطاناً وخالداً في شروط الصلح ، وكان الملك علي عالماً بذلك . فسافر في ٢ ربيع الثاني الوفد المؤلف من عشرة وجهاء

جدة وبعضهم من المناوئين لبيت الحسين . هؤلاء ، عند وصولهم الى مكة ، بايعوا ابن سعود « دينوا » . وقد عاد الوفد يحمل شروط الصلح وهي : خلع الملك علي واخراجه من البلاد ، او اجباره على الخروج من المدينة للحرب

لم يكن شيء من ذلك . ولكن القيادة النجدية انتفعت ولا ريب بمجيء هذا الوفد ، فعلمت اشياء كانت تجهلها . ومما لا ريب فيه ان جلالة الملك كان شديد الرغبة في مصالحة ابن سعود وموالاته . فقد ارسل بعد ان بويع بالملك برقية عن طريق البحرين الى السلطان عبد العزيز جاء فيها : « ان اقصى رغبتي ان يسود السلام في الجزيرة ، وان تعود السكينة ما بين نجد والحجاز . واني باسط لك رأيي في السلم ، ومقترح عليك عقد مؤتمر للرجوع الى اتمام المفاوضات التي بدأت في مؤتمر الكويت ولازالة بواعث الخلاف » .

على انه اشترط في عقد المؤتمر جلاء الجنود النجدية عن الحجاز ، فاجابه السلطان بالايجاز : « ان شروطي الاخيرة هي ان لا صلح بيننا ما دام ابناء ابيكم يتوارثون الملك في الحجاز . وانتم تعلمون ان الحجاز للعالم الاسلامي ، فلا ميزة لطائفة من المسلمين عن طائفة اخرى » .

وكان الحزب الوطني الحجازي برئاسة الشيخ محمد الطويل ، ناظر الجمارك يومئذ ، قد اصدر بلاغاً عاماً ينبيء بخلع الحسين ، وبيعة الملك علي على ان يكون ملك الحجاز فقط ، وابرق الى جمعية الخلافة في الهند يقول : « قد ارسل الحجازيون كتاباً رسمياً الى الامام ابن سعود وطلبوا منه ان يرسل مندوباً لعقد الصلح . ان الحجازيين بعد نشرهم هذا الاعلان العام يلقون تبعة ما يحدث على عاتق العالم الاسلامي ، اذا كان لا يسعى لتخليص الارض المقدسة واهلها ، ويمنع جند نجد من التقدم » .

اما العالم الاسلامي الذي كانت تمثله يومئذ لجنة الخلافة ، حسب

دعاتها ، فقد ابرق باسم رئيسها شوكت علي الى سلطان نجد يخبره ببرقية اهل الحجاز وبلاغهم ، ثم يقول : « ان مسلمي الهند لا يوافقون على بقاء الشريف حسين ولا ابنائه في الحجاز . وان حكومة الحجاز يجب ان تكون حكومة ديمقراطية حرة ،خاضعة لرأي العالم الاسلامي، وان جمعية الخلافة لا تعترف بامارة الشريف علي » .

ولكن المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين ، الذي كان قد ابرق الى السلطان عبد العزيز متوسطاً بالسلم بينه وبين الملك حسين ، لم يكن من رأي العالم الاسلامي . وقد ارسل السلطان الى سماحة المفتي رئيس المجلس الجواب الآتي :

« امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى بالقدس .

يحزننا ان تكون جاءت وساطتكم في وقت متأخر . فانا منذ سبع سنين نتوسل بجميع الوسائل لاحلال الصلح والوفاق محل الجفاء والشقاق، فلم تثمر مساعينا . وكنا كلما لنّا للحسين تجافى . فتصريحاته المتكررة في شرقي الاردن التي تبرهن عن نياته الاكيدة في بلادنا ، ومنعه رعايانا ست سنين من اداء فريضة الحج ، وحركاته المستمرة فتنها في بلادنا من عسير وغيرها ، ومعاملته حجاج بيت الله كافة ، وعجزه عن تقرير الامن في الحجاز ، مما اجبرنا ان نتخذ التدابير الفعالة لتستقر الحالة في بلاد الحرمين وليأمن مستقبل بلادنا . وانا نرغب في وجود ادارة في الحجاز تكفل حقوق جميع المسلمين بوجه المساواة ، وتضمن راحة الحجاج ، وتزيل عنهم المظالم كلها » .

بعد هذه البلاغات والتوسطات والجوابات، رأى الملك علي ان يغير اللهجة في ما أبرقه الى ابن سعود ، خصوصاً ان نجدات اخرى صغيرة تلت النجدة الاولى من الشرق العربي ، فكتب اليه هذه المرة يقول انه مستعد للحرب ، ويمكنه اخراج جنود نجد من مكة اذا رفضت

حكومة نجد الصلح . وكان جواب السلطان واحداً وما تقدمه : « الحسين مسؤول عن الحالة . ويجب اخلاء الحجاز من اولاد الحسين ، وانتظار حكم العـــالم الاسلامي الذي له الحق في الفصل في امر الاماكن المقدسة وطريقة ادارتها » .

هذه الوثائق تثبت اذن ما يلي : اولا — ان المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين سعى في سبيل السلم . ثانياً — ان الملك علياً عرض الصلح على السلطـــان عبد العزيز . ثالثاً — ان ابن سعود رفض السلم ما دام احد اولاد الحسين في الحجاز . رابعاً — ان جمعية الخلافة في الهند كانت تتكلم باسم العالم الاسلامي ، وانها كانت معـــادية للحسين واولاده . خـــامساً — ان ابن سعود ، وقد استنصرته تلك الجمعية ، شرع يتكلم كذلك باسم العالم الاسلامي الذي يطلب اخراج الحسين واولاده من الحجاز . سادساً — ان الحزب الوطني الحجازي استصرخ العالم الاسلامي ووضع تبعة الحالة في الحجاز على عاتقه . فالعالم الاسلامي ، والحال هذه ، كان ضائعاً بين الهند ونجد والحجاز . ومع ذلك فقد وضع السلطان عبد العزيز الثقة التامة به ، وركن الى احكامه ، بدليل البرقية التالية :

« البحرين في ١٦ نوفمبر ١٩٢٤
الشريف علي بن الشريف حسين .

اني احترم شخصكم احتراماً عظيما . ولكن معاملة والدكم لاهل نجد وسائر المسلمين هي التي جعلتنا نقف هذا الموقف . فاذا كنتم تحبون السلام ، وحقن الدماء ، اخلوا الحجاز ، وانتظروا حكم العالم الاسلامي . فان اختاركم ، او اختار غيركم ، فنحن نقبل حكمه بكل ارتياح . اما اذا بقيتم في ارض الحجاز فان مسؤولية ما يقع من الحوادث تقع على عاتق غيرنا .

سلطان نجد »

الاباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون !

الفصل الثالث والاربعون

رسل السلام

قد اسلفت القول ان جلالة الملك الحسين ، قُبيل سقوط الطائف ، عين وزير خارجيته الشيخ فؤاد الخطيب سفيراً لدى حكومة ايران . فبـــادر السفير الجديد الى التأهب للسفر ، وهو مسرور بوظيفته هذه ، مغبوط من زملائه عليها ، وركب البحر من جدة مصحوبا بكاتب سره ، وترجمـــانه ، وياوره ، ومرافقه ، وعبيده . وقد لحق به آخر هو القدر فادركه في الشرق العربي . اذ ما كاد يصل الى عمان ، في طريقه الى بغداد فطهران ، حتى وصلته دفعة واحدة اخبار الحجاز كلهـــا ، من سقوط الطائف الى تنازل الحسين !

ثم جاءه امر من الحكومة الجديدة ، حكومة الملك علي ، بالرجوع الى وظيفته السابقة ، فقبل الشيخ فؤاد قسمة الجبار فيه وهو يقول : سأكون هذه المرة وزير الخارجيه لا ترجمانها . وقد أوحي اليـــه انه بصفته هذه العالية يستطيع ، اذا استعان بصديقه مؤلف هذا التاريخ ، ان يسعى في سبيل السلم بين البلادين نجد والحجاز سعياً موفقاً . لذلك ابرق اليّ يقول انه يبغي مقابلتي ، وانه غير مأذون بالدخول الى سورية . فهل يمكني ان اوافيه الى عمان .

تكررت البرقيات بيننا ، فاتفقنا على الاجتماع في حيفـــا . وبعد المفاوضة هنـــاك زرنا سمو الامير عبدالله في مقره بعمان ، فرغب اليّ عقب المذاكرة بالتوسط بين جلالة اخيه وعظمة السلطان . وقد اطلعني الشيخ فؤاد في اليوم التالي على برقية جاءته من الملك علي يرحب فيهـــا برسول السلام .

قبلت المهمة لاسباب ثلاثة : اولاً – لاني على اتصال بعظمة السلطان وعالمٌ ببعض ما يرمي اليه في سياسته العربية . ثانياً : لاني منذ البدء في رحلتي العربية رسول السلم والتضامن بين ملوك العرب . ثالثاً: لاني كنت اقترحت على عظمته اقتراحاً لحل مشكل الحجاز سلماً فجاءني منه جواب يستحسن الاقتراح ، ويشجع على السعي في سبيل تحقيقه . اضف الى ذلك ان عدداً كبيراً من وجهاء المسلمين في بيروت اجمعوا على التوسط بين العاهلين العربيين وقرروا ان اكون رسولهم اليهما .

سافرت والشيخ فؤاد الخطيب الى السويس ، ومنها الى جدة ، فوصلناها في ٧ ربيع الثاني (٥ نوفمبر) . وكان قد سبقنا اليها رسول آخر من رسل السلام ، هو المستعرب الانكليزي المستر فلبي[١] الذي كان سابقاً وكيل دولته السياسي في شرقي الاردن .

قد كانت الاشاعات بخصوصه عديدة ، واظهرها انه قادم بصفة رسمية او شبه رسمية من قبل الحكومة البريطانية للتوسط بين علي وابن سعود . ولكن المعتمد الانكليزي بجدة المستر بولارد[٢] كذب هذه الاشاعة رسمياً .وقد اكد لي ان المستر فلبي ، وان كان رغم اقالته من وظيفته لايزال في سلك الموظفين ، هو متطوع للخدمة التي جاء من اجلها. وانه لا يمثل غير نفسه . وقد اثبت ذلك الملك علي اذ قال : «هو صديق لابن سعود وصديق لنا .وقد عرض خدمته بواسطة وكيل الحكومة العربية السابق بلندن فقبلناها » .

اجتمعت بزميلي بُعيد وصولي ، ثم تكررت الاجتماعات والمباحثات فكنا في الموضوع متفقين – متفقين في وجوب التوسط بالسلم . بل في وجوب السلم لخير العرب بين نجد والحجاز .

---

(١) H. St. John Philby

(٢) R. W. Bullard

ولكن الرجل الذي جئنا نفاوضه لم يكن قد وصل الى مكة ، ولا كان مقره يومئذٍ معروفاً . هل هو باق في الرياض ام هو في الطريق الى الحجاز ؟ واذا كان لا يزال في الرياض فهل هو قادم الى مكة ام لا ؟ واذا كان ينوي القدوم فمتى يا ترى يتحرك من عاصمة نجد ؟

هذه سؤالات كنا نتساءلها . ولم يكن في جدة ، لا في الحكومة ، ولا في دور القناصل ، ولا بين التجار ، من يستطيع ان يجيب عليها . لم يكن في جدة شخص واحد يعرف شيئاً عن ابن سعود .

وكان المستر فلبي قد كتب الى احد قائدي الجيش النجدي بمكة مستخبراً ، فلم يحظَ بجواب . وقد كتبت انا الى القائدين كليهما ، الى سلطان بن بجاد الذي يعرف اني صديق عظمة السلطان والى الشريف خالد ؛ فلا جاء الجواب من احدهما ، ولا عاد الرسول . ثم خطر لي ان أبرق الى عظمته بواسطة وكيله في البحرين . وقد كنا تباحثنا انا والمستر فلبي في السفر براً عن طريق الطائف الى الرياض ، فنجتمع بعظمته في العاصمة او في الطريق ، وعقدنا النية على ذلك . فابرقت الى القصيبي في البحرين اولاً وثانياً فجاءني منه جوابان الواحد بالعربية : — « ارسلنا برقيتك الى الامام » والاخر بالانكليزية : — « قد سافر الامام الى الحجاز » . وهذه البرقية الانكليزية اول نبأ وصل الى جدة ينبيء بسفر السلطان ، فسر به الملك ، وسُرت الحكومة والقناصل ، بل سرت المدينة باسرها . كيف لا ولسان حالها وحالنا واحد — لا بد في قدوم السلطان ان تتغير الحال فيضع عظمته حداً لتلك الفظائع التي كانت تُروى اخبارها في جدة . والسلطان رجل عاقل حكيم يمكننا ان نتفاهم واياه .

بتنا والحال هذه ننتظر وصول عبد العزيز . وفي ذاك الحين علمنا ان رسولاً آخر من رسل السلم هو قادم الى جدة ، وانه من كبار المسلمين . سرَّنا الخبر انه من المسلمين ، فيجيء موازناً لمسيحية زميلي

الانكليزية ومسيحيي العربية . والظاهر ان الفكرة هذه خطرت لجلالة الملك ،فقبل بتوسط السيد طالب النقيب الذي كان يومئذٍ في الاسكندرية. والسيد طالب، الذي جاء ذكره غير مرة في هذا التاريخ ، هو صديق للسلطان عبد العزيز . وهو كذلك صديق المستر فلبي الذي عرفه في العراق يوم كان من المستشارين هناك، وكان السيد وزيراً طالباً للعرش. فاذا كان السلطان لا يقبل بتوسط المستر فلبي ولا بتوسطي،وهو في البلد المقدس وفي ظل الكعبة ، فلا بــد ان يأذن بالزيارة في الاقل لمن اجتمع به مراراً في الكويت وفي البصرة ، وكان ضيفه في القصيم ، بل لمن توسط مرة بينه وبين الترك ، لصديقه الحميم السيد طالب النقيب .

عندما وصل السيد طالب كان خط الدفاع حول جدة ، بما فيه من الاستحكامات والمتاريس والخنادق والاسلاك الشائكة والالغام ، قد تم كله . وهو في شكل هلال طوله من البحر الى البحر نحو ستة اميال. وكان الملك علي قد استعاد شيئاً من الامل والاطمئنان ، بــل كانت ثقته بالفوز ، سلماً او حرباً ، تزداد يوماً فيوماً مع ازدياد عدد الجيش النظامي وقوته ، لان الشريف والده كان يبذل المال والامير اخاه يبذل الهمة في سبيل التطوع في الشرق العربي « للدفــاع عن بيت الله الحرام » ... وهذا خط الدفاع يا عبد العزيز ، وهؤلاء اصدقــاؤك واصدقاؤنا رسل السلام .

الفصل الرابع والاربعون

الى مكة

في العشر الاول من ربيع الثاني سنة ١٣٤٣ ، يوم كانت جدة ودوائر السياسة فيها تجهل مقر السلطان عبد العزيز ، وتجهل مقاصده الحربية او السلمية ، ، كان هو في الرياض يتأهب للسفر الى الحجاز . وقد أم العاصمة في ذاك الحين رؤساء القبائل والاعيان ليودعوه فخطب فيهم قائلاً : « اني مسافر الى مكة لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم التي ارهقت كاهل العباد . اني مسافر الى مهبط الوحي لبسط احكام الشريعة وتأييدها ... ان مكة للمسلمين كافة وسنجتمع هناك بوفود العالم الاسلامي ، فنتبادل واياهم الرأي في الوسائل التي تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية ... وسيكون الحجاز مفتوحاً لكل من يريد عمل الخير من الافراد والجماعات » .

وقد ارسل قبل السفر الى الامام يحيى وغيره من امراء الاسلام المستقلين الكتاب الآتي : « اما بعد فقد استقبلت الطريق الى مكة غير باغٍ ولا آثم . فليتفضل الاخ العظيم بارسال من يمثله في مؤتمر مكة حباً بنشر السلام بين امم الاسلام . سلطان نجد : عبد العزيز » .

هذا فيما يختص بشؤون البلاد الخارجية . اما شؤونها الداخلية فقد جعل والده الامام عبد الرحمن مرجعها الاعلى ، واناب مكانه فى العارض ابنه سعوداً على ان يعمل بمشورة جده. ثم كتب الى اهل بريدة وعنيزة والى بعض الهجر من الاخوان ان يوافوه بألويتهم وجموعهم الى اماكن عيّنها .

وفي ١٣ ربيع الثاني (١١ نوفمبر) خرج من العارض بكوكبة من

الفرسان ، وبحاشيته المؤلفة من كتاب السر وبعض العلماء ، وفيهم من آل الشيخ عبد الله بن حسن قاضي جيشه ، والشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف إمامه . وقد رافقه في هذه الرحلة اخواه محمد وعبد الله ، وابناه محمد وخالد ، وغيرهم من آل بيته ، ونفر من آل السبهان وآل الرشيد ، وغيرهم من وجهاء نجد . ثم انضم الى الموكب الشاعر عبد الرحمن النفيسة وراوية نجد المشهور عبد الله العجَيري . وكان مع عظمته من المستشارين السوريين الدكتور محمود حمدي ومحمد النحاس ويوسف ياسين وجمال الغزي .

اما الالوية التي لحقت بالموكب السلطاني في الطريق فعددها خمس عشرة لواء ، خمسة الوية من اهل القصيم — من بريدة وعنيزة والبكيرية والمذنب والخبراء — وهؤلاء من الحضر ، وعشرة الوية من هجر الداهنة ودُخنة ونفي والشبيكية وغيرها .

ان الطرق المعروفة بين نجد والحجاز كثيرة ، اقصرها من الرياض ، بعد الخروج من وادي حنيفة ، هي الطريق الجنوبية التي تبدأ من ضرمة فتمر بالركيبة ، ومسافتها الى مكة نحو خمسمئة ميل . ولكن السلطان اختار الطريق الشمالية التي تمر بالوشم واطراف وادي السر ، ثم بالشعرة ، وهي تزيد نحو مئة ميل على الاولى ، ويستغرق قطعها عشرين يوماً للقوافل ، ومن الخمسة والعشرين الى الثلاثين يوماً للجند . اما النجاب حامل البريد فيمكنه ان يقطع المسافة بين مكة والرياض بعشرة ايام .

سار الموكب سيراً معتدلاً ، لا كالقوافل ولا كالجيش . وكان يقف يوماً او يومين على بعض المياه القريبة من العمران ، فتجيء الوفود تسلم على الامام ، وتجيء معهم في بعض الاحايين الشكايات التي كان يسمعها ويمهد سبيل العدالة لاصحابها .

اربعة وعشرين يوماً ظل الموكب في الطريق . وكان يمشي سيراً

واسراء من الثماني ساعات الى الخمس عشرة ساعة كل يوم ، ويمشي حتى في البادية بنظام عسكري .

قد دون الاديب يوسف ياسين[١] بعض اخبار هذه الرحلة السلطانية، ونشرها تباعاً في جريدة « ام القرى » فذكر اسماء الاماكن التي مروا بها ، والهضاب والمياه والشعاب والاودية ، وردها الى ما جاء من ذكرها في دواوين الشعر وكتب الاقدمين . وقد وصف الموكب من ساعة الادلاج الى ساعة الاناخة الاخيرة كل يوم فاخبرنا كيف كان السلطان ورجاله يقضون ساعات النهار والليل في السير والسرى .

قلت ان للموكب نظاماً عسكرياً في السير . وما سوى ذلك فلا دليل على الحرب في ما كان يحمل ، ولا اثر للحرب في ما كان يُسمع في صفوفه . انما هو رهط من الناس خرجوا للسياحة ، وفي سياحتهم رياضة مزدوجة بل مثلثة اي رياضة روحية ، وجسدية ، وادبية .

يسوح الاوروبيون فيحملون في حقائبهم الكتب يطالعونها في ساعات السفر . وها نحن في البادية — عربٌ في فيافي العرب — ومعنا من الكتب الدينية والادبية والتاريخية للمطالعة في النهار وفي الليل . اجل ، ترانا نسمر ونحن في السرى . فاذا ما طال الليل وملّ الحادي، سمعنا صوت السلطان ينادي العجَيري . وقد يكون راوية نجد معتزلاً الركب كما هي عادته، فيكرر احد الرجال كلمة السلطان: العجيري! — يا عجيري تقدم . فيحث الراوية راحلته ، وبعد ان يدنو من عبد العزيز يسلم ويشرع يقرأ؟ اجل ،انك اذا كنت لا تراه تظنه يقرأ في كتاب من

(١) يوسف ياسين عربي صميم من اللاذقية ، أمّ شبه الجزيرة متطوعاً لخدمة القضية العربية وابن سعود . فوصل الرياض قبيل خروج السلطان منها ، وكان من الرفاق المقربين في الرحلة . ثم تولى تحرير جريدة « ام القرى » بمكة ، وعين وكيل الخارجية بالنيابة اثناء تغيب الوكيل مع الامير فيصل في اوروبـا ، وهو اليوم من المستشارين في ديوان جلالة الملك .

كتب الادب والشعر . ولكن العجيري لا يحمل كتاباً . العجيري يحمل في رأسه « الاغاني » و « الكامـــل » و « البيان والتبيين » و « الكشكول » وبضعة دواوين من الشعر . له ذاكرة يقبلها اذا كبت خاطرٌ سريع . وله ادب لا يقيده بحرف ما يروي ولا يبعده عن معناه. وله صوت ونطق وطريقة في الالقاء تدهش اكبر الممثلين .

– ماذا يبغي الامام؟ فصلا في مكارم الاخلاق؟ – فصلاً في الشجاعة والاقدام ؟ – فصلاً في البر والتقوى ؟ – فصلاً في نوادر الملوك ؟

واذا ما بـــدأ في الرواية كان كالساحر يتمشى في حدائق الادب والشعر والتاريخ ، فينقلها بازهارها ، وبطيب شذاها ، الى الباديـــة ، فتنعش الركبان ، وتطرد النعاس من الاجفان .

قال يوسف ياسين : « قد اقام لنا الدليل على ان ما روي عن اخبار الرواة الاولين ، وما كانوا يحفظونه من الشعر والنثر ، امثال حماد والاصمعي ، لم يكن خيالاً شعرياً . وان امالي ابي علي القالي واضرابه لم تكن الا من قبيل ما كان يرويه لنا الشيخ العجيري في الطريق » .

وفي ساعة الادلاج ، بعد ان تمشي الحملة وامامها العـــلم والى جانبه راكب يحمل قنديلاً منيراً ، نسمع الصوت ينادي : العجيري . فيدنو الراوية من عظمة السلطان ويطفق يرتل طائفة من الذكر ترتيلاً جميلاً انيقاً « تكاد تعد منه حروفه » . ثم يؤذن المؤذن صلاة الفجر .

وبعد الصلاة والقهوة يستأنف الموكب السير فينادي السلطان : ابن الشيخ ، فيلبيه احد العلماء ويشرع يتلو شيئاً من القرآن . ثم بعـــد الضحى يدعوه ثانية ، او يدعو غيره من العلماء ، قارىء الرحلة مثلاً ، فيسلم هذا قياد راحلته الى خادم يقودها ، ويتناول من حقيبته السيرة النبوية ، او صحيح مسلم ، او تاريخ ابن الاثير ، او كتاب الترغيب والترهيب ، فيطفق يقرأ ساعة او ساعتين بصوت عالٍ يسمعه المتقدمون في الموكب والمتأخرون .

ويظل الموكب سائراً بنظام لا يخرج في الصورة الاجمالية عنه ، تتقدمه كوكبة الفرسان ، وتكاد احياناً تختفي عن الانظار ، فاحرى بها ان تدعى كوكبة الكشافة . ثم علم السلطان ووراءه الحملة ، اي حملة المؤن والامتعة والمواعين ، وهي تمشي قبل الموكب السلطاني بساعة او ساعتين ، فتختفي بعض الاحايين مثل كوكبة الفرسان . اما الموكب فتتقدمه الاعلام ، اعلام الجيوش المنضمة اليه ، وكلها تمشي في صف واحد ، وبعدها الموكب ، والسلطان حيناً على رأسه وحيناً في الوسط ، فيسير امامه او وراءه الكبير والصغير بدون تمييز وبدون نظام .

وها هوذا قد اناخ في مرات بلدة امرىء القيس ، فجاءته الوفود من الوشم وسدير مسلمة عليه . وها هوذا جالس في فسطاطه يسمع احد الشعراء يتلو قصيدة في مديح الامام وانتصار جيوش التوحيد في الحجاز . وها هوذا في صراحته المعتادة يقول للشاعر : « احب سماع الشعر ولكنّ نوعين منه لا احبها ، الهجو والغلو في المديح » . ولا وقت لدينا لنقف نبكي من ذكرى الاحباء والمنازل ، ولكننا نمر بسقط اللوى ، والعجيري يتلو علينا شيئاً من اخبارك يا ابن حجر الكندي .

توكلنا على الله ! اركب يا ابن مطرف — اركب يا عبد الرحمن . وعبد الرحمن بن مطرف هو اول من يعلو راحلة في الموكب ، هو راعي الراية ، راية السلطان .

وها نحن بعد خروجنا من ديرة امرىء القيس نشرف على اماكن نشاطرها ولو في الكتب جلال القدم والذكرى . هذه الجبال والشعاب والمياه — وضح الحمى والنيّر والخفاف — قد طالما زانت في غابر الزمان قوافي الشعراء ، وافسدت عيش سادة العرب . هاهنا كانت تتطاحن

القبائل ، وهاهنا كانت تندب الشعراء المنازل والاحبـــاب . وهوذا ريع الريان ، ذاك الشعب الخصيب الذي نخرج اليه من الشعرة ، محط رحال التجار والقوافل بين الحجاز والقصيم والعارض ، وما دون الشعب الجبل الذي قال فيه جرير :

يا حبذا جبل الريان من جبل   وحبذا ساكن الريان من كانا

وهو الذي حن كذلك الى اهله الشريف الرضي .

ايا جبل الريان ان تعرَ منهم   فاني سأكسوك الدموع الجواريا

ولا نزال مسندين – مصعّدين – من الريان الى وادي الرِشا ، بين جبال شهلان والخوار ، فتبدو اعالي نجد في ابهى الحلل من الاخضرار ، تلك البلاد التي يتغنى الشعراء بعرارها ، وبطيب هوائهـــا ، وبفسيح ارجائها .

حنيناً الى ارض كأن ترابها ،   اذا امطرت، عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الاقحوان بروضه   ونور الاقاحي وشي بردٍ محبر
احن الى ارض الحجاز وحاجتي   خيام بنجد دونها الطرف يقصر

في وادي الرشا نعلو نحو الف واربعمئة قـــدم عن البحر ونستمر مسندين ، فنصل الى ماء يدعى المصلوم (بالصاد) وهناك يلتقي الركب بنجاب من مكة يحمل البريد الى السلطـــان ، وفي البريد كتاب من قناصل الدول بجـــدة الى قواد الجيش النجدي بمكة يعلمونهم بموقف دولهم الحيادي في النزاع بين نجد والحجاز ، فارسل اليهم السلطـــان الجواب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم
السلطنة النجدية وملحقاتها

في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٤٣ (٢٢ نوفمبر ١٩٢٤) عدد ١١٤
من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصـــل آل سعود الى حضرات

الكرام قناصل الدول العظام في جدة، معتمد الدولة البهية البريطانية ، وقنصل جنرال الدولة الايطاليــة ، ووكيل قنصل جنرال الجمهورية الفرنسية ، ونائب قنصل ملكة هولندة ، ووكيل قنصل شاه ايران المحترمين .

بعد اهداء ما يليق بجنابكم من الاحترام ، نحيط علمكم بأننا احطنا علماً بكتابكم المؤرخ في ٤ نوفمبر المرسل الى امراء جيشنا خالد بن منصور وسلطان بن بجاد بخصوص موقف حكوماتكم ازاء الحرب الواقعة بين نجد والحجاز . كنت اود من صميم قلبي ان تحقن الدمــاء ، وتنفذ رغائب العالم الاسلامي الذي ذاق المتاعب في السنوات الثمانية الاخيرة. ولكن الشريف علي بن حسين بموقفه في جدة لم يجعل لنا مجالاً للوصول الى اغراضنا الشريفة . ولذلك فاني حباً بسلامة رعاياكم ، ومحافظةً على ارواحهم واملاكهم وما قد يحدث لهم من الاضرار احببنا ان نعرض عليكم ما يأتي :

١ً ـ ان تخصصوا مكاناً ملائماً لرعاياكم في داخل جدة او خارجها وتخبرونا بذلك المكان لنرسل اليهم من رجالنـــا من يقوم بحفظهم ورعايتهم .

٢ً ـ اذا احببتم ان ترسلوهم الى مكة ليكونوا في جوار حرم الله بعيدين عن غوائل الحرب واخطارهـا فاننا نقبلهم على الرحب وننزلهم المنزلة اللائقة بهم . واننا نرجوكم ان ترسلوا كتابنا طيه الى اهل جدة حتى يكونوا على بينة من امرهم . واننا لا نعـــد انفسنا مسؤولين عن شيء بعد بياننا هذا وتقبلوا في الختام تحية خالصة مني » . الختم

وهذا نص الكتاب الى اهل جده .

« من عبد العزيز آل فيصل آل سعود الى اهالي جده كافة .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فلا بد انه بلغكم ان اغلب

العالم الاسلامي قد ابدى عدم رضاه عن حكم الحجاز بواسطة الحسين واولاده . وانا حباً بسيادة الاسلام، وحقن الدماء ، نعرض عليكم انكم في عهد الله وامانه من اموالكم وانفسكم اذا سلكتم مسلك اهل مكة . وبالنظر الى وجود الامير علي بين اظهركم وخروجه على الرأي الاسلامي ، فانا نعرض عليكم الخروج من البلد والاقامة في مكان معين، او القدوم الى مكة سلامة لارواحكم واموالكم ، او الضغط على الشريف علي واخراجه من بلادكم . فان فعلتم غير ذلك بمساعدة المذكور او بولائه فنحن معذورون امام العالم الاسلامي ، وتبعة ما قد يقع من الحوادث تكون من المسبب والسلام » .

الختم

كأن الذين يسافرون في البادية ، فينقلون بيوتهم كل يوم ، ينسون ان بيوت اهل الحضر من حجر وطين ، وان لمصالحهم وتجارتهم جذوعاً متأصلة بين تلك الاحجار وتحت تلك البيوت . ومع ذلك فقد ارسل السلطان الكتابين الى القناصل والى اهل جدة بواسطتهم ، وامر ثلاثة من حاشيتـــه بان يتقدموه الى مكة فيطمئنوا الناس ، فراحوا يبشرون بقدومه .

سار الموكب، بعد ان اجتاز جبل النيّر، جنوباً بغرب الى الدفينة، وهي في رأس الحرّة التي تعلو نحو اربعة الاف قدم عن البحر ، وفيها بقية طريق معبدة ، غير السكة السلطانية اي سكة زبيدة القديمة . وفي هذه الحرّة اعلام منصوبة تدل على الارض الوعرة التي لا تُسلك ، بل تحذر القوافل من اخطارها . وهناك بعد ان نجتاز الحرّة سالمين بيوتاً متهدمة في وسط بساتين من الاثل ونخيل الدوم . هي مران التي وصفها ياقوت بقوله انها قرية غناء كبيرة ، كثيرة العيون والابار والنخيل ، وقد كانت لبني هلال . ولكنها اليوم للاضمحلال :

مررنا على مران ليلاً فلم نعج   على اهل آجام بها ونخيل

وفي اليوم الثالث والعشرين وصل الموكب الى عشيرة التي تتناهى اليها طرق نجد كلها ، والتي تعلو اربعة الاف قدم عن البحر . فاقام السلطان فيها يوماً يستقبل الوفود التي جاءت من جهات الحجاز للسلام . ثم ادلج الركب من عشيرة مصعدين الى قرية السيل (٤٥٠٠ قدم) اعلى نقطة في هذه الرحلة ، فأحرموا هناك وانحدروا في وادي السيل ، بين جبال جرداء ملساء سحماء ، فمروا بقرية الزيمة ، وأناخوا في مكان يبعد ساعتين عن الاميال . ثم تقدموا بعد الظهر مكبرين ملبين .

لبيك اللهم لبيك !

لا شريك لك لبيك !

ملأت هذه الجموع البيضاء الشعاب ، وتزاحمت بين الهضاب ، وتصاعدت اصوات الملبين ، فتصادمت في الفضاء ، فرددت صداها الجبال والوهاد .

لبيك اللهم لبيك !

لا شريك لك لبيك !

الفصل الخامس والاربعون

اشاعات وحقائق

مرضنا ونحن في جدة ننتظر وصول السلطان عبد العزيز الى مكة . مرضنا حقيقة ومعنى – مرضنا كلنا ، الملك علي ، والسيد طالب ، والمستر فلبي ، والمؤلف – بالملاريا وغيرها من الامراض السارية . وكنا في ذلك الاثناء نسمع من الاخبار – اخبار الاخوان – ما لا يزيل الكربة بل يزيد بها .

يا لهول الاخوان! ويا للفظاعة ويا للعار ! – قد عاهدوا « الجداعين» وأمنوهم على حياتهم واموالهم ، ثم ذبحوهم عن بكرة ابيهم . – قد عاهدوا بني جابر وبعض الاشراف الذين « دينوا » وأمنوهم ، ثم حملوا عليهم فذبحوهم كلهم الرجال منهم والنساء والاطفال – الاخوان يضربون اهل جاوه بمكة ويمنعونهم عن الصلاة ، وعن التدريس في الحرم . – الويل لمن يرى الاخوان سيكارة بيده ، فانهم يشبعونه شتماً وضرباً . – الاخوان يحجزون البيوت بمكة ويبيعونها . – الاخوان يهدمون بيت مولد النبي ، وبيت السيدة فاطمة الزهراء ، وضريح السيدة خديجة . – الاخوان هدموا كل قبور الصحابة والاولياء وآل البيت في المعلاّ . – وهدموا مسجد حمزة ، ومسجد ابي قبيس . – وهدموا . . .

مرحباً بالاشاعات . فانها مثل المصائب بعضها ينسي الناس البعض الآخر . وقد انسانا الاخوانَ – الى حين – الخبر بسقوط حائل . قالوا انها سقطت بيد قبائل شمر ، وقالوا ان سلطان الدويش قد استولى بمساعدة شمر على حائل .

ومرحباً بالمكذّبين . لا صحة للاشاعة بان مشايخ رابغ « دينوا »

وان رابغ اصبحت في حوزة الاخوان . كذلك كانت الاخبار تترامى الينا ، ونحن على فراش الحمى نتململ ونقول : عجّل الله قدومك يا عبد العزيز : ولكننا في تجوالنا ايام النقه سمعنا من مصادر شتى ، وتحققنا بعدئذٍ ، ما يقرب من الحقيقة في ما تقدم من الاشاعات . سنعود اذن اليها فنمحصها للتاريخ .

عندما دخل الاخوان مكة جاء عربان الجدعان وبني جابر وبعض الاشراف الى الامير خالد بن لؤي موحدين طائعين . دخلوا في دين التوحيد « دينوا » فاعطاهم خالد الامان على ارواحهم واموالهم ، واذن لهم بالرجوع الى منازلهم التي تبعد مرحلة ومرحلتين عن جدة الى الشرق الجنوبي .

ولكنهم بعد ان عادوا من مكة جاؤوا يقدمون الطاعة للملك علي ، وشرع بعضهم يقطع الطريق بين جدة ومكة . فارسلت القيادة النجدية سرية عليهم للتأديب ولجمع السلاح . ابى الجدعان ان يسلموا سلاحهم ، فنشبت بينهم وبين الاخوان معركة دامية انتهت بهزيمة الجدعان وفرارهم في السنابيك الى جدة . اما بنو جابر فمنهم من سلموا سلاحهم ، ومنهم من فروا هاربين ، فركبوا البحر مثل الجدعان ، وجاؤوا جدة بحريمهم وعيالهم ، فانزلهم الملك علي خارج السور ، وبذل في سبيلهم المستطاع .

اجتمعنا في قنصلية هولندة ببعض الجاويين العائدين من مكة ، فسألناهم ان يصدقونا الخبر ، فقال احدهم : « اقمنا حفلة لنتلو المولد النبوي ، كما هي عادتنا كل سنة ، فنصبنا قبة للاجتماع . وعندما حضر عالمنا لتلاوة سيرة المصطفى ، جاء الاخوان فطردونا ، وهدموا القبة . — لا ، لم يضربوا احداً . ولكنهم كانوا يشتموننا ويدعوننا مشركين — نعم ، التدخين ممنوع في الاسواق . ولكني ما رأيتهم يضربون احداً

يدخن . هم يشتمون من يدخن ، ، ويدفعونه جزاءً ربع مجيدي » .

التقينا ذات يوم عند السور باثنين عائدين من مكة ، الواحد ضابط تركي كان في خدمة الحسين ، والثاني عربي من البدو . فسألنا عن فظائع الاخوان فقال الضابط : « حجزوا البيوت ، ونهبوها ، وباعوها والله . وهدموا المقامات كلها ، حتى مقام سيدنا ابرهيم عيله السلام » . فقاطعه الاعرابي قائلا : « لا والله . الذنب ذنبنا نحن العرب ، والخيانـة منا . يجيء الواحد الى خالد يقول : هذا بيت الشريف ، وهـذا بيت عم الشريف ، وهذا بيت احد عبيد الشريف فيحجز الاخوان هذه البيوت ، ويبيعونها بعد ان يخرجوا منها الاثاث . ما مسّوا والله غير امـلاك الشريف ودور الحكومة » .

اما هدمهم القبور والمقامات فما انجلت الحقيقة فيها الا بعد ان زار وفد جمعية الخلافة مكة فرأوا باعينهم ما هدم منها ، ومـا لم يهدم . وقد قال السيد سليمان الندوي رئيس الوفد في تقريره : « ان القباب والبيبان التي كانت عـلى القبور هدمت وكسرت . ولكن القبور موجودة سالمة كما شاهدنا . والقبة التي كانت عـلى قبر حمزة هدمت والمسجد سالم » . اما مسجد ابي قبيس فقد هـدم قسم منه ، فاسف السلطان عبد العزيز لذلك ، وامر بترميمه .

لا ثأر للاخوان عـلى المساجد . ولكن في القباب مصيبة الدين الكبرى . قال محمد بن عبد الوهاب : « المشاهد التي بنيت عـلى القبور التي اتخذت اوثاناً تعبد من دون الله ، والاحجـار التي تقصد للتبرك والنذر والتقبيل ، لا يجوز ابقاء شيء منها على وجه الارض مع القدرة على ازالته » . وقد ذكر بالحديث : خير القبور الدوارس .

ولكن السخافة في الناس لا تتغير الا في شكلها . ان هادمي القبور ومقدسيها لمن امة واحدة ، وان غضبةً للحجارة مثل غضبة عليهـا لا

تصلح الامم . كيف لا نستأنس اذن بالاشاعة التي تنسينا اشاعات القبور ؟ كل من في جدة صدق الخبر بسقوط حائل الا المستر فلبي والمؤلف . واظن ان بعض الناس شاركونا الريب ، واستمروا مع ذلك في نشر الاشاعة . فقد سمعنا جلالة الملك في مجلسه ذات ليلة يقول لقائد فرقة النصر تحسين باشا الفقير : « الخبر بسقوط حائل صحيح ، جاءنا اليوم الاثبات من عمان » . اي من المصدر الاعلى في ما كان يروى عن نكبات نجد وابن سعود . ولكن علياً من الناس الذين لا يحسنون التمويه ، فقد خانته اللهجة التي ظهر فيها انه مشكك بما يقول .

وقد كان يشكك حتى بمن يقسمون اليمين المغلظة من البدو — والله بالله نحن رجالك يا علي ونفديك بدمنا ! فهل يقال بعد هذا ان ابن مبَيريك صاحب رابغ ومشايخه كلهم « دينوا » ؟ وان رابغ اصبحت في حوزة الاخوان ؟

ها كهم في القصر يقدمون الطاعة للملك .

وها كهم في مكة يبايعون ابن سعود !

اشاعات وحقائق ، تتلو الواحدة الاخرى كأدوار من الحمى . وقد كنا ، بين الحمى وبينها ، نسترحم الله للعرب اجمعين .

الفصل السادس والاربعون

الكتاب والسنة – والسيف

اوضحت في ما تقدم خطة السلطان عبد العزيز السياسية والدينية، النجدية والحجازية . فقد ارسل من البادية، وهو في الطريق الى مكة، يؤمّن الاجانب في جدة ، ويعرض الامان على اهلها اذا هم اخلدوا الى السكينة . وكتب قبل ان غادر الرياض الى امراء الاسلام الحاكمين يدعوهم لعقد مؤتمر في ام القرى ، ثم مهد سبل الحج وامّن الطرق الى الحرمين. الا ان هذا التطور في الحكم السعودي خلق لصاحبه مشاكل جديدة ، فعالج بعضها علاجاً عصرياً ، وحل بعضها حلاً مرضياً ، وهو لا يزال في منتصف الطريق ، وراءه ماضٍ مجيد ، وامامه مستقبل نصفه مكتوب وان بدا غامضاً ، والنصف الاخر صفحة بيضاء .

على ان المؤرخ لا يسبق التاريخ ، وليس من شأنه النظر في المستقبل قبل ان يدون في الاقل المهم من حوادث الماضي . نعود اذن الى حيث تركنا الموكب السلطاني . فعندما وصل الى الابطح مساء اليوم السابع من جمادى الاولى سنة ١٣٤٣ (٤ دسمبر ١٩٢٤) اناخ السلطان عبد العزيز ذلوله وركب حصاناً ، ونزل تتبعه حاشيته الى قلب المدينة ، فترجلوا عندما قربوا من المسعى ، ومشوا الى الحرم ، فدخلوه من باب السلام وطافوا ، وصلوا ، وسعوا تلك الليلة، ثم عادوا الى المخيم في المعابدة .

وفي صباح اليوم التالي – الجمعة – استعرض السلطان الجيش من خيالة ومشاة ، ثم جلس في السرادق الكبير الذي نصبته البلدية، وفرشته بالطنافس وحرقت فيه البخور ، فاستقبل اولاً الاخوان ، وكان بينهم

كثيرون لا يعرفون الامام ، فكانت المشاهدة الاولى ، وقد تهافتوا عليه يصافحونه ، ويقبلونه في خشمه وفي جبينه ، وهم يبكون من شدة السرور . ثم جاء من اهل مكة بعض اعيانها وتجارها يسلمون ، فبادروا الى يده يريدون تقبيلها فمنعهم قائلاً: « المصافحة من عادات العرب . اما عادة التقبيل فقد جاءتنا من الاجانب ، ونحن لا نقبلها » . وقد خطب فيهم خطبة صغيرة فاعاد ما قاله في خطبة الوداع لرؤساء نجد قبل سفره من الرياض .

بعد ذلك طلب اليه امين مفتاح الكعبة الشيخ عبد القادر الشيبي ان يعين وقتاً للاجتماع بعلماء مكة ، فضرب لهم موعداً في اليوم التالي ، وكان الاجتماع في الحميدية ، حضره علماء البلد الحرام من اهله ومن المجاورين له، فخطب فيهم السلطان عبد العزيز خطبة دينية ، اجتماعية ، سياسية ، خطبة طويلة بليغة نقتطف منها ما يلي :

ــ « ان افضل البقاع هي البقاع التي يقام فيها شرع الله ، وافضل الناس من اتبع امر الله . وان لهذا البيت شرفه ومقامه ، منذ رفع سمكه سيدنا ابرهيم عليه السلام . وقد عظم العرب امره في جاهليتهم ... فتعالوا نتعاقد ونتحد .

ان الفضول تعاقدوا وتعاهدوا ان لا يقر ببطن مكة ظالم

والله وبالله وتالله ورب هذا البيت ! لقد كان من احب الامور عندي ان يقيم الحسين بن علي شرع الله في هذا البيت المبارك ولا يعمل لابادتنا من الوجود ، فاجيئه مع الوافدين احب (اقبل) على يده واساعده في جميع الامور ... لا ينفعنا غير الاخلاص في كل شيء . الاخلاص في العبادة لله وحده ، والاخلاص في الاعمال كلها . والذي ابغيه في هذه الديار ان يُعمل بما في كتاب الله وسنة نبيه في الامور الاصلية . اما في الامور الفرعية فاختلاف الائمة فيها رحمة » الى ان قال وفيه لب

الاخلاص : « والان انا بذمتكم وانتم بذمتي . ان الدين نصيحة . وانا منكم وانتم مني . وهذه عقيدتنا في الكتب التي بين ايديكم . فان كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه ، وسلونا عما يشكل عليكم فيها . والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنة ... اننا لم نطع ابن عبد الوهاب وغيره الا في ما ايدوه بقول من كتاب الله وسنة رسوله . اما احكامنا فهي طبق اجتهاد الامام احمد بن حنبل . اذا كان هذا مقبولاً عندكم تعالوا نتبايع على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

بعض الحضور : كلنا نبايع .

السلطان : قولوا لنا بصريح القول ما عندكم .

بعض الحضور : ما عندنا غير هذا

السلطان : اعيذكم بالله من التقية ، فلا تكتموا علينا شيئاً .

احد العلماء : اجمعنا بعلماء نجد بحضرة الامام فنتباحث واياهم في الاصول والفروع ونقرر ما نتفق عليه ان شاء الله .

السلطان : زين . قريباً تجتمعون .

وبعد يومين ، في ١١ جمادى الاولى ، اجتمع خمسة عشر من علماء مكة بسبعة من علماء نجد ، فتباحثوا في الاصول والفروع ، ثم اصدر علماء مكة بياناً جاء فيه : «قد حصل الاتفاق بيننا وبين علماء نجد في مسائل اصولية . منها : من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه ، يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع او دفع ضر ، فهذا كافر يستتاب ثلاثاً فان تاب والا قتل . ومنها : تحريم البناء على القبور واسراجها واقامة الصلاة عندها لان في ذلك بدعة محرمة في الشريعة . ومنها : من سأل الله بجاه احد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراما . في هذه المسائل تباحثنا واتفقنا فاتفقت بذلك العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين اخواننا اهل نجد » .

اي انهم اقروا المسائل الجوهرية في المذهب الحنبلي الوهابي وقبلوها.
وفي يوم اجتماع العلماء صدر البلاغ الآتي مطبوعاً في مطبعة جريدة القبلة[١]
«لمن في مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحضر منهم والبدو :
لم نقدم من ديارنا اليكم الا انتصاراً لدين الله الذي انتهكت محارمه، ودفعاً لشرور كان يكيدها لنا ولبلادنا من استبد بالامر فيكم .

كل من كان من العلماء في هذه الديار ، من موظفي الحرم الشريف او المطوفين ، ذا راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل ان لم نزده. الا رجلاً اقام الناس عليه الحجة انه لا يصلح لما هو قائم عليه فهو ممنوع مما كان له من قبل. وكل من له حق ثابت في بيت مال المسلمين اعطيناه حقه . . . .

لا كبير عندي الا الضعيف حتى آخذ الحق له . ولا ضعيف عندي الا الظالم حتى آخذ الحق منه . وليس عندي في اقامة حدود الله هوادة ولا اقبل فيها شفاعة » .

في هذا البلاغ ، وفي بيان العلماء ، حل للمشكل الديني مبني على القاعدة ان الجزاء من نفس العمل . ولا فرق اي من الاثنين ، البيان او البلاغ ، صدر قبل الآخر. كأن احد الفريقين قال : لا نمس حقوقكم التقليدية . فقال الثاني : اذن نقبل اركان مذهبكم ونعمل بها .

بعد هذه الاجتماعات الخاصة بين السلطان والعلماء عقد اجتماع عام حضره العلماء والاعيان والتجار، فخطب فيهم السلطان، فقال :

« اريد رجالاً يعملون بصدق وعلم واخلاص ، حتى اذا اشكل عليّ امر من الامور رجعت اليهم في حله وعملت بمشورتهم ، فتكون ذمتي سالمة ، وتكون المسؤولية عليهم . واريد الصراحة في القول . ثلاثة

---

(١) قد كانت هذه المطبعة للاتراك يطبعون فيها جريدة الحجاز الرسمية . فاستولى عليها الحسين في بداية الثورة وشرع يطبع فيها جريدة القبلة ، ثم استولى عليها ابن سعود واصدر جريدة ام القرى.

اكرههم ولا اقبلهم ، رجل كذاب يكذب عليّ تعمداً ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق . هؤلاء ابغض الناس عندي » .

بهذه الخطبة الوجيزة الصريحة افتتح عظمته الاجتماع لتأسيس مجلس اهلي شوري. فاجتمع الناس ثانية في دار البلدية، وانتخبوا من الاعيان والعلماء والتجار مجلساً مؤلفاً من اربعة عشر عضواً برئاسة عبد القادر الشيبى

على ان هناك مشاكل لا تحل بتأسيس مجلس الشورى ولا باتفاق العلماء ، كالمشكل الاقتصادي مثلاً ، وقد حال خط الدفاع في جدة دون تموين مكة من ثغرها الاول او الاقرب . ولم ينقطع الملك علي الاقوات عن « جيران بيت الله الحرام » الاعندما تم ذاك الخط ، لان بدو حرب ، من الذين كانوا يجيئون صباحاً كل يوم الى القصر بجدة ، او من اولئك الذين « دينوا » ، كانوا يقطعون الطريق الى مكة وينهبون القوافل . هو بعض السبب في حمل الاخوان عليهم .

وقد كان السلطان عبد العزيز اصدر الاوامر ، حتى قبل ان سافر من الرياض ، الى عماله وقواده بفتح طريق بل طريقين الى البحر ، وكانت القنفذة اول الثغور التي احتلتها جيوشه من عسير . ولكن القنفذة تبعد اكثر من مئتي ميل عن مكة ، والليث اقرب منها [١] . لذلك بادرت القيادة في الحجاز الى احتلالها. على ان السرية التي مشت الى ذاك الثغر لقيت من اشراف « ذو حسن » بعض المقاومة ، فاشتبكت واياهم في معركة دامت بضع ساعات ، وكانت الغلبة فيها على «ذو حسن» ، ففر منهم كثيرون ، وسلّم الاخرون ، واصبحت الليث في حوزة ابن سعود .

اما عرب رابغ [٢] فقد اشرنا في الفصل السابق الى ما كان من

(١) الليث هي على مسافة تسعين ميلاً من مكة غرباً بجنوب

(٢) رابغ تبعد تسعين ميلاً عن جدة الى الشمال ومئة وعشرة اميال عن مكة الى الغرب الشمالي .

سلوكهم سلوك الثعالب. والحقيقة انهم عصوا حكومة جدة فارسلت عليهم خمسين جنديا بقيادة حمدي بك . ركبوا باخرة الطويل التي قد ُسلحت بثلاثة مدافع صغيرة ، وابحروا الى رابغ ، فنزلوا الى البر ولم يلقوا من عربانها او مشايخها شيئاً من المقاومة . بل سلم المشايخ ومعهم ابن عم عامل رابغ ابن مبَيريك وجاؤوا مع الجنود الى جدة ، فاقسموا يمين الطاعة لعلي فعفا عنهم ، واذن لهم بالرجوع الى بلادهم . وفي اثناء ذلك تصادم الاخوان وفريقاً آخر من العربان ، في الطريق بين مكة ورابغ، تصادماً يستوجب البيان. في تهامة الحجاز يقطن بطون من حرب فتمتد ديارهم الى المدينة المنورة. وقد كانت هذه القبائل في مواسم الحج تعتدي على الحجاج ، وتنهب القوافل ، وتتقاضى الحكومة ، فوق ذلك ، رواتب معلومة. فعندما دخل الجند النجدي مكة جاء بعضهم الى الشريف خالد يطالبون بما ادعوا انه حقهم الشرعي،فقال لهم خالد : « اذا « دينتم » كنتم وكافة المسلمين سواء. والا فعندنا الكتاب والسنة،وعندنا السيف».

استمر هؤلاء الحروب عاصين، فارسل خالد عليهم سرية من الاخوان فالتقوا بجماعة منهم في عسفان [١] بين مكة ورابغ ، على طريق المدينة ، فضربوهم ضربة شديدة وازالوهم من ذاك الطريق . وفي حملتهم هذه قرُب الاخوان من رابغ، ففكر العامل اسمعيل ابن مبيريك في امره ، وجاء مكة اولاً وثانياً يعاهد الشريف خالداً ويوحد الله ، فلبث ينتظر قدوم السلطان الذي عين له ولمشايخه رواتب على شرط ان يمنعوا التعدي على الحجاج ، ويحموا الطريق من البحر الى مكة . هذه هي قصة رابغ وعربانها الذين جاؤوا جدة وراحوا الى مكة ، واقسموا اليمينين ، وفاوضوا وساوموا الفريقين ، ثم تبعوا الاقوى والاكرم .

وما كان ابن مبيريك فريداً في سلوكه . فقد تبع الاقوى والاكرم

(١) ثنية عسفان وهي من امنع الاماكن .

كثيرون غيره من العرب . ومنهم من الاشراف الحرث والفعور الذين تهافتوا على السلطان عبد العزيز عند وصوله الى مكة . ولكنهم رغم تزلفهم منه عوملوا معاملة السوى . وقد ارضى السلطان الجميع في تأليفه مجلس الشورى الذي سيذكر في ما بعد . على انهم جاؤوه شاكين قلة الاقوات وغلاءها ، وما يعانيه الاهالي بسبب ذلك من الشدة والضيق . فقال لهم انه قد اتخذ التدابير لمنع الاحتكار اولاً ، ولجلب الاقوات عن طريق الليث . وانه ورجاله وجيوشه لا يكلفونهم من هذا القبيل شيئاً ، لان الاقوات تجيئهم من نجد . هي قليلة ولكننا اهل نجد نكتفي بالقليل . . عليكم بالصبر وقريباً ترد الارزاق من الثغور التي بيدنا ان شاء الله » .

ثم استأذنوه بارسال كتاب الى الملك علي عله يسمع شكواهم فلا يمنع عنهم الارزاق . فقال السلطان : « هذا لا يفيد . علي لا يسمع شكواكم وقد يظنها شكوانا ملبسة . ومع ذلك هاتوا كتابكم ارسله » .

وفي هذا الكتاب ، المذيل بامضاءات ستين من اهل مكة ، لوم وتعنيف ، ورجاء بان لا يمنع الارزاق عنهم وهم جيران بيت الله الحرام الذين قال فيهم تعالى (اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . « وما السبب في التضييق علينا ؟ فان كنا مجرمين من جهة الحكومة النجدية فلسنا المسؤولين في دخولهم مكة ولا قوة لنا على اخراجهم . . . اننا نسألكم واحداً من امرين ، اما ان تقدموا بجيوشكم وتخرجوا الحكومة النجدية حتى تفتح لمكة طريق رزقها ، او ترتأوا شيئاً من الاسباب التي تمكننا من جلب معاشنا »

فاجابهم الملك علي : « لم نمنع الارزاق عنكم الا مكرهين . فالقواعد الحربية تقتضي ذلك ، ولا قصد لنا غير احراج مركز العدو وعدم تموين جيوشه » .

وقد شكا الاهالي الى السلطان عبد العزيز امر الاخوان ، وتضييقهم

على الناس ، وشتمهم وضربهم الناس في بعض الاحايين . فطيب السلطان بالهم ، ولكنه سمع من الاخوان ايضاً كلمة لا تُرَد : « هم يدخنون ، يا عبد العزيز ، ولا يصلون . لا يصلون » ! فامر السلطان بان يغرم كل من يدخن غرامة مالية — الشتم ممنوع والضرب ممنوع . وان يُنبّه ذوو الامر الى وجوب المواظبة على الصلاة . فاخرجت البلدية منادياً ينادي بوجوب اجابة داعي الله . « فاذا سمع الناس المؤذن يبادرون الى الصلاة في الحرم الشريف ، ومن كان بعيداً عن الحرم فليصلِ في اقرب مسجد منه . وقد جعلنا من رجال البلدية وغيرها من يناظر المتأخر عن الصلاة لتقرير الجزاء الشرعي عليه » .

ثم ولّى عظمة السلطان الشريف خالداً ، الذي كان يقيم في قصر الحسين شؤون الاخوان ، وامَّر الشريف هزّاع من العبادلة على بدو الحجاز ، واقام بينه وبين اهالي مكة احد مستشاريه يعاونه بعض السوريين ، الذين اتخذوا سراي الحميدية مقراً لهم .

بمثل هذا نظم عظمته بعض الشؤون الداخلية وحل بعض المشاكل الدينية والسياسية في مكة . اما شؤونه الخارجية فاهمها يومذاك كان يتعلق بقناصل الدول بجدة . وقد جاءه منهم بُعيد وصوله جواب الكتاب الذي ارسله اليهم من البادية . وهاكه بنصه :

« من ممثـــلي الدول الموقعين ادناه الى حضرة صاحب العظمة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود سلطان نجد الاكرم . بعد تقديم واجبات الاحترام . قد وصلنا كتابكم المؤرخ في ٢٤ ربيع الثاني عدد ١١٤ وما ذكرتموه صار معلوماً لدينا . اما بخصوص الاقتراحات المتعلقة بحفظ رعايانا وتأمينهم من خطر الحرب نرى من اللازم ان تذكر عظمتكم بان احترام رعايانا مبني على حقوق دولية متبعة في ايام الحرب . فبناءً عليه ندعوكم باسم حكوماتنا جميعها الى احترام اشخاص

رعايانا مع اموالهم . وإلا تكونون مسؤولين بجميع ما يقع عليهم في اي وقت وفي اي مكان كان . اما بخصوص الكتاب المرسل باسم اهل جدة فنحن لا يمكننا تسليمه نظراً لقاعدة الحياد التي نتبعها والتي لا تسمح لنـــا بالتدخل في اي وجه كان . فعليه نعيده اليكم . وفي الختام تقبلوا فائق الاحترام .

القائم بشؤون القنصلية الافرنسية	وكيل قنصل جلالة شاه ايران	معتمد وقنصل بريطانية العظمى

قنصل جنرال ملك ايطاليه	وكيل قنصل هولانده

اما فحوى الكتـاب الى اهـل جدة فقد كان حديث السوق يوم وصوله . وقد نشر بعدئذ رسمياً في جريدة « ام القرى » فما هم السلطان ان القناصل أرجعوه .

ولكنه قطّب وتضجّر عندما فض الكتب التي جاءت مع كتـاب القناصل . — وهذا كتاب من المستر فلبي . وهذا كتاب من السيد طالب النقيب . وهذا كتاب من امين الريحاني . ما الذي جاء بهم الى جدة في هذه الايام ؟ وما الذي يبغونه غير السلام ؟ !

الفصل السابع والاربعون

المفاوضات

الحارس على الباب الشرقي لخط الدفاع يكلم بالهاتف القيادة في القشلة: « عاد النجاب من مكة ومعه كتب الى القناصل والى السيد طالب والريحاني وفلبي » . القيادة بالهاتف الى القصر: « عاد النجاب من مكة». رئيس الديوان الهاشمي بالهاتف الى رسل السلام : « عاد النجاب » . . . .

بادرنا الى القصر ، فادخلنا الحاجب غرفة الملك علي الخاصة ، فاستقبلنا فيها وزير الخارجية . ثم دخل جلالته متعمما بعمامته البيضاء ذات الذؤابة، لابساً جبة سوداء فوق انباز من الحرير ، وبيده كتب ثلاثة اعطانا اياها مختومة ،فقال احدنا: الملك اليوم موزع بريد . فضحك جلالته وامر بالقهوة

قرأ كل منا كتابه،وقدمه للملك فقرأه واعاده دون ان يفوه بكلمة. ثم تبادلنا الكتب كذلك ساكتين .فاطلع كل منا على ما كتبه السلطان عبد العزيز الى الآخر .

قال في كتابه الى « الصديق العزيز المستر فلبي » :

« اذا كنتم حضرتم لمقابلتنا ومباحثتنا في بعض الشؤون الخاصة بنا فعلى الرحب والسعة . وسنسهل الطريق للاجتماع بكم خارج الحرم . اما اذا كنتم تنوون التدخل في مسائل الحجاز فلا ارى في البحث فائدة ... وانه ليس من مصلحتي الخاصة ومصلحتك يا صديقنا جعلكم وسيطاً في هذه المسألة الاسلامية المحضة » .

وجاء في كتابه الى « حضرة الاخ المحترم السيد طالب النقيب »

« لقد ذكرتم انكم تودون مقابلتنا فنحن نرحب بكم . ولكن يجب ان نعرف هل المقابلة شخصية ودية ام هي للوساطة في مسألة الحجاز .

فاذا كان الغرض من الزيارة التوسط في هذه المسألة فاني لا ارى فائدة من ذلك .... واذا كان الشريف علي يود حقيقة حقن الدماء فعليه ان يتخلى عن جدة . اما اذا قبله العالم الاسلامي وانتخبه حاكماً للحجاز فمحله غير مجهول »

وقال في جوابه على كتاب المؤلف :

« ذكرتم انكم موفدون من قبل جماعة في سورية وانكم تحملون كتاباً منهم الينا . ارحب في كل حال بصديقنا العزيز امين الريحاني ، ولكن احب ان الفت نظركم الى امر هام . وهو اذا كان البحث يتناول المسألة الحجازية فلا ارى فيه فائدة ، لان مشكل الحجاز يجب ان يحله المسلمون وترك الامر لهوى انفسنا ليس مما تجيزه المصلحة الاسلامية ولا العربية .. وفي كل حال اني احب توضيح الامر وجلاءه قبل المقابلة » .

لا سبيل اذن للتوسط . ولكن طريقة السلطان في رد كل منا اختلفت باختلاف الصفات والاحوال . فالمستر فلبي تأكد ان عظمته لا يمانع اذا غادر جدة في اول باخرة — « ان المسألة اسلامية محضة وليس من مصلحته ولا من مصلحة ابن سعود ان يتدخل بها » . وكان للسيد طالب بصفته مسلماً بقية من الامل — « وكيف لا يسمح ابن سعود بزيارة في الاقل بمكة ؟ ومتى تواجهنا تباحثنا ، والمواجهة نصف الحجة في الاقناع » . اما المؤلف فالسلطان ترك له باباً مفتوحاً اذ قال : « اني احب توضيح الامر وجلاءه قبل المقابلة » .

عندنا الكرة على العظمة السعودية ، فكتب المستر فلبي مودعاً ، وكتب السيد طالب مستأذناً بزيارة « شخصية ودية » وملحاً بالاسراع لانه مضطر ان يعود الى مصر قريباً . وكتب المؤلف كتاباً يستوجب بعض البيان .

قد أسر الي احد الاصحاب في القصر شيئاً عن السيد طالب مستغرباً

مضحكاً ، واكد لي انه جادٌ في ما قال . اليس السيد خصم الملك فيصل اخي الملك علي؟ اوَ ليس السيد صديق ابن سعود؟ فلا يستغرب اذا اتفق الاثنان على خصميهما مليكي العراق والحجاز . قلت لصديقي ان تصوره وان كان سياسياً تصور شاعر . ومع ذلك فقد وضعت ارتيابه موضع الجد . وبما اني ظننت انه اسهل على السلطان ان يقابل طالباً بمكة من ان يخرج في تلك الاحوال الى حدّاء مثلا ليقابل صديقه العربي المسيحي ، صممت على ارسال رسول مسلم لاصل اليه برسالتي قبل السيد . وفي كل حال لم يكن في الامكان ان اؤدّي كتابةً الرسالة كلها . لذلك كتبت الى عظمته اقول :

« ان اصديقي حسين العويني التاجر السوري [١] في جدة علاقات تجارية في مكة المكرمة ، وهو يحضر للتجارة وللزيارة ، فيتشرف بمقابلتكم اذا اذنتم ويحمل الى عظمتكم بعض خبري . اني اثق بحسين افندي كل الثقة . وفي اليسير الذي سينوب عني به ما يغني عن البيان . فاذا اذنتم بقدومه مروا من يلاقيه الى منتصف الطريق ويصحبه محافظاً الى مقامكم العالي » .

ارسلنا الكتب هذه في ١٢ جمادى الاولى وبتنا ننتظر الاجوبة . فمر الاسبوع ولم يعد النجاب . عندئذٍ ارسل الملك علي يدعونا للمفاوضة فحضرنا نحن الثلاثة ، ولم يكن غيرنا في المجلس ، ففتح جلالته الحديث

(١) حسين العويني اديب سوري ووطني عربي ثابت العقيدة ، صريح الكلمة ، صادق اللهجة ؛ صلب العود . وقد أدّت به وطنيته العربية ؛ في اول عهد الفرنسيس في سورية ؛ الى المنفى بالكورة ، فقضى وبعض وجهاء بيروت في الاسر هناك بضعة اشهر . ثم جاء الحجاز تتجاذبه السياسة والتجارة ، فتعاطى الثانية ولم يهجر كل الهجر الاولى . كان اول من اجتمعت بهم من السوريين عند وصولي الى جدة ، فدعاني للطعام في اليوم التالي ، فلقيت بيته رحباً ، وكل ما فيه من فرش وذوق لامعاً ، فنزلت ضيفاً عليه . وكنت كل يوم ، لما بدا لي من اخلاصه وصدق وطنيته ، ازداد حباً له ، واعجاباً به . فتآخينا وتعاونا في سبيل السلم والعرب .

قائلاً : « دعوتكم لابسط ما جد في الحالة واستشيركم . قد جئتم ايها الافاضل الى جدة لخير الفريقين ، بل لخير العرب . ويسوؤني والله ان تمس كرامتكم من اجل احد منا – انا والله مخجول . قد مر الاسبوع ولم يجئكم الجواب من ابن سعود . والرجل متحرك ، فهو الان يفسد القبائل علينا . ورجاله منعوا عرباننا من ارسال الفحم كالعادة الى جدة. ونحن هنا ماسكون انفسنا . خط الدفاع يزداد منعة كل يوم ، وجنودنا مستعدون للحرب ، والطيارات كلها اصبحت صالحة للعمل . لذلك قد قررنا ان نرسل غداً بلاغاً الى اهل مكة بالطيارة ، ثم نرسل سرب الطيارات لرمي القنابل في الابطح ، عل ذلك يوصلنا الى نتيجة فاصلة . وقد دعوتكم لاستشيركم في المسألة » .

تكلم السيد طالب اولاً فقال : « هل قنابلكم صالحة ? هل انتم متأكدون انها تنفجر . فاذا كانت قديمة ولا تنفجر تعود بالضرر عليكم ، فلا يخشى العدو بعدئذٍ الطيارات . يجب ان تجربوها قبل ان تقدموا على العمل ، فاذا كانت صالحة فلا بأس » .

ثم تكلم المستر فلبي : « من رأيي يا جلالة الملك ان تنتظروا الى مجيء الجواب . ومثل هذا العمل الحربي قبل ذلك في الاقل لا يأتي بفائدة » .

اما المؤلف فلم يرَ من الحكمة ان تُرسل الطيارات الى مكة بصفة حربية . « انكم وان امرتم برمي القنابل في الابطح فقط تضرون بمصلحتكم حتى وان تقيد الطيارون بامر القيادة العليا . نحن نعرف ان الابطح ساحة خارج مكة الى الشمال الشرقي منها ، ولكن العالم لا يعرف ذلك . واول قنبلة تقع هناك يطير البرق خبرها ، فتنشره الجرائد خصوصاً المعادية لكم بالقلم العريض . – الملك علي يمطر مكة ناراً من الطيارات – طيارات الملك علي تطير فوق الكعبة وترمي قنابلها في

قلب المدينة ! وهذا مضر باسم جلالتكم ومضر بالمصلحة العربية » .

وافق المستر فلبي على رأيي وأوما الملك برأسه انه مقتنع . ولكنه ظل متمسكاً بنظريته ان الطيارات تخرج ابن سعود من مكة ، وتحمله على الفصل في الامر . فطلبنا تأجيل العمل ثلاثة ايام ، فاجاب جلالته الطلب . ثم قال السيد طالب : « واثناء ذلك جربوا القنابل » .

ولكن التجربة لم تكن ضمن خط الدفاع بل في الطريق الى مكة ، فوق بحرة ، وقبل ان تنتهي مدة الانتظار . فغضب المستر فلبي غضبة انكليزية وقلنا على الصلح السلام . على ان النجاب عاد في صباح اليوم التالي ، اي العاشر ، يحمل الاجوبة من السلطان ، وفيها لصديقه المستر فلبي الدعاء بالسفر الميمون — بامان الله . وفيها للاخ المحترم السيد طالب ان مكة في حال من الاضطراب لا تجوز معها المخاطرة براحته . « وستصلكم وانتم في مصر اخبارنا الطيبة ان شاء الله » . وفيها في جوابه على كتابي :

« قد سمحت لصديقكم حسين العويني بالقدوم الينا ، فزودوه بكل ما لديكم من الكتب والافكار والاراء ... واننا نرجو ان يحسن نقل افكار صديقنا امين الريحاني ... واني اشكرك على تجشمك المشاق الجسيمة في خدمة العرب وفي سبيل قضيتهم » .

قد جلا هذا الجواب جو القصر فبش الملك واستبشر الوزراء ، كما انه لطف بروح الجندية خارج السور . والجندية طبعا وصفة عدوة السلام.

بادرنا الى الجواب والعمل ، فكتبت الى عظمة السلطان اقول : « اني مرسل مع العويني كتاباً من وجهاء المسلمين في بيروت ، ومذكرة ضمنتها ارائي في الحالة الحاضرة ، واشرت الى نقاط يتوسع في شرحها العويني . فاذا كنت مصيباً فمولاي وصديقي عبد العزيز لا يتبع غير الصواب . وان كنت مخطئاً فحبي واخلاصي يشفعان بما قد يُعد نقصاً في

علمي . اما اذا كان في ما قدمت مزيج من الخطأ والصواب فانا اول من يرغب في التمحيص . واني اقبل الحقيقة من السوقة ، فكيف لا اقبلها من الملوك . علموني يا طويل العمر اذا كنت مخطئاً ، واسمعوا لي اذا كنت مصيباً » .

لم يشأ العويني ان يسافر من جدة الا محرماً ، فاشفقنا عليه من برد دسمبر ، خصوصاً في الليل . ولكنه أصر على الاحرام وهو يقول : « لوجه الله وللقضية العربية » .

ثم اعطاني ساعة الوداع غلافاً مختوماً وقال : « اذا لم ارجع يا امين فهذا الغلاف لأمي في بيروت » . عندئذٍ ادركت حقيقة الخطر ، خطر الطريق في الاقل ، واحسست بشيء ثقيل حل في قلبي . ولكني موهت ما بي وانا ادس اليه الكلمة الاخيرة .

ودعناه امام القصر ، بعد ان ودع جلالة الملك ، فركب البغلة التي كانت تحمل حقائبه وسار بعد الغروب بامان الله . يصحبه خادمه والنجاب ورفيق آخر . بامان الله . ولكن الطريق لم تكن آمنة . فقد لقي صديقي ورفاقه في بحرة تلك الليلة ، في القهوة المهجورة المظلمة التي آووا اليها ، ما يروّع حتى البدو . دخلوا بعد نصف الليل ليناموا ، او يستريحوا قليلاً ، فاحس العويني عندما القى بيده الى الارض ان هناك شيئاً مائعاً لزجاً ، فاشعل عوداً من الكبريت فاذا به دم واذا بالدم لا يزال طرياً . فاشعل عوداً آخر فاذا بالجثة – جثة اعرابي – قريبة منه ! ولكنه ورفاقه ، بعد استراحة قصيرة في العراء ، ادلجوا من ذلك المكان سالمين ، فوصلوا في ظهر اليوم التالي الى المخيم السلطاني بالشهداء[1] وكان العويني رسولاً مكرماً ، وفي احاديثه مع السلطان مقنعاً ، فلم

(١) كان قد نقل المخيم من المعابدة بالابطح الى الشهداء خارج مكة في طريق جدة. والشهداء سهل يبعد عن جرول اي طرف مكة الغربي نصف ساعة .

يبطىء عظمته هذه المرة بالجواب . غاب العويني ثلاثة ايام فقط ، فعاد في الخامس والعشرين من شهر دسمبر . وصل الى جدة مساء ذاك اليوم ، فوقف في باب الردهة التي كنا ننتظره فيها ، وهو يحمل حقيبته ويبتسم ابتسامة خفقت لها القلوب سروراً . وقد كان ساعتئذٍ مع الملك رئيس الحكومة الشيخ عبدالله سراج ، ووزير الخارجية الشيخ فؤاد الخطيب ، ورئيس الديوان الهاشمي السيد احمد السقاف . سلم العويني وجلس على السجادة ، فاخرج من حقيبته كتاب السلطان ودفعه الي فقرأته وقدمته لجلالة الملك ، فطالعه ونور الجذل يكسو محياه .

« قضي الامر . وما تبقى غير الجزئيات . بارك الله فيك ياحسين . بارك الله فيك يا امين » . قال هذا وقبلنا نحن الاثنين . ثم نزع عن رأسه العقـال والكوفية ونادى : هاتوا شاي ... يشهد الله اني لا احب ان تهرق نقطة واحدة من دم العرب » .

كان جلالته تلك الليلة في بهجة قلما شاهدناه في مثلها . ولا غرو ، فمن سجاياه الشريفة انه رجل مسالم محب للسلم .

الفصل الثامن والاربعون

الطيارات

كان هنــــاك اناس لا يرضون بالسلم ، منهم في مكة الاخوان وبعض الاشراف ، ومنهم في جدة الجندية وجماعة من وجهاء الاهالي المناوئين للبيت الهاشمي . وقد كان لكل فريق من هؤلاء ، في مكة وفي جدة ، غرض خاص في مقاومة المتوسطين وافساد مساعيهم . على ان غرض الاخوان اطرهـا لانه ناشيء عن عقيدة راسخـــة في النفس ، ومجرد عن المنافع الشخصية . اما الآخرون ، اي الجندية والمناوئون للبيت الهاشمي في جده ، فقد كانوا ينشدون اما الشهرة ، واما الانتقام واما المنفعة . وسنسرد الحوادث تبياناً وبرهاناً .

عندما جاء الاذن من السلطان عبد العزيز بارسال رسولي العويني اليه ، كرر الملك علي اوامره الى القيادة العـالية في ان تؤجل ارسال المنشور الحربي الى اهالي مكة الى ان يصدر امر آخر بخصوصه ، وان تحتفظ بالنسخ فلا تأذن بنشر نسخة واحدة منه ، وان تشدد على الطيارين بان لا يتجاوزوا في استكشافهم بحرة .

ولكن القيادة العالية تجاوزت الامر الملكي . ففي ١ جمادى الثانية (٢٧ دسمبر) اي بعد يوم من سفر النجاب وهو يحمل الى عظمة السلطان جوابي وفيه التمس ان يعين مكاناً لاجتماع وفود السلم ، بعد ظهر ذاك اليوم طارت طيارة الى مكة ، ورمت في الابطح وفي المخيم السلطـاني بالشهداء نسخاً من منشور الملك علي ، المنشور الحربي الى الاهالي [١] .

---

(١) جاء في هذا المنشور : « لقد جمعنا شعثنا واقبل اخوانكم الينا من كل حدب وصوب حتى اصبح لدينا والحمدلله من الرجال والعتاد ما يرد كيد العدو في نحره . ولقد جهزنا جندنا بكل الوسائل الفنية والمعدات الحربية ، وها نحن على اهبة الرحيل اليكم وتطهير بلادنا من المغتصب لها . ستبدأ طياراتنا بالتحليق في جوكم لتمطر العدو وابلاً من القذائف النارية . كونوا على ما نعهد فيكم من الثبات والطمأنينةوالشجاعة... ولا تجعلوا

وكانت قد طارت منذ يومين ، اي قبل انقضاء مدة التأجيل التي امر بها الملك ، فشاهدها العويني بعد خروجه ذاك اليوم من المخيم السلطاني وعند وصوله الى الشميسة . سارعت الى القصر اواجه الملك ، فادهشني منه انه جهل الامر . وما كان الوزراء ولا رئيس الحكومة عالمين به. فقرع جلالته الجرس الصغير على المائدة الصغيرة امامه ، فجاء احد كتبة الديوان فقال له : « نادِ تحسين باشا ليحضر فوراً » . جاء تحسين ، واقر ان الطيارة تجاوزت بحرة ، ولكنه انكر انها رمت نسخاً من المنشور.

اما السبب في تجاوز الاوامر – كلام الباشا – هو ان خللاً صغيراً في المحرك حمل السائق على الاسراع في السير ليقي الطيارة من السقوط الى الارض ، فطارت بحكم الاستمرار في خط مستقيم طيرة طويلة ، فلم يتمكن اثناء ذلك من ضبطها وردها . لم يفه جلالته بكلمة . انما اومأ برأسه انه مقتنع ، فقلت وفي صدري غضب مكموم : « لا اظن يا باشا ان هذا السبب كافٍ لتبرير التجاوز . وانت ادرى بنتيجة المخالفة للاوامر العالية في ايام الحرب » .

فقال تحسين : « ما هو بالامر المهم » .

فقلت « كل امر ملكي مهم يا باشا » .

فتكلم اذ ذاك جلالته مخاطباً القائد بالتركية ، فنهض مسلماً وانصرف .

للعدو سبيلاً الى الفرار ... واعملوا لتخليص وطنكم بكل ما اوتيتم ، فالوطن اعلى من كل شيء لديكم » .

وفي جواب الملك علي على كتاب اهل مكة الذي يطلبون فيه الارزاق ، المؤرخ في ٢٥ جمادى الاولى ، ما يلي «فان كان هو [ابن سعود] واذنابه يحترمون حرم الله وجيرانه ويعملون مثل عملي ويخرجون الى خارج الحرم فهناك نظهر حقائقهم ان شاء الله. ويرون كيف يكون الذود عن الحياض والدفاع عن الحوزة . وان لم يخرجوا ولبثوا مكانهم جامدين فاننا سنوافيهم من بين ايديهم ومن خلفهم ومن فوقهم [الطيارات] حتى تكون كلمة الله هي العليا» .

قد كان في القصر كما كان في القشلة اناس لا يملك الملك علي قيادهم

وفي اليوم التالي جاءتني تفاصيل الحادث ، فاثبتت ظني ان تحسيناً لم يصدق الملك الخبر ، فبادرت الى القصر وكلمت جلالته قائلاً : « ماذا يقول السلطان بعد ان يقرأ كتابي ثم يشاهد طيارتكم ويقرأ منشوركم الحربي ؟ لا شك انه يقول اني اما مخدوع واما مخادع . ان هناك مؤامرة يا مولاي لافساد مساعينا السلمية ، ونقطة الدائرة لتلك المؤامرة هي القشلة . نعم ان هناك زمرة من الضباط وغيرهم لا يريدون السلم . وانا اسعى بكل ما عندي من القوة ، ومن الحب والاخلاص لكم ولابن سعود ، في سبيل السلم . فاذا كنتم حقاً تبغون السلم فعليكم بالشدة في تنفيذ اوامركم . القيادة العليا لجلالتكم لا لتحسين الفقير واركان حربه . ويجب ان توقفوهم عند حدودهم . يجب ان تتخذوا خطة العزم والشدة في تنفيذ اوامركم . وحقي ان اطلب ذلك ما زلت ساعياً في سبيل السلم وما زلتم انتم راضين بسعي »

عند ذلك اخذ جلالته يدي بيده وقال : « اني اميل الى حسن الظن بالناس ، ولا اسيء الظن الا بعد التثبت والتحقيق . وقد تحققت اشياء – تحققتها يا امين – وسيسافر فلان وفلان وفلان في الباخرة القادمة . وساوبخ تحسين باشا ، ولكني افضل ان يكون ذلك في مجلس خاص له » .

خرجت والشيخ فؤاد اذ ذاك من المجلس وعرجنا على مكتب رئيس الديوان . ثم جاء تحسين امتثالاً لامر جلالته وخرج من المجلس الخاص متغيظاً . وفي ذلك اليوم صدر امر ملكي بنقل اعداد المنشور كلها من القشله الى القصر وبحبس ضابط المراقبة عشرة ايام .

اجتمعت بعدئذ بهذا الضابط ، وهو عبد الفتاح اللاذقي ، فسألته ان يصدقني الخبر ، فقال : « عملت والله باوامري . نعم طرنا فوق الابطح والشهداء ورمينا المناشير » .

اعود الى مذكراتي في تلك الايام

٣ جمادى الثانية (٢٩ دسمبر)

لم يعد النجاب . اخشى ان يكون المنشور قد اثار غضب السلطان فيعدل عن خطته السلمية .

وكأني احسست وانا في جدة بما هو جار في مكة . فقد عقد في ٤ جمادى الثانية بالشهداء مجلس حربي ترأسه السلطان وحضره جمع من القواد والاخوان ، فتكلم فيه ابو حميد ابن بجاد مخاطباً الامام عبد العزيز:

« اننا نعلم ان لا صلاح في امر دين ودنيا للمسلمين عموماً ولهذا البيت واهله خصوصاً بوجود الحسين واولاده في الحجاز . فاذا كان هذا ثابتاً عندنا ونعتقده ديناً فما المانع من الزحف عليهم وقتالهم ؟ فان كنت تخاف على احد من رعايا الاجانب او احد من اهل جدة فلك منا العهد والميثاق اننا لا نمسهم بشر — الا من برز منهم لقتالنا او بلانا بنفسه ، ونحن كما تعلم نتجنب ما تأمرنا بتجنبه... والان فلا بد لنا من احد امرين. الاول ان تعلمنا الطريق الذي يجب ان نسير فيه ونحن نكفيك مؤونة الامر . الثاني اذا كنت لا توافق في الزحف لما تراه من الامور التي انت اعلم بها منا ، فلا يجوز ان نظل بعيدين عن اعداء الله هذا البعد . بل يجب ان نقترب منهم ونضيق عليهم الخناق حتى يحكم الله بيننا وبينهم . اما الامر الاول فهو مرادنا ، واما الثاني فليس الا مراضات لخاطرك « يا الأمام » لان الله اوجب علينا طاعتك » .

ثم تكلم خالد بن لوءي فقال :

« يا عبد العزيز اني اقول كلمة وان كانت تغيظك . كنا نتحدث فيما بيننا ونقول : قد بدل عبد العزيز الشجاعة بالجبانة وكنا قبل قدومه نتمنى قدومه . اما اليوم فصرنا نقول : ليته ظل في بلده بعيداً عنا . فان كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القوم فبينه لنا حتى نتبعه . وما نحن

الا خدام الشرع . واذا كان لا قصد لك غير الشح بانفسنا عن الموت فما من احد يموت قبل يومه . وما نتمنى والله ان نموت الا شهداء . فاي قتال تراه افضل من قتال الحسين واولاده ؟ واي عمل جاء فيه الضرر للاسلام والمسلمين اكثر من عمل الحسين واولاده ؟ » .

هذه من اخبار مكة الرسمية . اعود الان الى مذكراتي .

٧ جمادى الثانية (٢ يناير ١٩٢٥)

غيمة سوداء في سماء السلم . كنت في مجلس الملك صباح اليوم عندما وصل رسول من مكة يحمل الى جلالته كتاباً سرياً من احد انصاره هناك ، فاخبر الرسول ان جنود خالد نقلت من الابطح ، ولا يدري احد اين توجهت ، وان خالداً هو عند السلطان بالشهداء ، وان السلطان يتأهب لنقل المخيم الى بحره .

كان الملك قد قرأ الكتاب ووضعه وهو عابس مضطرب في جيبه . ثم اخرجه واعاد قراءة شيء منه على مسمع رئيس الحكومة ووزير الخارجية ومسمعي . - اجتمع ابن سعود بالاشراف - اشراف الحرث والفعور والعبادلة . وتباحثوا في انتخاب ملك الحجاز . وكان الاجتماع في قصر الملك حضره من المعروفين الشريف شرف عدنان والشريف باشا العبدلي والشريف هزاع بن فتن بن منصور .

هؤلاء اعداء السلم في الجهة الاخرى بمكة ، فتراهم وقد ناصروا ابن سعود ، يخافون على انفسهم اذا عاد علي . وقد قالوا للسلطان عبد العزيز: « اتصالح من عاديناه من اجلك ؟ اتتركنا في بلادنا ينكل بنا ونحن الان من رجالك ؟ » .

٧ جمادى الثانية مساء الجمعة .

وصل جماعة من اهل جاوه من مكة فاخبروا ان ابن سعود ومعه نحو الف من جنوده وصلوا الى حدا٠ .

في مجلس الملك : دخل تحسين باشا الفقير وعارف باشا الادلبي وزيرا الحربية والبحرية وعلى وجهيهما سيماء الغضب والاضطراب .

احد الوزيرين : « علمنا ان الاخوان مشوا من بجرة ، وقريباً يصلون الى الرّغامة » .

الوزير الآخر : « يجب ان نرسل عليهم الطيارات ، لعنهم الله ولعن اجدادهم » .

الوزيران : « غداً صباحاً نرسل الطيارات كلها عليهم فتمطرهم النار والرصاص وتفنيهم ان شاء الله » .

ثم احتدم الجدال ، فقال وزير الحربية : « هذه المساعي السلمية تحول دون تنفيذ خطتنا العسكرية » .

وزير البحرية : « بل افسدت علينا خطتنا واضرت بمصلحة جلالتكم ومصالح البلاد » .

فقلت : « ومن افسد المساعي السلمية يا باشا ؟ والله لو كنتم مخلصين لمصلحة جلالة الملك ومصالح البلاد لتقيدتم باوامره العالية » .

الملك : « قد تغيرت الوضعية يا استاذ — ويجب ان نحتاط للامر . يجب ان نباشر الان الدفاع » .

الوزيران : « غداً صباحاً تطير الطيارات » .

— « قبل ان يعود النجاب ؟ » .

— « النجاب لا يعود » .

— « قلتم هذا القول في المرة السابقة . ثم عاد النجاب وسركم الجواب »

طلبتُ ان تؤجل الحركات العسكرية يومين آخرين ، الى الاحد ، فأجيب طلبي على شرط ان اكتب في تلك الساعة الى ابن سعود استعجل جوابه . فكتبت اقول : « علمت هذا المساء ان رجال عظمتكم وصلوا الى حدّاء في صورة حربية ، فاخذني من ذلك العجب . وارجو ان

يكون الخبر مكذوباً . في كل حـــال التمس الجواب العاجل » . ثم كتبت الحاشية الاتية : الطيارة التي اشرفت على مكة تجاوزت الاوامر فعوقب الطيار بالحبس» .

السبت في ٨ جمادى الثانية .

طار الطيار الروسي صباح اليوم الى وادي فاطمة ، فحلق فوق بحرة وحداء والشميسة ، وعاد يقول انه لم يرَ ابن سعود ولا جنوده ولا احداً من البشر او الحيوان في الطريق . — اين الاخوان الزاحفون من بحرة ؟

الاحد في ٩ جمادى الثانية صباحاً .

نائب قنصل هولندا على الهاتف : « وصل جماعة من مكة في هذه الساعة ولك ان تستخبرهم اذا شئت » ... بادرت الى القنصلية فعلمت انهم عادوا من مكة يوم الجمعة بعد الصلاة في الحرم ، ولم يكن هناك كثيرون من المصلين ، وانهم عند خروجهم من جرول رأوا قافلة من الجمال وفيها بين الاحمـال ثلاثة مدافع ، وانهم عند وصولهم الى حداء رأوا فيها خياماً عديدة ، نحو مئتي خيمة . هناك وقفت القافلة وهناك بات الجاويون . وفي صباح اليوم التالي السبت ، رأوا طيارة تطير فوق حداء وقد اطلق عليهـا الاخوان بنادقهم (هي الطيارة التي طارت الى الشميسة كما ادعى الطيار والمراقب وقالا انهما لم يرَيا احداً في الطريق) .

جئت من القنصلية الى القصر . فقال الملك بعد ان اخبرته عن الطيارة التي اطلق الاخوان عليها الرصاص : « قد تكون الغيوم حالت دون رؤيتهم » . وكيف انها لم تحل دون الطيارة ونظر الاخوان ؟

دخل اذ ذاك الحاجب يقول : الوكيل الانكليزي . وكان الوكيل قد جاء يهنىء الملك بصحته . وبعد قليل دخل تحسين باشا فدق مهازي جزمته دقة سريعة شديدة ، وسلم، ثم استأذن بكلمة خاصة . فقال الملك :

مهمة ؟ فاجــابه : مهمة جداً ، ومشى وراء جلالته الى الغرفة المحاذية للمجلس. وما هي الا دقيقة فعاد الاثنان يبتسمان والملك يقول . جاؤوا – نحو مئتين خيال منهم . رأيتهم القيادة خارجين من بين الجبال » . وقال تحسين يخاطب الوكيل الانكليزي : « انا رأيتهم بعيني . صاروا في السهل » .

صدر الامر باطلاق المدافع عليهم ، وبادر كل من في القصر ، من الشريف محسن الى اصغر العبيد ، الى البندقية وزنّار الخرطوش ، ووقف جلالته وبعض حاشيته في شرفة القصر يراقبون السهل بالنظارات .

دعاني الوكيل الى دار الوكالة لان له منظرة تشرف على السهل كله ، فخرجنا من القصر ونحن نلامس ، رغم الاستعداد ، الخوف والذعر . وقد ظن الناس ان الاخوان يهاجمون خط الدفاع في ذاك اليوم ويخترقونه فيدخلون المدينة . لذلك اقفلت المخازن ولجأ الاكثرون الى بيوتهم .

وكانت المدافع تطلق الطلقة تلو الاخرى على الاخوان. واين الاخوان؟ كنا نرى من منظرة دار الوكالة البريطانية غباراً هنا وهناك ، في اطراف السهل ، غباراً تثيره القنابل المتفجرة ، ولا احد في جوارها .

ثم خرجت الخيالة من بين الجبال ، فعدَت تجاه الخط الى الجنوب . وظهرت فرقة اخرى في الشمال الشرقي من السهل . هي خيالة التوحيد ! نحو ثلاثمئة منهم ، جالو في ذاك السهل في رابعة النهار جولات عدة ، وقنابل المدافع تثير الغبار بينهم حيناً واحيانـاً وراءهم . وقد كان هناك قطيع من الغنم فساقوه امامهم وهم يتراجعون. وكان قد خرج اليهم ثلاثون من خيالة الدروز في الجيش الحجازي ، فجالوا مثلهم بضع جولات ، ووصلوا الى نزلة بني مالك التي ظنوها مكمناً لبعض الاخوان فلم يجدوا احداً هناك .

وفي ذاك اليوم ساعة الظهر ، وصل النجاب عائداً من مقر السلطان يحمل اليّ جواباً هو ، لما تقدم من الاسباب ، عكس جوابه الاول .

الفصل التاسع والاربعون

علينا وعلى رسل الرحمة

عاد السيد طالب النقيب من جدة حانقاً على ابن سعود . وعاد المستر فلبي مريضاً فكان حنقه على جدة وكل من فيها . وسافرت انا منها حاملاً في حقيبتي قنبلة من قنابل المدفعية النجدية .

ولكني قبل ان ظفرت بها عرضت نفسي لقنابل الغضب السلطاني . ذلك لاني لم اقطع الامل وازمع الرحيل قبل ان استنفدت كل ما في الوسع، واغتنمت كل فرصة سنحت، في سبيل ما جئت جدة من اجله . نعم ، كنت اعتقد واتيقن ان الخير كل الخير في الصلح بين نجد والحجاز . وما همني ان تُجرح كرامتي في هذا السبيل . لا والله . فما كرامة المرء اذا قيست بكرامة الامة ؟ وما ضر امرىء اذا صُدَّ في سبيلٍ وطني شريف . بل ما ضره اذا استطاع ولو في تعريض نفسه للاهانة ، ان يحقن دماء المتحاربين من اهل وطنه ؟ ان اصالة الرأي في مثل هذه الحال لفي التضحية الشخصية ، والذي يحزن المجاهد المخاص هو اخفاق السعي لا امتهان الحرمة .

كتبت الى عظمة السلطان عبد العزيز مظهراً دهشتي من الانقلاب السريع في خطته ، كتبت اليه مكلوماً ، وكتبت اليه ملوماً . فاجابني بلهجة فيها اثر للغيظ ولكنها لا تخلو من العطف ، ولا تخلو حتى من امل كنت اقرأه بين السطور . فلم يقفل الباب على الثالث من رسل السلام الا في كتابه الاخير . وقد كان يكرر قوله : « ان الشريف علي دعانا للمناجزة [1] فلبيناه .... لم نشأ ان نحمل الشريف علي مؤونة القدوم الى الحرم ،فزحفنا اليه وامرنا ان يكون قسم من جندنا على

---

(١) اشارة الى المنشور الحربي الذي رمته الطيارات في الابطح بمكة وفي المخيم السلطاني.

كثب منه . فليبر بوعده اذا كان من الصادقـــين » .

ومع ذلك ظللت مقيماً على ظني ان الصلح ممكن حتى بعد المناوشات الاولى خصوصاً لان في العشرة الايام التي تلت الهجوم الاول لم تبدُ من الاخوان حركة ما ، ولا ظهر شيء من طلائعهم في سهل جـدة . وعندما حضر طبيب التكية المصرية بمكة وهو عائد بالاجازة الى مصر ، اجتمعت به في مخيم الهلال الاحمر فظهر لي من حديثه انه عالم بشيء مما كتبته الى عظمة السلطان . ونقل اليّ بعض كلمات دلت عـــلى انه من الذين يحضرون مجلس عظمته الخاص . ومما قاله : « السلطان يحترمكم وبنوه دائماً بذكركم ، فاكتبوا اليه مرة اخرى ولكن لطفوا اللهجة » . ثم تطرق الى ذكر الهلال الاحمر وسألني بل الحّ عـليّ ان اسعى لدى الحكومة لتأذن بارسال قسم من البعثة الى مكة .

الهلال الاحمر المصري يستوجب كلمة في هذا التاريخ . فقد ارسلت الجمعية المركزية في القاهرة بعثة الى الحجاز مؤلفة من ستة اطباء وصيدلي وثمانية ممرضين واربع ممرضات وحكيمة واحدة ، وكانت البعثة مزودة بكمية وافرة من الادوية والعقاقـــير ، وبمستشفى متنقل مؤلف من ستين سريراً بمعداتها اللازمة .

نصبت هذه البعثة خيامها في الطرف الجنوبي من جدة عند وصولها ، ثم نقلت الى الطرف الشمالي ، الى مكان انظف وافسح من الاول ، على شاطىء البحر ، ووراء القنصلية الافرنسية ، وامـام البيت الذي كنت مقيماً فيه . فكنت ورئيسها الدكتور حسن حلمي كراره نتزاور من حين الى حين .

وعندما ظهرت طلائع الجيش النجدي في ٤ يناير ، وقطـع الناس الامل بمفاوضات الصلح ، طلب الدكتور كراره من الحكومة ان تأذن بارسال قسم من البعثة الى الجهة الاخرى لتتم وظيفتها ، فرفضت

الحكومة قائلة ان الطريق غير آمن وانها لا تستطيع تأمينه . فجاء رئيس البعثة يسألني ان اعرض المسألة على الملك فوعدته بذلك . وفي ذاك الصباح ، بعد خروج الدكتور ، زارني رئيس الحكومة فكلمته في الموضوع وبينت له الخطأ في رفض الطلب ، لان المشروع خيري ولا دخل فيه للسياسة ، الى ان قلت : « هؤلاء رسل الرحمة فلا يجب ان يقال فيكم انكم صددتموهم عن العمل الذي انتدبوا له » .

وعدني عطوفة الرئيس خيراً ، ولكنه بعد يومين ، عندما راجعته في الموضوع ، قال معتذراً : « لا جمال عندنا لنقل البعثة واحمالها » ففهمت من لهجته ان هناك غير هذا العذر مما لا يجوز التصريح به .

ثم جاء طبيب التكية بمكة يجدد الطلب ، فسألته : « وهل يرسل السلطان الى منتصف الطريق جمالاً تنقل احمال البعثة ؟ » فاجاب : « نعم هو يرسل خمسين جملاً » فذهبت اذ ذاك الى القصر وعرضت الامر على الملك علي . سألته باسم الانسانية ان يأذن بارسال جزء من البعثة الى ما دون الخط ، وقلت انها فرصة اغتنمها لاكتب الى السلطان مرة اخرى في موضوع السلم . بل هي فرصة يجب ان يغتنمها جلالته ليظهر ان لا حقد في قلبه على المصريين . واذا لم تأت بفائدة سياسية فلا اظن انه يحول دون فائدتها الاصلية الشريفة . الهلال الاحمر خير محض ، لا سياسة له ، ورجاله رسل الرحمة .

فقال الملك ، وقد وضع يده بلطف على يدي : « هل هو محض خيري يا استاذ ؟ » ثم اسر الي السبب الحقيقي في رفض الطلب . — « قد جاءتني كتب من مصر يحذرني اصحابها من هذه البعثة الخيرية . اكد يا استاذ انها ليست محض خيرية . ان لها صبغة سياسية ، وان لم تظهر للعيان . وانت تعلم موقف مصر السياسي تجاه الحجاز في السنين الاخيرة . فهل ألام ، والبلاد في حرب ، اذا تحذرت ؟ وهل كنت

انت تتساهل في الامر لو كنت من المسؤولين في الحكومة ؟ » .

سمعت كلام الملك ولكني لم اقتنع . وحزنت لاني لم استطع ان اقنع جلالته بما اعتقده في تجرد البعثة عن السياسة . وهب ان ما جاء الملك علياً من المعلومات هو محقق كله افما كان في وسعه وهو المعروف بكرم الاخلاق ، المتصف بالشهامة ، ان يحسن معاملة اعضاء البعثة فيستميلهم اليه ؟ لم ارَ مرة في مجلسه احداً من الاطباء المصريين . ومما علمت انه مرة دعا رئيسها للطعام مثلاً في القصر .

نعم قد كان في امكانه ان يكتسب ثقة رجالها ويستخدمهم ، اذا فرضنا ان ذلك ممكن ، لغرضه . قد كان في امكانه ان يصلح من هذا القبيل ما افسده والده ، فيغتنم الفرصة التي سنحت البعثة بها ليعقد حبل الولاء بينه وبين مصر ، وليفتح باباً جديداً للسلم بينه وبين ابن سعود .

عدت من القصر يائساً . ولكني مع ذلك كتبت الى السلطان عبد العزيز كتاباً آخر اقول فيه اني لا ازال في جدة وعل في بقائي ، نظراً لتطور الامور ، فائدة لعظمته ، فجاءني منه الجواب الذي فيه فصل الخطاب .

ثم ختمه في صباح اليوم التالي بقنبلة انفجرت في الشارع امام البيت الذي كنت مقيماً فيه . وتلتها قنبلة انفجرت خارج السور ، في مخيم الهلال الاحمر ! ان الحرب قائمة ، وهي ذي قنابلها تنذر رسل السلام ورسل الرحمة معاً .

الفصل الخمسون

المناجزات والمكالمات

قبل ان نسرد المهم من حوادث هذه السنة ، سنة الحصار ، اي بعد ظهور الاخوان للمرة الاولى في سهل جدة الى يوم التسليم ، يجب ان نحيط القارىء علماً بقوات الفريقين ومخططها الحربية .

عندما بويع الامير علي بالملك ، بعد تنازل الملك حسين ، ارسلت الحكومة الهاشمية الى الامير عبدالله في عمان اربعين الف ليرة ليبذلها في التجنيد ، وفي شراء العدد الحربية من اوروبا ، خصوصاً الطيارات والسيارات المصفحة .

١٣٤٣ هـ
١٩٢٤–٢٥ م

باشر الامير التجنيد بمساعدة بعض الزعماء بفلسطين ، فجاءت فرقة المتطوعين الاولى في ربيع الاول من هذا العام ، كما اسلفنا القول ، وتلتها فرقات اخرى حتى بلغ الجند النظامي نحو الف جندي يوم كنت هناك . ثم جاء في شهر رجب فرقة عددها مئتان وثلاثون ، وفي رمضان فرقة اخرى عددها خمسمئة .

ولكن هذا الجيش كان معرضاً لعاملين مستمرين في تنقيص عدده هما الملاريا والدزنتاريا ، ثم الوفيات والاصابات في المناجزات . والذي يقال في النظام يصح في البدو وعددهم في اعلى درجة لم يتجاوز الالف والخمسمئة مقاتل .

اما المال فلم يكن للحكومة ، بعد ان نفدت خزينتها ، غير مصدر واحد هو الحسين في العقبة . فقد جاءت «الرقمتين» في شهر رجب تحمل صندوقين فيهما خمسة عشر الف ليرة ، وجاءت في رمضان بخمسة آلاف اخرى ، ثم في شوال ابحرت «رضوى» من العقبة وهي تحمل لمساعدة الجيش عشرين الفاً من الذهب . وفي هذه الاثناء فرضت الحكومة على

التجار قرضاً قيمته اثنا عشر الف ليرة .

ثم نقل الحسين من العقبة – بعد عن جدة والبعد جفاء – فلم يرسل بعد ذلك غير دفعة واحدة صغيرة اي خمسة آلاف ليرة . فاخذ العسر المالي منذ ذاك الحين يشتد يوماً فيوماً ، حتى اضطر الملك علي في صيف هذا العام ان يرهن اطيانه الخاصة في مصر لقاء قرض قيمته خمسة عشر الف جنيه .

ومع ان مجموع ما صرف في سنة واحدة من الحرب لا يتجاوز المئتي الف ليرة ، فلولا الاسراف – والاختلاس – في شراء العدد الحربية والذخيرة لكان العسر المالي اخف على الملك وحكومته . لا نذكر غير مثل واحد من الفحش في ارباح الوكلاء والسماسرة . فقد دفعت الحكومة سبعة آلاف ليرة انكليزية ثمن ثلاث طيارات قديمة جاءتها من لندن، وهي لا تساوي بالاكثر غير الف وخمسمئة ليرة . قبل ان جاءت هذه الطيارات كان عند الحكومة الهاشمية خمس ايطاليات لا يصلح منها للعمل غير واحدة . ثم جاءها من المانيه في الصيف ست طيارات جديدة تحمل الواحدة من البنزين ما يكفيها لتطير ست ساعات، وهي مجهزة بالمدافع الرشاشة ، ومعها قنابلها الخاصة بها .

اما الطيارون فقد كانوا في اول الحرب روسيين من الحزب القيصري ، وكانوا في اخرها من الالمان . ولكن فترة تخللت مجيء هؤلاء وذهاب اولئك فتوقفت فيها حركة الطيران . وهناك اسباب اخرى لما كان في هذا السلاح الحربي من النقص وعدم الكفاءة . فالطيار الاجنبي حريص على حياته فلا يطير واطئاً ليصيب اذا رمى، او ليرى اذا طار مستكشفاً . ولم يكن لدى القيادة العامة في بادىء الامر قنابل خاصة، فاصطنعت من القذائف ما لا تأثير كبير لها ، اللهم اذا انفجرت طبق الحساب . ولكن اكثرها كان ينفجر قبل او بعد

الوقت المعين . ناهيك بالبنزين فلم يكن لدى الحكومة دائماً الكمية الكافية منه . وقصة المصفحات شبيهة بقصة الطيارات من وجهين هما غلاء الثمن وقلة الفائدة . فالسيارات الخمس الاولى ، التي خاضت معارك الحرب العظمى، جاءت وصفائحها مفككة، فظل العمال في « الورشة » يشتغلون شهراً في تأليفها وتركيبها . وهي لا تسير غير ساعتين سيراً متواصلاً فتحتاج اذ ذاك الى الماء . اما الاثنتان الثانيتان جاءتا بعدئذ فجديدتان ، ومجهزتان بالرشاشات . وقد كانت القيادة تبني عليهما آمالها العالية .

ولكن السيارات التي افادت اكثر من سواها هي تلك النقالة من صنع « فُرد » فكانت تنقل الذخيرة من المدينة الى القشلة والى الخط ، وتنقل الجنود المصابين بالملاريا والدزنتاريا ، وبعدئذٍ الجرحى من الخط الى المستشفى في المدينة .

اما المدفعية فقد كان في الاستحكامات ، يوم كنت في جدة ، اثنا عشر مدفعاً صغيراً وكبيراً ، وعشرة رشاشات كلها صالحة للعمل . ثم جاء من ينبع ومن العقبة مدافع اخرى صحراوية وجبلية واثنا عشر رشاشاً ، وجاء من المانيه مع المصفحتين عشر رشاشات والف وخمسمئة بندقية مع حرابها ، فاصبح على الخط نحو عشرين مدفعاً واكثر من ثلاثين رشاشاً .

وقد كان لدى الجيش الهاشمي القنابل الكشافة التي تنير المكان الذي تنفجر فيه ، كما انه استخدم الانوار الكشافة لكشف حركات العدو في الليل . اضف الى ذلك كله ما وضع عند ابواب خط الدفاع امام الاسلاك الشائكة من الالغام ، ثم الاسلاك نفسها .

وقد مدّت هذه الاسلاك على عمد من خشب طولها متر واحد في خط مفرد من البحر شمالاً الى الكُندرة شرقاً بجنوب ، ومنها جنوباً ثم

غرباً بجنوب الى البحر ، فبلغ طوله في هذا الشكل ، شكل الهلال ، نحو ستة اميال . ثم حُفرت وراء الشريط الخنادق ، واقيمت الاستحكامات. وبين الخنادق ووراءها ربي ومكامن استخدمت للكشف والدفاع . وقد قُسم هذا الخط الى مراكز ستة ، مرتبطة كلها بواسطة الهاتف بالقيادة العامة في القشلة. وهذه المراكز هي ابو بصيلة، والشرفية ، والكندرة ، والمشاط ، والعقم ، والطابية اليمانية . فالطابية هي جناح الجيش الايمن وابو بصيلة جناحه الايسر .

وهناك خارج الخط النزلة اليمانية ، وهي قرية مهجورة على مسافة ميلين من جدة الى الشرق الجنوبي ، وفيها حامية من البدو صغيرة ، مئة نفر لا غير . ونزلة بني مالك على مسافة ميلين من جدة الى الشمال الشرقي ، وفيها حامية اخرى صغيرة من البدو ، ثم الرويس وهي اقرب القرى الى جدة من الشمال .

هذي هي قوات الجيش الهاشمي وعُدده في الدفاع. اما عُدد الجيش النجدي فقد كانت محصورة بالمدفعية والبنادق والرشاشات . ان في القصر بالرياض مدافع كثيرة من انواع مختلفه ، ولكن السلطان عبد العزيز لم يأمر بجلب شيء منها الى الحجاز . اما المدافع التي استخدمها في هذه الحرب فقد غنم جيشه بعضها في الطائف والهدى ، ووجد اكثرها في مكة، وكلها صالحة للعمل . وهي من المدافع الصحراوية والجبلية من عيار ٦ و٧، وعددها لا يقل عن العشرين مدفعاً ، كانت تظهر تدريجياً ، او بقدر ما يمكن الاستعمال منها في وقت واحد . وكان لدى الجيش النجدي رشاشات كثيرة وكمية وافرة من الذخيرة وجدوا اكثرها في قلعة جياد بمكة .

اما الجنود فقد كانت القوة في المعسكر يوم الزحف الاول اربعة الاف، والقوة الزاحفة مثلها ، وفيها من الاخوان الغطغط ، واهل ساجر ،

واهل دُخنة ، وقحطان، والداهنة، ور كبه، وغيرهم . وفيها من الحضر الوية من اهل القصيم ، واهل المعارض .

ثم جاء في رمضان فيصل الدويش امير الارطاوية بجيش من مطير ، وتلاه اهل سبيع والسهول . وبعد هؤلاء وصل الامير فيصل عائداً من نجد بنجدة كبيرة فبلغ عدد الجيش في الجبهة ووراءها نحو عشرة الاف. اضف الى ذلك الجنود الذين كانوا محاصرين المدينة والسرايا التي كانت مرابطة حول ينبع والوجه والعلاء ، فيدنو مجموع الجيوش النجدية في الحجاز من الاثني عشر الف مقاتل .

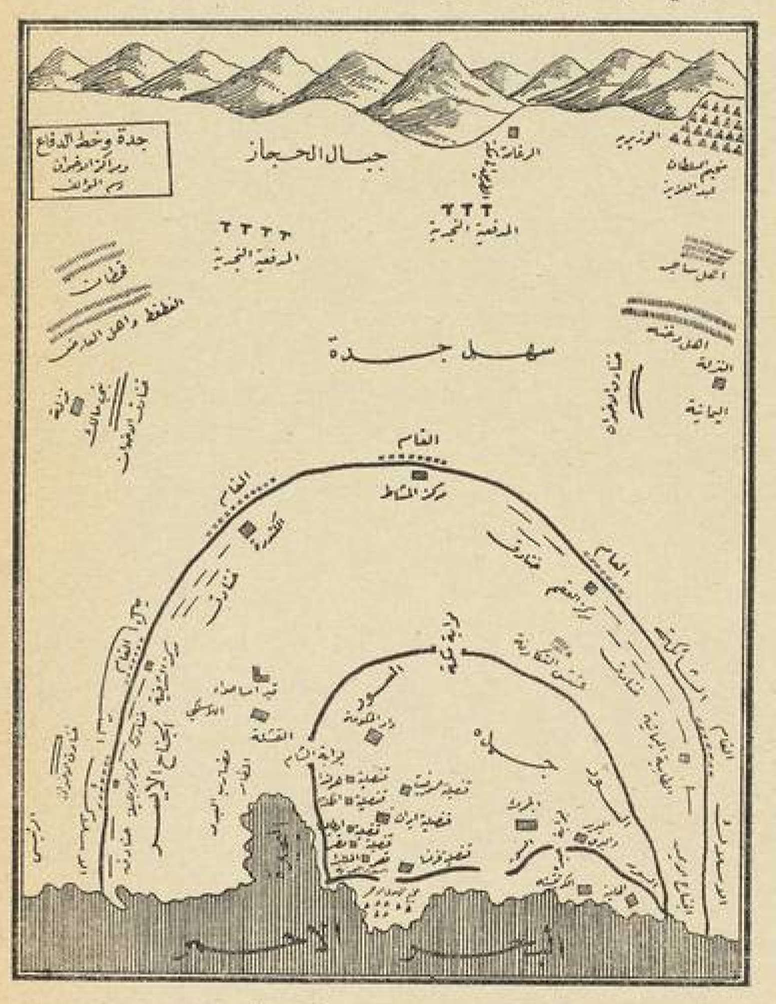
وقد كان توزيع الجيوش في جبهة جدة على الشكل الاتي :عسكرت فرقة الغطغط في الجناح الايمن (جناح الحجاز الايسر) ، واهل دخنة في الجناح الايسر (جناح الحجاز الايمن) ، واهل ساجر في جبهة معاونة للجناح الايسر . وعسكر في القلب لواء قحطان من الهياثيم ، ووراء هؤلاء كلهم سرية من الخيالة . ثم التحق بهم الجيش الذي كان في اليمن من اهل الداهنة ور'كبه ، فاصبح في الجبهة نحو اربعة الاف مقاتل .

مشى هذا الجيش من مكة ومعه الاوامر بان يحيط بجده ويهاجم خط الدفاع فيناوش الجنود هناك . اما الهجوم بقصد اختراق الخط والدخول الى المدينة فلم يكن ليقدم عليه بدون اذن من القيادة العليا. مشى بموجب اوامره ، فاحتل في اواخر جمادى الثانية النزلة اليمانية ، ونزلة بني مالك ، والرويس . ولكن الاخوان الذي احتلوا النزلة اليمانية اخلوها مرتين بعد وقعات مع جنود الحجاز ، ثم عادوا فاستولوا عليها . وبعد ان 'خر'بت – ضربها تحسين باشا بالمدافع وحرق الاخوان قسما منها – اخلاها الفريقان .

على ان الاخوان ظلوا مرابطين في الجبهة الجنوبية امام الجناح الايمن من خط الدفاع ، وقد اصطدموا مراراً بفرزات من الجيش الهاشمي

كانت تخرج تارة للكشف وطوراً لاحتلال ابار الماء في تلك الناحية .

وبعد ان استولى الاخوان على هذه المراكز خارج خط الدفاع تقدموا في العراء وباشروا حفر الخنادق . ثم اقاموا عندها استحكامات



رسم خط الدفاع وما دونه من مراكز الجيش النجدي
وقد نقل قسم من المدفعية بعدئذ الى نزلة بني مالك والرويس

حصنوها باكياس من الرمل، فصاروا يحاربون الجنود النظامية بالرشاشات والبنادق معاً . هي اول مرة على ما نعلم حارب الاخوان بطريقة منظمة حربَ الخنادق . وكانت قد بدأت في آخر جمادى الثانية حرب المدفعية ايضاً ، فلم يتفرد فريق من الفريقين بالمفاجآت .

ولكن الحكومة الهاشمية في هذا الشهر خسرت في ما سيّرت للدهش والارهاب خسارة تعد في البلاد العربية جسيمة . ففي اصيل اليوم الثالث والعشرين من جمادى الثانية طارت الطيارة التي كان يسوقها الطيار الروسي « تشاريكوف » وفيها المراقب الضابط اللاذقي ، والكاتب عمر شاكر الذي دخل الى المطار خلسة ، كما قالت القياد العامة ، فحشر نفسه مع الضابط السوري في مجلس واحد . وقد نزا بشاكر قلبه الى ضرب الاخوان من علي ولو بقنبلة واحدة . فعندما دنوا من المعسكر في الرغامة انفجرت القنبلة في الطيارة وهي تعلو نحو الفي قدم عن الارض فتحطمت في الجو . وقد شاهدناها من القشلة تطيح ومَن فيها بين يدي الموت والفناء . ذهب هؤلاء الثلاثة ضحية الاهمال في تنفيذ الاوامر العسكرية . وكان تشاريكوف الطيار الروسي الثاني الذي مات هذه الميتة الفظيعة في الحجاز . اما الاول فهو الذي طار الى الطائف عندما دخلها الاخوان ، فسقطت طيارته بينهم ، فكانت خاتمة الوجود له ولها محزنة مرعبة .

لنعد الى حرب الاخوان . الذين كانوا يهجمون غالبا في الليالي المظلمة . وذلك لغرضين : ليلقوا في قلوب الاهالي الرعب والذعر فينهضوا على الحكومة ، او يهاجروا ، وليحملوا الجنود على الاسراف بالذخيرة . وقد نجحوا في هذه الخطة بعض النجاح . على انهم كانوا يهجمون غالباً هجمات هوجاء ، مستبسلين مستشهدين ، فلم تُصرف عبثاً في كل حال ذخيرة الجنود الهاشمية . وقد كانوا يقربون جداً من الخط . حتى ان

رصاص بنادقهم وقع قرب قصر الملك، وحتى انهم قطعوا بعض الشريط واخذوه الى المعسكر العام .

اما الاهالي فقد كان الرعب سميرهم، والذعر جليسهم في تلك الليالي ، لانهم جهلوا القصد الحقيقي من الاغارات، فظنوا ان الاخوان يحاولون اختراق الخط ، لذلك كانوا يسمرون كل ليلة ليلاء على انغام الرشاشات والبنادق وهم يقولون : الليلة يدخلون البلد .

على انهم كانوا يشاهدون لاول مرة اشياء جديدة في هذه الحرب البدوية الفنية معاً، خصوصاً عندما كانت المدافع تطلق على العدو القنابل الكشافة فتنير في سهل جدة ظلمات تبدو هنيهة كالاقمار المكسرة. ناهيك بالانوار الكشافة التي كانت ترسل في ذاك السهل اسهما بيضاء من اشعتها، فيهتدي بها الاخوان الى طريقهم — الى الابواب في الاسلاك الشائكة، والى الالغام ! — والى الواقفين في الخنادق. هناك كنت تسمعهم ينادون: « يا اخوانا يا اهل الشام ، ويا شمر ، ويا حرب ، ويا عقيلات ، اخرجوا من الخط وانتم في وجه الله ووجه ابن سعود . لا تخافوا . والله ما نريد لكم غير الخير — تعالوا الينا ونحن اخوانكم والله بالله ! »

ولكن كثيرين من اولئك الجنود كانوا يحاربون عملاً باعتقادهم ان النهضة العربية لا تقوم الا بالبيت الهاشمي. اما الاخرون الذين اصطيدوا في عمان والعقبة ، والذين جاؤوا جدة مرتزقين ، فقد كانوا بين نارين ، ولم يكن لهم يومئذ ان يختاروا اصغر الشرين

والى القارىء ، اتماماً لصورة الحوادث في تلك الايام والليالي ، امثلة نأخذها من التقارير الرسمية :

« تعرضت قوة من البدو على جناحنا الايسر في الساعة الخامسة (١١ افرنجية) من الليل فاصلتها مدافعنا ورشاشاتنا ناراً شديــــدة ، فانهزمت من حيث اتت تاركة عدداً من القتلى » .

« بدأت مدافع العدو ساعة الفجر بالرمي المعتـاد فقابلتها مدافعنا قدر ساعتين واسكتتها » .

. . . .

« طارت الطيارة الساعة ١ صباحاً لضرب معسكرات العدو وموضع مدافعه ، فالقت اربع قنابل وعادت » .

. . . .

وهاك امثلة من تقارير القيادة النجدية :

« في هذه الليلة سرت طائفة من جندنا الى حدود العدو ، فاطلقت عليه النار فظن ان الاخوان يهاجمون على طول الجبهة ، فاخذ بوالي اطلاق المدافع والرشاشات والبنادق من جميع المراكز . واستمر كذلك ثلاث ساعات دون ان يصيب احداً من المهاجمين » .

. . . .

« اخرجت القيادة الهاشمية مفرزة لكشف مراكز الاخوان فخرجوا من مكامنهم اليها ، واعملوا فيها النار ، فسقط منها سبعة قتلى وفر الباقون » .

. . . .

كذلك في شهري رجب وشعبان كانت تُحيا الليالي المظلمة بين المتحاربين . اما في النهار فقد استعرت بينهما حرب المدفعية التي استغوت في بادىء امرها اهل جدة ، فكانوا يسارعون الى خارج السور ليشاهدوا قنابلها تنفجر عند الاسلاك الشائكة ، وفي اطراف السهل بظل الجبال.

هناك شرقي الكندرة ، وعلى طريق مكة ، نصبت المدافع السعودية في الاشهر الاولى من سنة الحصـار . فكانت تصل قنابلها في البدء الى ما بين مئة ومئتي متر من الاسلاك ، ثم داخل الاسلاك وهي تنقل الى الامام بعد حفر الخنادق ، ثم عند سور المدينة ، ثم داخل السور ، فحُرم اهل جدة اذ ذاك مشاهدة نارها ، ولكنهم لم يحرموا مفعولها . وقد كانت

مسافة الرمي تتراوح بين الثلاثة والاربعة اميال .

حلقت القنابل فوق خط الدفاع فتساقطت في قلب البلد ، وقد اصيب مرتين بيت الوكالة البريطانية ، فاخترقت قنبلة جدار غرفة النوم وقنبلة دخلت مكتب الوكيل. وقد اصيب ايضاً بيت وكالة السوفييت فتكسر العلم فوق السطح . واستمرت تتقدم في تقدم المدفعية حتى وصلت الى الطرف الغربي من المدينة اي الى شاطىء البحر ، فزارت القنصلية الافرنسية وتفجرت في مخيم الهلال الاحمر !

عندما اصيبت الوكالة البريطانية والوكالة الروسية عقد القناصل مجلساً للبحث في المسألة فقرروا ان يظلوا رغم هذه الحال على الحياد. وقد ابرق رئيس الهلال الاحمر الى الجمعية المركزية في القاهرة يستأذن بالرحيل، فلم تأذن الجمعية بذلك.

كان الضرب يبدأ صباحاً فيصلي الفريقان الفجر ويتبادلان بالقنابل السلام ساعتين او ثلاث ساعات ، ثم يُستأنف العمل بعد الظهر فيستمر حتى غروب الشمس ، فيوكل اذ ذاك كبير المخرّبين بالوداع . — وهذه قنبلة من « الاوبوس » يا اخوان ! — وهذه من عيار ٢٢ يا ايها الشوام ! .

عندما اشتدت هذه الحرب المدفعية في شهر رجب وشعبان ، نصب النجديون مدفعاً في الرويس ، فصارت قنابلهم تقع في الجهة البحرية من المدينة وفي قلبها ، فجرح وقتل عدد من الناس ، واستولى الرعب على الاهالي فشد كثيرون منهم للرحيل . بدأت الهجرة الى سواكن ومصوع وعدن في المراكب التجارية ، ثم طفق الناس يرحلون في السنابيك الى الليث ، ومنها يرجعون الى مكة . وكانت الحكومة راضية بهذه الهجرة لما فيها من التوفير بالماء والزاد للجنود .

على ان تلك الحرب المدفعية التي كان يتفرج اهل جدة عليها ثم صاروا

يفرون منها ، وتلك المناوشات في ظلمات الليالي ، لم تكن غير مقدمات للوقعة الكبيرة التي يجب ان تدعى بوقعة المصفحات . وهي المرة الاولى والاخيرة التي برز فيها في رابعة النهار القسم الاكبر من الجيش الحجازي لمنازلة الاخوان .

في ضحى اليوم الثامن عشر من شعبان (١٤ مارس ١٩٢٥) شرع الخط يطلق مدافعه الكبيرة والصغيرة على الرويس ، وبعد نصف ساعة من هذا الضرب الشديد المتواصل خرجت خمس مصفحات من بوابة الكندرة فسارت ثلاث منها تجاه نزلة بني مالك واثنتان تجاه الرويس . ثم مشى من مركزي الكندرة وابي بصيلة نحو الف من جنود النظام والبدو مقسومين الى ثلاثة اقسام ، تتبعهم سرية من الخيالة .

اما الاخوان فقد كانت فرقة من اهل دخنة في الرويس ، وفرقة اخرى في بني مالك . وكان اهل العارض والغطغط في الخط الثاني ، كما انه كان من الفريقين في الجبهة الامامية اي في الخنادق ، وعدد الجميع لم يتجاوز يومذاك الالفين . عندما خرجت المصفحات تقدمت القوة الاحتياطية النجدية نحو مراكز الجيش المرابط ، ولكنهم لم يباشروا الرمي لا هم ولا المخندقون حتى خرجت العساكر الهاشمية كلها الى السهل وكادت المصفحات تصل الى النزلة ، فدارت عندئذ رحى الحرب في الناحيتين ، تجاه الرويس وتجاه بني مالك ، ودوت البنادق والرشاشات.

اما المصفحات فقد كان من مهمتها ان تمنع وصول المدد الى الجبهة الامامية فسارت شرقاً بشمال ، تاركة النزلة الى يسارها ، لتصد اهل الغطغط والعارض عن الهجوم ، فاشتبكت واياهم في قتال عنيف ، ولكنها لم تتمكن من صدهم . وقد رأى من شاهدوا المعركة من جدة كيف كان الاخوان يصارعون هذه المصفحات مستشهدين « فيدورون حولها وهم يطلقون البنادق عليها وعلى من فيها ، وهي ترش الرصاص

من رشاشاتها في كل جانب . حتى ان عبداً من العتاريس دنا من احداها، بعد ان جال حولها كأنها فارس من الفرسان ، فتمسك بها وصعد الى سطحها وهو يطلق مسدسه ، فأصيب وهو هناك برصاصة ، فهوى الى الارض .

ظل الاخوان يعاركون هذه المصفحات حتى أبطلت الرشاشات فصار الجنود داخلها يطلقون الرصاص من مسدساتهم . وقد أصيب بعضهم برصاص العدو الذي كان يدخل من الكوى ، وجُرح جراحاً بليغة اثنان من السواق الروس . تراجعت المصفحات ، وقد تمزقت وتكسرت جوانب بعضها ، وسارع اهل الغطغط والعارض الى نجدة اخوانهم ، فخاضوا معركة دامت ساعتين في اشد حالاتها، ثم ساعتين في قتال متقطع ، حتى انتهت ، الساعة الثالثة بعد الظهر ، في رجوع الجنود الحجازية والمصفحات الى داخل الاسلاك، ورجوع الاخوان الى مراكزهم. اما من بقي في ساحة القتال ، وهم القتلى ، فلا يقل عددهم عن الثلاثمئة .

جاء في التقرير الحجازي الرسمي : « خسر العدو بين قتيل وجريح اكثر من مئتين ، وخسر جيشنا خمسة عشر قتيلاً وأصيب منه خمسون».

وجاء في التقرير النجدي الرسمي: « قد تحقق ان خسارة العدو كانت في الاقل ثلاثمئة وعشرين قتيلاً ، بدليل بنادقهم التي غنمها رجال جيشنا واحضروها الى المعسكر العام . اما خسائرنا فقد كانت خمسة قتلى وخمسة جرحى فقط » .

ومما لا ريب فيه ان قد قُتل في معركة المصفحات لا اقل من ثلاثمئة من العرب ! ومن المحقق ايضاً ان المصفحات لم تنجح في مهمتها الاولى ، وهي قطع الطريق على المدد ، ولا كانت في مهمتها الثانية اشد فعلاً من الجيش المهاجم . فقد شغلها رجال الغطغط والعارض حتى نفد الماء والذخيرة فيها ، فرجعت اذ ذاك ادراجها .

أخفقت القيادة الهاشمية في هذا الهجوم العام . فقد كانت خطتها ان تضرب الاخوان المرابطين امام جناحها الايسر فتقضي عليهم ، ثم تعود شرقاً بجنوب ، وقد أمنت مؤخرها ، فتزحف الى المعسكر في الرغامة ، فتستولي عليه ، وتستمر في خطة الهجوم ، فتمشي ظافرة الى مكة . — سنعيد رمضان بمكة ! هي كلمة الجيش الهاشمي في تلك الايام . وقد كتب احد ضباطه الى المؤلف ، قبيل هـــذه الوقعة ، يقول : « وغداً ندعوك لزيارتنا في الطائف » .

واذا فرضنا ان الاخوان امتنعوا عن اختراق الخط ومهاجمة المدينة لعجزٍ موَّهوه بالاغارات والمناوشات ، فقـد كان العجز اظهر في خطة الجيش الهاشمي بعد وقعة المصفحات .

وبعد هذه الوقعة خمدت في الجانبين نار الحرب . خف ضرب المدافع وقل الهجوم في الليل ، وكان في شهر رمضان شبه هدنة تبعها في شوال مناوشات في الليالي المظلمة . ومع انه كان قد شاع في جدة ان المعركة الفاصلة ستكون في شوال فقـــد ولّى شوال والتقارير الرسمية تقول : « سكون تام على الخط » .

على ان القتال استؤنف في الشمال . فالقيادة النجدية ارسلت حملة الى ينبع لتأديب بعض عربان جهينه الذين اعتدوا عـلى قوافل تحمل ارزاقاً الى مكة . وكان ابن رُفاده الشيخ ابراهيم ، كبير مشايخ جهينه ، قد خرج على الملك علي وعاهد ابن سعود عـــلى الطاعة والتوحيد ، فارسلت حكومة جدة الى قائمقام الوجه الشريف حامد ثلةً من الجنود النظامية وبعض الرشاشات لتأديب ابن رُفادة وجماعته. وكانت قـــد ارسلت الامير شاكراً الى ينبع ليحمل على الاخوان في بدر ويستردها .

اما في المدينة المنورة فقد كان صالح بن عدل معسكراً في الحناكية وقد التحق بجيشه لواء جاء من جهة حائل . وكان قسم من هذا الجيش ،

واكثره من الحضر بقيادة ابراهيم النشمي وكيل ابن عـــدل ، مرابطاً حول المدينة ، وهو مأمور بان يحاصرها فقط ، وان لا يدخلها بدون امر من القيادة العليا .

اما وقد علمت ذلك فسنطلعك على بعض البرقيات التي كانت ترد الحكومة الهاشمية في تلك الايام :

« المدينة ٢١ ذي القعدة .

جلالة الملك المعظم . جهزنا عبدكم ولدنا مع عسكره وبعض من حرب على النشمي فكسروه واسروا اربعة انفار من جماعته . ابشركم بذلك سيدي . قائمقام المدينة : شحات »

« العلاء ٢٧ ذي القعدة .

جلالة الملك المعظم . صباح اليوم الجمعة هجمت على مداين صالح ثلاثة بيارق ودامت الحرب بينهم وبين العدو الى العصر والحمـــد لله انقلب خاسراً تاركاً جرحاه وقتلاه مولاي. قائمقام العلاء »

« ينبع ٢٦ ذي القعدة .

جلالة الملك المعظم . احتللنا بدراً وغنمنا جميع ما فيها . انهزم احمد سالم (صاحب بدر) ومعه اربعون بعيراً محملة . الامضاء : شاكر »

ولكن السلطان عبد العزيز جهز في هذا الشهر حملة الى الشمال بقيادة ابن عمه سعود بن عبد العزيز المعروف بسعود العرافة والامير خالد بن لؤي . فالتقت هذه الحملة في طريقها من رابغ باحمد بن سالم ، فقص على القيادة قصته ، فحوقل خالد وامر سالماً بالرجوع . فمشى مع الحملة التي استمرت في طريقها الى بدر ، وبعد ان ضربتها واشتبكت في وقعة مع المدافعين ، رجال الامير شاكر فيها ، كتب لها النصر واستولت عليها ثم اعادت احمد بن سالم الى مركزه ، ومشت الى ينبع النخل فعسكرت هناك تنتظر الاوامر الجديدة من القيادة العليا . وكانت قد ارسلت

تلك القيادة فيصل الدويش ايضاً الى الشمال فاحتل بجيشه العوالي ، حول المدينة ، بدون مقاومة .

اذن قد كانت الحالة في الشمال في آخر هذا العام ، عام ١٣٤٣ ، حالة حصار يتخللها شيء من القتال . فكان الاخوان مرابطين حول الوجه وينبع ، وكان جيش من الحضر محاصراً المدينة ، وكان سعود العرافة وخالد بن لؤي معسكرين في ينبع النخل ، وفيصل الدويش في العوالي وصالح بن عـــدل في الحناكية . والغرض الاكبر من هذه التعبئة هو الضغط على اهل المدينة ليحملوا اولياء الامر فيها على التسليم . ذلك لان القيادة العليا فضلت الحصار على القتال ، ولم تكن الجيوش هناك مسلحة بغير البنادق .

اما حكومة الملك علي فقد استبشرت بهذه الحال في الشمال ، وعزت سكون الجنود النجدية الى العجز . ومما اثبت ظنها وزادها املاً بالفوز ، رغم ما كانت فيه من العسر ، هو ان السلطان عبد العزيز امر جنوده بالانسحاب من جبهة جدة ليتمكنوا من الحج . فلم يبق هناك غير قوة صغيرة من الخيالة والهجانة لتشرف على الرغامة .

كان اهتمام السلطان بالحج في هذين الشهرين اكثر من اهتمامه بالحرب. بل كان قد بدأ منذ ثلاثة اشهر يمهد للحج السُبل ، فارسل في غرة شعبان نداء « الى جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها » يخبرهم بان النظام قد ساد في البلدة المطهرة ، واستتب الامن فيها . وانه يرحب بحجاج بيت الله الحرام من المسلمين كافة في موسم هذه السنة ، ويتكفل بتأمين راحتهم ، والمحافظة على جميع حقوقهم ، وبتسهيل سفرهم الى مكة المكرمة من احد الموانئ الثلاثة اي رابـغ والليث والقنفذة . وقد كانت تجيء هذه الموانيء كل خمسة عشر يوماً بواخر هندية وخديوية وايطالية ، تجيئها من عدن ومصوع والسويس ، حاملات الارزاق . لم تتمكن الحكومة

الهاشمية التي ضربت في اول الحرب نطاقاً بحرياً من القنفذه الى رابغ ، وحاولت تنفيذه بواسطة الباخرة المساحة « الطويل » ان تصادر الا قليلا مما كان يصل من هذه الثغور الى مكة . وما كانت دائماً موفقة حتى بذاك القليل .

فقد صادرت « الطويل » مرة خمسة سنابيك ايطالية مشحونة من مصوع الى الليث وجاءت بها الى جدة . ولكن الحكومة الايطالية احتجت بواسطة قنصلها السنيور فارس على هذا العمل ، وانذرت الحكومة الهاشمية بانها تسحب قنصلها من جدة ، وتتخذ الطرق القانونية لحفظ حقوقها ، اذا كانت لا تعيد كل ما صادرته من السنابيك الرافعة العلم الايطالي . فعقد الوزراء مجلساً للنظر في الامر ، وقرروا بعد البحث ان يجيبوا طلب الحكومة الايطالية .

عُد هذا الحادث نصراً سياسياً لابن سعود . كما ان مجيء ثلاثة آلاف من حجاج الهند ، ورجوعهم بعد الحج سالمين عن طريق رابغ هو نصر سياسي آخر . وهناك حادث ثالث ، حدث في هذا الصيف ، لا يقل اهمية من الوجهة السياسية عن الحادثين الاولين ، الا هو نقل الملك الحسين من العقبة الى قبرص . وقد يكون اهم الحوادث لما كان فيه من الفائدة لابن سعود ، لأنه اقصى عن الملك علي ذاك المورد الذي كان يتكل كل الاتكال عليه . اجل ، فقد اشتدت الازمة المالية في حكومة جدة بعد سفر الحسين الى قبرص . وهناك خسارة اكبر للحجاز كانت تتعلق بسفر الحسين ، وكان الامير عبدالله يسعى لها . فهو الذي اقنع اخاه وحكومة اخيه بان يسلموا بضم العقبة ومعان الى شرقي الاردن . وقد ضرب الامير يومئذٍ على الوتر الحساس اذ قال في احدى مذكراته الى جلالة اخيه ما معناه: سلموا بضم العقبة ومعان وانا اضمن لكم من الانكليز ما يأتي ، اي ثلاثمئة الف ليرة تعويض الضم ، ومئتا الف ليرة ثمن الاملاك

الغير المنقولة ، وقرض قيمته خمسمئة الف ليرة يُعقد حالاً . ثم ابعاد ابن سعود عن الحجاز حتى تربة والخرمة ، وجعل الخط الحجازي رهن اشارتكم في كل وقت .

اية حكومة في موقف تلك الحكومة الهاشمية لاتقبل ببيع قطعة من املاكها بهذا الثمن ؟ واي ملك في مركز الملك علي لا تغره تلك الارقام ؟ ولكنها ارقام ، في كتاب الاحلام .

لم تنحصر انتصارات ابن سعود في اواخر هذه السنة وطلائع سنة ١٣٤٤ بالحوادث الثلاثة التي تقدم ذكرها . فقد فتح ابوابه للوفود ، وبدت منه رغبة في المكالمات لغرض من الاغراض الحربية والسياسية التي يجهلها الناس ايام الحرب ، ولا يقيمون لها وزناً بعدها. على ان عظمة السلطان كان المجيب لا الطالب . واول من استأذن في رمضان بزيارة الحرم والحج بالعمرة ، وطي القصد الديني قصد حسنٌ آخر ، هم القناصل المسلمون في جده، اي عبد الكريم حكيمُف معتمد حكومة السوفيت، ورادين براويرا نائب قنصل هولانده، واحمد افندي لاري وكيل قنصل ايران ، فاذن السلطان ودعاهم بعد زيارتهم الحرم لزيارته في مقره بالوزيرية .

وبينما كانوا هناك يتكلمون بالصلح هجم الاخوان في الليل كالعادة على جناح خط الدفاع الايسر ، من البحر الى الكندرة ، هجمة هوجاء، واستمرت البنادق والرشاشات تدوي دوياً متقطعاً حتى الفجر . وما معنى زيارة القناصل ؟ ان ابن سعود سرٌ من اسرار السلم والحرب يعجز عن كشفه الانس والجن !

القناصل : « اننا نتكلم مع عظمتكم في هذه المسألة بصفتنا الشخصية ، لا بلسان حكوماتنا ، لاننا شرقيون يهمنا الاصلاح والاتفاق بين الشرقيين » .

السلطان : « كأن القوم لم يدركوا حتى اليوم غايتنا ومرامنا . فما زال الشريف علي في جدة فلا سبيل الى الصلح . اما اذا اخلاها وترك المسألة للعالم الاسلامي ، فنحن نقبل بما يقرره بشأن الحجاز » .

ثم سُئل عظمته اذا كان يأذن بقدوم وزير الخارجية الشيخ فؤاد الخطيب للبحث في المسألة ، فاجاب انه يرحب بمن اراد القدوم اليه سواء أكان الشيخ فؤاد ام غيره .

وعند رجوع القناصل المسلمين الى جـــدة كتب وزير الخارجية الى عظمة السلطان يقول ان بعض الاصحاب انبأوه « بما حقق الامل المعقود » ويطلب منه تعيين يوم للمقابلة . فاجاب عظمته بالايجاب عـــلى شرط ان يكون سعادة الوزير مفوضاً ليوافق عـلى ما يملى عليه من الشروط « ثقلت وطأتها ام خفت » . فرد الشيخ يقول ان المأمول من قدومه « اولا ــ شرف التعرف الى شخصكم الجليل المعظم . ثانياً ــ التمهيد لايجاد جو صالح تسود فيه الطمأنينة المنشودة ليكون محور الاعمال في ما يحسن التفاهم عليه » . فقال عظمته في كتابه الاخير « اكون مسروراً بمواجهتكم » .

نظن ان الشيخ فؤاداً شعر بمثل هذا السرور بالرغم عن عقم تلك المكالمة في المخيم السلطاني بالوزيرية ، تلك المكالمة التي تحولت الى استنطاق من قبل السلطان ضاقت فيه لدى الوزير الشاعر حيل السياسة كلها .

ــ « ومن هو الضامن لهذه التعهدات ؟ »

ــ « انت الضامن » .

ــ « وكيف يكون ذلك ؟ انت تقبل بالشروط وانا اضمن التنفيذ »

الشيخ فؤاد : « اطلب الضامن الذي تريده ونحن نقدمه لك » .

السلطان : « لا اعلم ضامناً له سلطة وأثق به يتكفل بمـــا اطلب . فالدول كلها على الحياد ، ولا نقبل تدخلها في الاماكن المقدسة كما ترى » .

تحول الحديث بعدئذٍ الى مواضيع اجتماعية وادبية ، فكان الشيخ فؤاد فيها لامعاً باهراً. ثم عاد من الوزيرية راكباً بغلته ، حاملاً مظلته ، والقناصل والحكومة والجنود في جدة يتساءلون : ماذا عسى ان يكون تحت تلك المظلة من الامال ؟ لم يكن تحتها غير شاعر ابهر في احاديثه الادبية في المخيم السلطاني ، وغُلب في المكالمات السياسية .

عندما سافر القناصل المسلمون للحج بالعمرة قلق زملاؤهم المسيحيون، فارسل الوكيل الانكليزي كاتبه الهندي المسلم منشيء احسان الله الى مكة لاشغال تختص بالحجاج الهنود ، فاقام هناك اسبوعاً ، وعرج في رجوعه على المقر العالي بالوزيرية ، فنزل ضيفاً على السلطان . اما المكالمة فقد كانت ولا تزال سرية .

بيد انه كان معلوماً ان الحكومة البريطانية كانت تفكر يومئذٍ في احتلال العقبة ومعان ، وان ابن سعود كان يفكر في ارسال حملة الى تلك الناحية لاخراج الحسين منها .

ــ نحن ننقل الحسين من العقبة ولا نكلفك مؤونة الحملة عليه

ــ الحملة ماشية فعليكم ان تعجلوا .

وفي الحقيقة كانت الحملة قد مشت من حائل ، فامر عظمته قائدها بان يتوقف في الزحف .

وقد تلت المكالمات بالوزيرية مكالمات اخرى في مكة ، وكتب في لائحة المتوسطين الطويلة اسم كبيرٍ من حكام العرب . اجل ، قد جاء من صنعاء اليمن ، من حضرة الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله، بواسطة قنصل ايطالية بجدة ، برقيتان الواحدة الى الملك علي والاخرى الى السلطان عبد العزيز ، يطلب منهما ايقاف القتال ، واحترام الاراضي المقدسة ، وقبوله حكماً بينهما . فجاوب الملك علي بالايجاب وارسل السلطان جواباً مآله اننا دعونا المسلمين لمؤتمر يبحث في امر الحجاز فنرجو ان يحضر مندوبكم معهم .

وفي الاشهر الثلاث الاولى من هذا العام جاء السلطان عبد العزيز ثلاثة وفود من المسلمين والمسيحيين ، ما عدا الوفدين الذين جاءا مع الحجاج من الهند . اما الوفد الاول

١٣٤٤ هـ
١٩٢٥ - ٢٦ م

فقد جاء من مصر ، من قبل الملك فؤاد ، للتحقيق في ما شاع من اخبار المدينة والطائف ، وللتوسط كما قيل في امر الصلح . كان هذا الوفد مؤلفاً من الشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي قضاة القطر المصري ومحمد بك عبد الوهاب كاتب سر الملك الخاص ، وكان ولا شك له غير ما ذكر من الاغراض . فان الخلافة كانت تثقل يومئذٍ بال الملك فؤاد ، وقلبه ، فاحب ان يستطلع في امرها رأي ابن سعود .

اما الوفد الايراني الذي كان مؤلفاً من سفير مصر وقنصل سورية العام فقد كان غرضه ظاهراً وباطناً التحقيق في مسائل الطائف والمدينة . وبعد ان زار الوفد مكة ، وكلم السلطان عبد العزيز في ما انتدب له ، عاد السفير الى مصر وسافر القنصل حبيب الله خان عين الملك الى المدينة ليتم مهمته .

وقد جاء ايضاً في هذا الشهر ، اي في ربيع الثاني الوفد الانكليزي ، او بالحري السر غلبرت كلايتن [١] وكاتب سره وترجمانه وتوفيق بك السويدي مستشاره العراقي ، فاجتمع بهم السلطان في بحرة . وهناك كان المؤتمر الذي استمر خمسة وعشرين يوماً ، اي من ٩ اكتوبر الى ٣ نوفمبر ، فعقدت اتفاقيتان سميت الاولى اتفاقية بحرة وهي بين العراق ونجد ، والثانية اتفاقية حداء ، وهي بين نجد وشرقي الاردن [٢]

وعندما كان السلطان عبد العزيز في بحرة جاءه من المدينة المنورة

---

(١) Sir Gilbert Clayton

(٢) في الملحق نص هاتين الاتفاقيتين .

رسول اسمه مصطفى عبد العال يحمل كتاباً من امير المدينة الشريف شحات يعرض فيه التسليم، على شرط ان يؤمّن الاهلون والموظفون على ارواحهم واموالهم، ثم يسأل السلطان ان يرسل احد افراد العائلة السعودية لهذه الغاية

عاد عظمته الى مكة فجهز نجله الصغير الامير محمداً الذي مشى بفرقة من الجند الى المدينة في ٢٣ ربيع الثاني. وعندما دنا من اسوارها عرض على الحكومة والاهالي ما كان قادماً من اجله، فأبت قيادة الحامية التسليم لانها كانت تنتظر المدد من جدة، وقد ابرقت في ٥ جمادى الاولى الى جلالة الملك تقول: «الذي يهمنا الارزاق للجند. وعدتمونا بارسال الدراهم المتيسرة بالطيارة. الى الان لم نرَ اثراً لها. دبروا وارسلوا لنا دراهم ولو ببيع احدى البواخر فتروا منا ما يسركم».

وكان الامير الصغير محمد يشدد الحصار على المدينة بدون قتال، عملاً باوامر والده، فابرقت القيادة في ١٣ من هذا الشهر الى جلالة الملك بجدة تقول: «انقضى الامر، ولم يبق في اليد حيلة. الجنود ما عندهم ارزاق الا لثلاثة ايام. اذا لم تصل الطيارة غداً الظهر سنفاوض العدو. الامضاءات: عزت. عبدالله عمير. عبد المجيد حمد».

فجاء الجواب انه يستحيل ارسال الطيارة قبل عشرة ايام لعدم وجود بنزين.

مرت الايام الثلاثة فنفدت مؤونة الحامية. ومع ذلك فقد صبر الجنود ثلاثة ايام اخر، ثم في صباح الجمعة بعث القائد عزت ورئيس ديوان الامارة عبدالله عمير كتاباً الى الامير محمد بن عبد العزيز بن سعود يطلبان ملاقاته، فارسل الامير خيالة لاستقبالهما. وقد فاوضاه بالتسليم على شرط ان يعطي الجنود والضباط والاهالي الامان، ويعلن العفو العام.

وفي صباح اليوم التالي، اي يوم السبت الواقع في ١٩ جمادى الاولى (٥ دسمبر ١٩٢٥) سلّمت المدينة بعد حصار دام عشرة اشهر.

الفصل الحادي والخمسون

الملك علي يرحل

قبل ان سقطت المدينة المنورة بشهرين كانت الحالة في جدة تزداد عسراً من كل الوجوه ، فضربت الفوضى اطنابها في الجند ، وعرا الحكومة الانحلال ، وعم الضنك والبؤس الاهالي . فلا مال ، ولا ذخيرة ، ولا زاد يكفي لحفظ شبه السيادة والقوة ان في الملكية او في الجندية . ولا مال في السوق ، ولا آمال تقوم مقامه . فقد كادت تنفد الارزاق لان التجار في الخارج توقفوا عن التوريد . فخيمت المجاعة في اطراف المدينة بين مضارب البدو وعشش التكارنة ، ومدت يدها الى القلب ، فامست على الاهالي اشد ويلاً من الحرب .

وبما ان السلطان عبد العزيز كان قد اعلن في ربيع الاول العفو العام — كل من كان في خدمة الحسين او غيره هو في امان الله اذا اراد ان يرجع الى مكة — وبما ان الطريق انفتحت بين ام القرى وجدة بعد الحج ، اخذ يزداد عدد الفارين عن طريق الليث ورابغ الى ام القرى ، وعدد القادمين منها . فكان هذا الاتصال بين المدينتين خير واسطة لتعجيل العمل الذي فيه الفرج .

واننا نعيد ما طالما قاله السلطان في مجالسه الحربية التي كان يحضرها امراء الجيش والعلماء : ثلاثة اخرّته عن الهجوم ، وحملته على تفضيل الحصار على القتال ، وهي الحرص على جنوده وسمعتهم ، والمحافظة على الاجانب ، والفرصة المنتظرة . اضف الى ذلك ثقته بالنتيجة المرغوبة في ما اقدم عليه ، ثقته بولاء الفرصة المنتظرة .

وها قد دنت تلك الفرصة ودنا يومها . كيف لا وفي منتصف جمادى

الثانية بلغت الحالة في جدة اشدها ، فنفد المال ، ونفد الزاد ، ونفر الجند ، خصوصاً الفرقة اليمانية ، الى التمرد والعصيان . وكان السلطان عبدالعزيز شأنه في مثل هذه الاحوال ، متتبعاً حوادث التطور متنبهاً لما فيها مما يمكنه الانتفاع به ، فنشر في هذا الوقت بلاغاً عنوانه « لبراءة الذمة » عرض فيه الامان على من في جدة من ضباط وجنود اذا هم احبوا الخروج الى معسكره ، وعرض فوق ذلك المساعدة المالية على من احب منهم السفر الى وطنه . كان لهذا البلاغ التأثير السريع المطلوب ، فسرحت القيادة الهاشمية عدداً كبيراً من الجنود الفلسطينيين الذين سافروا في الباخرة « الطويل » الى العقبة .

لا مال ولا زاد ، و « فرقة النصر » تنقص يوماً فيوماً . وها قد عاد الاخوان الى معسكرهم في الرغامة وفي سفح الجبال ، عادوا بامر السلطان عبد العزيز ، يقودهم اخوه الامير عبدالله وابنه الامير فيصل .

هي الفرصة المنتظرة قد دنا يومها . وهل يجيء هذا اليوم بالسلم ام بالهجوم العام ؟ لم يكن بوسع احد ان يجيب على هذا السؤال غير واحد في القيادة العامة كلها ، هو السلطان عبد العزيز . ومما بات في قيد اليقين انه كان مصمماً على الهجوم ليخلص جدة من المجاعة والفوضى والخراب التي كانت تنذر الحالة بها .

اما الملك علي فقد كانت حواسه في اضطراب دائم ، وكانت اعصابه في هياج مستمر مما كان يسمعه ويشاهده في قصره ، وفي حكومته ، وفي جنده ، وفي بلاده ، كل يوم ، بل كل ساعة . فلم يرَ مهرباً والحالة هذه من ذلك العمل الاخير الذي فيه راحة باله ، في الاقل ، وصون صحته وشرفه .

هي الفرصة المنتظرة قد دنا يومها ، بل قد دنت ليلتها . فقد جاء الملك علي مساء الثلاثا في ٢٩ جمادى الاولى الى دار الاعتماد البريطانية

يعرض على المعتمد ، حقناً للدماء ودفعاً للعسر المستحوذ على البلد والاهالي . . . ثم ذكر جلالته شروط التسليم ، فابرق المعتمد الى حكومته في الحال يستأذنها بالتوسط .

وفي ظهر اليوم التالي الواقع في ٣٠ جمادى الثانية (١٦ دسمبر) ركب السلطان عبد العزيز سيارته وخرج من مكة ، تتبعه الحاشية وفصيلة من الجند، يقصد الى الرغامة . وقد بدت ، وهو في منتصف الطريق ، نتيجة الزيارة الملكية الى دار الاعتماد البريطانية الليلة البارحة ، بدت في سيارة قادمة من جدة ، التقى بها الموكب في بحرة وهي تنشر العلم البريطاني وفيها رجل يلوّح بالعلم الابيض .

وقفت سيارة السلطان ، ونزل الرجل من سيارته فاذا هو المنشىء احسان الله — وقد كان في تلك الساعة احساناً من الله — يحمل من المعتمد بجدة الكتاب الآتي :

«جدة في ١٦ دسمبر ١٩٢٥»

حضرة صاحب العظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود سلطان نجد .

بعد الاحترام. مراعاة للانسانية ولاجل تسهيل عودة السلام والرفاهية بالحجاز اكون مسروراً اذا تفضلتم عظمتكم بالموافقة على مقابلتي في الرغامة غدا يوم الخميس قبل الظهر او بعد ذلك باسرع ما يمكن . هذا وتفضلوا بقبول وافر التحية وعظيم الاحترام .

نائب معتمد وقنصل بريطانيا العظمى

وكيل قنصل ، جوردن »

فأمر عظمته عند وصوله الى الرغامة بكتابة الجواب الآتي :

« الرغامة في ٣٠ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى سعادة المعتمد البريطاني المستر جوردن المفخم .

تحيةً وسلاما . قد تناولت كتابكم المؤرخ في ١٦ دسمبر سنه ١٩٢٥ وفهمت ما تضمنه . وقد حضرنا لمقابلتكم في المحل الذي يخبركم به المنشيء احسان الله . هذا وتقبلوا فائق احترامي » .

عاد احسان الله مسرعاً الى جدة ، وفي الساعة العاشرة من صباح الخميس وصل المعتمد البريطاني الى مقر السلطان ، وقال بعد السلام ان الحكومة البريطانية لا تزال مقيمة على الحياد في قضية الحجاز . ولكنه بالنظر لما تجسم من حالة جدة ، وبالنظر لمعرفته ان عظمة السلطان يفضل السلم على الحرب ، ويرغب في راحة المسلمين وحقن دمائهم ودماء الاجانب ، يتقدم الى عظمته بناءً على طلب الملك علي وحكومته في التسليم . وان توسطه في تقديم هذه الشروط انما هو لغايةٍ انسانيةٍ صافية . فاجاب السلطان قائلاً : « هذا احب ما عندي على شرط ان تكون الشروط موافقة لنا » .

عُرضت الشروط فقبلها السلطان مبدئياً بعد شيء من التعديل . واهم مافيها ان الملك علي يتنازل عن الملك ويبارح الحجاز ، ولا يأخذ معه غير امتعته الشخصية ومنها سيارته وسجاجيده وخيوله ، وان كل ما في الحجاز من الاسلحة ، والعدد الحربية ، والذخائر ، والطيارات وغيرها ، تسلم الى السلطان عبد العزيز ، وان البواخر التي هي ملك الحجاز تصير ملكاً له .

ولقاء ذلك يضمن السلطان عبد العزيز لكل الموظفين الملكيين والعسكريين والاشراف والاهالي عموماً سلامتهم الشخصية وسلامة اموالهم ، ويعلن العفو العام ، ويتعهد ان يرحّل الضباط والعساكر الذين يرغبون في العودة الى اوطانهم ، وان يوزع بنسبة معتدلة على كل الضباط والعساكر الموجودين بجدة خمسة الاف جنيه .

قد امضى السلطان هذه الاتفاقية [١] في عصر ذاك اليوم ، وامضاها الملك علي في المساء ، فاعتبرت نافذة من تلك الساعة .

هي الفرصة المنتظرة . وقد تلا يوم الاتفاقية ثلاثة ايام هادئة رائقة استعدت فيها جدة للتسليم . ومساء الاحد عاد المعتمد البريطاني الى الرغامة ليخبر السلطان ان الامير علياً قد اقام في البارجة البريطانية « كورن فلاور » وانه قرر السفر الى عدن ومنها الى العراق . ثم جاء صباح اليوم التالي ومعه رئيس الحكومة الموقتة القائمقام عبد الله زينل ، ورئيس العسكرية الضابط صادق بك ، فخاطب السلطان قائلاً ان مهمته في التوسط قد انتهت ، وانه يقدم رئيس الملكية ورئيس العسكرية ليكونا مسؤولين امام عظمته .

عاد حضرة الوكيل الى جدة محبوراً مشكوراً . وظل الرئيسان عند السلطان للمذاكرة في شؤون الحكومة وتسليم ممتلكاتها . ثم في صباح اليوم التالي ارسل عظمته طليعة من حاشيته الى جدة لمباشرة العمل في ما يختص بالمهمات العسكرية وامور الجنود والضباط .

وفي ذاك الصباح ايضاً ، يوم الثلاثا في ٦ جمادى الثانية ، ابحرت البارجة « كورن فلاور » تقل الامير علياً الى المنفى الذي اختاره لنفسه .

اما السلطان عبد العزيز فلم ينقل من مخيمه في الرغامة حتى صباح اليوم التالي ، فتقدمه فريق من جند المشاة ورهط من الخيالة بقيادة اخيه الامير عبدالله الى الكندرة لاستقباله فيها . وهناك امام ذاك البيت القائم على طرف من خط الدفاع المحاذي للاسلاك الشائكة ، امام ذاك البيت الذي كان يجتمع فيه رسل السلام الثلاثة الاولون ليتباحثوا في خير الطرق التي تضمن للعرب السلام والفلاح ، حيّت البلاد السلطان عبد العزيز بمئة مدفع ومدفع .

---

(١) اثبتناها كاملة في الملحق

وفي ذاك البيت جلس عظمته للوفود المسلمين المهنئين ، فاستقبل معتمدي الدول والقناصل ، ثم ضباط الجند ، ثم اعيان المدينة . وقد تكلم قنصل ايطاليه السنيور فارس باللغة العربية مهنئاً السلطان فقال : « نظراً لكوني كبير القناصل سناً اتقدم بالنيابة عن نفسي وبالوكالة عن رفاقي بتقديم تهنئتنا لعظمتكم بدخولكم جدة في هذه الطريقة السلمية التي حقنت بها الدماء . ونتمنى لعظمتكم التوفيق الدائم والسعادة » . فاجابه السلطان قائلاً انه لم يبطيء في الاعمال الحربية الا لهذه النتائج السلمية . ثم شكر للمعتمد البريطاني مسعاه ، واعرب للقناصل عن سروره بما كان من موقفهم في الانقلاب الاخير فتم سلماً كما تمناه .

وبعد ان اقام يومه في الكندرة دخل جدة في صباح الخميس ، في ٨ جمادى الثانيه (٢٤ دسمبر) ، بعد سنة واحدة من يوم أشرف عليها للمرة الاولى من الرغامة ، ونزل في بيت الوجيه العالم الشيخ محمد نصيف ثم باشر العمل في اعادة اليسر والطمأنينة الى الحجاز .

الفصل الثاني والخمسون

عبد العزيز ملك الحجاز

قبل ان غادر السلطان عبد العزيز الرياض ، في ربيع الثاني سنة ١٣٤٣ ، دعا العالم الاسلامي لعقد مؤتمر في مكة يقرر مصير الحجاز . وقد كرر هذه الدعوة بعد ذلك ، ثم عززها في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٤ بكتاب خاص ارسله الى الحكومات والشعوب الاسلامية ، فكانت صرخة في واد ، لم يلبها غير فريق من مسلمي الهند وجمعية الخلافة هناك . ولكن اولئك المسلمين يريدون للحجاز مـا لا يريده اهله . هم يرتأون في حكم البلاد المقدسة رأياً لا يوافقهم عليه اهل الحجـاز وقد قاوموه عندما جاء الوفد الاسلامي الهندي الاول الى جدة ، واستمروا في مقاومته حتى نهاية الحرب ، الشريفيون والسعوديون عـلى السواء . الحجاز للحجازيين ، هي كلمة الجميع . ولا نظن احداً في الحجاز يرعب في هيئة تحكمه مؤلفة من ممثلي الشعوب الاسلامية في العالم .

لذلك طلبوا من السلطان عبد العزيز ، بعيد دخوله جدة ، ان يكون لهم الحرية ، تلك الحرية التي وعد بها العالم الاسلامي ، والحجاز ركن منه ، ليقرروا مصير البلاد بلادهم ، فاجاب السلطان الطلب .

عندئذ تألف في جدة لجنة من اعيانها عددها عشرون ، فسافروا الى مكة واجتمعوا هناك بلجنة من اهلها عددها ثلاثون . وفي ٢٢ جمادى الثانية عقد اعضاء اللجنتين مجلساً قرروا فيه باجماع الرأي مبايعة السلطان عبد العزيز ملكاً على الحجاز ، واتفقوا على شروط البيعة ونصها . ثم قدموها الى عظمة السلطان ليرى رأيه فيها ، وطلبوا منه ، اذا حازت القبول ، ان يعين الوقت لعقد البيعة فاجاب الطلب .

وبعد صلاة الجمعة ، في ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ (١٠ يناير ١٩٢٦)

اجتمع النـــاس في المكان المعد للحفلة عند باب الصفا من المسجد الحرام، وجاء عظمة السلطان في موكبه في الساعة الواحدة بعد الظهر. كان المشهد عربياً صافياً اي بسيطاً ديمقراطياً. فلم يكن هناك غير سجادة وقف عليها السلطان وكرسي للخطيب الذي تقدمه المنادي قائلاً: ان الله وملائكته يصلون على النبي. يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما. ثم اعتلى الكرسي الخطيب فحمد رب البيت المعظم، وشكر وسبح، وبعد ذلك قال:

« ايها الاخوان: ان الله سبحانه وتعالى قد انعم علينا بالامن بعد الخوف، وبالرخاء بعد الشدة. فقد انقشعت غيمة الحروب، وقد توحدت الكلمة بحول الله تعالى وقوته، فتعطف علينا عظمة هذا السلطان المحبوب بقبول البيعة المشروعة الواجبة علينا واني اتلوها على مسامعكم:

باسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود على ان تكون ملكاً على الحجاز على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم، والسلف الصالح والائمة الاربعة رحمهم الله، وان يكون الحجاز للحجازيين، وان اهله هم الذين يقومون بادارة شؤونه، وان تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز، والحجاز جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم ».

وعندما كان الخطيب يتلو البيعة كانت قلاع مكة تطلق مدافعها، اطلقت مئة مدفع ومدفع. وكان الناس اثناء ذلك يتزاحمون حول تلك السجادة الواقف عليها السلطان ليتقبل البيعة. فتقدم اولاً الاشراف، ثم الوجهاء والاعيان، وتلاهم المجلس الاهلي، فالمحكمة الشرعية، فالائمة والخطباء، فالمجلس البلدي، فاهل المدينة المنورة، فاهل جدة، فبقية

خدم الحرم ، فالمطوفون والزمازمة ، فمشايخ جاوه ، فاهل الحرف ، فمشايخ الحارات واهل المحلات [١] .

وبعد الحفلة مشى جلالة الملك الى البيت الحرام فطاف به سبعاً ، وصلى في المقام ، ثم جلس في سرادق دار الحكومة للمهنئين والخطباء .

– « لا بد للبلاد من ملك مستقل يكون قادراً على صيانة الحجاز من الداخل والخارج . والذي يستطيع القيام بهذا الامر هو عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » .

« وما اعطاك الله هذا العطاء يا عبد العزيز الا لانك سائر في مرضاته »

وقال آخر بعد اطرائه الامة العربية في زمن السلف الصالح : « علينا ان نتمسك بذلك الحبل المتين ليرجع للمسلمين ما كان لهم من السؤدد والعز » .

ان في هذه الكلمات الثلاث مثالاً من عقلية القوم ونزعتهم السياسية والدينية . ثم خطب الملك السلطان فقال :

« اسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل . وهذا كذا وكذا – فاعلموا ان ما من رجل ، مهما بلغ من المنازل العالية ، يستطيع ان يكون له اثر وان يقوم بعمل جيد ، اذا كان لا يخشى الله . واني احذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا . واحثكم على الصراحة والصدق في القول ، وعلى ترك الرياء والملق في الحديث . لم يفسد الملك الا الملوك واحفادهم ، وخدامهم ، والعلماء المملقون واعوانهم . ومتى اتفق الامراء والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه ، فيمنح الامير المنح والامراء يدلسون ، ضاعت حقوق الناس وفقدنا والعياذ بالله الاخرة

(١) وقد جاءت بعدئذ برقيات بالمبايعة من المدينة المنورة ومن ينبع والوجه وضبا والعلاء . وكانت حكومة السوفييت (الروسية) اول الدول التي اعترفت بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، ثم اعترفت به حكومات بريطانية العظمى ، والجمهورية الافرنسية ، وهولندة ، والجمهورية التركية .

والاولى » . الى ان قال خاتماً كلامه « واني احمد الله الذي جمع الشمل وامّن الاوطان : ولكم علي عهد الله وميثاقه اني انصح لكم كما انصح لنفسي واولادي » .

فهتف الناس اذ ذاك قائلين : « جزاك الله خيراً ، جزاك الله خيراً ! »

وفي مساء ذاك اليوم دعا جلالته الى بيته اعضاء المجلس الاهلي ، والوفد الذي قدم من جدة ، وبعض اهل الوجاهة في ام القرى ، فخاطبهم بما معناه :

انا الان في وقت العمل وفي ساعة التأسيس . ولا يستقيم الامر الا بحسن التدبير وبالصدق والنزاهة . انتم ارباب الرأي والفكر في بلادكم فعليكم ان تقرروا شكل الحكومة ، وتضعوا دستوراً لها ، وتحددوا العلاقات بين نجد والحجاز ، وتبحثوا في ما ينبغي ان يكون موقف الحجاز تجاه الدول .

ثم امر بان يؤلف من مندوبي مكة وجدة مجلس تأسيسي ، فينضم اليه مندوبون من بلدان الحجاز الاخرى ، للنظر في ما ذكر من المسائل وتقريرها .

وبعد ان تألف هذا المجلس انتخب بالاقتراع السري لجنة لوضع القانون الاساسي ، ثم عرض اسماءها على جلالة الملك ، فامر بان يرأس اللجنة الشيخ عبد القادر الشيبي ، حامل مفتاح بيت الله الحرام ، وان يُضم اليها خمسة آخرون ، انتخبهم جلالته ، من الاشراف والتجار .

كذلك في هذا الشرق الجديد يصلح التعيين الاقتراع ، ويكمل الحاكم الفرد ما ينقص في حكم الشورى .

انتهى

اهم الوقعات وتواريخها

وقعة الصريف في ٢٦ ذي القعدة ١٣١٨ (١٦ فبراير ١٩٠١)
احتلال الرياض في ٥ شوال ١٣١٩ (١٥ يناير ١٩٠٢)
فتح عنيزة في ٥ محرم ١٣٢٢ (٢٣ مارس ١٩٠٤)
وقعة البكيرية في ١ ربيع الاول ١٣٢٢ (١٦ مايو ١٩٠٤)
وقعة الشنانة في ١٨ رجب ١٣٢٢ (٢٩ سبتمبر ١٩٠٤)
وقعة روضة مهنّا (ذبحة ابن الرشيد) في ١٨ صفر ١٣٢٤ (١٤ ابريل ١٩٠٦)
وقعة الطرفية في ٥ شعبان ١٣٢٥ (١٤ سبتمبر ١٩٠٧)
احتلال بريدة وكسرة ابي الخيل في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٢٦ (٢٣ مايو ١٩٠٨)
وقعة هديّة في ١ جمادى الثانية ١٣٢٨ (١٠ يونيو ١٩١٠)
فتح الحساء في ٥ جمادى الاولى ١٣٣١ (١٣ ابريل ١٩١٣)
وقعة جراب في ٧ ربيع الاول ١٣٣٣ (٢٤ يناير ١٩١٥)
وقعة ترَبة في ٢٥ شعبان ١٣٣٧ (٢٥ مايو ١٩١٩)
الاستيلاء على عسير في شوال ١٣٣٨ (يوليو ١٩٢٠)
وقعة الجهرى في ٢٦ محرم ١٣٣٩ (١١ اكتوبر ١٩٢٠)
سقوط حائل في ٢٩ صفر ١٣٤٠ (٢ نوفمبر ١٩٢١)
سقوط الطائف في ٧ صفر ١٣٤٣ (٧ سبتمبر ١٩٢٤)
احتلال مكة في ١٨ ربيع الاول ١٣٤٣ (١٨ اكتوبر ١٩٢٤)
وقعة المصفحات في ١٨ شعبان ١٣٤٣ (١٤ مارس ١٩٢٥)
تسليم المدينة (بعد حصار دام عشرة اشهر) في ١٩ جمادى الاولى ١٣٤٤ (٥ ديسمبر ١٩٢٥)
تسليم جدة (بعد حصار استمر سنة كاملة) في ٦ جمادى الثانية ١٣٤٤ (٢٢ ديسمبر ١٩٢٥)

الملحق

فتوى علماء نجد

في تعصب بعض الاخـــوان

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله بن عبد اللطيف وحسن بن حسين وسعد بن حمد بن عتيق وعمر بن محمد بن سليم وعبد الله بن عبد العزيز العنقري وسليمان بن سحمان ومحمد بن عبداللطيف وعبد الله بن بليهد وعبدالرحمن بن سالم الى الاخوان كافة من اهل الهجر وغيرهم ، وفقنا الله واياهم لما يحبه ويرضاه ، وجعلنا من حزبه واوليائه. امين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ذلك انكم تفهمون ما من الله به علينا وعليكم من نعمة الاسلام وتجديد هذه الدعوة ، والذي علينـا وعليكم شكر الله واتباع اوامره ، واجتناب نواهيه . ولا يخفى عليكم ما جرى من الاختلاف وكثرة الشُبَه وهي على ثلاثة امور .

الاول ــ وهو الاكثر طلب الخير والاجتهاد ووقوع الناس في امور تخل بدينهم ودنياهم ، لانهم يأتون ذلك محبةً للدين بغير دليل .

الثاني ــ لا بد ان في بعض الاخوان المتقدمين شدة وتعصباً بغير دليل . فلما تبين له الامر وسأل طلبـة العلم ، وتحقق عنده ان تعصبه خطأ ، استنكر منه اخوانه وصار بينه وبينهم اختلاف بغير سؤال ولا تبيين حقيقة ماعنده .

الثالث ــ أتوا به اناس من الذين يدعون طلب العلم من الحضر وهم

جهال يدخلون على بعض الاخوان اموراً مشتبهة . يريد احدهم الحق وهو مخطئه واخر يرغب في معرفة الامور المخالفة .

فلما تحقق ذلك عند ولاة الامر وعند العلماء احبوا اجتماع المسلمين مع علمائهم وولاة الامر منهم . فلما حضروا سمع الحاضر بنفسه ، والغائب نبلغه بهذا الكتاب . فقد سألنا الامام عبد العزيز بحضرتهم عن امور هي :

الاول : هل يطلق الكفر على بادية المسلمين الثابتين على دينهم القائمين باوامر الله ونواهيه ام لا .

الثاني : هل من فرق بين لابس العقال ولابس العمامة اذا كان معتقدهما واحداً ام لا .

الثالث : هل في الحضر الاولين وفي المهاجرين الاخرين فرق ام لا .

الرابع : هل في ذبيحة البدوي الذي في ولاية المسلمين ، ودربه دربهم ومعتقده معتقدهم ، وفي ذبيحة الحضر الاولين او المهاجرين فرق حلال او حرام ام لا .

الخامس : هل للمهاجرين امر او رخصة في اعتدائهم على الذين لم يهاجروا ، فيضربوهم او يؤدبوهم او يهددوهم او يلزموهم بالهجرة ام لا . وهل لاحد ان يهجر احداً بدوياً كان او حضرياً بغير امر واضح او كفر صريح او شيء من الاعمال التي يجب هجره عليها بغير اذن من ولي الامر او الحاكم الشرعي ؟

فاجبناه بحضور الحاضر من المسلمين ان كل هذه الامور مخالفة للشرع ، وما امرت بها الشريعة . وان الذي يفعلها ينهى عنها ويزجر ، فان تاب واقر بخطإه فيعفى عنه . وان استمر على امره وعاند ، فيجب عليه تاديب ظاهر بين المسلمين . وان لا يُعادى ولا يصادق الا على ما امرت به الولاية او حكم به حاكم الشرع . والذي يفعل ما يخالف ذلك فطريقته غير طريقة المسلمين . وهذا الذي ندين به ، ونشهد الله عليه ، ونرجوه ان يوفقنا واياكم للخير وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . سنة ١٣٣٧

الامضاءات والاختام

الامر السلطاني

المبني على فتوى العلماء

باسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز آل فيصل الى الاخوان كافة وفقنا الله واياهم لفعل الخيرات وترك المنكرات . امين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد ذلك تفهمون ان الله سبحانه انعم علينا بنعمة الاسلام ومن علينا ان جعلنا من اهله . ولا يخفي عليكم ما مضى على اسلافكم من الامور التي تغضب الله وتخالف الشريعة . وحيث ان الله منّ عليكم بهذا الامر فيجب عليكم ان تذكروا ذلك بالشكر ، واعظم الشكر واكبره هو ان تتقيدوا باتباع اوامر الله واجتناب نواهيه . ثم لا يخفى عليكم ما جرى من النزاع والاختلاف الذي يخشى علينا منهما اخفاق الاعمال والفتنة . وليس قصدنا غير تقويم الشريعة ، ونجاة انفسنا من عذاب النار . ولا يتم هذا الا بالاقتصاد واتباع ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلماء المسلمين اولهم وآخرهم .

وربما يلتبس عليكم الامر في بعض ائمة المسلمين واعتقاداتهم ، فاحببت لذلك ان اشرح لكم العقيدة التي ذكرها المشايخ في فتواهم . وهو ان معتقد المسلمين واحد حضرهم وبدويهم . وتعلمون ان اصل المعتقد كتاب الله وسنة رسوله ، وما كان عليه اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم السلف الصالح من بعدهم ، وثم ائمة المسلمين الاربعة ، الامام مالك والامام الشافعي والامام احمد والامام ابو حنيفة . فاعتقاد هؤلاء واحد في الاصل ، وهو انواع التوحيد الثلاثة ، توحيد الربوبية ، وتوحيد الالوهلية ،

وتوحيد الاسماء والصفات كما هو مقرر في كتب العلماء ، التي يمكنكم مراجعتها والحمدلله في كل ساعة . فهم في هذا الاصل سواء . قد يكون بينهم اختلاف في الفروع وكلهم ومن حذا حذوهم على حق ان شاء الله الى يوم القيامة .

ونحن يا اهل نجد كافة على مذهب الامام احمد بن حنبل في الفروع . واما في الاصل فنحن والمذكورون اعلاه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . على انه في اخر الامر اظهر الله شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ثم من بعدهما الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، رحمهم الله ونفع بهم الاسلام والمسلمين ، ارسلهم كلهم ، وخصوصاً محمد بن عبد الوهاب ، عندما اندرست اعلام الاسلام وكثرت الشبهات والبدع .

فلما رأى اسلافنا موافقة اقوالهم وافعالهم لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله قبلوا ذلك وقاموا بما أظهره الله على ايديهم . ونحن ان شاء الله على سبيلهم ومعتقدهم ، نرجو ان يحيينا على ذلك ويميتنا عليه . وقد عرفنا كم بذلك لموجب ذكر المشايخ في الاعتقاد ، والعمدة على ما ذكروه . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، وقصده في هجرته وانتسابه الى الخير دورة ما عند الله ، فليعتمد على ذلك قولاً وفعلاً . ولا يحيط فيه لبس . وليترك مخالفه . ومن اشكل عليه شيء من الامور فليرده الى طالب العلم المنصوب عندكم بامر الولاية ورضى المشايخ . ونحن نعتقد ان ليس عندكم ما يخالف ذلك ان شاء الله ، وان قصدكم رضى الله . انما من الشفقة عليكم احببنا التبيين لكم بذلك انذاراً للمخالف او المتكلم بضده . وان من خالف ذلك بقول او بفعل فذمتنا وذمة المسلمين بريئة منه ، ولا يأمن البطش بنفسه وبحلاله . هذا حقكم علينا . ومن انذر فقد اعذر . نرجو الله ان يوفقنا واياكم للخير ، وينصر دينه ، ويعلي كلمته ، ويجعلنا واياكم من انصار دينه وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . سنة ١٣٣٧

الختم

اتفاقية بحرة

نظراً للمعاهدة المعقودة بين حكومتي العراق ونجد ابتغاء تأمين الصلات الحسنة بينهما والمعروفة بمعاهدة المحمرة التي قد وقعت في اليوم السابع من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٤٠ الموافق ٥ ماي سنة ١٩٢٢،

ونظراً للبروتوقولين المعروفين بالبروتوقول رقيم ١ والبروتوقول رقيم ٢ اللذين اضيفا الى معاهدة المحمرة المذكورة اعلاه والموقع عليهما في العقير في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الثاني المبارك سنة ١٣٤١ الموافق ٢ دسمبر سنة ١٩٢٢ ،

ونظراً لابرام المعاهدة والبروتوقولين المذكورين آنفاً طبقاً للعادة من قبل حكومتي العراق ونجد ،

ونظراً لما تعهد به كل من حكومتي العراق ونجد في المادة الاولى في معاهدة المحمرة المذكورة بان يمنع كل منهما عشائره عن التعدي على عشائر الحكومة الاخرى ، وان يعاقب كل من الحكومتين من يتعدى من العشائر التابعة للحكومة الاخرى ، وان تتذاكر الحكومتان اذا حالت الظروف دون قيام احداهما بالتأديب اللائق في امكان اتخاذ تدابير مشتركة طبقاً للصلات الحسنة السائدة بينهما ،

ونظراً لاعتقاد حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومتين المذكورتين بانه يحسن لهاتين الحكومتين ، حرصاً على الصداقة وحسن الصلات بين العراق ونجد ، وضع اتفاقية بخصوص بعض المسائل المعلقة بينهما ،

نحن الموقعين ادناه سلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود والسر جلبرت كلايتون المندوب المفوض من

قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية والمخول بان ينوب عن الحكومة العراقية في الاتفاق والتوقيع قد اتفقنا على المواد الاتية :

المادة الاولى — تعترف كل من دولتي العراق ونجد ان الغزو من قبل العشائر القاطنة في اراضيها على اراضي الدولة الاخرى اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه عقاباً صارماً من قبل الحكومة التابعة لها وان رئيس العشيرة المتعدية يعد مسؤولاً .

المادة الثانية — (أ) تؤلف محكمة خاصة ، بين حكومتي العراق ونجد ، تلتئم من حين الى آخر للنظر في تفاصيل اي تعد يقع من وراء حدود الدولتين ولاحصاء الاضرار والخسائر وتعيين المسؤولية . ويكون تأليف هذه المحكمة من عدد متساو من ممثلي حكومتي العراق ونجد وتعهد رئاستها الى شخص آخر من غير الممثلين المذكورين تتفق على اختياره الحكومتان وتكون قرارات هذه المحكمة قطعية ونافذة .

(ب) بعد تعيين المسؤولية وتحقيق الاضرار والخسائر الناشئة عن الغزو ، واصدار المحكمة قرارها بذلك ، تقوم الحكومة التابع لها المحكوم عليه بتنفيذ القرار المذكور وفقاً لعادات العشائر ، وبمعاقبة المحكوم عليه كما جاء في المادة الاولى من هذه الاتفاقية .

المادة الثالثة — لا يجوز لعشائر احدى الحكومتين اجتياز حدود الاخرى الا بعد الحصول على رخصة من حكومتهم ، وبعد موافقة الحكومة الاخرى ، مع العلم انه لا يحق لاحدى الحكومتين ان تمتنع عن اعطاء الرخصة او الموافقة اذا كان السبب في انتقال العشيرة لداعي المرعى عملاً بمبدأ حرية الرعي .

المادة الرابعة — تتعهد حكومتا نجد والعراق بان تقفا بكل ما لديهما من الوسائل ، غير الطرد واستعمال القوة ، في سبيل انتقال كل عشيرة او فخذ من احد القطرين الى الاخر ، الا اذا جرى هذا الانتقال

بمعرفة حكومتها ورضاها ، وتتعهد الحكومتان بان تمتنعا عن تقديم الهدايا اياً كان نوعها للملتجئين من البلاد التابعة للحكومة الاخرى ، وبان تنظرا بعين السخط على كل شخص من رعاياهما يسعى لاستجلاب العشائر التابعة للحكومة الاخرى ، او تشجيعها على الانتقال من بلادها الى البلاد الاخرى .

المادة الخامسة – ليس لحكومتي العراق ونجد ان تتفاوضا مع رؤساء وشيوخ عشائر الدولة الاخرى في الامور الرسمية او السياسية .

المادة السادسة – لايجوز لقوات العراق ونجد ان تتجاوز حدود بعضها البعض بقصد تعقيب المجرمين الا برضى الحكومتين[1] .

المادة السابعة – لايجوز لشيوخ العشائر الذين لهم صفة رسمية او لهم رايات تدل على انهم قواد لقوات مسلحة ان يظهروا راياتهم في اراضي الدولة الاخرى .

المادة الثامنة – اذا طلبت احدى الحكومتين من عشائرها النازلة في اراضي الدولة الاخرى تجريدات مسلحة فالعشائر المذكورة حرة في تلبية دعوة حكومتها على ان ترحل بعائلاتها واموالها بكل سكينة .

المادة التاسعة – اذا انتقلت عشيرة من اراضي احدى الحكومتين الى الاراضي التابعة للحكومة الاخرى ، وشنت الغارات بعد انتقالها على البلاد التي كانت تقطن فيها ، يحق للحكومة التي تقيم العشيرة في اراضيها ان تأخذ منها ضمانات كافية ، حتى اذا تكرر منها مثل ذلك الاعتداء تكون هذه الضمانات عرضة للمصادرة ، وذلك عدا العقاب المنصوص عليه في المادة الاولى ، وعدا ما قد تفرضه المحكمة . المنصوص عليها في المادة الثانية من هذه الاتفاقية .

---

(١) وفي بروتوقول العقير المادة الثالثة « تتعهد الحكومتان كل من قبلها الا تستخدم الابار الموجودة على اطراف الحدود لاي غرض حربي كوضع قلاع عليها ، وان لا تعبىء جنوداً في اطرافها »

المادة العاشرة — تتعهد حكومتا العراق ونجد بان تقوما بمذكرات ودية ، لعقد اتفاقية خاصة بشأن تسليم المجرمين ، طبقاً للعادات المرعية بين الدول المتحابة وذلك في مدة لا تتجاوز السنة اعتباراً من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة من قبل حكومة العراق .

المادة الحادية عشرة — النص العربي هو النص الرسمي الذي يرجع اليه في تفسير مواد هذه الاتفاقية .

المادة الثانية عشرة — تعرف هذه الاتفاقية باتفاقية بحرة .

وقعت هذه الاتفاقية في مخيم بحرة في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني ١٣٤٤ الموافق اول نوفمبر سنة ١٩٢٥

الامضاآت

اتفاقية حدّاء

نظراً للعلاقات الودية السائدة بين الحكومة البريطانية السامية من جهة وسلطنة نجد وملحقاتها من جهة اخرى ، ونظراً لرغبتها في تعيين الحدود بين نجد وشرقي الاردن وتسوية بعض المسائل المتعلقة بذلك ، اختارت الحكومة البريطانية السامية السر جلبرت كلايتون ، كي ، بي ، إي . سي ، بي ، سي . ام ، جي . وعينته مندوباً مفوضاً عنها ليعقد اتفاقية في هذا الشأن مع السلطان عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود والسر جلبرت كلايتون وتعاهدا على المواد الاتية :

المادة الاولى — يبتدىء الحد بين نجد وشرقي الاردن في الجهة الشمالية الشرقية من نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٩ (شرقي) ودائرة العرض ٣٢ (شمالي) حيث تنتهي الحدود بين العراق ونجد ويمتد على خط مستقيم الى نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٧ (شرقي) بدائرة العرض ٣٠ ، ٣١ (شمالي) فيتبع دائرة الطول ٣٧ (شرقي) الى نقطة تقاطعها بدائرة العرض ٢٥ ، ٣١ (شمالي) ثم يمتد من هذه النقطة على خط مستقيم الى نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٨ (شرقي) بدائرة العرض ٣٠ (شمالي) تاركاً ما برز من اطراف وادي سرحان لنجد ثم يتبع دائرة الطول ٣٨ (شرقي) الى نقطة تقاطعها بدائرة العرض ٣٥ ، ٢٩ (شمالي) اما الخارطة التي يرجع اليها في هذه الاتفاقية فهي الخارطة المعروفة بالدولية « آسيا مقياس واحد على مليون » .

المادة الثانية — تتعهد حكومة نجد بان لا تقيم اي حصن في (كاف) والا تستعمله والمنطقة في جوارها كنقطة عسكرية .

اما اذا رأت حاجة في حين من الاحيان الى اتخاذ تدابير استثنائية

بجوار الحدود للمحافظة على الامن ، او لاي غرض اخر يستوجب حشد القوات العسكرية المسلحة ، فتتعهد بان تخبر حكومة صاحب الجلالة البريطانية بذلك في اقرب وقت . وعلاوة على ذلك تتعهد بان تمنع قواتها من التعدي على اراضي شرقي الاردن بكل ما لديها من الوسائل .

المادة الثالثة — منعاً لسوء التفاهم الذي قد يحصل في الحوادث التي تقع قرب الحدود ، وتوثيقاً لعرى الثقة المتبادلة بين الطرفين والتعاون الكلي بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وحكومة نجد ، يتفق الطرفان على القيام بمذاكرات متواصلة بين المعتمد البريطاني في شرقي الاردن او مندوبه وبين حاكم وادي السرحان .

المادة الرابعة — تتعهد حكومة نجد بصيانة جميع الحقوق التي تتمتع بها في وادي سرحان القبائل غير التابعة لنجد سواء كانت حقوق الرعي او السكن او الملكية او ما يشبه ذلك من الحقوق الثابتة بشرط ان تخضع تلك القبائل ، ما دامت نازلة ضمن حدود نجد ، للقوانين الداخلية التي لا تمس هذه الحقوق . وتعامل حكومة شرقي الاردن نفس المعاملة رعايا نجد المتمتعين بحقوق ثابتة في شرقي الاردن شبيهة بالحقوق المذكورة .

المادة الخامسة — تعترف كل من نجد وشرقي الاردن ان الغزو من قبل العشائر القاطنة في اراضيها على اراضي الحكومة الاخرى اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه عقاباً صارماً من قبل الحكومة التابعة لها ، وان رئيس العشيرة المتعدية يعد مسؤولاً .

المادة السادسة — (ا) تؤلف محكمة خاصة ، بالاتفاق بين حكومتي نجد وشرقي الاردن ، تلتئم من حين الى آخر للنظر في تفاصيل اي تعدٍ يقع من وراء الحدود ولاحصاء الاضرار والخسائر وتعيين المسؤولية . ويكون تأليف هذه المحكمة من عدد متساوٍ من ممثلي

حكومتي نجد وشرقي الاردن ، وتعهد رئاستها الى شخص آخر من غير الممثلين المذكورين تتفق على اختياره الحكومتان . وتكون قرارات هذه المحكمة قطعية ونافذة .

(ب) بعد تعيين المسؤولية وتحقيق الاضرار والخسائر الناشئة عن الغزو ، واصدار المحكمة قرارها بذلك ، تقوم الحكومة التابع لها المحكوم عليه بتنفيذ القرار المذكور وفقاً لعادات العشائر ، وبمعاقبة المحكوم عليه كما جاء في المادة الخامسة من هذه الاتفاقية .

المادة السابعة — لا يجوز لعشائر احدى الحكومتين اجتياز حدود الحكومة الاخرى الا بعد الحصول على رخصة من حكومتها ، وبعد موافقة الحكومة الاخرى ، مع العلم انه لا يحق لاحدى الحكومتين ان تمتنع عن اعطاء الرخصة او الموافقة اذا كان السبب في انتقال العشيرة لداعي المرعى ، عملاً بمبدأ حرية الرعي .

المادة الثامنة — تتعهد حكومتا نجد وشرقي الاردن بان تقفا بكل ما لديها من الوسائل ، غير الطرد واستعمال القوة ، في سبيل انتقال كل عشيرة او فخذ من احد القطرين الى الآخر ، الا اذا جرى هذا الانتقال بمعرفة حكومته ورضاها ، وتتعهد الحكومتان بان تمتنع عن تقديم الهدايا اياً كان نوعها للملتجئين من البلاد التابعة للحكومة الاخرى ، وبان تنظرا بعين السخط الى كل شخص من رعاياهما يسعى لاستجلاب العشائر التابعة للحكومة الاخرى ، او تشجيعها على الانتقال من بلادها الى البلاد الاخرى .

المادة التاسعه — ليس لحكومتي نجد وشرقي الاردن ان تتفاوضا مع رؤساء وشيوخ عشائر الحكومة الاخرى في الامور الرسمية او السياسية .

المادة العاشرة — لا يجوز لحكومتي نجد وشرقي الاردن ان تتجاوز

حدود بعضها البعض بقصد تعقيب المجرمين الا برضى الحكومتين .

المادة الحادية عشرة — لا يجوز لشيوخ العشائر الذين لهم صفة رسمية او لهم رايات تدل على انهم قواد قوات مسلحة ان يظهروا راياتهم في اراضي الحكومة الاخرى .

المادة الثانية عشرة — على كل من حكومتي نجد وشرقي الاردن ان تمنع حرية المرور لجميع المسافرين والحجاج ، بشرط ان يخضع هؤلاء للقوانين الخاصة بالسفر والحج المرعية في نجد وشرقي الاردن ، وعلى كل من هاتين الحكومتين ان تخبر الحكومة الاخرى باي قانون قد تسنه في هذا الخصوص .

المادة الثالثة عشر — تتعهد حكومة صاحب الجلالة البريطانية ان تضمن حرية المرور في كل حين للتجار من رعايا نجد لقضاء تجارتهم بين نجد وسورية ذهاباً واياباً ، وان تحصل على الاعفاء من الضرائب الجمركية وغيرها لجميع الاموال التي تجتاز منطقة الانتداب في مرورها من نجد الى سورية او من سورية الى نجد ، على ان يخضع التجار وقوافلهم لما قد يلزم من التفتيش الجمركي ، وان يكونوا حاملين وثيقة من حكومتهم تشهد انهم تجار مشروعون . ويشترط ان تتبع القوافل التجارية ذات الاموال المحملة طرقاً معروفة سيتفق عليها فيما بعد للدخول في منطقة الانتداب والخروج منها ، مع العلم ان هذه القيود لا تسري على القوافل التجارية التي تقتصر تجارتها على الابل والحيوانات ، ولا على العشائر التي تنتقل بمقتضى المواد السابقة من هذه الاتفاقية . وتتعهد حكومة صاحب الجلالة البريطانية بان تحصل على غير ذلك من التسهيلات الممكنة للتجار من رعايا نجد المارين بمنطقة انتدابها .

المادة الرابعة عشرة — تبقى هذه الاتفاقية نافذة ما دامت حكومة صاحب الجلالة البريطانية مكلفة بالانتداب على شرقي الاردن .

المادة الخامسة عشرة — قد دونت هذه الاتفاقية باللغة الانكليزية واللغة العربية ، ووقع كلا الطرفين المتعاقدين نسختين من النص العربي ونسختين من النص الانكليزي ، ويكون للنصين قيمة رسمية واحدة . ولكن اذا وقع اختلاف بين النصين في تفسير مادة من مواد هذه الاتفاقية فيرجع الى النص الانكليزي .

المادة السادسة عشرة — تعرف هذه الاتفاقية باتفاقية حدّاء .

وقعت هذه الاتفاقية في حداء في الخامس عشر من شهر ربيع الثاني ١٣٤٤ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٢٥

الامضاءات

معاهدة مكة المكرمة

الحمد لله وحده

بين ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها وبين الامام السيد الحسن بن علي الادريسي .

رغبة في توحيد الكلمة ، وحفظاً لكيـــان البلاد العربية ، وتقوية للروابط بين امراء جزيرة العرب ، قد اتفق صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود وصاحب السيادة امام عسير السيد الحسن بن علي الادريسي على عقد المعاهدة الآتية :

المادة الاولى : يعترف سيادة الامام السيد الحسن بن علي الادريسي بأن الحدود القديمة الموضحة في اتفاقية ١٠ صفر سنة ١٣٣٩ المنعقدة بين سلطان نجد وبين الأمام السيد محمد بن علي الادريسي ، والتي كانت خاضعة للأدارسة في ذلك التاريخ ، هي تحت سيادة جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بموجب هذه المعاهدة .

المادة الثانية : لا يجوز لامام عسيران يدخل في مفاوضات سياسية مع اي حكومة ، وكذلك لا يجوز ان يمنح اي امتياز اقتصادي ، الا بعد الموافقة على ذلك من صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الثالثة : لا يجوز لأمام عسير اشهار الحرب او ابرام الصلح الا بموافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الرابعة : لا يجوز لامـام عسير التنازل عن جزء من اراضي عسير المبينة في المادة الاولى .

المادة الخامسة : يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بحاكمية امام عسير الحالي على الاراضي المبينة في المادة الاولى مدة حياته ومن

بعده لمن يتفق عليه الادارسة واهل العقد والحل التابعين لامامته .

المادة السادسة . يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بان ادارة بلاد عسير الداخلية ، والنظر في شؤون عشائرها من نصب وعزل وغير ذلك من الشؤون الداخلية من حقوق امام عسير على ان تكون الاحكام وفق الشرع والعدل كما هي في الحكومتين .

المادة السابعة : يتعهد ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بدفع كل تعدٍ داخلي او خارجي يقع على اراضي عسير المبينة في المادة الاولى ، وذلك بالاتفاق بين الطرفين حسب مقتضيات الاحوال ودواعي المصلحة .

المادة الثامنة : يتعهد الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة والقيام بواجبها .

المادة التاسعة : تكون هذه المعاهدة معمولاً بها بعد التصديق عليها من الطرفين الساميين .

المادة العاشرة : دونت هذه المعاهدة باللغة العربية في صورتين تحفظ كل صورة لدى فريق من الحكومتين المتعاقدتين .

المادة الحادية عشرة : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة مكة المكرمة .

وقعت هذه المعاهدة في تاريخ ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٥ الموافق ٢١ اكتوبر سنة ١٩٢٦ .

ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها
عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود
الختم الملكي

تم ذلك بحضور راقم هذه الاحرف خادم الاسلام
احمد الشريف السنوسي
الختم

امام عسير
الحسن بن علي الادريسي
الختم

المعاهدة

بين بريطانية العظمى والحجاز ونجد

جلالة ملك بريطانيه وارلنده والممتلكات البريطانية من وراء البحار امبراطور الهند من جهة، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها من جهة اخرى رغبة في توطيد العلاقات الودية السائدة بينهما وتوثيقها، وتأمين مصالحهما وتقويتها، قد عزما على عقد معاهدة صداقة وحسن تفاهم. لذلك اوفد صاحب الجلالة البريطانية حضرة السر جلبرت فلكنجهام كلايتون مندوباً مفوضاً عنه، وانتدب صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها صاحب السمو الملكي الامير فيصل بن عبد العزيز نجله ونائبه في الحجاز مندوباً مفوضاً عنه بناء على ما تقدم

وبعد الاطلاع على مستندات اعتمادهما والتثبت من صحتها قد اتفقا، سمو الامير فيصل بن عبد العزيز وحضرة السر جلبرت كلايتون، على المواد الاتية:

المادة الاولى — يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالاستقلال التام المطلق لممالك صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.

المادة الثانية — يسود السلم والصداقة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها. ويتعهد كل من الفريقين المتعاقدين بان يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الاخر، وبان يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للاعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام والسكينة في بلاد الفريق الاخر.

المادة الثالثة — يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسهيل اداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين والاشخاص المتمتعين

بالحماية البريطانية من المسلمين اسوة بسائر الحجاج ، ويعلن جلالة الملك بانهم يكونون آمنين على اموالهم وانفسهم اثناء اقامتهم في الحجاز .

المادة الرابعة — يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسليم مخلفات من يتوفى في البلاد التابعة لجلالته من الحجاج المذكورين آنفاً ، والذين ليس لهم في بلاد جلالته اوصياء شرعيون ، الى المعتمد البريطاني في جدة او من ينتدبه لهذا الغرض ، لايصالها لورثة الحاج المتوفي المستحقين ، بشرط ان لا يكون تسليم تلك المخلفات الى الممثل البريطاني الا بعد ان تتم المعاملات بشأنها امام المحاكم المختصة ، وتستوفى عليها الرسوم المقررة في القوانين الحجازية او النجدية .

المادة الخامسة — يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية الحجازية والنجدية لجميع رعايا صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عندما يوجدون في بلاد صاحب الجلالة البريطانية او البلاد المشمولة بحماية جلالته . وكذلك يعترف صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية ولجميع الاشخاص المتمتعين بحماية جلالته عندما يوجدون في بلاد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، على ان تراعى قواعد القانون الدولي المرعي بين الحكومات المستقلة .

المادة السادسة — يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالمحافظة على الصلات الودية والسلمية مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العماني ، الذين لهم معاهدات خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية .

المادة السابعة — يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بان يتعاون بكل ما لديه من الوسائل مع صاحب الجلالة البريطانية في القضاء على الاتجار بالرقيق .

المادة الثامنة — على الفريقين المتعاقدين ابرام هذه المعاهدة وتبادل قرارات الابرام باقرب وقت .

وتصير المعاهدة نافذة اعتباراً من تاريخ تبادل قرارات الابرام ، ويعمل بها مدة سبع سنوات ابتداء من ذلك التاريخ . وان لم يعلن احد الفريقين المتعاقدين الفريق الاخر ، قبل انتهاء السنوات السبع بستة اشهر انه يريد ابطال المعاهدة ، تبقى نافذة . ولا تعتبر باطلة الا بعد مضي ستة اشهر من اليوم الذي يعلن فيه ابطالها من احد الفريقين الى الفريق الاخر .

المادة التاسعة — تعتبر المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها في ٢٦ ت الاول سنة ١٩١٥ يوم كان جلالته حاكماً لنجد وما كان ملحقاً بها اذ ذاك ملغاة ابتداءً من تاريخ ابرام هذه المعاهده .

المادة العاشرة — دونت هذه المعاهدة باللغتين العربية والانكليزية ، وللنصين قيمة واحدة . اما اذا وقع اختلاف في تفسير اي قسم منها فيرجع الى النص الانكليزي .

المادة الحادية عشرة — تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة .

وقعت هذه المعاهدة في جدة يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية الموافق عشرين ايار سنة ١٩٢٧ .

الامضـــــــاءات

اتفاقية تسليم جدة

بالنظر لتنازل الملك علي ، ومبارحته للحجاز ، وتسليم بلدة جدة ، يضمن السلطان عبد العزيز لكل الموظفين الملكيين والحربيين والاشراف واهالي جده عموماً والعرب والسكان والقبائل سلامتهم الشخصية وسلامة اموالهم .

٢ – يتعهد الملك علي ان يسلم في الحال اسرى الحرب الموجودين بجدة ان وجد .

٣ – يتعهد السلطان عبد العزيز بان يمنح العفو العام لكل المذكورين اعلاه .

٤ – يجب على جميع الضباط والعساكر ان يسلموا في الحال الى السلطان عبد العزيز بجميع اسلحتهم من بنادق ورشاشات ومدافع وطيارات وخلافه وجميع المهمات الحربية .

٥ – يتعهد الملك علي وجميع الضباط والعساكر بان لا يخربوا اي شيء من الاسلحة والمهمات الحربية جميعها او يتصرفوا بها .

٦ – يتعهد السلطان عبد العزيز بان يرحل كافة الضباط والعساكر الذين يرغبون في العودة الى اوطانهم ويتعهد باعطائهم المصاريف اللازمة لسفرهم .

٧ – يتعهد السلطان عبد العزيز ان يوزع بنسبة معتدلة على كافة الضباط والعساكر الموجودين بجدة مبلغ خمسة آلاف جنيه .

٨ – يتعهد السلطان عبد العزيز ان يبقي جميع موظفي الحكومة الملكيين الذين يجد فيهم الكفاية في تأدية واجباتهم بامانة في مراكزهم .

٩ – يتعهد السلطان عبد العزيز ان يمنح الملك عليا الحق ان يأخذ

معه الامتعة الشخصية التي في حوزته بما في ذلك سيارته وسجاجيده وخيوله .

١٠ – يتعهد السلطان عبد العزيز ان يمنح عائلة آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية في الحجاز بشرط ان تكون هذه الممتلكات من الموروثة فعلاً ، ولا تشتمل على الاملاك الثابتة المحولة من الاوقاف بمعرفة الحسين الى شخصه ، ولا على المباني التي يكون الحسين قد بناها في اثناء ملكه لما كان ملكاً على الحجاز .

١١ – يتعهد الملك علي ان يبارح الحجاز قبل يوم الثلاثاء المقبل مساء".

١٢ جميع البواخر التي في ملك الحجاز وهي (الطويل ورشدي والرقمتين ورضوى) تصير ملكاً للسلطان عبد العزيز ، ولكن السلطان يسمح ان لزم الامر للباخرة رقمتين ان تستعمل لنقل الامتعة الشخصية التابعة للملك علي المتنازل ثم ترجع .

١٣ – يتعهد الملك علي ورجاله وسكان جدة بان لا يبيعوا او يخرجوا اي شيء من املاك الحكومة مثل اللنشات والسنابيك وخلافه .

١٤ – يتعهد السلطان عبد العزيز ان يمنح جميع السكان والضباط والعساكر الموجودين بينبع الحقوق والامتيازات المذكورة سابقاً الا فيما يختص بتوزيع النقود .

١٥ – يتعهد السلطان عبد العزيز ان يمنح العفو للاشخاص المذكورة اسماؤهم ادناه ايضاً ضمن العفو العام ، وهم عبد الوهاب ومحسن وبكري ابناء يحيي قزاز ، وعبد الحي بن عابد قزاز ، واحمد وصالح ابناء عبد الرحمن قزاز ، واسماعيل ابن يحيي قزاز ، والشيخ محمد علي صالح بناوي واخوانه ابراهيم وعبد الرحمن بناوي ابناء محمد علي صالح بناوي وابناؤهم وابناء عمهم حسن وزين بناوي وابناء محمد نور الشيخ يوسف خشيرم والشيخ عباس ولد يوسف خشيرم والشيخ ياسين بسيوني والسيد احمد السقاف وعائلات واموال جميع المذكورين آنفاً .

١٦ ـ ان كان الملك علي او رجاله في حال من الاحوال يخالفون او يقصرون في تنفيذ اي مادة من المواد التي تقدم ذكرها فان السلطان عبد العزيز لا يعتبر نفسه في تلك الحـــالة مسؤولاً عن تأدية ما عليه من هذه الاتفاقية .

١٧ ـ يتعهد الطرفان السلطان عبد العزيز والملك علي ان يكفا عن اي حركة عدائية اثناء سير هذه المفاوضات .

الخميس في ١ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ الموافق ١٧ دسمبر ١٩٢٥

الامضـــــــاءات

لائحة الهُجَر

كل عدد من الاعداد المذكورة ادناه ، اي عدد من يلبون دعوة الجهاد من كل قريه ، يضاف اليه ضعفاه ، الضعف الاول وهم البدو اي الذين يرعون المواشي ، والضعف الاخر المحترفون اي الذين يبقون في البلدة ليقوموا بصناعتها وتجارتها وزراعتها . والمجموع عدد سكان الذكور في كل هجرة .

بلاد نجد وضعاً هي من القصيم الى وادي حنيفة .

يلبي الجهاد من نجد فقط اربعة الاف . وهؤلاء مسلحون متأهبون دائماً ، وهم بمثابة العسكر النظامي ، يدفع لهم السلطان كل ثلاثة اشهر قيمة مرضية غير معينة من المال . وكذلك المجاهدون من هجر حرب .

هُجَر مطير

يلبي الجهاد منها	
٢٠٠٠	الارطاوية
١٠٠٠	مبايض
١٠٠٠	فريتان
٠٧٠٠	مَليح
٠٧٠٠	العمار
١٠٠٠	الاثلة
٠٦٠٠	الارطاوي
٠٨٠٠	مسيكه
٠٨٠٠	ضرَيّة
١٥٠٠	قرية العليا
١٠٠٠	قرية السفلى
١١١٠٠	

هجر قحطان

عدد المجاهدين	
٠٨٠٠	الهيائم
١٠٠٠	الهيائم - بادية
٠٣٠٠	الجَفير
٠٨٠٠	الحصاة
٢٠٠٠	الرين الاسفل
٢٠٠٠	الرين الاعلى
٦٩٠٠	

هجر الدواسر

١٥٠٠	مشيرفة
٠٨٠٠	الوسيطة
٢٣٠٠	

هجر الرُوقة من [عتيبة]

٢٠٠٠	الداهنا
٠٣٠٠	الصَوْح
٠٨٠٠	ساجر
٢٠٠٠	عرجا
٠٣٠٠	عسيَلة
١٥٠٠	نِفِي
٦٩٠٠	

هجر بَرْقة من [عتيبة]

١٠٠٠	عُروة
١٠٠٠	السنام
٠٧٠٠	الروضة
٢٧٠٠	

٥٠٠٠	الغَطغَط [من عتيبة]

هجر العجمان

٢٠٠٠	الصَرّار
١٠٠٠	حُنَيذ
٠٨٠٠	الصحاف
٠٧٠٠	العقَير
١٣٠٠	عُريَرة
٥٨٠٠	

هجر حرب [حرب نجد]

٢٥٠٠	دُخنة
١٠٠٠	الشبيكة
١٠٠٠	الدُليمية
٠٧٠٠	القُرين
٠٦٠٠	الساقية
٠٣٠٠	حَليفة
٠٧٠٠	حنَيظل
١٠٠٠	البرود
٢٠٠٠	قبه (تلفظ اجْبه)
١٠٠٠	الفوّاره
١٠٨٠٠	

هجر العوازم

١٥٠٠	ثاجِ
١٠٠٠	الحسي
١٠٠٠	الحنّات
٠٧٠٠	العُتيق
٤٢٠٠	

هجر بني مُرّه

١٠٠٠	الشباك
١٥٠٠	أبَيرِق
١٠٠٠	عين دار (بنو هاجر)
٣٥٠٠	

هجر شمر

٢٠٠٠	الاجفر
١٥٠٠	بنوان قبيلة هتيم
٠٦٠٠	الفطيم
٠٩٠٠	القصير
٠٩٠٠	الحفير
٠٥٠٠	البلازيه
٠٨٠٠	الحبه
١٢٠٠	الغيضة
١٥٠٠	بيضة نتيل (عنزى)
٠٦٠٠	التيم
٠٥٠٠	ام القلبان
٠٤٠٠	الشقيق
١٣٠٠	خريفط (هتيم)
٠٧٠٠	المصاع
٠٤٠٠	المريو (هتيم)
١٣٨٠٠	

الهجر التي في الخرج

٠٨٠٠	الضبيعه
٠٨٠٠	البدع
٠٦٠٠	المُنَيصف
٠٥٠٠	الاخضر
٠٤٠٠	طنبِسم
٠٤٠٠	الروَيضة
٣٥٠٠	

مجموع المجاهدين من الهجر

١١١٠٠	مطير
٦٩٠٠	قحطان
٢٣٠٠	الدواسر
٦٩٠٠	الروقه ــ عتيبه
٢٧٠٠	برقه ــ عتيبه
٥٠٠٠	الغطغط ــ عتيبه
٥٨٠٠	العجمان
١٠٨٠٠	حرب نجد
٤٢٠٠	العوازم
٣٥٠٠	بنو مرة
١٣٨٠٠	شمر
٣٥٠٠	الخرج
٧٦،٥٠٠	

بعض النقود العربية السعودية









ريال وربع ريال فضه حجم الاصل

فهرس اعلام

تاريخ نجد الحديث

راجع اسماء البلدان في النبذة الاولى (نواحي نجد) بين صفحات ٢٠ — ٣٠ واسماء افراد آل سعود في النبذة الثالثة وامراء حائل اي آل الرشيد ونسبهم في صفحتي ٢٩٦ و ٢٩٧ وتواريخ الوقعات في صفحة ٤٣١. وراجع اسماء الهجر في لائحة الهجر بين صفحات ٤٢١ — ٤٢٣. اما اسم الملك عبد العزيز سعود واسماء الرياض ونجد والعرب فلم نذكرها في هذا الفهرست لانها واردة في اكثر صفحات الكتاب.

— ملاحظة —

— هذه العلامة تدل على وجوب تعداد الارقام المنفلة بين الرقين المذكورين مثلاً : ١ — ٥ يعني ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الخرائط والرسوم

صفحة

الفهرس

T

S

Back

B

